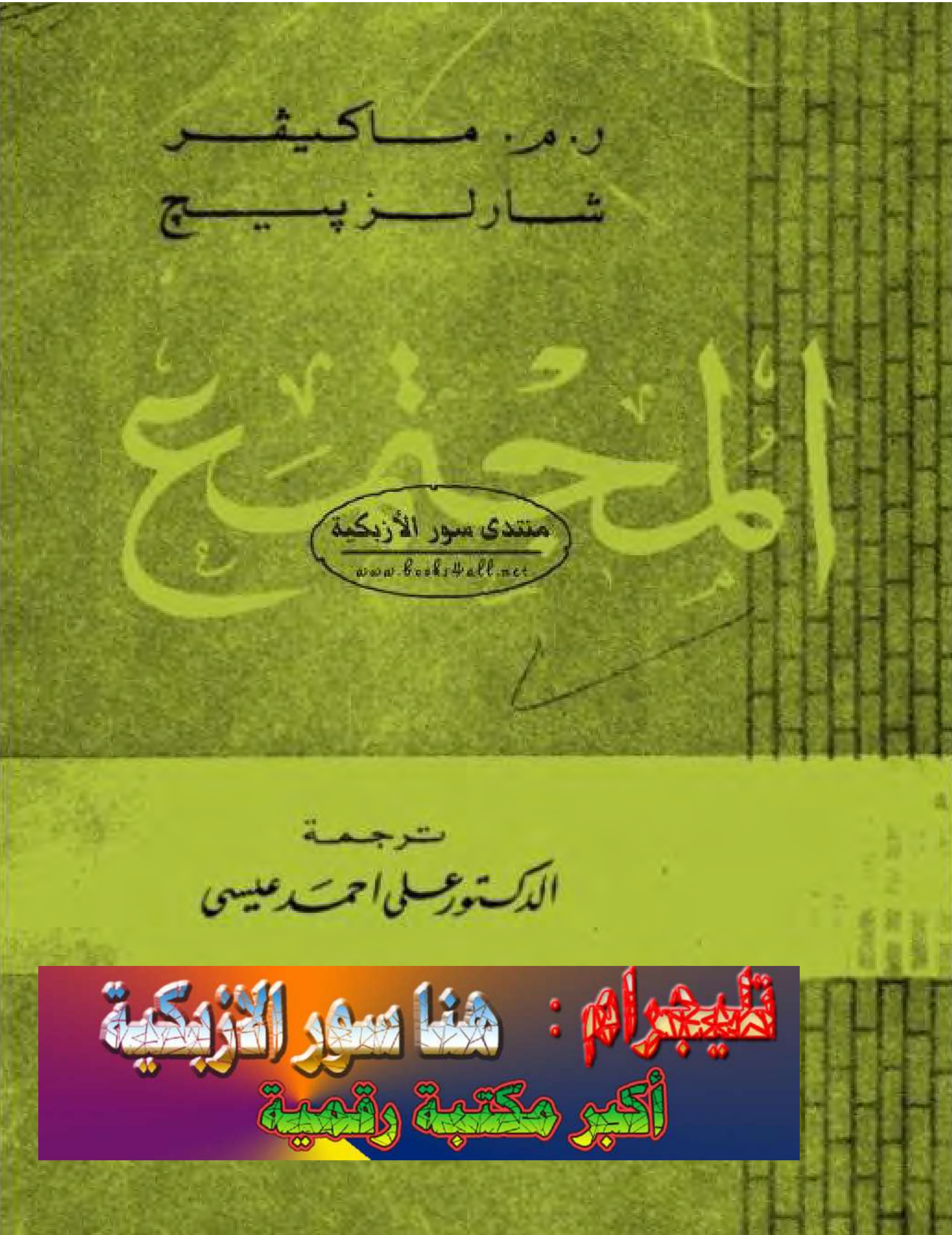

ر. م. ماكيفر
شارلز بيج
المجتمع
منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net
ترجمة
الدكتور علي احمد عيسى
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية



أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

المجتمع


تليجرام : هنا سور الأزبكية



تأليف

ر. م. ماكيفر وشارلز هـ. بيدج

ترجمة

الدكتور علي أحمد عيسى

مع مقدمة تحليلية بقلم المترجم

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن ويوسف محمد وإخوتهما
٩ شارع عدلي باشا القاهرة

مطبعة مصر ٢٠٠٠/٥٧/٤٥٤٢

محتويات الكتاب

صفحة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : — روبرت موريسون ماكيفر

— ولد فى ستورنوى باسكتلندا فى ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

— حصل على الماچستير من أدنبرة عام ١٩٠٣ وعلى بكالوريوس الآداب من اكسفورد عام ١٩٠٧ وعلى الدكتوراه عام ١٩١٥ ونال عدة درجات علمية رفيعة من جامعات كولومبيا وهارفارد وپرنستون وييل . وشغل كراسى علم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة السياسية فى عدة جامعات أمريكية وزميل بالجمعية الملكية البريطانية .

— أستاذ كرسى الفلسفة السياسية والاجتماعية بجامعة كولومبيا .

— من مؤلفاته بالانجليزية : الجماعة المحلية ، ومبادىء العلم الاجتماعى ، والدولة الحديثة ، والمجتمع تركيبه وتغيراته ، والعلّية الاجتماعية ، المجتمع والعمال فى عالم متغيّر ، وحرية الفكر الاكاديمى فى زماننا .

المؤلف : — تشالز هنط پدچ .

— ولد فى توناواندا بنيويورك فى ١٢ أبريل سنة ١٩٠٩ .

— حصل على درجة بكالوريوس الآداب من الينوى عام ١٩٣١ ودكتوراه الاجتماع من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٩ وشغل كرسى الاجتماع والانثروبولوجيا فى بعض الجامعات الأمريكية ويربط فى تدريسه بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

– أستاذ كرسى الاجتماع بكلية سميث .

– من مؤلفاته بالانجليزية : النظام الطبقى ، والحرية والضبط الاجتماعى ، والمجتمع .

المترجم : – على أحمد عيسى .

– ولد فى الاسكندرية بمصر فى ١١ أغسطس سنة ١٩٠٦ .

– حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٣٤ وماجستير الاجتماع عام ١٩٣٧ من جامعة القاهرة ودبلوم فى التربية ودبلوم الدراسات العليا الاجتماعية من جامعة باريس عام ١٩٣٩ ومعادلة بكالوريوس العلوم عام ١٩٤٧ ودكتوراه الفلسفة فى العلوم من جامعة اكسفورد عام ١٩٥٠ ، ويربط فى تدريسه بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، وهو زميل بالمعهد الملكى الانثروبولوجى لبريطانيا العظمى وايرلندا ، وعضو لجنة فحص جوائز الدولة للعلوم الاجتماعية لعام ١٩٥٦ ورئيس معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية .

– أستاذ كرسى الاجتماع بجامعة الاسكندرية .

– من مؤلفاته بالانجليزية : النظام القروى فى غربى الدلتا ، وطرق البحث فى علم الاجتماع المقارن ، دراسة نقدية للنظريات والأبحاث الحقلية ، وضع العلوم الاجتماعية وتدريسها فى مصر ، وبالفرنسية : عادات وتقاليد الزواج فى ناحية قابيل مركز دمنهور ، وبالعربية : الانثروبولوجيا (تحت الطبع) .

مصمم الغلاف : – عبد الفتاح محمد هيكل .

الأستاذ بكلية الفنون التطبيقية .

مقـــدمة تحليليـــة

بقلم

الدكتور على محمد عيسى

يعدّ الأستاذ ج . د . هـ . كول G.D.H. Cole من أبرز الكتاب المعاصرين فى النظرية الاجتماعية وهو وان كان أميل الى التخصص فى علم السياسة الا أنه استطاع بكتاباته العميقـة أن يخدم النظرية الاجتماعية أكثر من بعض الاجتماعيين أنفسهم . وسنحاول أن نتخذ من نص له جاء فى كتابه عن النظرية الاجتماعية نقطة البداية فى نقـدنا لكتاب ماكيفر وبيج . أما لماذا فضلنا أن نبدأ بآراء الأستاذ كول ، فلأن من طبيعـة كل من البحث العلمى والنقد العلمى أن يكون « تفضيليا » eclectic فى النظريات والفروض الموجهة التى يعتمدان عليها فيما عدا البحث الذى يجرى لغايات تطبيقية وعملية [1] حيث نجد الغاية المحددة التى لا سبيل الى تفضيل سواها هى نقطة الارتكاز عند الباحث .

ذكر كول [2] أن المعنيين بالنظريات الاجتماعية منصرفون عن استخدام المصطلحات وطريقة البحث المناسبة لمادتهم الى محاولة التعبير عن وقائع الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم باصطلاحات متبعة فى نظريات أو علوم أخرى . ويمضى فيقول انهم يفسرون المجتمـــع على نمط العلوم الطبيعية « الفيزيقية » بأنه « ميكانيزم » ويفسرونه على نمط علم الحياة بأنه « كائن عضوى » وعلى نمط العلوم العقلية أو الفلسفية « كشخص

(١) Cf. Taylor, F. S., *Concerning Science* (London, Macdonald & Co., 1949), p. 57.

(٢) Cole, G.D.H., *Social Theory* (London, 1923), p. 13.

معنوى » وفى بعض الأحيان يفسرونه على النمط الدينى تفسيرا يميل الى الخلط بينه وبين فكرة « الله » .

وفى اعتقادنا أن هناك ما يسوغ انصراف الاجتماعيين عن الجدول المنهجى واللفظى حول المصطلحات الى شرح وقائع العلم الذى يخدمونه ؛ فقد سبق أن شغلهم هذا الجدل فى أوائل القرن العشرين حتى أوشك أن يحول دون تقدم علم الاجتماع ، ولقد ظن فى وقت من الأوقات أن مبعث جدلهم المنهجى واللفظى قلة ما لديهم من مادة [1]. ومن الناحية المنهجية ليس هناك ما يمنع من تعدد المداخل الى علم الاجتماع نظرا لأن مؤسسيه قد تلقوا تدريبهم الأول فى علوم أخرى فيزيقيــة أو حيوية أو فلسفية [2]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فان طبيعة المجتمع نفسه تقبل النظر اليه من زوايا مختلفة ، ومن ثمة لم يكن هناك ما يمنـع من التجاء الاجتماعيين الى أكثر من تفسير على النحو الذى أشار اليه كول دون أن يكون هذا الاجراء منافيا للاتجاهات الميثودولوجية الصحيحة . ولزيادة الاقتناع بهذا الاتجاه ربما أمــكن أن نكتفى بالاشارة الى أن أى كائن عضوى حى تدخــل فى درسه تفســيرات أخرى عدا التفسير البيولوجى كالتفسير الفيزيقى والعقلى مثلا . وعلى ذلك فلا ينبغى أن تقف الألفاظ بأى حال عقبــة فى سبيل تقدم العلم . وعلى الأخص اذا عرفنا أن اللغة كانت ولا تزال وستظل أبدا أقل درجــة وفى المحل الثانى بالنسبة للفكر وأنها الى حد كبـير تشبه التصرف العملى اذا قيس بالمثـــل الأعلى الذى

---

(1) Cf. Fortes, M., *The Dynamics of Clanship Among the Tallensi* (London, O. U. P., 1945), Foreword, p. ix.

(2) Cf. Issa, Aly A., *The Teaching and Position of Social Sciences in Egypt* (Cairo, Librairie des Lettres, 1956), pp. 12 and 23.

تنشده لتصرفاتنـــا [١] . وفوق ذلك فاننا فى حاجــة دائما لشرح معنى المصطلحات التى نستخدمها فى كل بحث علمى نقوم به وعلى الأخص فى ميدان العلوم الاجتماعية نظرا الى أن معظمها مستمد من لغــة الحياة العملية [٢] وعلاقاتنا التى هى موضوع علم الاجتماع . ولأن الكلمة كأى كائن حى يطرأ عليها كثير من التغير وقد تتحول آخر الأمر الى صوت أو مجرد نغم أجوف[٣] . ومن أمثلة الجدل العقيم فى العلوم الاجتماعية تلك المناقشات التى لاتنتهى حول الاصطلاح « كلتور » — الثقافة — Culture وهل نعتبره مرادفا للاصطلاح « الحضارة » Civilization كما فعل ا.ب.تيلور E.B. Tylor وعدد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أو مختلفا عنه كما فعل غيرهم [٤] .

وفى ضوء ما تقدم نرى أن ماكيفر R.M. MacIver قد غلب عليه الاتجاه الفيزيقى فى كتابه الأول[٥] (دون اشتراك س . ه . بيج C.H. Page معــه) .

ونحن نراه هو وبيج Page فى الكتاب الذى نقدم له يعمدان الى تكييف الظواهر الاجتماعية وتفسيرها من ناحية العناية بالميكانيزم ، وهو

---

(١) Montague, F.C., *The Limits of Individual Liberty* (London, Rivingtons, 1885), pp. 64-65.

(٢) Evans-Pritchard, E.E., *Social Anthropology* (London, Cohen & West, 1951), p. 2.

(٣) Montague, F.C., ibid.

(٤) وقد أدى الأمر الى أن نجد أحد الاجتماعيين العراقيين وقد ضاق ذرعا بالثقافة أو الحضارة كترجمة للاصـــطلاح قد عربه بقـــوله الكلتور أو القلتور وبالنطق الألمــانى لكلمـــة Kultur . هذا ما عرفته من الزميل العراقى الدكتور عبد الجليل الطاهر أستاذ علم الاجتماع فى بغداد .

(٥) *Society: A Textbook of Sociology* (New York, Rinehart, Inc., April, 1937, ninth printing, January, 1947).

أحد الاتجاهين اللذين تميل اليهما المدرسة الأنثروبولوجيـة البريطانية بزعامة رادكليف براون فى الوقت الحاضر . ولا ينبغى أن نظن أن هذه المدرسة تختلف عن المدرسة الاجتماعية الفرنسية بزعامة دوركايم . وقد فطن الكتاب الأمريكان قبل سواهم الى هذه الحقيقة وتذكر منهم هانكنز الذى اعتبر دوركايم وليفى برول وموس وغيرهما من أعضاء مدرسته انثروبولوجيين[1] . وروبرت لوى الذى أشار اليـه رادكليف براون رغم كونه بريطانيا وانثروبولوجيا باعتبار أنه سوسيولوجى وأدرجه تحت المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع لشدة اتصاله بالفكر الفرنسى[2]. واذا كان هناك من فارق بين المدرستين فهو ما ذكره رادكليف براون من أنه بالرغم من أن الاجتماعيين الفرنسيين كانوا سباقين فى العمل على تقدم النظريات الاجتماعية فانهم — فيما عدا محاولات محدودة قام بها كل من دوتيه Doutté ورنيه مونييه René Maunier فى شمالى أفريقيا لم يظهروا كما يتضح من منهجهم أى ميل قوى نحو الدراسة التجريبية على المجتمعات الانسانية[3] .

والدليل على أن ماكيفر وبيج يهتمان « بالميكانيزم » كثرة الاشارة الى المجتمعات الكاملة المدروسة فى جهات مختلفة من العالمين البـدائى والمتحضر واعتمادهما عليهما فى الوصول الى نظرياتهما . والمقصـود بدراسة ميكانيزم المجتمع أمران : الأول الدراسة الفيزيقية والثـانى — بشرط تحقق الدراسـة التكاملية وهو ما اشـتهرت به المدرسـة

(١) Hankins, F.H. *An Introduction to the Study of Society* (New York, Macmillan, 1929), p. 526.

(٢) Lowie, R.H., *The History of Ethnological Theory* (New York, Rinehart & Co., 1938), p. 221.

(٣) Radcliffe-Brown, A.R., *The Present Position of Anthropological* Studies (London, Spottiswoode, 1939), p. 18.

الأنثروبولوجية البريطانية — هو الدراسة الوظيفيـة Functional التى تعين على تفسير الظواهر المختلفة فى داخل المجتمع الواحد . ويرى رادكليف براون أنها تعنى بالمشكلة ذات الزمن المحدود synchronic أى التى تختص بدراسة مجتمع معين فى فترة محدودة من تاريخه [1] .

ويغلب على ماكيفر وبيج بعد ذلك الاتجاه نحو الدراسة المقـارنة للمجتمعات الانسانية وهما يتفقان هنا مع الاتجاه الثانى الذى تميل اليه المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية . وقد عبر عنه رادكليف براون بأنه المشكلة الداخلة عبر الزمن أو diachronic أى التى تختص بالمقارنة بين مجتمعين درسا فى زمانين مختلفين [2]. والذى يجعل الكتاب الذى نحن بصدده متفقا مع وجهة النظر العلمية وصوله الى تعميمات أقيمت على الدراسة المقارنة . وهذه التعميمات القائمة على جمع الوقائع وفرض الفروض وتحقيقها ثم دحضها أو تعديلها أو اقرارها فى ضوء وقائع جديدة أكثر تعقيدا تمثل الاتجاه الذى يتبعه رادكليف براون وتلاميذه فى الوقت الحاضر [3]. ولهذا السبب يتقبل المشتغلون بالاجتماع والأنثروبولوجيا فى الجزر البريطانية هذا الكتاب ويعتبرونه مرجعا رئيسيا لمادتهم .

ومن الممكن ألا ينشأ تعارض بين دراسـة ماكيفر وبيج لميكانيزم المجتمعات وبين النظر اليها ككائنات عضوية لأن طبيعة المجتمع كما ذكرنا من قبل تقبل النظر اليه من أكثر من زاوية . وعلى سبيل المثال نشير الى أن المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية تنظـر الى المجتمع وهى تدرس الميكانيزم الذى يسير عليه نظرة طبيعيـة ثم تبحث عن وظائف عناصر الثقافة التى يتألف منها المجتمع نظرة فسيولوجية ، حيوية ، مدخلة فى

---

(١) Op. cit., p. 21.

(٢) Ibid.

(٣) Op. cit. p. 19

الاعتبار التكامل الاجتماعى social integration على نمط التكامل
القائم فى الأجسام الحية وعلى أساس توقف العناصر بعضها على بعض
وعملها المشترك لصيانة وجودها المتناسق [١]. وربما كان دور كايم أول
من أشار الى العلاقة بين الحياة والتركيب أو البنيان بطريقة تؤكد أن
هذه العلاقة أقوى فى المجتمع منها فى الكائن الحى [٢].

أما موضوع العقل الجمعى الذى أسرف فيه دور كايم [٣] ومضمونه
اعتبار المجتمع شخصا معنويا له تصرفاته وأحكامه على الأفراد ، فقد أخذ
به المؤلفان أخذا معتدلا ولم يتناولاه الا فى معرض الكلام عن الزمر
أو الجماعات الصغيرة ولكنهما على أية حال لم يضعاه فى المكان الأول بين
العوامل المؤثرة فى الحياة الاجتماعية . ونلاحظ أن تحليلهما لما يتعرض له
الفرد من الزام يعتمد على عملية غرس الأفكار فى الفرد منذ الطفولة ،
ويسميانها indoctrination process والباعث عليها فى نظرنا اجتماعى
والمقصد فردى وفى عدد قليل من الحالات يرتكز كل من الباعث
والمقصد على أساس فردى . وتؤدى عملية غرس الأفكار فى نهاية الأمر
الى خلق نوع الشخصية الرئيسية Basic Personality Type
التى تميز المجتمع بوجه عام . وقد بلغ من اهتمام الاجتماعيين بهذه العملية
ونتائجها أن جعلوا عمليات غرس الأفكار فى مرحلة الطفولة أهم موضوع

---

(١) Op. cit., p. 13

(٢) Durkheim, E., *Les Règles de la Méthode Sociologique*, Paris, 1895, English trans., *The Rules of Sociological Method*, by Sarah A. Solway and John H. Mueller (Glencoe, Illinois. The Free Press, 1938), p. 13 n. 4, his *Division du Travail Social* (Paris, troisième édition, 1911), p. 11.

(٣) See, for example, op. cit., Durkheim, *The Rules of Sociological Method*, author's Preface to second edition, pp. lv and lvi.

للدرس لفهم المجتمع الذى تجرى فيه هذه العمليات[١] . وتقودنا هذه النقطة الى الرجوع الى جبرييل تارد Gabriel Tarde وباچوت Bagehot وغيرهما ممن وجدوا فى التقليد والفردية تفسيرا للظواهر الاجتماعية[٢]. وهذا اتجاه يعضده الآن فريق من المشتغلين بالاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ماكيفر وبيج فى كتابهما الذى نقدم له وجنسبرج M. Ginsberg [٣] و سابير E. Sapir [٤] وفورتيس M. Fortes [٥].

وما يشير اليه كول فى مستهل هذه المقدمة من تفسـير المجتمع على النمط الدينى تفسيرا يميل الى الخلط بينه وبين فكرة الله ، فمرجعـه — فيما يبدو لنا — الفكرة المتداولة فى علمى التاريخ والاجتماع عن التفسير الروحى للحياة الاجتماعية وتقوم على تصور فلسفى للوجـود Weltanschauung يعـود بنا الى ما قبل الوصـول الى فكرة الله حينما عرفت البشرية الأرواح كأول عامل يفسر أحداث الوجـود [٦].

---

(١) Cf. Nadel, S.F., *The Foundations of Social Anthropology* (London, Cohen & West, 1951), p. 406.

(٢) Barnes, H.E., 'The Social and Political Theory of Gabriel Tarde,' Chap. XXV, in Barnes, H.E. (editor), *An Introduction to the History of Sociology* (The University of Chicago Press, Chicago, Illinois, 1948), pp. 471 ff.

(٣) In his *Sociology* (London, O.U.P., 1934 reprinted in 1949), pp. 28-128, and *The Psychology of Society* (London, Methuen & Co., sixth edition 1944), p iv, and 'Psycho-analysis and Sociology', in *Politics and Letters* (London), Nos. 2 and 3, 1947, pp. 74 ff.

(٤) See his various articles in the *Ency. of the Social Sciences.*

(٥) In his *Dynamics of Clanship Among the Tallensi* (London, O. U. P., 1945), p. 142.

(٦) Cf. Evans-Pritchard, E.E., 'The Intellectualist (English) Interpretation of Magic'. in *Bulletin of the Faculty of Arts*, Egyptian University, Cairo, Vol. I, Part II, Dec. 1933, p. 291.

ولا نستطيع اغفال هذه النظرية عندما نتأمل طريقة الحكم عند قدماء المصريين والشرقيين حيث لعبت القوة السحرية الكامنة فى الحاكم دورا هاما فى استقرار الحكم [1] ؛ أو عندما نحلل النظام الاجتماعى فى كثير من المجتمعات الافريقية المعاصرة مثل الأزاندى حيث نجد الاعتقاد فى العين الشريرة وفيما فوق الطبيعة أساس الحياة الاجتماعية والسياسية معا، وأن إلههم مبورى Mbori لا يزال مجرد فكرة غامضة وهو فى نظرهم خلق الكون وتخلى عنه . أما ما يجرى من أحداث بعد ذلك فمرده الى الأرواح، يؤيد ذلك ايفانز بريتشارد [2] وما دوناه فى مذكراتنا الخاصة عند زيارتنا لهم فى عام ١٩٥٥ .

وأكبر الظن أن رادكليف براون يشير من طرف خفى الى التأثير الروحى فى تنظيم المجتمع حينما يتحدث عن تكامل عناصر الثقافة فى داخله تكاملا عضويا بحيث يؤدى الى حياة اجتماعية مستوية [3] ، اذ هو لم يشرح لنا كيف يتم هذا الاستواء الا أن يكون من تلقاء نفسه وبطريقة ما. والرأى عند كثيرين من علماء الاجتماع أن هناك ثلاثة نظم اجتماعية أوجدها المجتمع منذ القدم من تلقاء نفسه أيضا ، ولا بد من وجودها فى كل المجتمعات الانسانية لضمان استقرارها واستمرارها وهى الدين والملكية العامة والزواج [4]. واذا تطور المجتمع دخل العامل الفردى فى خلق نظم اجتماعية أكثر ملاءمة له هى الملكية الخاصة والأسرة والكنيسة والمدرسة والحكومة الديمقراطية [5] .

---

(١) Childe, V.G., *History* (London, Cobbett Press, 1947), p. 37.

(٢) Evans-Pritchard, E.E., *Witchcraft, Oracles and Magic Among the Azande* (Oxford, At the Clarendon Press, 1937), pp. 441-2.

(٣) Radcliffe-Brown, op. cit., p. 13

(٤) Hankins, F.H., op. cit., p. 450

(٥) Ibid.

والى جانب ذلك يتفق عدد من أبرز المفكرين فى مسائل الاجتماع والتاريخ من أمثال أفلاطون وأرسطو والرواقيين والقديس أوجستين والقديس توما الأكوينى وكانت وجون ستيورات مل وكونت وت.هـ. جرين T.H. Green على أن الكون الذى نعيش فيه نظام الهى وأن ما قد يوجد من خير فى الوجود انما ينسجم مع هذا النظام وما قد يوجد من شر إنما يتعارض معه[1]. وقد حاول ر . هـ . تونى R.H. Tawney أستاذ التاريخ الاقتصادى فى جامعة لندن أن يربط بين الدين والسلوك، ومن أمثلة ذلك ربطه بين البروتستانتية ونشأة الرأسمالية باعتبار أن أخلاقيات هذا المذهب الدينى وما تحث عليه من حرص وادخار تؤدى الى الرأسمالية عند المخلصين من معتنقيه . ومع صحة هذا الرأى فى بعض الحالات الا أنه قد لقى معارضة لعدم امكان تعميمه على النحو الذى شاءه صاحبه ، فقد ثبت أن الرأسمالية وجدت فى التاريخ القديم من قبل أن تظهر البروتستانتية المسيحية ، كما اتضح من تاريخ بلد كاليابان فى أواخر القرن التاسع عشر أنه قد أمكن لكل من الرأسمالية والبروتستانتية أن تنمو دون قيام الأخرى بجانبها[2] . ولما كانت المعتقدات وعلى الأخص الروحية سواء أكانت سحرية أم دينية عاملا هاما فى توجيه السلوك ان لم تكن عاملا مشتركا بصفة دائمة مع غيره من العوامل باعتبار أن ما من فعل يتم الا وقد سبقته فكرة فقد وجدنا مدرسة اجتماعية بأسرها وهى المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية تنفذ من طريق المعتقدات الى فهم المجتمعات الانسانية . وهذا اتجاه سديد لم يقم بعد أى دليل ينقضه.

---

(١) Cf. Toynbee, A.J., *A Study of History* (London, O.U.P. 1947), A bridgement of vols. I-VI by D.C. Somervell, p. 432.

(٢) His *Religion and the Rise of Capitalism* (A Penguin book), 1948.

أو يقلل من أهميته . ولم يغفل ماكيفر وبيج العناية بهذا الطــريق فى مؤلفهمـــا [1] .

* * *

هذه النواحي التى قدمناها فى ضوء النظرية الاجتماعية قد عالجها المؤلفان بطريقة مرضية كما أوضحنا — وان كانت لنا مآخذ على الكتاب فيمكن أن نحصرها فيما يلى :

١ — حسن جدا أن يفرد المؤلفان الفصل الأول للمفهومات الأولية التى أرادا أن يوضحاها منذ البداية حتى لا تستغلق مدلولاتهـــا على القارىء الأمريكى أو الأوربى . ولكن ظهر جليا أن هذا الفصل أدى الى عكس المقصـــود به تماما . فقـــد لاحظنا أن الاصطلاحات Society Group Community تشير فى الفصل الأول الى مدلولات متباينة ولكنها تستخدم فى الفصول التالية وعلى الأخص فى الفصل الثالث عن « الفرد والمجتمع » كمترادفات . وكان يمكن أن يشار الى ذلك فى التصـــاريف المقدمة فى الفصل الأول . على أن التصرف الأوفق فى نظرنا كان يمكن أن يكون من طريق اضافة قائمة فى ذيل الكتاب تشتمل على الكلمات المحتاجة الى شرح يساعد فى فهم النصوص بما أن مصطلحات علم الاجتماع غير متفق عليها تماما ولدينا مثال طيب لما كان ينبغى أن يفعله المؤلفان فى هذا الشأن عند شابل Chapple وكون Coon [2] حيث خصصا الملحق الثانى فى كتابهما لشرح معانى المصطلحات المستخدمة فى كتابهما .

٢ — ما دام الكتاب معنيا بالمقارنة أو التجريب فى علم الاجتماع فكان ينبغى أن يسهل المؤلفان مهمة القارىء بتعيين مواقع المجتمعات التى ورد

---

(١) MacIver, R.M., and Page, C.H., op. cit., p. 583.

(٢) فى كتابهما *Principles of Anthropology* (New York, Henry Holt & Co1, October, 1947)

ذكرها بين دفتي الكتاب اما من طريق خريطة للعالم توضح عليها المواقع الجغرافية لهذه المجتمعات على نحو ما فعل شابل وكون أيضا فى كتابهما المشار اليه ، أو ريموند فيرث Raymond Firth[1] ، أو على الأقل من طريق تقديم قائمة فى أول الكتاب بأسماء المجتمعات مع تحديد موقع كل منها تجاه اسمه كما فعل هوكارت Hocart[2] .

٣ — يعانى الكتاب نقصا ملحوظا فى توضيح طرق البحث فى علم الاجتماع فلا يتعرض لهذا الموضوع الا فى سطور معدودة مع تنوع هذه الطرق من احصائية ووصفية ومقابلات interviews واستجواب ومشاهدة وتجربة ورسم وتصوير وقراءة وثائق وتدوين مذكرات واستخدام آلات حاسبة وكاتبة ومسجلة . وكان يمكن أن يتوسع المؤلفان فى شرح هذه الطرق كلها أو بعضها لحاجة طلاب الاجتماع الماسة اليها . ان الفكرة السائدة عند أكثر المشتغلين بعلم الاجتماع أن الجماعة المحلية التي يعيش فيها الطالب أو الباحث هي معمله الاجتماعي ، وان كنا نرى أنه أقدر على البحث فى مجتمع بعيد منفصل عنه حيث يمكنه أن يرى الوقائع وهى خارج نفسه . والاتجاه الحديث الآن أن يتلقى الباحث تدريبه الأول فى المجتمع والثانى المكمل له فى معمل الاجتماع فى كليته أو معهده العلمى[3] وهو معمل تتوافر فيه الوسائل الموضحة فى أول هذه الفقرة ومزود بالحجرات لحلقات البحث وحجرات المقابلة والمكتبة ، وفيه يتكون الطلاب ، وعلى الأخص المشتغلون بالرسائل العلمية ، كما تنعقد الجلسات الكلينيكية لحل المشاكل الاجتماعية المختلفة بحضور ممثلين للعلوم التى

---

(١) فى مؤلفه *Human Types*

(٢) فى كتابه *The Progress of Man*

(٣) Cf. Bogardus, E.S., Sociology (New York, 1949), pp. 579-582.

يأخذ كل منها بطرف من علم الاجتماع مثل علم النفس الاجتماعي والطب الاجتماعي وعلم السياسة والجغرافيا على أن يدير هـذه الاجتماعات والندوات داخل المعمل شخص متخصص فى علم الاجتماع كما يذهب بوجاردوس[1] ، وهو أمر طبيعي حتى يكون حلقة الاتصال بين فروع العلوم الاجتماعية وذلك على النحو المتبع فى حل احدى المشاكل الطبية مثلا بحضور الطبيب والاخصائى النفسى واخصائى رعاية الطفل [2] ، وهذا ما نتمنى أن يتحقق فى معاهدنا المصرية اذ أن الدراسة النظـرية الخالصة أو تكليف طلاب المدارس والكليات جمع البيانات من الأحياء السكنية المتخلفة مثل وصف المنزل وطول نوافذه وعرضها لا يمكن أن نصفه بأنه تدريب سوسيولوجى . ان التدريب الذى نطمع أن يحصل عليه طلابنا يتحصر فى الاجتماع بعدة زملاء والتعاون معا فى حل مشكلة محددة بعد فحصها من جوانبها المتعددة ، وهذا أمر يتطلب ثقافة عالية وخبرة بالحياة ومرانة متواصلة [3] . وأين هذا من مجرد القراءة والانطواء على النفس . لقد انتهى العهد الذى يحل فيه الاجتماعى مشكلاته بمفرده[4] .

---

(١) Op. cit., p. 564.

(٢) Ibid

(٣) Op. cit., p. 579.

(٤) Op. cit., p. 566.

شكر وتقدير

يقدر المؤلفان أعظم التقدير الاقتراحات التى تفضل بها الأساتذة والطلاب أثناء اعداد هذا الكتاب . واننا لمدينان بالشكر الى بروفسور كنجزلى ديفز من جامعة كولامبيا ، وبروفسور جلاديس برايسون من كلية سميث ، وبروفسور ويلبرت أ . مور من جامعة برينستون ، وبروفسور روبرت أ . كوتاك من جامعة لويڤيل على ما قدموا من معاونة كريمة بتعليقاتهم على تبويبنا للكتاب وعلى طريقتنا فى عرض فصوله . وكذلك الى السيد مورو بيرجر من جامعة كولامبيا ، وبروفسور جونك تيرلوول من كلية المدينة فى نيويورك ، وبروفسور الزا سيولا والآنسة مارى الن بيتس من كلية سميث ، الذين أسعفونا بعونهم فيما يتصل ببعض نواحى مباحث الكتاب . وقد حاولنا أن نضمنه عددا من آراء هؤلاء السادة جميعا وعلى الأخص بعض ما تفضل به كل من بروفسور ديفز وبروفسور كوتاك . ونحن نأسف للظروف التى لم تسمح لنا بالافادة من جميع الآراء الايجابية التى قدمت لنا .

وغنى عن البيان أن مسئولية هذا الكتاب تقع كاملة على عاتق المؤلفين . ويود أصغرنا فى السن أن يعرب عن عرفانه لجميل زوجته ، ليونورا بيج ، وجميل والدته ، لورا هنط بيج لقبولهما أن يتحملا مشقة الاستماع الى قراءة ما كانت تنتهى كتابته من الفصول أولا فأولا . وهذا فضل منهما تقبله المؤلفان بمزيد الارتياح . وقد تولى كل من ليونورا بيج

ودونالد ماكيفر العمل الجوهرى ولكن الآلى والخالى من التسلية المتعلق باعداد المخطوطة للنشر .

ولا يفوتنا أن نسجل كذلك شكرنا الذى لاحد له لآلاف الطلبة فى جامعة كولامبيا وكلية بارنارد وكلية المدينة فى نيويورك وكلية سميث ، الذين كانوا يعلموننا حينما كنا نحاول أن نعلمهم .

كلمة عن علم الاجتماع بالذات

مازلنا فى بعض الأحيان نصادف من يعيدنا الى الوراء بجدله ليسألنا: ما عسى أن تكون حقيقة علم الاجتماع ؟ ولا يمكن أن يفيد السائل شيئا من سؤاله هذا اذا كان كل الجهد الذي يبذله لمعرفة ميدان جديد عليه قاصرا على مجرد القاء سؤال يتكون من بضع كلمات . ان علم الاجتماع ميدان مقرر للبحث العلمى ، ولا سبيل لمن يريد أن يلم بعلم من العلوم الا أن يشرع فى تعلمه . وها نحن أولاء نقدم هذا الكتاب للمقبلين على دراسة المجتمع لعله أن يكون عونا لهم فى تفهم ظواهره .

وقد يكفى هنا أن نقول ان علم الاجتماع يعنى بالعلاقات الاجتماعية. ونحن نطلق على هذه الشبكة من العلاقات الكلمة الاصطلاحية : **المجتمع** • ولا علم سوى علم الاجتماع يركز اهتمامه فى هذا الموضوع . وتدرس الانثروبولوجيا الثقافية الانسان (وعلى الأخص الانسان البدائى) متناولة مجمل نشاطه وانتاجه . وبقدر اهتمامه بفنونه ووسائله المادية وأساطيره وخرافاته تهتم كذلك بنظمه الاجتماعية . ويدرس علم الاقتصاد الانسان كساع وراء جمع الثروة أو متصرف فيها بالانفاق ، كما يدرس العلة بين الثروة « مقيسة بالنقود » وبين الرفاهية . ويوجه علم التاريخ عنايته لدراسة سجل حياة الانسان ، مرتبا أحداثها الهامة ترتيبا زمنيا . ويدرس علم النفس الانسان من حيث كونه فردا ذا سلوك أو — اذا أردنا أن نستخدم التعبير الذى يفضله البعض — يدرس العلاقة المتبادلة بين الكائن العضوى والهيئة التى يستجيب لمقتضياتها وعلى ذلك فعلم النفس

الاجتماعى يعتبر فرعا من علم النفس يختص بكيفيات انفعال الفرد ازاء أحوال المجتمع الذى يعيش فيه . وعلم الاجتماع وحده هو الذى يدرس العلاقات الاجتماعية ذاتها أو المجتمع نفسه . وليس بين هذه العلوم التى ذكرناها علم واحد يتحد مع علم الاجتماع فى غايته . ومن الملاحظ أن كل علم من العلوم الاجتماعية يتميز عن الآخر بالموضوع الذى يتخذه محورا لاهتمامه ، ونحن لا نظن أن العلوم الاجتماعية قد قسمت فيما بينها مناطق الحقائق الواقعية التى يتعين عليها دراستها . فما يميز أحد هـذه العلوم من غيره سوى الناحية التى اختار أن يوجه اليها اهتمامه .

ونحن من حيث كوننا اجتماعيين نهتم اذن بالعلاقات الاجتماعية ، لا لأنها اقتصادية أو سياسية أو دينية ، ولكن لأنها فى الوقت نفسه اجتماعية . ولتوضيح هذه النقطة نقول انه اذا التقى شخصان فى سوق من الأسواق فان من الخطأ اعتبارهما مجرد « شخصين تربطهما رابطـة اقتصادية » انهما فى الواقع فردان من الناس مقدمان على علاقات ليست اقتصادية فحسب فحياة الانسان متعددة الجوانب منها جانب اقتصادى وجانب قانونى وجانب اجتماعى وجانب دينى وهكذا ، الا أن الجانب الاجتماعى يمتزج بهذه الجوانب جميعا . ومهما دخل الشخص فى علاقة من أى نوع مع آخر فانه قبل كل شىء انسان يواجه انسانا ٪ وكلاهما اجتماعى بالفطرة وما المجتمع الا هذه الخلاصة أو النمط المعقد أشـد التعقيد ، الدائم التغيير والذى يتكون من مجمل هذه العلاقات التى تقوم بين الناس .

وعلى ذلك فمن أهم الأشياء أن نحدد موضوعنا وألا نتحرف عنه . وعلى الأخص يجب ألا يعزب عن بالنا أننا حينما نقدم على دراسة المجتمع لا نحاول أن ندرس كل ما يحدث « فى المجتمع » أو كل ما ينتج عن

الأحوال الاجتماعية ، لأن هذا الكل يشمل مظاهر النشاط الانسانى. ولا سبيل لمعرفتها الا بالعلوم الانسانية جميعا . اننا سنهتم فى كتابنا هذا بموضوع الثقافة ، لا لذاتها ، وانما لما تلقيه من ضوء على العلاقات الاجتماعية . أى اننا سوف لا ندرس الدين مثلا من حيث هو دين ، ولا الفن من حيث هو فن ، ولا الاختراع من حيث هو كذلك . وما لم نحدد موضوعا ما نتخذه غاية للبحث ونحرص على ألا نحيد عنه فاننا سنضل طريقنا فى خضم الظواهر التى ستعترضنا وهـذا الخطر كثيرا ما يتهدد طالب علم الاجتماع ، والطريقة الوحيدة لتجنبه تنحصر فى أن نوجه كل اهتمامنا الى العلاقات الاجتماعية نفسها .

واذا كانت العلاقات الاجتماعية هى الموضوع الذى استقر عليـه عزمنا آخر الأمر فان علينا أن نفصل بين الأشكال المميزة لهذه العلاقات وأنواعها ، وكيفية تكون أنماطها . ان من واجبنا أن نرقب أسلوبها فى التعارض والالتقاء . وأن نوضح ما تشيده من نسق صغيرة أو كبيرة وينبغى أن نتتبع مدى استعدادها للاستجابة للأحوال المتغيرة ، والمطالب المتغيرة ، والحاجات المتغيرة . وليس يكفى أن نكون وصفيين بل يلزمنا أن نعنى بالتحليل الى جانب الوصف . واذا كان هذا الكتاب يهتم بالتحليل الاجتماعى أكثر مما يفعل معظم ما ألف من المداخل لعلم الاجتماع فان مرد ذلك الى أننا نعتقد أن مثل هذا التحليل هو أول مستلزمات الدراسة الحكيمة للمجتمع .

يناير ١٩٤٩ .

ر . م . ماكيفر

شارلز هـ . بيج

الكتاب الأول

تقديم

الباب الأول :

مدخل الى المجتمع

كلمـــة استهلالية

يرى كل فرد أو عضو فى المجتمع أنه فى نظر نفسه حجة فى شئون المجتمع على نحو ما — فان مشاركته فى الحياة الاجتماعية تتطلب فى حقيقة الأمر بعض المعرفة بها . وتعتبر اللغة التى يستخدمها يوميا والتى تستقيم بها الحياة فى المجتمع جزءا من هذه المعرفة ، فالاصطلاحات مثل « جماعة محلية » (كأهل البلد فى الريف) و « الرابطة » (التى تجمع شمل بعض الأفراد لمصالح مشتركة بينهم) و « النظام السائد » (أو سلو البـلد كما يقول العوام فى مصر) — بل والمجتمع نفسه ، لا تعتبر بأى حال من الأحوال أدوات تعبير موقوفة على العلم المعنى بدراسة المجتمع وحده . ومع ذلك فان هذا العلم يواجه من وقت لآخر المهمة الشاقة، المتعلقة بتحويل المتداول من الألفاظ المختلفـة المعانى الى اصطلاحات عملية وتحـديد مدلولاتها تحديدا دقيقا . ولا يختلف علم الاجتماع عن أى علم آخر أو فرع من فروع المعرفة من حيث ان له ثبت اصطلاحاته الخاصة . ويقتضى الأمر من طالب الاجتماع اذن ، أن يروض نفسه ، كتمرين مبدئى، على أن يفهم ويتعلم استخدام بعض المفهومات الأولية التى تعتبر أساسـية فى ميدان دراسته .

ويترتب على ذلك أن نعرف فى الفصل الأول الاصطلاحات الأصـلية التى لا غنى عنها فى التحليل السوسيولوجى وأن نمضى فى الفصل الثانى الى بيان بعض الفروق بين المفهومات ذات الصبغة السيكولوجية ، والتى تعد جوهرية فى دراسة الظواهر الاجتماعية . وأهم هذه الفروق لخدمة

عرضنا الفرق بين المصـالح وبين المواقف من جهـة وبين الشبيه وبين المشتركة فى التقسيمات الداخلية للمصالح من جهة أخرى .

وباعداد أنفسنا على هذا النحو ، نهجم فى الفصل الثالث هجوما أوليا على المشـكلة الأساسية التى اهتم الناس بأن يعالجوها فى كل العصور — حتى قبل أن توجد مادة اسمها علم الاجتماع بزمن طويل — ألا وهى مشكلة الفرد والوحدة الاجتماعية كما تتجـلى فى السؤالين التاليين : ما معنى أن يكون الفرد عضوا فى جماعة محلية أو فى زمرة ؟ وما طبيعة الصلة التى تربطنا بأقراننا ؟ وقد يكون من الممكن أن نمضى فى دراستنا للمجتمع دون التعرض لهـذه المشكلة ، الا أن المجتمع سيعنى شـيئا كثيرا لنا ، ودراسته ستكون أكثرجدوى لو تأملنا طبيعة المشكلة وحاولنا أن نجد لأنفسنا حلا لها .

الفصل الأول

المفهومات الأوليـــة

لغة علم الاجتماع

لغة الحياة اليومية : نحن نستخدم فى محادثاتنا اليومية اصطلاحات مثل « المجتمع » و « الجماعة المحلية » و « الجمع » أو « الحشــد » و «النظام السائد» و «العادة الجمعية» وما شابهها ، وهذه الاصطلاحات نفسها هى التى سنستخدمها فى هذا الكتاب ، من أوله الى آخره . فلماذا اذن ، نواجه القارىء بهذا الفصل التمهيدى عن الاصطلاحات ؟

وأسباب ذلك تتصل بطبيعة اللغة ومطالب العلم ، ونحن فى محادثاتنا اليومية لا نفسر ، وفى أكثر الأحيان لا نحتاج لأن نفسر مقدما ما نعنيه بالاصطلاحات من أمثال جماعة محلية أو جمع من الناس ، فاذا سمعنا أحدهم مثلا يذكر هذا الاصطلاح : « الجماعة المحلية » فاننا نعرفه بوجه عام من سياق الكلام الجزئية الخاصة المقصودة به . وقد يكون المتكلم قاصدا بهذا الاصطلاح المدينة الأصلية التى ينتمى اليها أو الجاليــة الايطالية فى قرية جرينتش ، أو زمرة خاصة من المواظبين على الصلاة فى مسجد أو كنيسة . وأكثر من ذلك قد يقصد بالاصطلاح الأمــة التى ينتسب اليها . ولكننا فى العادة لانجد مشقة فى ادراك المعنى المقصود ما دمنا نعرف الموضوع الذى يتركز الكلام حوله . وكذلك اذا ذكر المتحدث الاصطلاح « جمع » أو « حشد » فقد نكون متأكدين بوجه

عام من أنه يشير الى الحشد المتزاحم فى الصباح وقت ذهاب الموظفين والتجار والعمال والطلبة الى أعمالهم ، لا الى « الجمع المحتشد لمشاهدة مباراة رياضية » أو « الجمع الملتئم فى منزل أحد الناس بمناسبة حفل ». ان كلا من هذه العبارات يشير الى نوع مختلف كل الاختــلاف من الظواهر الاجتماعية . ولكن سياق الحديث هو الذى يرشدنا الى المعنى الوحيد المقصود . وبعبارة أخرى نعرف مدلول الكلمات اذا عرفنــا الظروف المحيطة بها ، كما يقول المشتغلون بعلم المعانى .

واذا لم يساعد سياق الكلام على توضيح المعانى فان لغتنا اليومية تكون عرضة لأن تتحول الى مجرد أصوات عادية ، وأن تفقد وظيفتها كوسيلة لانتقال الأفكار بين الناس . كما أكد ســتيوارت تشــيس وآخرون [١] تأكيدا كافيا ، غالبا ما تحظى الكلمات الكبيرة بالاستخدام على نطاق واسع ، ولكنها لا تبلغ الا درجة محدودة من حيث دقة معانيها ، كما نشاهد عند محترفى الخطابة والمشتغلين بالدعاية ومحررى الصحف . ومن المهم منذ البداية أن نوضح الكلمات الكبيرة فى علم الاجتماع وأن نحدد معانيها بالدقة .

لغة علم الاجتماع : لا يسعنا ونحن ننفذ الى دراسة المجتمع أن نرضى بالاستمرار فى استخدام نفس الاصطلاحات بمعان مختلفة . كذلك ليس فى متناول أيدينا سياق محادثاتنا اليومية حتى يمكن أن نستدل بها على الموضوعات التى يشير اليها كلامنا . اننا كمشتغلين بعلم الاجتماع نهتم بالظواهر الاجتماعية بالطريقة التى يهتم بها المشتغلون بعلم النباتات بكل ما تنبته الأرض . ونحن نهتم بأن ننمى ونستخدم مفهومات تتميز بكونها

---

(١) أنظر مثلا : S. Chase, *The Tyranny of Words* (New York, 1938),
S. I. Hayakawa, *Language in Action* (New York, 1941).

دقيقة من حيث المعنى ، وعامة من حيث تطبيقها . ان لغة علم الاجتماع مجردة كلغة أى علم آخر . ومفهوماتها المفيدة هى من أسماء الجنس ، اذا شئنا أن نوضح الفكرة بأحد تعبيرات المناطقة .

فمثلا عندما تتحدث كسوسيولوجيين عن « الجماعة المحلية » انما نشير الى شكل من أشكال النظام الاجتماعى يمكن أن نميزه عن غيره . ويهمنا أن نبحث خصائصه المشتركة وأن نصف أنواعه المتعددة . واذا انتقلنا الى الجمع فليس الذى يعنينا مجرد هذا الجمع أو ذاك ، أو أن نكتفى بوصف جمع خاص من الناس فى زمان خاص . ان عالم الاجتماع يسعى لفهم الجمع الغفير من النـاس كمركب من مركبات العـلاقات الاجتماعية ، لكى يبرز ، على سبيل المثال ، وجوه التباين بين تصرفات الناس فى حشد من الأفراد وبين تصرفاتهم فى زمر من أنواع أخرى .

وعلى ذلك فينبغى أن يكون لاصطلاحاتنا معان واضحة ووحيـدة ودقيقة رغم كونها من اصطلاحات الحياة اليومية وتستخدم تبعا لذلك للكثير المتعدد من الأغراض . هذه هى نقطة البداية فى بحثنا هذا . ومن البديهى أن وفاء معنى مفهوماتنا ، ومدى قابليتها للانطلاق ، وغنـاها بمضمونها ، مسائل لابد أن تختلف تبعا لخبرة كل منا ومرانته . وأما اذا أقبلنا معا على دراسة موضوع اجتمـاعى أو تحليـله ، فان الواجب يقتضينا ، عندما نستخدم كلمة أو عبارة ما أن نتفق على أن ندل عليها وأن نشير اليها فى الذهن ، على أساس أنها ترمز لشىء واحد . وهذه ضرورة حتمية بالنسبة للاصطلاحات الأولية ، وهى الكلمات الأساسية فى دراستنا.

معنوية الظواهر الاجتماعية : الى جانب ما يلاحظ من أن اصطلاحات علم الاجتماع هى — الى حد كبير — مأخوذة من لغتنا اليومية ، مخالفة فى ذلك كثيرا من اصطلاحات العلوم الطبيعية ، فان هناك سببا آخـر

بالاضافة الى ماذكرنا فى القسم السابق يضطرنا الى أن نعنى عناية خاصة بالتعارف . هذا السبب هو أن الظواهر التى نعالجها فى دراسة المجتمع ليست فى الأغلب أشياء خارجية يمكن أن نلمسها بأيدينا ، ولا مفردات من هذه الأشياء يمكن أن نلمسها لنتحقق من كنهها مباشرة عن طريق الحواس . اننا لا نستطيع أن نرى ولا أن نلمس العلاقات الاجتماعية أو الأنظمة الاجتماعية . وكذلك النظم السائدة ، لا يمكن أن نفحصها بأيدينا والعادات الجمعية يتعذر أن نزنها فى ميزان من أحد هذه الموازين المستخدمة فى المحال التجارية . وبالمثل يقصر الميكروسكوب [1] والسبكتروسكوب [2] وأى جهاز آخر من هذا النوع عن مساعدة حواسنا فى فهم الظواهر الاجتماعية ونحن لانستطيع أن نعزل هذه الظواهر بعضها عن بعض على نحو ما نفعل فى الدراسة المعملية . وان معملنا هو بالضرورة هذا العالم الذى تجرى فى داخل نطاقه حياتنا المعيشية اليومية ، الذى يحتم علينا أن نستكشفه . ويجب أن نتجه دائما الى عالم الأحداث اليومية الانسانية لنحصل منه على مادة للأبحاث التى نجريها فى علم الاجتماع [3] .

ونحن اذ نشير الى المعنوية التى تتميز بها ظواهر اجتماعية معينة علينا أن نحترس من الظن أن هذه الظواهر — تبعا لذلك — ليست ذات حقيقة واقعة . وسوف لا نتعرض فى هذا الكتاب للجدل الفلسفى القديم

---

(١) جهاز يستعين بعدسة أو أكثر لتكبير الاشياء الصغيرة الحجم جدا والمتناهية فى الصغر — **المترجم**

(٢) جهاز لتحليل الضوء — **المترجم**

(٣) يشير المؤلفان بهذه العبارة الهامة الى أن علم الاجتماع يعنى بالحاضر ويدع الأحداث الانسانية الماضية لمادة التاريخ . وفى هذا يتفق ماكفير وبيج مع مالينوسكى وراد كليف براون وهما من أعلام الانثروبولوجية الاجتماعية الذين يرون هذا الرأى — **المترجم**

حول ما هو حقيقي وما ليس بحقيقي ، وكل ما نريد أن يستقر فى أذهاننا أن كون العلاقات الاجتماعية والأنظمة الاجتماعية لا تخضع للرؤية أو اللمس أو الوزن بطريقة مباشرة لايعنى اطلاقا أن تكون هذه الظواهر قليلة الأهمية فى الحياة الاجتماعية . والا فمن ينكر أهمية العلاقات التى نسميها « الحب » أو « الكراهية » أو « التعاون » أو « الصراع » بالنسبة للوجود الانسانى ؟ أو منذا الذى يجادل فى الدور الخطير الذى تلعبه نظم كنظم الدولة و « الطبقة الاجتماعية » و « مؤسسة العمل الكبيرة » و « الأسرة » فى حياة الناس ؟ ان فهم هذه الظواهر وما يماثلها يتطلب أن يكون نفوذنا الى موضوعاتها قائما على اصطلاحات أساسية متفق عليها .

تطبيق مفهومات علم الاجتماع واختبارها : من البديهى أن ممارسة الشيء لا تؤدى بالضرورة الى بلوغ درجة الكمال ، ولكنها حتما تساعد فى تنمية المهارة . وهذا بالضبط هو الموقف بالنسبة للعلم الذى نحن بصدد دراسته . فلا ينبغى لطالب الاجتماع أن يقصر استخدام مفهومات علمه على أوقات الاجتماعات الرسمية فى قاعات البحث أو فى ساعة الدرس ، تلك الاجتماعات التى قد ينساها الطالب بمجرد انتهائها . لقد قلنا ان معمل علم الاجتماع هو عالم الحياة اليومية المعيشية . وان كلا منا يكون جزءا من هذا العالم ، وعليه اذا كان راغبا فى زيادة فهمه له ، أن يفطن الى مدى امكان تطبيق اللغة التى اختيرت لتحليله ومقدار نفع هذه اللغة للقيام بهذه المهمة . ومن الممكن أن تبدو مفهومات علم الاجتماع كمادة معتمة بلاشك اذا لم تستخدم . ولا نظن أن هناك تجربة عقلية يمكن أن تكون أوفر جزاء من الدراسة المنظمة للحياة الاجتماعية التى نحن جزء منها .

وتنحصر مهمتنا الأولى اذن فى بسط اصطلاحاتنا الأولية فى بيان تمهيدى موجز حول الموضوعات التى تعنيها هذه الاصطلاحات . ونحن

اذ تفعل ذلك يجب أن نذكر أنه لا يوجد فى علم الاجتماع الحديث الآخذ فى النحو أية سلطة متفق عليها ، سواء أكانت هذه السلطة من خلق تقليد علمى أم غيره ، لها حق فرض اصطلاحات موحدة . نعم ان لدينا فى الوقت الحاضر معجما لعلم الاجتماع [1] سيجده الطالب مفيدا كمرجع يستعين به من وقت لآخر . غير أن التعاريف التى ترد فى المعاجم ليست تفسيرات . كذلك لا ينتهى التحقيق السوسيولوجى بالتفهم المنطقى للرموز اللغوية . وبعبارة أخرى أن الغاية من دراستنا ليست سبر المفهومات فى ذاتها . بيد أننا اذا كونا فى أنفسنا عادة المحافظة على أن يكون للشىء الذى تتكرر الاشارة اليه نفس المعنى حينما نستخدم المفهومات الأساسية فاننا بذلك نكون قد ملكنا زمام أهم أداة للتحليل السوسيولوجى .

المجتمع

المقصود بقولنا المجتمع : لا شك أن أول اصطلاحاتنا وأعمها هو المجتمع بالذات . ان الكائنات الاجتماعية أو النـاس ، فطروا على أن يعبروا عن طبيعتهم بأن يخلقوا ، وأن يدأبوا على أن يخلقوا ، نظاما من شأنه أن يوجه سلوكهم وأن يضبطه بوسائل لا حصر لها . ووظيفة هذا النظام ، وهو المجتمع ، أن يطلق نشاط الناس وفى الوقت نفسه يحد منه. أنه يضع لهم مقاييس للسلوك عليهم أن يتبعوها وأن يحافظوا عليها . ومهما دلنا تاريخ الانسان على ما ينطوى عليه هـذا النظام من نقص واستبداد ، فانه شرط ضرورى لأسباب الحياة . ان المجتمع نسق مكون من العرف المنوع والاجراءات المرسومة ، ومن السلطة والمعونة المتبادلة ، ومن كثير من التجمعات والأقسام ، وشتى وجوه ضبط السلوك الانسانى

(١) H. P. Fairchild, ed., *Dictionary of Sociology*. (New York, 1944).

والحريات . هذا النسق المعقد الدائم التغير يسمى المجتمع . انه نسيج العلاقات الاجتماعية . وأخص صفات المجتمع أنه لا يثبت على حال .

الشرط النفسى للعلاقات الاجتماعية : قلنا ما معناه أن المجتمع هو النمط المتغير للعلاقات الاجتماعيــة . فما الذى نقصــده أولا بالعلاقة الاجتماعية ؟ يمكن أن نجيب على هذا السؤال ببيان التعامل القائم بين ما هو اجتماعى وما هو فيزيقى . فهناك مثلا علاقة بين الآلة الكاتبــة والمكتب ، أو بين الأرض والشمس ، أو الدخان والنار ، أو عنصرين من العناصر الكيموية . ان كل واحد من هذه الأشياء متأثر بوجود شىء آخر . غير أن العلاقة التى تربطهما ليست اجتماعية . ولكى تكون كذلك لابد من الشرط النفسى ، وهذا لا وجود له فى جميع هذه الحالات التى أشرنا اليها . فالآلة الكاتبة والمكتب ليسا بأى معنى عقلى منتبهين كل منها الى وجود الآخر . ان علاقتهما ليست بأى حال محدودة بالادراك المتبادل . وبدون تحقق ذلك لا توجد علاقة اجتماعية ، وبالتالى ينعدم الشرط اللازم لقيام المجتمع . ان المجتمع لايوجد الا حيثما تسلك الكائنات الاجتماعية فيما بينها سلوكا يعينه ادراك كل منهما للآخر . ونحن نطلق على العلاقات التى تحدد بهذه الكيفية الاســم العريض « العــلاقات الاجتماعية » .

نطاق العلاقات الاجتماعية : تمتاز العلاقات الاجتماعية بالتنوع ، كما يتصف المجتمع بالتعقد . وما علاقات الناخب بالمرشح السياسى ، أو الأم بطفلها ، أو العامل بصاحب العمل ، أو الصديق بالصديق ، الا أمثلة قليلة من أنواع العلاقات الاجتماعية . ان عمومية المفهوم « اجتماعى » تتأكد اذا لاحظنا ما تستخدمه لغتنا من اصطلاحات لا عد لها تقريبا للاشارة الى أنواع العلاقات الاجتماعية الكثيرة القائمة بين الناس ، فنحن نسمى بعضها

« علاقات اقتصادية » وبعضها « شخصية » ، وبعضها « غير شخصية » ، وبعضها الآخر « ودية » أو « عدائية » وهكذا . ولكن تعتبر هـذه العلاقات كلها « اجتماعية » ما دامت تقوم على هذا الادراك المتبادل الذى سبقت الاشارة اليه .

ومن بين هذه العلاقات ما يعبر عن نزاع فحسب ، أو عن عداء مطلق، كالحالة القائمة بين جيشين متحاربين . فالجيوش وهى فى ميادين القتال لا تفطن الى شيء الا لوجود القوى التى تحاربها والتى توجه ما يصدر عنها من نشاط ، وهذه العلاقة التى تربط الجيوش المتحاربة بعضها ببعض علاقة « اجتماعية » . ومع ذلك فان معظم العلاقات الاجتماعية تتضمن مبدأ لا نجده فى هذا المثل الذى نستمده من الجيوش ، وهذا المبدأ هو فكرة الجماعة أو الانتماء معا الى هيئة واحدة . ونحن كاجتماعيين ندرس كلا من البواعث التى تجمع بين الناس والتى تفرق بينهم على حد سواء. واذا لم توجد فكرة الجماعة وانعدمت العلاقات التعاونية بين الناس فمن المحال أن توجد نسق اجتماعية ، وبالتالى لا يكون هنـاك مجتمع ولا مجتمعات — ولا يبقى عمليا موضوع للاجتماعيين لكى يدرسوه ، واذن فالعلاقات التى يتركز حولها اهتمام علم الاجتماع هى تلك التى تقوم على الادراك المتبادل والاحساس بوجود شيء ما أو عقيدة ما يشترك فيها أفراد الجماعة كلهم .

المجتمع لا يعنى بالضرورة المجتمع الانسانى : يتضح من هذه العبارة أن المجتمع اصطلاح لا يقتصر على الآدميين اذ هناك مجتمعات حيوانية مختلفة . فمن المعلوم أن تلاميذ المدارس يعرفون النظم الاجتماعيةالعجيبة القائمة فى عالم الحشرات كالنمل والنحل والزنابير . ولقد طالما قيل انه حينما توجد الحياة يوجد المجتمع ، لأن الحياة معناها الوراثة ، والحياة

تنشأ فيما نعلم من وجود حياة أخرى ، وهذا لا يمنع من أن يكون الادراك الاجتماعى — اذا وجد فى أحط طبقات الأحياء — غامضا كل الغموض ، وأن يكون الاتصال الاجتماعى عابرا الى حد كبير فى أغلب الأحيان . وتوجد حياة اجتماعية واضحة المعالم على الأقل بين الحيوانات العليا ، ناتجة عن حاجات طبائعها والشروط التى بدونها لا يتحقق استمرار نوعها. وكما أوضحنا فى الظروف السابقة يجوز أن يقوم المجتمع أيضا بين حيوانات من أنواع مختلفة ، كما هى الحال بين الرجل والحصان أو الكلب ، أو مثلا ، بين الغنم والكلب الذى يحرسها . ونحن نوجه اهتمامنا فى هذا الكتاب الى المجتمع الذى يقوم بين أفراد النوع الانسانى .

انطواء المجتمع على فكرتى المشابهة والمخالفة : يتردد كثيرا فى المراجع العلمية أن الأسرة ، على صورة ما ، كانت المجتمع الانسانى الأول . وانه لحق مؤكد أن العلاقة الجنسية نوع أولى وجوهرى من أنواع العلاقات الاجتماعية . ومن الواضح أن هذه العلاقة تتضمن كلا من المشابهة والمخالفة فى الأشخاص الذين يرتبطون بها . وهذا ما يحدث بالفعل فى المجتمع مهما تعددت مظاهره .

ان المشابهة والمخالفة عكسان منطقيان ولكن الفروق بينهما فى ميدان علم الاجتماع وعلم النفس تبدو فى مظاهر موضوعية متصل بعضها ببعض. وفى الحق أن فهمنا لأحديهما ، ولتكن المشابهة ، يتوقف على فهمنا لعلاقتها بالأخرى ، أى المخالفة [1] . والآن فلنبحث كيف يوجد هذان العكسان المنطقيان فى المجتمع ؛

---

(١) يلاحظ تيرمان أرنولد أن قولنا « فوق » لا يعنى شيئا الا من حيث صلته بعكسه المنطقى وهو « تحت » ، أنظر :

The Folklore of Capitalism (New York, 1937), Chap. VII.

ان الادراك المتبادل لفكرة الانتماء معا الى الجماعة لا يمكن أن يتحقق ، وبالتالى ينعدم المجتمع اذا لم توجد المشابهة أو فكرة المشابهة بين أفراده . ان المجتمع لا يقوم الا بين أولئك الذين يشبه بعضهم بعضا الى حد ما فى الجسم والعقل ، والذين هم داخل نطاق جيرة متقاربة ، أو لديهم من الذكاء ما يكفى لتقدير فكرة المجتمع . والمجتمع — كما يذهب ف.هـ. جد نجز — يقوم على « الحس النوعى » . وفى المجتمع القديم ، وكذلك بين بعض « معاصرينا البدائيين » تنصب فكرة المشابهة على القرابة العائلية ، أو بعبارة أخرى صلات الدم الحقيقية أو التصنيفية[1]. وقد اتسع مدلول المشابهة الاجتماعية فى المجتمعات الحديثة . الا أن التصور الأساسى للمشابهة كما ربطها الرجل البدائى بأقاربه لا يزال مقترنا بمبدأ شامل للتآلف وهو القومية . واذا قدر لمبدأ الصراع من أجل خلق عالم موحد أن ينتصر فان هذا العالم لا بد أن يرتكز على المشابهة الأساسية بين أفراد الجنس البشرى بأسره .

وعلى عكس ما سبق يعتمد المجتمع على المخالفة كما يعتمد على المشابهة . ولو كان الناس جميعا متشابهين تماما ، ومتشابهين فحسب ، فلربما تضاءلت علاقتهم الاجتماعية حتى تصير كعلاقات النمل أو النحل . ففى مثل هذه الحالة يقل الأخذ والعطاء ولا يكون هناك الا النزر اليسير من الأحاسيس المتبادلة . والمساهمة بقدر تافه فى سعادة الغير . وما لاحظناه فيما تقدم عن العلاقة الجنسية من الطباق على الحق موجود بأشكال

(١) نقصد بالصلات التصنيفية التقليد المألوف بين أكثر البدائيين بتلقيب صنف من الرجال بالاب ، وصنف آخر بالخال ، دون أن يكونوا آباء أو أخوالا حقيقيين ، انما هم فى حكم الحقيقيين . ومن المعروف أن هذا التقليد متبع على نطاق ضيق فى المجتمعات المتحضرة حيث يخاطب الطفل كثيرين بقوله عمى أو uncle دون أن يكون أحد منهم عمه الحقيقى .
— المترجم

مختلفة فى جميع النسق الاجتماعية . انها تشتمل على علاقات تكمل فيها الأشياء المخالفة بعضها بعضا . ويقع فيها التبادل ، اذ أن من سمة المجتمع أن يسعى كل عضو من أعضائه للحصول على شيء ما واعطاء شيء ما فى مقابل ما يحصل عليه . هذا أساسا هو ما يحدث بالفعل مهما كان النسق الاجتماعى « استغلاليا » أو « طفيليا » أو « غير عادل » ويلعب رب الأسرة المستبد ذو النفوذ دورا يقوم على الأخذ والعطاء فى نطاق الأسرة. وتفعل نفس الشيء الطائفة المقفلة الحاكمة فى داخل الطبقة الاجتماعية . انما ندأب على التذكير بما يصدر عن المخالفة من دور التبادل والتكامل فى جميع أنماط العلاقات الاجتماعية .

وطبيعى أن تكون هناك أنواع متباينة للمخالفة ، فالأسرة تقوم على الفروق البيولوجية بين نوع الذكر ونوع الأنثى . وهناك فروق طبيعية أخرى تتعلق بالمهارة والكفاية والمصلحة الشخصية . وتتكاثر الفروق فوق ذلك فى العمليات الاطرادية للتخصص فى أنواع العمل المختلفة وهذه الفروق سواء أكانت طبيعية أم نامية مع الفرد خلال حياته تظهر بشكل واضح فى المجتمع فى تقسيم العمل الاجتماعى .

تبعية المخالفة للمشابهة فى المجتمع : ان تقسيم العمل فى المجتمع هو فى الحقيقة تعاون قبل أن يكون انقساما وذلك لأنه من حيث ان للناس حاجات متشابهة فانهم يجتمعون لأداء وظائف متباينة فيما بينها . والرغبة المتشابهة للربح قد تؤدى الى أن يكون بعض الناس شركة تجارية مثلا. كما أن الرغبة المشتركة فى حب الشيء الواحد والحياة المنزلية هما فى الغالب الأساس الذى تبنى عليه الأسر والحاجات المتشابهة للناس هى بالضرورة سابقة فى الترتيب الزمنى على التباين الموجود فى النظام الاجتماعى .

ان الدور الذى تلعبه المخالفة والمشابهة معا — ونقصد المشابهة الأولية

والمخالفة الثانوية — فى التركيب الاجتماعى سيظهر جليا عندما نعالج كيفية نمو المجتمع .

الانسان كحيوان اجتماعى : ما زال علينا أن نوضح هذه الصفة الأساسية للانسان ، وهى أساسية لدرجة أنها أهم من فكرة المشابهة التى يرتكز عليها كل مجتمع . وقد عبر أرسطو عن هذه الصفة حينما قال ان الانسان حيوان اجتماعى [(١)] . وقد سجل الانسان أدلة على نظرته للمجتمع منذ بداية تسجيله لفكرة ضمنها أنه ليس من الخير للانسان أن يعيش وحيدا . ان الانسان يعتمد على المجتمع لحمايته ، وراحته ، وغذائه ، وتربيته ، وأدواته ، وفرصه ، والخدمات المحددة العديدة التى يقدمها له المجتمع — ان المجتمع يتدخل حتى فى مضمون أفكاره وأحلامه وآماله بل فى كثير من أمراض عقله وجسمه . ان مجرد مولده فى المجتمع يصحب معه فكرة حاجته المطلقة الى المجتمع نفسه .

فلا عجب اذن لو رأينا فى الحبس الانفرادى أشد ما يخيف الانسان من العقوبات ، لأنه يحول دون اشباع هذه الحاجة الأساسية . ومهما ادعى بعض الناس أنهم مستقلون فان الحقيقة أنه لا وجود لانسان يستطيع أن يعيش دون حاجة الى المجتمع . وحينما يقطع الناسك ما بينه وبين المجتمع من أواصر يظن أنه يستطيع أن يجد مجتمعا آخر فى اتصاله بالله أو « بالطبيعة » ، وبعبارة أخرى تسيطر عليه فكرة تدفعه بلا محالة الى نوع من عقاب النفس . فاذا لم يصب بالجنون فى أول الأمر أصيب به فى النهاية . وذلك لأن الانسانية الطبيعية تستلزم العلاقات الاجتماعية حتى يمكن للناس أن يحتملوا الحياة .

---

(١) ويضيف أرسطو الى ذلك اضافة ذات مغزى بقوله أن الشخص الذى يعجز عن أن يساهم بنصيب فى الحياة المشتركة اما ان يكون دون الانسانية أو فوقها ، وعلى حد تعبيره اما أن يكون وحشا او آلها .

تعريف الجماعة المحلية : ان ثانى مفهوماتنا الأولية هو الجماعة المحلية. ولنبدأ بضرب الأمثلة : انه الاصطلاح الذى نطلقه فى الوقت الحاضر على جماعة من الناس تعمر مكانا لأول مرة ، أو على قرية أو مدينة أو أمة بأسرها . وحيثما عاش معا أعضاء أية زمرة من الناس ، سواء أكانت هذه الزمرة صغيرة أم كبيرة ، بحيث يشتركون لا فى هذه المصلحة الخاصة أو تلك ، بل فى الأحوال الأساسية للحياة المشتركة ، فاننا نسمى هذه الزمرة جماعة محلية . والسمة المميزة للجماعة المحلية أن المرء يمكنه أن يحيا حياته كلها فى داخلها . والمرء مثلا لا يستطيع أن يحيا حياته كاملة فى داخل مؤسسة تجارية أو فى داخل كنيسة بينما يستطيع أن يفعل ذلك فى داخل قبيلة أو مدينة . وعلى ذلك فالصفة الأساسية للجماعة المحلية هى أن كل علاقات الفرد الاجتماعية يمكن أن توجد فى داخلها .

الجماعات المحليـــة لا تحتاج لان تكون مستكفية بذاتها : ان بعض الجماعات المحلية تحتوى على كل ما تحتاج اليه ومستقلة عن غيرها . ونحن نجد أحيانا بين الشعوب البدائية جماعات محلية لا يزيد عـدد أفرادها عن مائة نفس ، مثل قبائل يوروك فى كاليفورنيا التى تعتبر منعزلة تقريبا انعزالا تاما . ولكن الجماعات المحلية الحديثة بما فى ذلك الجماعات الكبيرة أقل استكفاء بذاتها بكثير . ومن الخصائص الكبرى لجماعتنا المحلية الحديثة والكبيرة الحجم أنها تقوم على التبادل الاقتصادى من جهة وعلى الارتباط السياسى المتبادل مع غيرها والآخذ فى الازدياد من جهة أخرى .

وقد نعيش فى عاصمة كبيرة ، ومع ذلك نظل أعضاء فى جماعة محلية صغيرة جدا لأن مصالحنا محددة بحدود مساحة ضيقة . أو قد نحيا فى

قرية ومع ذلك ننتمى الى جماعة محلية من الاتساع بحيث تشمل المنطقة المتأثرة بحضارتنا أو بحضارة أكثر اتساعا وليس لجماعة محلية متمدنة حوائط حولها لتفصل بينها وبين غيرها فصلا تاما مهما حاول حكام أية أمة أن يقيموا « ستارا حديديا » حولها . والمشاهد أن الجماعات المحلية موجودة فى داخل جماعات محلية أكبر منها . فالمدينة تقوم فى داخل اقليم، والاقليم فى داخل أمة ، والأمة فى داخل الجماعة العالمية التى ربما كانت آخذة فى النمو فى الوقت الحاضر .

اسس الجماعة المحلية : الجماعة المحلية اذن عبارة عن مساحة أو مكان للحياة الاجتماعية تتميز بدرجة من الترابط الاجتماعى . وأسس الجماعة المحلية هى الدائرة المكانية وعاطفة الجماعة .

١ ـ **الدائرة المكانية** : تشغل الجماعة المحليـة دائما مساحة من الأرض ، وحتى جماعات الرحل ومجموعات الغجر مثلا لها محـل اقامة تعيش فيه وان كان عرضة للتغير والاستبدال . وأعضاء هذه الجماعات يحتلون مما فى أى وقت نجدهم فيه مكانا محددا على سطح الأرض ، ومعظم الجماعات المحلية مستقرة حاليا وتستمد من أحوال دائرتها المكانية رابطة تضامن قوية ، ولقد ضعفت الى حد ما هذه الرابطة المحلية فى العالم الحديث بسبب انتشار وسائل المواصلات وهذا واضح بصـفة خاصة فى تغلغل أنماط الحياة السائدة بالمدن فى البيئات الريفية . الا أن اتساع وسائل المواصلات هو فى ذاته لازم لجماعة أكبر فى الحجم ولكنها ما تزال محلية .

ان أهمية مفهوم الجماعة المحلية ترجع الى حد كبير الى كون هذا النوع من الجماعات يعزز العلاقة بين الترابط الاجتماعى والمنطقة الجغرافية وتتكشف هذه العلاقة بسهولة فى أمثلة مع نوع قرى الاسكيمو أو المدن

الواقعة على الحدود أو الجماعات المحلية شبه المنعزلة الموجودة فى كويبك الفرنسية . ومهما أدخلت المدنية الحديثة من تغييرات فى العلاقة بين الصلات الاجتماعية القوية وبين محل الاقامة الاقليمى فان الصفة الأساسية للدائرة المكانية كأداة للتحكم فى تصنيفات المجتمع لم تتفوق عليها حتى الآن وسيلة أخرى لتحقيق هذا الغرض [١] .

٢ ـ **عاطفة الجماعة المحلية :** تطالعنا اليوم ظاهرة لم نجد لها مثيلا فى المجتمعات البدائية ، هى شغل الناس لمناطق محلية معينة مجرد من الترابط الاجتماعى الذى لابد منه لكى يشعروا بشخصية الجماعة المحلية . خذ مثلا سكان أحد الأحياء أو الأقسام فى مدينة كبيرة ممن قد يعوزهم القدر الكافى من الاتصال فيما بينهم أو المصالح المشتركة حتى يمكن أن يستقر فى نفوسهم وعى الوحدة المكانية . ومثل هذه الجيرة أبعد ما تكون عن الجماعة المحلية لأنها لا تنطوى على الاحساس بالانتماء معا الى موضوع ما ــ انها بعبارة أخرى تفتقر الى عاطفة الجماعة المحلية. ويكفى أن نؤكد أن الدائرة المكانية رغم كونها شرطا ضروريا لقيام هذه الجماعة فانها لا تؤدى وحدها الى خلقها . ونحن نكرر ما قلناه من أن الجماعة المحلية مجال للحياة المشتركة . ولا بد أن تقترن الحياة المشتركة بادراك من يحيونها ، انهم يشاركون غيرهم فى طريقة الحياة ، كما يشاركونهم فى الأرض التى يعيشون عليها .

امثلة وحالات لجماعات محلية مشكوك فى وضعها : ان فى وسعنا بسهولة أن نتحقق من أن مدينة صغيرة أو عاصمة أو أمة كبيرة أو قبيلة بدائية ، كلها جماعات محلية . وقد يقضى أعضاء كل واحدة منها حياتهم بأكملها فى داخل جماعته الخاصة ، لأنها بمثابة مجال للحياة المشتركة .

---

(١) A. A. Goldenweiser, Early Civilization (New York, 1929), Chap. XII.

ومع ذلك فالحدود الفاصلة بين الجماعات المحلية فى العالم الحديث ليست حدودا دقيقة . والواقع أن به حالات لجماعات مشكوك فى وضعها ، ولهذا تصعب مسألة تعيين هذه الحدود فى أمثلة من النوع الذى نبسطه فيما يلى وان كانت هذه المسألة ليست بذات بال :

١ — أيمكن أن نطلق على دير للرهبان أو الراهبات ، أو على سجن مثلا ، اسم جماعة محلية بالمعنى الذى اصطلحنا عليه ؟ ونحن نعلم أن هذه المؤسسات تقوم على مساحة أرضية . وهى فى الحقيقة مجالات لممارسة الحياة الاجتماعية فى داخل نطاقها . كثير من الناس يضنون على هـذه الجهات بأن يرفعوها الى مكانة الجماعة المحلية استنادا الى أن وظائف النازلين بها محدودة المدى ، بطبيعة الجماعة المحلية وامكانياتها . ولهذا السبب نميل الى الاجابة عن هذا السؤال بالايجاب .

٢ — أيمكن أن نطلق الاسم « جماعات محلية » على زمر المهـاجرين المقيمين فى قلب المدن الأمريكية الكبيرة والمستمسكين بعاداتهم الجمعية الخاصة وبلغاتهم الأولى ؟ واننا نرى أن لدى هذه الزمر الشروط اللازم توافرها فى الجماعة المحلية . ولقد طالما درسها السوسيولوجيون بقصد تحليل هذا النمط الثابت والمتكرر فى الحياة الأمريكية [١] .

٣ — أيمكن أن نسمى جماعة محلية ، الطائفة الاجتماعية المقفلة التى يستبعد أعضاؤها زملاءهم فى المواطنة من الاشتراك فى العلاقات الاجتماعية الخصوصية ؟ هـذه حالة المناسـب فيها أن يكون الجواب بالنفى . اذ للتمشى مع تعريفنا السـابق يتحتم على الزمرة التى تتألف منها الجماعة

(١) P.V. Young, *The Pilgrims of Russian Town* (Chicago, 1932); B.B. Wessell, *An Ethnic Survey of Woonsocket, Rhode Island*, (Chicago, 1931); W. L. Warner and Leo Srole, *The Social Systems of American Ethnic Groups* (New York, 1945).

المحلية أن تحتل دائرة مكانيـة معينة . وسنرى أن الطائفة الاجتماعية المقفلة ذات ترابط اجتماعى بالتأكيد ، الا أنها تحتاج الى الأساس الاقليمى.

انتشار الحضارة والجماعة العالمية : تنتمى الجماعة المحلية المستكفية بذاتها استكفاء تاما الى العالم البدائى . وأما فى العالم الحديث فأقرب الأشياء لها يتمثل فى جماعة الأمة فى داخل نطاق حدود الدولة الواحدة . وهذا ما يحدث بصفة خاصة عندما تسعى الدولة الى « تنسيق » حياة الأمة كلها ، كما فعلته ألمانيا الاشتراكية القومية ، أو كما تفعل روسيا السوفيتية باقامة نظام اقتصادى يختلف كل الاختـلاف عن النظـم الاقتصادية المتبعة فى غيرها من البلاد . الا أن ألمانيا النازية لم تكن أبدا مستكفية بذاتها ، وكذا الاتحاد السوفييتى ، كما يشهد بذلك مصدرو الآلات الثقيلة الأمريكيون . ان الحضارة الحديثة ، كما تعلم ، تطلق من القوى ما يحطم أى استكفاء ذاتى لدى الجماعات المحلية ، كبيرة كانت أم صغيرة .

وهذه القوى بعضها تكنولوجى ، كتحسين وسائل المواصلات والنقل ، وبعضها اقتصادى كالحاجة الى الأسواق والمجـالات الرحبة للتبـادل الاقتصادى الذى تستلزمه عمليات اطراد الانتاج الصناعى ، وبعضـها الآخر ثقافى ما دامت أفكار أى بلد وفنونه وعلومه عرضة لا محالة لأن تنقلها أجنحة المدنية الى البلاد الأخرى ، مهما أقيم فى طريقها من حواجز ايديولوجية ونظم سياسية مؤقتة . وازاء هذه القوى جميعا لا يمكن أن تبقى هناك « أسرار » قومية ، ذرية أو غير ذرية ، بصفة دائمة .

وبالتأكيد أن العالم الواحد الذى بحث وندل ويلكى [1] موضوعه

---

(١) يشير المؤلفان هنا الى كتاب Wendell L. Willkie, (*One World*, (London, 1943) وفى رأينا أنه تقرير صحفى بارع عن حالة دول الحلفاء وميادين القتال فى الحرب العالمية الثانية ، الا أن قيمة الكتاب العلمية مشكوك فيها — **المترجم**

آخذ فى التكون منذ قرون . ونحن تقترب الآن من مرحلة فى تقدم الانسانية خالية من الجماعات المحلية المستكفية بذاتها ، من أى حجم اللهم الا اذا توسعنا فى حدود الجماعة المحلية بحيث تشمل الأرض وما عليها . وما الجهود المبذولة فى الوقت الحاضر للارتقاء بالهيئات السياسية العالمية الا متفقة مع اتجاه المدنية الى الزحف الى كل مكان . وفى رأينا أن الأعمال المضادة التى يدأب البعض على القيام بها لتقويض الوحدة العالمية تنطوى على ارتكاز لحقائق الامتداد الطبيعى للجماعة المحلية .

الجماعات المحلية الكبيرة والصغيرة : لقد لاحظنا امتداد الجماعة المحلية عبر التاريخ حتى بلغت الحجم الذى يجعل منها أمة ، وربما وسعت العالم . وهذا لا يمنع من وجود جماعات محلية صغيرة لا تزال باقية ومتخلفة عن الجماعة الكبيرة فى الدرجة . ولا تقضى الأمة ولا الجماعة العالمية على القرية أو الجيرة وان كان من الممكن أن يصيبها التغيير . ونحن كمتمدنين نحتاج الى الجماعات المحلية الصغيرة والكبيرة على حد سواء . فالجماعة المحلية الكبيرة تمدنا بالفرص والاستقرار وتنظم اقتصادياتنا ، كما تبعث دائما على تزويدنا بثقافة أغنى وأكثر تنوعا . وليست الجماعة المحلية الصغيرة عديمة القيمة على كل حال ففيها نجد لذاتنا الخاصة الشديدة القرب الينا ، ومن جهة أخرى تمدنا الجماعة الكبيرة بالطمأنينة والحماية وفكرة الوطنية كما تدفعنا أحيانا الى الحرب ، وتمدنا بالانتاج الصناعى الحديث كالسيارات وأجهزة الراديو . ونحن نجد فى حدود الجماعة الصغيرة الأصدقاء ونستمتع بصداقتهم كما ننعم بأحاديث القيل والقال والمنافسات الصريحة بين الأفراد والتباهى بالانتساب الى المكان والبيئة المحلية . ومن هذا نستخلص أن كلا من الجماعة الصغيرة والجماعة الكبيرة لازمان لعملية اطراد الحياة الكاملة .

وستعرض لنا الفرصة فيما بعد لتحليل النواحى المختلفة للجماعة

المحلية [1] . ان مدلول الاصطلاح « جماعيـة محلية » سـيكون أكثر وضوحا حينما نوازنه بالاصطلاح المضاد له والتالى من حيث كونه مفهوما رئيسيا ، وهو الرابطة (والجمع روابط) .

الروابط كوسائل لبلوغ الأغراض : هناك ثلاث طرق يتبعها الناس لتحقيق أغراضهم . الأولى أن يعملوا مستقلين ، بأن يحاول كل فرد أن يسلك سبيله دون أن يفكر فى أقرانه أو فى أعمالهم ، ومع أن هذه الطريقة تبدو مرغوبا فيها فانها غير اجتماعية وقاصرة ما دامت تطبق وسط أفراد آخرين تربطنا بهم وسائل العيش . والطريقة الثانية أن يحقق النـاس أغراضهم فى الحياة من طريق الصراع بعضهم مع بعض ، بأن يحاول كل منهم أن يغتصب من الآخرين ما يرى أنه ذو قيمة كبيرة بالنسبة له . الا أن هذه الطريقة اذا لم تكن منظمة بالقانون تعتبر غير مؤكدة ومضيعة للوقت والجهد ، كما تتعارض مع بقاء المجتمع واستمراره . نعم ، ان الصراع ، كما سنرى فيما بعد ، من المقومات الثابتة للحياة الاجتماعية ولكنه فى الأغلب كالمنافسة الاقتصادية محدد ومنظم اجتماعيا . وأخيرا قد يسعى الناس لتحقيق أغراضهم متضامنين ، على أساس تعاونى ، بحيث يساهم كل منهم بدرجة وبطريقة ما فى تحقيق أغراض أقرانه .

وهذه الطريقة الأخيرة ، أى التعاونية ، قد تكون تلقائيـة كمد يد المسـاعدة الى أحد الغرباء ، وقد تكون عرضية كما قد تحددها عادات الجماعة المحلية كما هى الحال بين الفلاحين الذين يعاونون جيرانهم فى زمن الحصاد . ومن جهة أخرى قد تنظم احدى الزمر نفسها بقصد تحقيق مصالح أفرادها مجتمعين . وعندما يحدث ذلك ينشأ ما يسمى بالرابطة .

---

(١) انظر الفصل الثانى عشر .

ونحن نعرف الرابطة بأنها زمرة من الناس تكونت لتحقيق مصلحة أو مصالح مشتركة .

الرابطة والجماعة المحلية : يستنتج من تعريفنا الذى ذكرناه آنفا أن الرابطة ليست جماعة محلية ولكنها هيئة قائمة فى داخل الجماعة المحلية . والجماعة المحلية شيء أكثر من الهيئات الخاصة التى تنشأ فى داخلها . ويمكن أن نوازن فى هذا المقام مثلا بين المحل التجارى أو الكنيسة أو النادى وبين القرية أو المدينة أو الأمة . وفيما يتعلق بالمحل التجارى أو الكنيسة أو النادى يمكننا أن نتساءل : لماذا يوجد كل منها وما معناها ؟ ويمكننا أن نجيب على تساؤلنا بالرجوع الى المصالح التى دعت لقيامها . ولكن اذا سألنا عن سبب وجود الجماعات المحلية لا يمكننا أن نحصل على مثل هذا الجواب المحدد . (وقد نستطيع أن نسأل : لم تقوم جماعة محلية كمدينة ما فى المكان الذى تقع فيه الا أن هذا سؤال مختلف) .

وهناك تضاد آخر بين الجماعة المحلية والرابطة يتكشف بتأمل ناحية المصلحة فى الروابط ، ونظرا الى أن الرابطة تكون لأغراض خاصة ، لتحقيق مصالح معينة ، فاننا ننتسب اليها بسبب هذه المصالح فحسب . اننا ننتسب الى النادى الرياضى لأغراض تجديد نشاطنا الجثمانى أو للرياضة ولكننا نشترك فى محل تجارى لكسب معاشنا أو للحصول على ربح مادى أو الى ناد اجتماعى للاستمتاع بالزمالة ، ان للعضوية فى الرابطة معنى محدودا . وفى الحق أن الرابطة قد تستولى على كل مشاعرنا وكذلك قد تكون المصالح التى تسعى الرابطة الى تحقيقها أكثر اتساعا من المعلن رسميا أو مختلفة عنه . ولكننا ننتسب الى الروابط بسبب المصالح المعينة التى نحصل عليها . ويترتب على ذلك أن تنشأ روابط متعددة فى داخل الجماعة المحلية وأن يكون من الجائز للفرد أن ينتسب

الى كثير منهـــا . ومثلا كان المعروف أن المغفور له الرئيس بتلر ، مدير جامعة كولومبيا كان عضوا فى عشرين ناديا ، الى جانب عشرات من الروابط [١] .

وقد تصير الروابط جماعات محلية ، على الأقل بصفة مؤقتة ، ومثال ذلك شركات التجارة المعروفة فى القرن السابع عشر التى اتخذت لهـــا مقار بعيدة عن بلادها وأصبحت جماعات محلية من جميع الوجوه ، أو الوحدات العسكرية التى اضطرتها الظروف الى أن تتحول الى جماعات محلية فترة من الزمن [٢] .

وهناك حالات لهيئات يقع تشكيلها بين الجماعة المحلية والرابطة مثل أديرة الرهبان وأديرة الراهبات والسجون التى ناقشناها فى القسم السابق . والنظامان الاجتماعيان الرئيسيان اللذان قد يبدوان واقعين على الحدود الفاصلة بين الروابط والجماعات المحلية هنا الأسرة والدولة . وسنعالجهما بالتفصيل فيما بعد ، غير أن كلا منها يحتاج الى تعليق موجز فى هـــذا البحث التمهيدى المتصل بالمفهومات الأولية .

الأسرة كرابطة : لوحظ أن للأسرة فى بعض اشكالها — وعلى الأخص فى بعض المجتمعات البدائية والريفية بمعنى الكلمة — كثيرا من صفات الجماعة المحلية ، ففى هذه الحالات يكدح الناس ويلعبون بل يتعبدون فى

---

(١) أنظر W. F. Ogburn and M.F. Nimkoff, *Sociology* (Boston, 1940), pp. 258-260 .

(٢) أنظر C. H. Page, "*Bureaucracy's Other Face*" "*Social Forces*", XXV (Oct., 1946), 88-94.

ويمكن للقارىء أن يقارن حياة وحدة الجيش المصرى التى حوصرت فى الفالوجة فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ والتى تحولت الى جماعة محليـــة مستكملة الشرائط — **المترجم**

الأغلب فى داخل حظيرة الأسرة . ان الأسرة تحدد الى حد كبير حياة أعضائها ان لم تضع القواعد لكل صغيرة وكبيرة فيها .

ومع ذلك فالأسرة فى المجتمع الحديث ، كما فى الحضارات المعقدة تصبح رابطة بلا منازع ، وذلك فيما يختص بالبالغين من أعضائها ، وذلك لأنها بالنسبة الى الأطراف الأصلية المتعاقدة فيها تعتبر رابطة مؤسسة بصفة خاصة لتحقيق أغراض معينة . وهذه المصالح هامة جدا لكنها مع ذلك محدودة . ان وظائف الأسرة تزداد انكماشا وتحديدا كلما ازداد تقسيم العمل الاجتماعى . وسنعالج هذه العملية المطردة المظهر فى فصل لاحـــق .

والأسرة ، حتى فى أكثر المجتمعات تعقيدا ، تعتبر أكثر من رابطة بالنسبة للأحياء المتزايدين فيها . وبالنسبة للطفل تأخـــذ الأسرة مظهر الجماعة المحلية التمهيدية التى تعده الى الجماعة المحلية الكبرى . وهى تتحول — بالنسبة له على درجات لا يصل اليها ادراكه — الى رابطة ذات مصالح عنيفة فى غالب الأمر ، الا أنها محدودة . ويترك الطفل الأسرة بعد ذلك ، حينما ينمو ليكون أسرة جديدة .

الدولة كرابطة : كثيرا ما يحدث خلط بين الدولة والجماعة المحلية . والدولة فى واقع الأمر شكل من أشكال النظام الاجتماعى ، ولا تمثل الجماعة المحلية من جميع نواحيهـــا . ونحن نميز مثلا بين الدولة وبين الكنيسة ، وبين النظام السياسى والنظام الدينى ، والخلط بين الجماعة المحلية والدولة يزداد باستخدامنا لأى من الاصطلاحين ليعنى الآخر . وعلى ذلك فالعبارة « الولايات المتحدة » تشير اما الى الدولة القومية مع جهازها الحكومى واما الى الجماعة القومية الكبرى التى تحكمها .

ومن المهم جدا ، لكى نفهم التركيب الاجتماعى وبالذات تطور هذا التركيب ، أن ندرك ما تحتويه الدولة من صفات الرابطة . ان الدولة

قوة بعيدة المدى من نوع خاص ، ولكنها مع ذلك قــوة . وقد تزعم لنفسها سلطة مطلقة أو شكلا اشتراكيا ، معتبرة نفسها صاحبة حق فى السيطرة على كل نواحى الحياة الانسانية . وحتى اذا تحقق هذا الذى تطالب به لنفسها تحققا كاملا — وهذا ما لن يحدث أبدا — فان الدولة لن تصير جماعة محلية ، بل رابطة تسيطر على الجماعة المحلية .

ان كل الناس هم حتما وبالتأكيد مواطنون بالدولة . ولكنهم أيضا أعضــاء فى أسر وفى كنائس وفى أندية ، وهم أصدقاء تربطهم بغــيرهم روابط الصداقة أو محبون يعشقون أفرادا من الجنس الآخر ، أو علماء أو عمال أو فنانون يجتمعون بمن على شاكلتهم . ومهما كان دور المواطن حافلا بالمعانى ، فانه واحد من أدوار كثيرة يلعبها الفرد ككائن اجتماعى .

ويجب أن ندرك أن الدولة تختلف من نواح هامة عن جميع الروابط الأخرى . وسنناقش فيما بعد خصائص الدولة وقصورها والمصالح التى تسعى اليهــا [1] . ويجب أن يستقر فى أذهاننا — حتى تتناول هــذا الموضوع — أن الدولة كشكل من أشكال النظام الاجتماعى هى كرابطة مثل الكنيسة أو المحل التجارى أو النادى .

الروابط كقوى تعمل بالنيابة عن الأفراد وصفتها التضامنية : تعتبر الروابط وسائل أو قوى يستطيع أعضاؤها من طريقها أن يســعوا الى تحقيق مصالحهم المتشابهة والمشتركة . ومثل هذه الهيئات تعمل بالضرورة كوكالات لا من طريق زعمائها فحسب ، ولكن من طريق أعضاء مجالس ادارتها وموظفيها أو ممثليها .

وقد يحكم الموظفون أو أعضاء المجالس هذه الهيئات الى درجــة تصبح معها مصالح الأغلبية تابعة لهؤلاء ، وحيثما وجد نظام اجتماعى

(١) أنظر الفصل الثامن عشر .

وجدت مشاكل الحكم البيروقراطى والحرية البيروقراطية . وقد تكون السيطرة فى أيدى الأعضاء . وعلى أى الحالين تعمل الرابطة من طريق وكلاء مسئولين عنها وأمامها . وهذا الأمر يكسب الرابطة صفة مميزة لها ، كما يعطيها مركزها القانونى الخاص بها .

وليس للرابطة فى واقع الأمر مصالح ليست هى مصالح بعض أعضائها أو كلهم . ولكن لها أساليب للعمل تعتبر من لواحقها من حيث كونها رابطة . فقد تكون لها ممتلكات ليست مجرد مجموع ممتلكات أفرادها ، وقد تكون لها أرصدة لا يستطيع الأعضاء أن يوزعوها بين أنفسهم كلما استمرأوا ذلك . ان للرابطة حقوقا والتزامات وسلطات مخولة لها ومسئوليات لا يستطيع أعضاء الرابطة أن يمارسوها بصفتهم أفرادا . فالمرافق العامة واتحادات العمال والأحزاب السياسية والأندية والكنائس لها ، كنتيجة لنظامها ووظائفها ، واجبات معينة وامتيازات خاصة من حيث انها مجموعات من الناس . وبهذا المعنى ، وتبعا للأساليب الخاصة للرابطة تعتبر هذه ذات صفة جمعية . وحينما تستقر أوضاع الرابطة قانونا وتصبح واجبات الرابطة وامتيازاتها قانونية تسمى فى الاصطلاح القانونى هيئة ذات شخصية معنوية .

استخدامنا للاصطلاح « زمرة » : نحن نقصد بالزمرة أية مجموعة من الكائنات الاجتماعية يدخل أفرادها بعضهم مع بعض فى علاقات اجتماعية مميزة لكل منهم . والزمرة اذن — كما نفهمها — تنطوى على علاقات متبادلة بين أعضائها . وقد عرفنا الرابطة كزمرة من الناس كونها أعضاؤها عامدين لتحقيق مصلحة خاصة . ووصف الرابطة بأنها مكونة عمدا يعيننا على أن نفرق بين الروابط وبين غيرها من الزمر الاجتماعية . وتوجد — كما سنرى — أشكال وأنواع كثيرة من الزمر الاجتماعية مثل

الطبقة ، والجمع ، والزمر الأولية ، والثانوية ، والزمر القائمة على علاقات الجيرة المباشرة ، والزمر الكبرى .

ولكن الطبقة الاجتماعية مثلا ليست « رابطة » ، حكمها فى ذلك حكم الجماعة المحلية . وتعتبر روابط الهيئات التى تقوم على أسس طبقية كالأحزاب السياسية ، ولكن الطبقة نفسها ليست زمرة تكونت عمدا لتسعى وراء أغراض معينة أو لتؤدى وظائف محددة . كذلك لا تعتبر رابطة الأسرة التى نسميها جمعا أو حشدا من الناس ، ولو أن بعض الجموع قد تصير روابط على الأقل بصفة مؤقتة (وبذا تفقد صفة الجموع) اذا أعيد تكوينها لتحقيق مصالح معينة .

النظم السائدة

تعريف النظم السائدة بانها الاشكال المقررة لاساليب العمل أو السلوك فى الحياة الاجتماعية : من المألوف فى بعض الأحيان أن نشير الى أى شىء اتفق عليه اجتماعيا بأنه « نظام سائد » . واستخدام الكلمة بهذا المعنى العريض قد أوضحته مثلا أبحاث هـ . أ . بارنز الشاملة [1] ، والتى يصف فيها النظم الاجتماعية السائدة بأنها « التركيب الاجتماعى والآلة التى من خلالها ينظم المجتمع الانسانى ، كما يوجه وينفذ وجوه النشاط المتعددة المطلوبة لاشباع الحاجات الانسانية » [2] . واستنادا الى هذا المعنى تعتبر الأسرة والدولة نظما سائدة غير مختلفة فى ذلك عن الزواج والحكومة . وستكون لدينا فكرة أوضح عن التركيب الاجتماعى اذا ميزنا بين النظم السائدة والروابط . وفى هذا الكتاب سنقصد دائما

---

(١) أنظر : H. E. Barnes, *Social Institutions* (New York, 1942).

(٢) نفس المصدر — ص ٢٩ .

بالنظم الأشكال المقررة وأساليب العمل والسلوك الذى يتميز به نشاط الزمر [1] .

النظم السائدة والروابط : حينما ينشىء الناس الروابط يتحتم عليهم أن يضعوا القواعد وأساليب العمل اللازمة لانجاز الأعمال الخاصة بالمجموع ولتنظيم علاقة الأعضاء بعضهم ببعض . وتعتبر أساليب العمل هذه نظما سائدة . ولكل رابطة نظمها السائدة الخاصة بها والتى تتلاءم مع مصلحتها الذاتية . فللكنيسة مثلا حفلاتها الدينية وأساليب عباداتها وطقوسها . ومن النظم السائدة لحياة الأسرة الزواج ، وهو نظام قصد به تحديد علاقة العشرة ، وللأسرة أيضا نظام الحياة البيتية ونظام طعامها المشترك وغير ذلك . وتسود فى الدولة كذلك نظم خاصة بها كنظام الحكومة التى تمثلها ونظم الاجراءات التشريعية . وتمدنا الخريطة التوضيحية رقم (١) بأمثلة أخرى .

ونحن ننتمى الى روابط لا الى نظم سائدة . ويحدث أحيانا خلط بين النظام السائد والرابطة نظرا لأن أيا من الاصطلاحين قد يستخدم للدلالة على الاصطلاح الآخر . ولا توجد صعوبة اذا قرنا وفقا لتعريفنا أن الكنيسة رابطة وأن الاتصال بالله من النظم السائدة فى الكنيسة وأن اتحاد العمال رابطة وأن المساومة الجماعية نظام سائد فيها ، وأن الأسرة رابطة كما أن الزواج المونوجامى (زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة) نظام سائد فيها . ولكن ماذا نسمى المستشفى والبرلمان والسجون والكلية أو المعهد العلمى ؟ اننا حينما نتحدث عن أحد المستشفيات قد ينصرف تفكيرنا الى بناء لرعاية المرضى ، أو الى أداة للخدمة الطبية ، أو مؤسسة عامة

---

(١) Compare W.H. Hamilton's interpretation "Institution", *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), VIII, 84-89.

أو خاصة لسد حاجات اجتماعية معينة . وبعبارة أخرى تفكر فيها كنظام من هــذه الأنظمة الســائدة والمألوفة لنا التى أشرنا اليهــا . وقد ننظر للمستشفى على أنه هيئة من الأطباء والممرضات والخدم ، وبعبارة أخرى يكون المستشفى فى هذه الحالة رابطة . وهذا يوحى الينا بالمفتاح الصغير الذى يمكن أن يساعدنا على ايجاد جواب لسؤالنا . ولزيادة هذه النقطة وضوحا نقول اننا اذا كنا نتحدث أو نفكر فى زمرة منظمة ، فاننا نتحدث عن رابطة ، واذا كنا نشير الى شكل من أشكال القواعد أو الاجراءات فاننا نقصد النظام السائد . واذا كانت الرابطة تشير الى العضوية فان النظام السائد يرمى الى الأسلوب أو الطريقة التى تؤدى بها الأعمال . واذا نظرنا الى كلية كهيئة من المدرسين والطلبة فانما نكون قد اخترنا أن ننظر اليها كرابطة ، واما اذا نظرنا اليها كأداء للتعليم فانما نكون قد اخترنا أن ننظر اليها كواحد من تلك النظم السائدة المقررة . ونحن لا ننتمى الى النظم كنظــام الزواج أو نظــام الملكية أو النظم التى تزج بالنــاس فى السجون ، وانما ننتمى الى الأسرة ، والى الدولة ، وفى بعض الأحيان الى السجون اذا صدر عنا ما يستلزم هذه العقوبة .

النظم والجماعة المحلية : ينبغى أن نلاحظ أن هناك نظما قررتها الجماعة المحلية مثل تلك التى تضعها « الروابط » . مثال ذلك الأعياد والحفلات التى تقام لمناسبات هامة ، وأساليب الترفيه والتسلية . أنظر الى مجتمعنا الحضرى وما اصطلح الناس عليه فيه من قواعد منظمة لاعطاء «المواعيد» أو الطريقة التى تتبعهــا الأسر والأفراد فى الذهاب الى دور السينمــا أو الاستماع الى الراديو . وهذه الاجراءات المعبرة عن هذه الرغبات هى على التحقيق جزء من الأساليب العلمية المتبعة فى أغلب الأحيان فى داخل

الروابط . وهكذا يتم ترتيب المقابلات بين طلبة الكليات الجامعية أو تنظيم الاستماع الى الراديو فى داخل أسرة . ومثل هذه القواعد لا تضعهـا الروابط ولا هى مقصورة عليها .

ولا تنتج نظم الجماعات المحلية ، بعكس كثير من نظم الروابط ، عن تقرير واع متعمد لها . انها — على حد تعبير سمنر المشهور والمميز — متفق عليها أكثر مما هى قوانين مصنوعة [1] . وستتاح لنا الفرصة فى آخر الأمر الى أن نصل الى النتيجة الآتية : وهى أن جميع النظم سواء أكانت صادرة عن الجماعات أم عن الروابط تصبح متفقا عليها . « وحتى فى حالة ما اذا كان النظام السائد قد وضع عمدا فلن تكون كيفية وضعه محددة ، كما لا يمكن أن يكون مشكوكا فى كنهه » [2] .

طرق دراسة النظم السائدة : لقد شغل الباحثون أنفسهم منذ قرون بالتحليل التفصيلى لأساليب السلوك المتبعة فى المجتمعات . وقد اتبعوا لبحث هذا الموضوع ثلاث وسائل ، اما منفردة واما مجتمعة .

١ — **التحليل التاريخى :** وقد لجأ اليه الباحثون لتتبع النظام الواحد السائد خلال الزمن . فمثلا كثيرا ما نبحث من وجهة النظر هذه نشأة الديمقراطية النيابية وتطور الزواج المونوجامى (أو زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة) والمشروعات الرأسمالية . ومهما كانت مثل هذه الدراسات مجدية فانها تواجه الصعوبة الناشئة عن قيام طبيعة النظم على كونها متفقا عليها . وان البحث فى أصولهـا وفى أية أصول أخرى جهد لا ينتهى الى شىء .

---

(١) أنظر : W. G. Sumner, *Folkways*, (Boston, 1907), p. 54

(٢) أنظر Hamilton ، نفس المصدر ، ص ٨٤ .

٢ ـ **التحليل المقارن :** وهـذا يتضمن دراسـة نظم مفردة فى مجتمعات أو طبقات مختلفة فى المجتمع الواحد . وبهذه الطريقة درست أشكال الزواج وأنماط العلاقات بين الجنسين وطرق التصرف فى الممتلكات وأساليب تربية الأطفال . ويعتبر كتاب أرسطو فى السياسة ، المبنى على دساتير ١٥٨ مدينة يونانية مثالا مشهورا ومبتكرا للدراسة المقارنة . وقد لجأت الأبحاث الأنثروبولوجية خاصة الى هذه الطريقة . ومثل الدراسات التى قام بها كل من وسترمارك وبريفولت فى مجال الزواج ، وحديثا السيدتان روث بيندكت ومارجريت ميد ، تعتبر فى غاية الأهمية لطلاب البحث فى الأنواع المختلفة للنظم السائدة [١] .

٣ ـ **العلاقات بين النظم السائدة :** من الممكن دراسة النظم السائدة من ناحية كيفيات اتصالها بعضها ببعض فى المجتمع . وهـذه الطريقة التى تعنى أولا وقبل كل شىء بالعلاقات الوظيفية المتبادلة [٢] .

---

(١) E. Westermarck, *The History of Human Marriage* (London, 1921); R. Briffault, *The Mothers* (New York, 1927); R. Benedict, *Patterns of Culture* (New York, 1934); M. Mead, Sex and Temperament in Three Primitive Societies (New York, 1935). (المؤلفان)

ويمكن ان نضيف مرجعين هامين جدا للدراسة المقارنة من هذا النوع هما :

A. R. Radcliffe-Brown, *The Social Organization of Australian Tribes* (Oceania Monographs No. 1, Melbourne, 1931); M. Fortes and E. E. Evans-Pritchard (Editors), *African Political Systems* (O.U.P., London, 1940).

(٢) المقصود بالعلاقات الوظيفية فى لغة العلم حدوث واقعتين أو أكثر فى وقت واحد بحيث تكون بينهما علاقات علية مثل سقوط الأجسام على الأرض ووجود علاقة وظيفية تبعا لذلك بين الأجسام وبين جاذبية الأرض .
ـ المترجم

كثيرا ما تحوى تحليلات تاريخية كما تستخدم فى أغلب الأحيان الدراسة المقارنة للنظم السائدة أو توحى بها . وسنهتم فى كتابنا هذا بالعلاقات المتبادلة بين النظم نظرا لأن أيا منها لا يعمل منطويا على نفسه انطواء تاما . ولنختر مثالا واحدا للتدليل على ما نقول ، فالدراسة الواقعية للزواج تشتمل بالضرورة على العلاقات المعروفة بين الزواج نفسه وعدد من النظم السائدة كالنظم القانونية ونظم الملكية ونظم القرابة والنظم الدينية وغيرها .

وهنـاك تحذير لابد منه فى هـذه المناقشة الموجزة لدراسة النظم السائدة ، فان هذه القواعد المقررة لأساليب العمل هى منهاج تتبعها زمر من الناس . وسواء أكانت وسائل رسمية وضعتها الروابط أو أنماطا غير رسمية نمت فى الجماعة المحلية فان النظم السائدة فى الحياة العملية لابد أن تلازم حتى أولئك الذين يتبعون هواهم فى سلوكهم ، وعلى ذلك فالبحث فى واقع الحيـاة الاجتماعيـة يتضمن دائما الاشارة الى كل من النظم الانسانية السائدة والزمر الانسانية وعلى ذلك فاذا كان اهتمامنا منصبا على النظم السائدة بمعناه الذى شرحناه فانه يجب أن يتركز حول أساليب السلوك نفسها .

النظم السائدة والمصالح : توجد نظم سائدة معينة فى روابط متعددة الأنواع مثـل الدخول لأول مرة فى العضوية وانتخاب الاداريين وفرض نوع من الرياسة . وهنـاك نظم أخرى تختص بهـذا النوع أو ذاك من الروابط ، وهذه تتوقف طبيعتها على طبيعة المصلحة الخاصة التى تسعى الرابطة الى تحقيقها .

وتتمثل العلاقة بين الروابط والنظم السائدة والمصالح فى البيـان التوضيحى رقم (١) .

البيان التوضيحى رقم ١

الروابط والنظم السائدة والمصالح

الروابط	النظم السائدة المميزة لها	المصالح الخصوصية
الأسرة	الزواج والبيت وقواعد الميراث	العلاقة الجنسية والبيت والأبوة
الكلية الجامعية	نظم المحاضرات والامتحـانات وقواعـد الحصول على الدرجة الجامعية	التعلم والاعداد لمهنة معينة
العمل التجارى	نظام إمساك الدفاتر ونظام العضوية أو الشركة والمساهمة فى رأس المال	الأرباح
اتحـاد العمال أو النقابة	المساومة الإجماعية والاضراب عن العمل وحماية العمال للاضراب	المحافظة على العمل أو الوظيفة ونسبة الأجور وأحوال العمل
الكنيسة	العقيـدة والاتصال الروحى وأشكال التعبد	الإيمان الدينى
الحزب السياسى	الترشيحـات للبرلمان والنظـام الحزبى والأهداف الحزبية	تولى الحكم والسلطـة والسياسة الحكومية
الدولة	الدسـتور والقوانين وأشـكال الحكومة	الإدارة العامة لضمان انتظام الحياة الاجتماعية

العادات الجمعية ومظاهر السلوك العام والآداب العامة :

طبيعة العادات الجمعية : لا يرجى للنظم السائدة والروابط أى انتظام بمعنى الكلمة الا اذا ارتكزت واعتمدت على مركب معتمد من صنوف مختلفة من العرف وأساليب السلوك . ولذا توجد فى كل مجتمع طرق

متفق عليها لتناول الطعام واجراء المحادثة والالتقاء فى الحفلات وطلب يد الفتيات لزواج واعداد الصغار للحياة والعناية بالمسنين ، مما لا نهاية له تقريبا وتسمى طرق التصرف التى يقرها المجموع بالعادات الجمعية أو عادات المجتمع .

ونحن نسير وفق عادات مجتمعنا بلا وعى منا ، بمعنى من المعانى وذلك لأن هذه العادات جزء أصيل فى حياتنا الجمعية ، وهى أصيلة جدا فى الحقيقة لدرجة أننا كثيرا ما نخطىء بتوهمنا أن عاداتنا الجمعية الخاصة تمثل خير الوسائل للقيام بهذا العمل أو ذاك أو نزعم أن عاداتنا الجمعية تتفق والطبيعة الانسانية نفسها . وهذا الأمر يثير مشاكل سنعنى بها عناية تامة فى بعض الفصول التالية [1] .

التمييز بين النـظام السائد وبين العادة الجمعية : الفرق بين العرف الاجتماعى أو العادة الجمعية من جهة وبين النظام السائد من جهة أخرى فى حقيقة الأمر فرق فى الدرجة وينطوى النظام السائد على ما يتضمنه من فكرة الرضا الأصرح من جانب المجتمع .. وقد تسمى حفلة الزواج نظاما سائدا ولكن كثيرا من طرق الخطوبة يحسن أن تسـمى عادات جمعية . والزواج نفسه نظام سائد وليس بعادة جمعية . وللنظم شارات خارجية وعلامات تدل على رضا عامة الناس لا تحتاج اليها العـادات الجمعية من حيث هى كذلك . ونحن نسمع أحيانا ما مؤداه أن نظمنا السائدة معرضة لما يقوضها من أساسها ، ولكن هـذا الزعم لا ينطبق الا نادرا على عاداتنا الجمعية .

وهذا يوحى الينا بفرق آخر . فالاصطلاح « نظـام سائد » يؤكد فكرة العامل غير الشخصى فى العلاقات الاجتماعية . وحينما نتحدث عن

---

(١) أنظر الكتاب الثانى ، الباب الأول .

العادات الجمعية يكون ذهننا متجها نحو مظاهر السلوك العام الذى يتبعه الناس لأداء عمل ما مجتمعين ، خلال اتصالاتهم الشخصية . ولكن حينما نتحدث عن النظم السائدة نكون أميل الى التفكير فى أساليب الضبط الاجتماعى التى ترتد الى ما وراء العلاقات الشخصية . وهذه الأساليب هى الرابطة التى تصل الماضى بالحاضر كما تصل الحاضر بالمستقبل وتربط بين الناس وبين أسلافهم وآلهتهم ومن انحدروا منهم ، وعلى ذلك نحن لا نهتم اهتماما كبيرا بتغير العادات الجمعية المتعلقة بالخطوبة أو الأزياء أو قضاء وقت الفراغ وانما نهتم بما هو أعمق منها . ويمكن أن نتصور مقدار الأذى والاضطراب الذى يصيب بعض الناس نتيجة لكل ما يبدو أنه تهديد لنظام « الملكية » أو نظام « الزواج » أو نظام العمل الحر ، وجميعها من النظم السائدة التى تتفرع عنها النظم الكبرى السياسية والاقتصادية والدينية .

مظاهر السلوك العام : يتبع الناس عادات جمعية ويخضع سلوكهم للقواعد التى تفرضها النظم السائدة . ونحن فى حاجة الى اصطلاح يفى بكل هذه الأغراض ، أى مظاهر العرف التى أوجدها المجتمع . والاسم الذى صار منطبقا عليها هو « مظاهر السلوك العام » أو « مقاييس السلوك »[1] . وقد أصبح استعمال هذين الاصطلاحين عاديا فى كتاب و.ج. سمنر الموسوم « مظاهر السلوك العام » وقد استخدم اصطلاح « مظاهر السلوك العام » بمعنى شامل جدا . وفيما يلى عبارات سمنر :

« انها تشبه نتائج القوى الطبيعية التى يستخدمها الناس دون وعى منهم ، أو هى تقابل مظاهر السلوك الغريزية عند الحيوان وتنمو مع التجربة ، وتبلغ أعلى درجاتها بتلاؤمها مع مصلحة مطلوبة ، وتنتقل من

---

(١) Folkways, or mores كما ورد بالنص الأصلى — **المترجم**

جيل الى جيل دون شذوذ أو انحراف فى الأسلوب ، وهى مع ذلك قابلة للتغير لتتفق مع الظروف الجديدة ، فى نطاق نفس الأساليب المحددة ، ودون تعقل أو بحث فى الأسباب التى تدعو للتغير . ومن هذا نستنتج أن حياة الناس جميعا فى جميع العصور ومراحل الثقافة المختلفة تسيطر عليها أولا وقبل كل شيء مجموعة من مظاهر السلوك العام انحدرت للحاضر منذ القدم عن الأجناس الأولى ، متفقـة فى ذلك مع أساليب السلوك العام عند أنواع الحيوان الأخرى ولم يتغـير فيها الا ظاهرها نتيجة للفلسفة الانسانية والأخلاق والديانات أو نتيجة لتفكير ممتاز [1] .

وعلى ذلك فمظاهر السلوك العام هى كل ما هو مؤيد ومقبول من أساليب السلوك فى المجتمع ، وتشتمل على ما تواضع عليه الناس من آداب وتقاليد ، وبايجاز كل أساليب السـلوك التى تكونت ولا تزال آخذة فى التكون عند الناس ليهتدوا بها فى معاشهم . وانها تختلف بالطبع من مجتمع الى آخر ومن عصر الى عصر ، فمثلا ارتداء الرجال لرباط الرقبة فى مجتمعنا ما هو الا أسلوب من أساليب السلوك العام المتعلقة بالتزين ، وبنفس الطريقة نفسر استخدام النجريتو فى الفلبين للمبرد فى تزيين أسنانهم .

الآداب العامة كمنظمة للسلوك : اذا نظرنا لمظاهر السلوك العام لا من حيث كونها معايير للسلوك وانما كأدوات تنظيمية ، فاننا نتصورها فى هذه الحالة كآداب عامة . فكل عرف اجتماعى ، وكل مظهر من مظاهر السلوك العام ، هو بدرجة ما وسيلة للضبط الاجتماعى ، وحتى أبسط قواعد السلوك أو أتفه مظاهر التقاليد تصاحبها فكرة كونها السـلوك

(١) From *Folkways* by William Graham Sumner, Used by permission of the publishers, Ginn and Company. See also W. G. Sumner and A. G. Keller, *The Science of Society* (New Haven, 1927), I, 20.

الأمثل . ومن ثم لا ينبغى أن نظن أن الآداب العامة شيء يختلف من مظاهر السلوك العام . انها فى الحقيقة آداب سلوك عام تظهر بمظهر أدوات للضبط الاجتماعى . انها تعبر عن مستويات الزمرة وما تراه هـذه من تصرفات ملائمة وسليمة ، ومؤدية لسعادة المجموع .

ويرى سمنر أن التمييز يحصل أحيانا بين مظاهر السلوك العـام والآداب العامة . وذلك على أساس أن مظاهر السلوك العام حينما تضاف اليها معانى رفاهية المجموع ومستويات الخير والشر فانها تتحول الى آداب عامة . فارتداء الملابس من طراز معين مثلا يمثل فكرة المطابقـة لمظاهر السلوك العام ، بينما ارتداء الملابس فى ذاتها يفـرض الآداب العامة . ولزيادة التوضيح نقول انه توجد درجات للقهر على فعل الشيء ودرجات لمطابقته العامة — ولم يحدث أن كان الضبط الاجتماعى ضغطا منتظما ومتساويا مهما كان مصدره . ولكن منذا الذى ينكر الضغط المنظم الذى يصدر حتى عن أبسط مظاهر السلوك العام فى مجتمعنا ، مثل تناول الطبق الحلو فى نهاية وجبة الطعام بدلا من حدوث ذلك فى أوله ؟ اننا ننظر الى آداب المجتمع العامة ممثلة فى مظاهر العرف كقوى كبيرة للضغط على الناس .

ان الآداب العامة تمثل صفة الحياة فى الزمرة أو الجماعة المحليـة ، ومهمتها الضبط الاجتماعى لأعضاء المجتمع ، سواء أكان هذا الضبط مشعورا به أم غير مشعور به ، وهذه الآداب العامة اما أن تفرض أنواعا معينة من السلوك أو أن تمنعها ، واذا كانت وظيفتها المنع فانها تعرف باسم تابو او المحظورات . ولما كانت المجتمعات تختلف فيما بينها من حيث السلوك المسموح به والمحظور فمما لا شك فيه أن كل مجتمع يتميز بمفردات سلوكه التى تعتبر ذات تأثير دائم على وحدته . انهـا

تعمل باستمرار على الحد من حرية الفرد لكى ينسجم مع المجموع . وهى التى تؤدى الى اطراء الشخص أو تأنيبه على أعماله منذ الطفولة حتى السن المتقدمة ، أو بعبارة أخرى التصديق على أعماله المتمشية مع الآداب العامة واستنكار أعماله المضادة لها . والشخص غير المنسجم هو الذى يخالف بعض الآداب العامة « لا كلها » والشخص الهازل هو الذى يهون أحيانا من شأنها ، ولكن السوسيولوجى هو الذى يفهم وظائفها ودلالتها بالنسبة لحياة الانسان .

تنوع الآداب العامة : ليست الآداب العامة نتيجة لابتكار يدل على الفطنة والذكاء أو بعد النظر . ولا شك أنها الى حد ما تقوم على التجربة الاجتماعية للزمرة . ولكن على المرء أن يتأمل الآداب المتعارضة للوحدات الاجتماعية المختلفة لكى يتحقق من أن الصدفة والأحداث العرضية تلعب أيضا دورا كبيرا فى خلقها . ففى بعض المجتمعات يكشف الناس رؤوسهم كعلامة لاظهار الاحترام ، وفى مجتمع آخر يكشفون أقدامهم للسبب نفسه . وبعض المجتمعات يمنع زواج أعضائه من خارجها ، والبعض الآخر يشجع على الزواج من الخارج وهناك مجتمعات تكره زواج الأرامل ، وغيرها توصى به . وأكثر من ذلك أن بعض المجتمعات لديها قيود شديدة على المسائل الجنسية بالنسبة للمتزوجين وليس لديها قيود مماثلة بالنسبة لغير المتزوجين ، وقد نرى العكس فى مجتمع آخر . ومن الممكن أن نسوق أمثلة لا حصر لها على هذه المتناقضات[1] . وفى الواقع أن قليلا جدا من مظاهر السلوك محظور بصفة عامة فى العالم كله ، وقد يكون زنا الأم والابن معا هو السلوك الوحيد المحظور فى جميع المجتمعات الانسانية . وهذا التنوع الضخم فى الآداب العامة كما نلاحظه من مجتمع

(١) هناك أمثلة متعددة على هذه المسائل فى كتاب :

W. I. Thomas, *Primitive Behavior* (New York, 1937).

الى آخر أو من زمرة الى أخرى يعتبر فى ذاته تحـذيرا كافيا لطالب الاجتماع لكى يجاهد فى سبيل وقوفه موقفا محايدا عندما يدرسها وذلك لخدمة الحقيقة العلمية .

الآداب العامة وصفتها المحافظة : ينظر المجتمع الى الآداب العـامة التى يسير عليها على أنها « سليمة » . ومن بين أسباب ذلك أنها تسجل مقدارا كبيرا من تجارب المجتمع — وعلى الأخص التجارب التى غمرها النسيان — ولكنها على أية حال تجارب وجهتها الظروف الحسـنة أو السيئة توجيها يجعلها تطيب فى نظر المجتمع . (أنظر مثلا الى المحظورات التى تحول دون تناول أنواع جيدة ووفيرة من الطعام عند بعض الشعوب، أو الى تعاوننا للعلاج العلمى والمنطقى للأمراض التناسلية) . هذه تجارب تحولت الى تقاليد ثابتة ، أفسدتها المصالح الوهمية ، وقوّاها الخوف أو الاشمئزاز من الشىء الذى نجهله بسبب عدم محاولاتنا له من قبل . وعلى ذلك فالآداب العامة تعتبر بوجه عام من عوامل المحافظة على الأفكار القديمة وبالطبع يصيب الاخفاق أكثر المحاولات القانونية لتغيير الآداب العامة ، كما هى الحال بالنسبة لقوانين منع تعاطى المشروبات الروحية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن جهة أخرى فان الآداب العامة لها مظهر الثبات الخادع ، فهى تتغير تغيرا محسوسا من عصر الى عصر . ويمكن لاثبات ذلك أن نقارن بين مدى النشاط الذى كان مسموحا به للمرأة منذ ثلاثة أجيال وبين نشاطها المسموح لها به اليوم . وفى بعض الأحيان نجد بعض العناصر الهامة للآداب العامة تنقلب رأسا على عقب خلال تغير اجتماعى شامل ، وان كانت الآداب العامة ، كما يؤكد سمنر ، تبقى رغم التغيرات الفجائية التى تستلزمها نظم الحكم .

الآداب العامة والحياة الاجتماعية : يمكن أن نختم هذا الفصل التمهيدى ببيان موجز يتعلق بالوظائف العامة التى تؤديها الآداب فى الحياة الاجتماعية ، والأسباب التى تجعل طالب الاجتماع يهتم دائما بدراستها :

١ — ان الآداب العامة تحدد كثيرا من سلوك الفرد . انها الجهاز الآمر الناهى فى المجتمعات ، ومهمته الضغط على كل عضو فى المجتمع . ووظيفة الآداب العامة هذه ستعيننا بصفة خاصة حينما ندرس تعقد قواعد السلوك الاجتماعى وتنوعها فى مجتمعنا المعاصر .

٢ — تعمل الآداب العامة على ادماج الفرد فى المجموع . فاذا كانت الآداب العامة تمارس الضغط على الفرد ، من جهة ، لكى يتمشى مع أساليب مجتمعه ، أو طبقته الاجتماعية ، أو نوعه ، ذكرا كان أم أنثى ، فان الفرد ، من جهة أخرى ، يكسب اندماجه مع أقرانه من هذا الطريق . وبهذه الكيفية يحفظ الروابط الاجتماعية التى لابد منها للمعيشة الهادئة .

٣ — وأخيرا فان الآداب العامة تعتبر ، بعد تأمل ما عداها ، الوسيلة الكبرى لحماية التضامن الاجتماعى — ولكل وحدة اجتماعية آدابها العامة ، فهناك آداب للذكور ، وأخرى للاناث ، وللأعمار المختلفة ، كما أن هناك آدابا لجميع الطبقات والزمر من الأسرة حتى الأمة وما يليها . وتسعى كل مجموعة من الآداب العامة الخاصة بكل وحدة من هذه الوحدات للمحافظة على تضامن المجموع وتماسكه . وكل زمرة تتوق الى زيادة تضامنها تسعى الى أن تقوى تأثير الآداب العامة فى أعضاء الزمرة .

ولما كانت الآداب العامة تتنوع تنوعا كبيرا وتتناقض فيما بينها فى المجتمعات المختلفة فان قوتها تضعف فى المجتمعات الكبيرة الحجم حيث تتعدد الزمر فى داخلها . وعلى العكس من ذلك تكون الآداب العامة

أشد قهرا وأكثر تماسكا وقدرة على الضم والتوحيد فى الجماعات المحلية الزراعية منها فى المدن . وفضلا عن ذلك فان الآداب العامة المتشعبة فى المراكز الحضرية تواجه الفرد كثيرا بأنواع من السلوك المتضارب لكى يختار منها .

وتصبح الآداب العامة أكثر تخصصا كلما تطور المجتمع . انها تبدو كملسلة من قواعد السلوك الخاصة والعادات الجمعية والعادات المستحدثة والقوانين والأوامر الدينية والتعاليم الثقافية . وسنرى أن هذه العناصر الداخلة فىالآداب العامة تجعل سيطرتها أكثر مرونة ، كما تدعوها الى أن تمد التجربة الاجتماعية لكل شخص بالوسائل اللازمة للافصاح عن نفسها افصاحا أتم [١] .

---

(١) مثال ذلك الرجل الذى تلزمه بيئته الدينية بان يلبس العمامة فاذا تخلى عنها ولبس القبعة يوما ما أمكنه أن يحتج بأنه حصل على ثقافة أوربية لا تجعله يتحرج من لبسها .

— المترجم

الفصل الثانى

المصالح والمواقف

المواقف والحياة الاجتماعية

ظواهر اجتماعية وظواهر سيكولوجية : سنوجه اهتمامنا فى هذا الفصل الى الظواهر السيكولوجية ، أى المتعلقة بالفرد . ومع أننا معنيون بالعلاقات الاجتماعية الا أننا سنحول التفاتنا من العلاقات نفسها الى من تشملهم هذه العلاقات . ونحن حينما ندرس طبيعة الأفراد من حيث كونهم كائنات ذات سلوك ، أو ماهية الوعي الفردى التى تترجم نفسها من طريق العلاقات الاجتماعية ، فاننا نفكر من وجهة النظر السيكولوجية . وحينما ندرس العلاقات نفسها يكون تفكيرنا من وجهة النظر الاجتماعية (السوسيولوجية) . وعلم النفس وعلم الاجتماع كلاهما يدرسان جوانب مختلفة لحقيقة واقعة لا تقبل التجزئة . فالأفراد لا يمكن أن نفهمهم وهم منفصلون عن علاقاتهم بعضهم ببعض . والعلاقات يتعذر علينا أن نفهمها وهى منفصلة عن الوحدات أو الأطراف التى تنتهى عندها . وهذا يجعلنا طلاب علم نفس — بالاضافة الى عملنا — حينما ندرس المجتمع . ويؤكد علماء النفس أنفسهم باستمرار ، أنهم يصبحون طلاب اجتماع بطريقة آلية حينما يدرسون سيكولوجية الأفراد . وهذا التداخل الحادث فى هذه الدراسات ينتهى بنا الى أن نقرر أن الفرق بين علم النفس وعلم الاجتماع فرق فى الجانب الذى نهتم به أكثر من غيره فى الحقيقة الاجتماعية الواقعة .

ويهتم الاجتماعي أول ما يهتم بالأسلوب الذى يتبعه الأفراد الواعون فى علاقاتهم بعضهم ببعض . ومعلوم أن عوالم كثيرة تكمن وراء وجدان الفرد كعالم البواعث النفسية والعصبية للسلوك ، وفسيولوجيا الاحساس والادراك ، والعمليات الوراثية المطردة ، ووظائف الغدد . الا أن الاجتماعى لا يهتم بكل هذه المسائل الا من حيث القائها الضوء على المشاكل الخاصة التى يبحثها — وهى مشاكل السلوك المشعور به ، وهذا السلوك الواعى — كما يمكن أن نسميه — يصحبه دائما نشاط عصبى وعضلى معا . ونحن اذا وقفنا عند هذه النقطة فى دراستنا لما أمكن أن تتقدم تقدما محسوسا فى تفسير العمليات الاطرادية للشعور أو الوجدان. أنظر الى طالب الموسيقى وهو يستعين بمعرفة فسيولوجيا الأذن والمخ فى الوقت الذى يهتم فيه أولا بالموسيقى ذاتها ، وان طالب الاجتماع يستخدم نفس الأسلوب فهو يستعين بمعرفة الخلايا العصبية ولواحقها ولكن همه الأول منصب على تحليل العلاقات الاجتماعية .

وستكون خطتنا فى هذا الفصل أن نفيد من نتائج دراسات علم النفس كلما سنحت المناسبة ، وأول ما يلفت نظرنا من هذه النتائج ويعتبر ذا أهمية خاصة فى التحليل الاجتماعى ، مسألة التمييز بين المصالح والمواقف .

العلاقة بين المصالح والمواقف علاقة تضايف (1) : أنظر الى الاصطلاحات التى تتكون منها القائمتان الآتيتان :

الخوف — العدو	التباهى — الأسرة
الحب — الصديق	العطف — ضحية الحادث
المفاجأة — الاستكشاف	التوقير — الله

(1) المقصود بعلاقة التضايف عند المناطقة العلاقة الاقترانية أو الوظيفة كالعلاقة بين رطوبة الطقس ومرض الروماتيزم أو العلاقة بين البطالة والاجرام . — المترجم

نجد أن القائمة اليمنى تشير الى مواقف والقائمة اليسرى الى مصالح . وجميع المواقف تدل على رد فعل ذاتي ، أو حالات وجدانية يحس بها الفرد في داخل نفسه ، ولها علاقة بأشياء خارجية . وتدل القائمة الثانية على هذه الأشياء الخارجية . وعلى ذلك فاذا ذكرنا الحب أو الخوف فانما نشير الى موقف من المواقف ، واذا ذكرنا الصديق أو العدو فانما نشير الى مصلحة من المصالح .

وتتضمن العلاقات الاجتماعية دائما كلا من المواقف والمصالح التي تربط بها ، ويترتب على ذلك وجوب شمول التعريف الكامل للعلاقات الاجتماعية كلا المواقف والمصالح . فاذا قلنا مثلا ان أحد الأشخاص « خائف » وجب علينا أن نوضح السبب الذى من أجله يعتبر خوفه استجابة له . فقد يكون خائفا من ثعبان ، أو من الشرطة ، أو من التشهير به ، أو من اعتلال الصحة ، كما أنه من الجائز أن يكون خائفا من نزواته الخاصة . وبالعكس اذا قلنا ان أحد الأشخاص يتركز اهتمامه ، أو تتجه مصالحه ، نحو القانون ، أو الدين ، أو النساء ، وجب علينا أن نوضح المواقف التي تتلاءم مع هذه المصالح . فكل من اللص والشرطي ورجل القانون له مصلحة في القانون . وبديهي أن مواقفهم ازاءه مختلفة. والدين يحظى بأن يجد فيه كل من الملحد والمؤمن مصلحة قوية ، فالأول مصلحته الهدم والثاني مصلحته العبادة . ومن يجدون مصلحتهم في التقرب الى النساء اما أن يكونوا من المعجبين بهن أو الذين يعلنون كرههم لهن . وعلى ذلك فدراسة حقيقة السلوك العقلي تتطلب معرفة كل من المصلحة الموضوعية والموقف الذاتي . وان وصفنا للمصالح بأنها موضوعات المواقف الذاتية لا يعنى بالطبع أن هذه الموضوعات تكون بالضرورة وقائع مادية أو خارجية . فمصالح الانسان هي الأمور التي يتوجه اليها انتباهه . وهي تتراوح بين ما هو مادي من الظواهر مثل

المعاول والتربة الزراعية والطقس ، الى المعتقدات الروحية والأساطير والنظريات العلمية . خذ مثلا اهتمام المؤلفين أو مصلحتهما المباشرة فى النقطة التى يعالجانها الآن ، وهى تعريف المفهومات التى يحتاج اليها الباحث لتحليل الحقيقة الاجتماعية الواقعة . هذه الحقيقة التى تقوم على ما هو مادى وما هو غير مادى .

كيف تنمو المواقف : يتضح الدور الذى تلعبه المواقف فى الحياة الاجتماعية عندما نبحث نموها الاطرادى فى حياة الفرد . فالطفل الصغير يتصرف كما لو كان مركز عالمه الصغير الذى يعيش فيه ويحسه ، وحينما يبدأ فى تقويم الأشياء يفعل ذلك أول الأمر لمجرد البحث عن صفاتها من حيث كونها تجلب له اللذة أو الألم . وهو لا ينظر الى غيره من الناس على أنهم أشخاص ولا يربط نفسه بهم بصفتهم كذلك .

ولا يرى الطفل فى ثدى أمه وزجاجة اللبن والأيدى التى تعنى به ، والسرير الذى ينام عليه ، والمربية ، وعربته ، والكلمات المتداولة بين الكبار ، والضوضاء ، والنور ، والظلام ، الا أشياء ترتطم بوجوده وتخدمه . ومعنى هذا أن موقفه ازاءها موقف الذى يعتبر نفسه مركز الأشياء أو مقياسها جميعا [١] .

ويتعلم الطفل خلال نموه العقلى كيف يميز بين الأشخاص والأشياء. ويصبح من اللحظة التى يستطيع فيها ذلك قادرا على ممارسة العلاقات الاجتماعية ، اذ يرى فى نفسه أنه مرتبط بغيره من الناس ويشعر أن من المتعذر عليه أن يفلت منهم . فيميز بين أهله وأقرانه وبين غيرهم ، ويحدد

---

(١) انظر بخصوص مركزية النفس فى موقف الطفل :

Jean Piaget, "Intellectual Evolution," in *Science and Man* Ruth N. Anshen, ed., (New York, 1942), pp.409-422 and *The Moral Judgment of the Child* (Eng.Q tr., New York, 1932).

لنفسه المسافة الاجتماعية بينه وبين والديه واخوته وزملائه فى اللعب وفى المدرسة ، حتى يبلغ دوائر أكثر اتساعا من الدوائر التى تضم هؤلاء . وعندما يتعود أن يقول « نحن » لا مجرد « أنا » متميزا بذلك عن حيوان مركزى النفس كالقط مثلا تكون هذه نقطة البداية فى تنشئته الاجتماعية.

ويلى ذلك أن يحيط الطفل أقرب الناس اليه بهالة من العظمة ، فأمه ألطف النساء جميعا ، وأبوه أحكم الرجال كلهم ، ومدرسته أفضل المدارس قاطبة . وبذلك تنشأ فى نفسه مواقف موجهة نحو فئات كبيرة من الناس ، تؤيد حبه لعشيرته أو قبيلته ، أو جنسه البشرى أو أمته أو طبقته الاجتماعية . وهذا هو السبب الذى يجعل التعصب الاجتماعى عند الناس متأصلا فيهم ويؤدى الى أن يقاوموا بشدة كل تغير . ويجب أن نذكر أنهم قد تعلموا وتشكلوا بطريقة خاصة خلال اطراد عملية تنشئتهم الاجتماعية مع ما تتميز به من بطء عند الانسان دون سواه من بين سائر الحيوان . وكما تربى التنشئة الاجتماعية عند كثير من النـاس عدم التسامح والتعصب ، تخلق فى غيرهم عكس هذه الصفات — التسامح وحسن الفهم .

المواقف والعلاقات الاجتماعية : يتحتم لأسباب علميـة أن نميز بين صنوف من المواقف من حيث عملها على جمع شمل الأفراد أو تشتيتهم ، وعلى حد تعبير البعض ، لو نظرنا من خلال العدسة الاجتماعية الى هذا البحر المتلاطم من العلاقات الانسانية لوجدنا أنها تنقسم الى قسمين : أنماط للتباعد ، وأنماط للتقارب [1] ، يؤيد هذه الفكرة أن بعض المواقف تدعو فى حقيقة أمرها الى التقارب نحو من توجه اليهم ، والبعض الآخر يدعو الى التباعد . فالحب يعمل على التقارب ، والخوف والاشمئزاز

(١) أنظر : L. von Wiese, *Systematic Sociology* (H. Becker, ed., New York, 1932), p. 39.

يدعوان الى التباعد . والكره يفصل بين الناس اجتماعيا ان لم يكن جسديا ، كما أن العطف يقرب بين الناس . وقد يتحد من امتلأت نفوسهم بالحسد وعدم الثقة لا لشيء الا ليقاوموا معا من هم موضع حسدهم أو عدم ثقتهم .

١ ـ **المواقف والعلاقات الشخصية :** تنطوى كل علاقة اجتماعية فى الحقيقة على نوع من الانسجام أو التوفيق بين المواقف من جانب أولئك الذين يقيمون بين أنفسهم هذه العلاقة . وأنواع هذا التوفيق من الكثرة كأنواع الظروف التى تربط بين الناس . فالتودد مثلا قد يصادف توددا أو عدم اكتراث أو عداوة . وصفتا الاعتداء والاذعان تكونان موقفين يكمل أحدهما الآخر ، وكثيرا ما يظهران فى العلاقات الاجتماعية ، مثال ذلك التهيج الجنسى عن طريق الاذعان للألم أو عن طريق القسوة والايذاء، اذا أردنا أن نتحدث بلغة علم النفس حتى لو استخدمنا اصطلاحا واحدا للدلالة على موقفين لشخصين يدخلان فى علاقة واحدة قد يكون أحد الموقفين مكملا الموقف الآخر لا شبيها به . فحب الوالد لابنه مثلا يخالف ويكمل فى نفس الوقت حب الابن لوالده . وعلى ذلك فالحب والكره والخوف وما اليها هى فى الحقيقة اصطلاحات يشير كل منها الى أنواع كثيرة من المواقف التى تظهر فى علاقات الأفراد أو علاقات الزمر .

٢ ـ **المواقف والعلاقات بين الزمر :** هناك حركة دائمة للانسجام أو التوفيق بين المواقف وذلك فى العلاقات التى تقوم بين الأفراد . ومع ذلك فهناك ميل فى كل زمرة لتحقيق المواقف المتشابهة أو الوحدة نحو المصالح المتعلقة بالزمرة ككل لا كأفراد . والمشاهد أن المواقف تستجيب استجابة قوية للايحاء الضخم الذى هو جزء من النظم التعليمية العامة والخاصة الشائعة فى كل المجتمعات . أنظر مثلا الى التغيرات غير العادية

التى طرأت على المواقف القومية عند الايطاليين والألمان نتيجة للنظامين الفاشي والنازى ، أو التغيرات الكبرى التى ألمت بالمواقف الأمريكية ازاء الشعبين الألمانى واليابانى خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد حدث أن شعوبا برمتها تحولت فجأة الى توقير أو احتقار رموز كانت تنظر اليها فيما مضى بغير اكتراث ، مثل الصليب المعقوف ، وشارات الفاشستية ، والمطرقة والمنجل ، والشمس الصاعدة ، وكذلك « ميثاق الأطلنطى » . ونحن نجد الزمر فى كل مكان ؛ زمرا قبلية ومحلية وسلالية وقومية وعائلية وطبقية — لها مواقف خاصة بها وتربط هذه المواقف برموز معينـة . وتنشأ هذه المواقف الى حد ما عن ظروف اجتماعية عامة ، وهى تعتمد الى درجة معينة على قوة المذاهب الجديدة وسيطرتها على الأفـراد . وتحصل المواقف على التأييد اللازم لها ، كما تحظى بالدوام ، فى نطاق الآداب العامة للزمرة [١] . ولا شك أن هذه المواقف ذات أهمية حيوية بالنسبة للطالب الذى يقدم على دراسة حقائق الحياة الاجتماعية .

المواقف الارتباطية والانفصالية

بعض الصعوبات التى تواجهنا فى تقسيم المواقف : قبل أن نفكر فى أى تقسيم للمواقف من أجل استخدامه فى الدراسـة السوسيولوجية ينبغى أن نذكر بعض الصعوبات فى هذا السبيل . ان المواقف فى واقع

(١) أنظر فى تحليل الرموز والمواقف :

H. D. Lasswell, *Politics. Who Gets What, When, How* (New York, 1936), Chaps. II and IX; for an excellent discussion of racial beliefs in America, G. Myrdal, *An American Dilemma* (New York, 1944), vol. I Chap. 4; and for a lively and sound popular discussion of the subject, M. Halsey, *Color Blind* (New York, 1946), for extensive illustrative, *One America* (F. J. Brown and J. S. Roucek, eds., New York, 1946).

الأمر طرق للوعى أو الادراك الاجتماعى تتميز بأنها غير مشعور بهـا ومعقدة ومتغيرة . ويطرأ عليها التعديل باستمرار تبعا لتعلمنا ولتفكيرنا ولصحتنا ولظروفنا التى تحيط بنا . وحينما ننسب موقفا معينا الى شخص معين لا يمكننا أن نحكم على حقيقة هذا الموقف الا من علامات خارجية كالنظرات والاشارات والكلمات . هذه العلامات تدلنا اما على الخوف أو الحب أو الشفقة والعطف ، ولكن حينما نطلق على الموقف هـذه التسمية لا نبلغ درجة الكمال فى وصف حقيقة شعور الشخص الذى يتخذ الموقف المعين . وكل ما نفعله فى هذه الحالة أننا نحكم على أن الموقف كما بدا لنا هو الموقف السائد ، أو على الأقل الموقف المشاهد عند الشخص . وكما يحدثنا فن العلاج النفسى كثيرا ما تؤدى أحكام غير المتخصصين فى هذه المسألة الى الخطأ .

وتتداخل الاصطلاحات التى نستخدمها للدلالة على حالات الشعور والمواقف تداخلا شديدا فيما بينها . ولنتأمل مثلا الفرق بين « الاحترام » و « التقدير » و « الاعجاب » . ان المعانى العقلية لمثل هذه الاصطلاحات ينغمر بعضها فى بعض . وكل قصصى يعرف قصور الاصطلاحات للدلالة على الخلجات السيكولوجية ، وهذا ما ينبغى أن يلاحظه الاجتماعيون .

أنظر مثلا المواقف التى تبدو على طرفى نقيض ، مثل الحب والكره ، فقد لاحظ الناس منذ القدم أنهما من الممكن أن يتحدا فى موقف واحد يثير الارتباط نحو شخص واحد أو شىء بعينه . وقد توسع علم النفس الفرويدى فى العصر الحديث فى هذه الملاحظة اذ يعالجها باسم مبـدأ التناقض الوجدانى . فالحب والكره ، والحزن العميق وعواطف المرح المتأججة ، والولاء المخلص والصدود — هذه المواقف وأمثالها مما يبدو متناقضا نراها فى أكثر الأحيان متداخل بعضها فى بعض . وهذه الحالة

تخلق عقدة ، أو فى الغالب مشكلة مستعصية بالنسبة للفرد الذى يشعر أنه فى حيرة بسبب هذا التناقض الوجدانى ، وكذلك بالنسبة للباحث فى علم النفس الفردى . وهناك صعوبة أخرى فى التقسيم . ان الموقف الذى نسعى الى تحديده باسم معين هو فى أكثر الأحيان متنوع وغير ثابت ، شأنه شأن اللون الذى نراه من خلال أضواء متغيرة ، وليس الموقف شيئا ثابتا ثباتا محكما عند الفرد . انه تقويم متغير على الدوام . وبعبارة أخرى انه طريقة للنظر الى الأشخاص والأشياء ، الغرض منها تحديد قيمة أولئك وتلك من حيث الصلات التى تربطنا بهم وبها .

تقسيمات المواقف : ان المواقف ، كما رأينا جد معقدة ، وجد مختلطة، وجد منوعة ، وجد متصلة بالفرد لدرجة أن أى تقسيم لهـا سيصبح حتما ، كما يقول المناطقة ، تقسيما مصطنعا ، وليس فى الامكان الحصول على تقسيمات كاملة لها . وبعبارة أخرى أن تقسيمنا ينبغى أن يتوقف على غرضنا من اجرائه . وسيجد القارىء أننا نعالج المواقف فى البيان التوضيحى رقم ٢ من وجهة نظر اجتماعية أكثر منها سيكولوجية ، أى مهتمين بفئات من المواقف كثيرا ما ثبت أنها ذات قيمة وحاسمة بالنسبة للعلاقات بين الناس .

وقد اقتضى الأمر أن نوزع المواقف على ثلاثة أعمدة تبعا لوظيفتها من حيث تعطيل العلاقات أو تقييدها أو انعاشها . وسنطلق على هـذه المواقف الأوصاف . انفصالية ومقيدة وارتباطية ، كما سنقسم الأعمدة أفقيا ثلاثة أقسام ، تبعا لمضمونها ، متصلة بعلاقات الأشخاص المتأثرين بها ، من احساس بالضعة أو احساس بالسمو أو خلوها من مثل هـذه الأحاسيس .

ونحن نقدم هذا التقسيم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

ومع ذلك سيجد الطالب أنه لو تناول فى دراسته للعلاقات الاجتماعية مسألة التمييز بين مواقف الارتباط ومواقف الانفصال ، أو بين السمو والضعة ، فستكون مهمته يسيرة . وذلك لأن المواقف التى تفرقنا أو تجمعنا ، والتى تضفى علينا أحاسيس السمو أو الضعة ذات أهمية كبرى بالنسبة للعلاقات بين الأفراد أو بين الزمر .

البيان التوضيحي رقم ٢ :

تقسيمات المواقف

(بالنسبة لمواقف الأشخاص من أشخاص أخر)

أولا — مواقف تنطوى على احساس فعلى بالضعة :

مواقف انفصالية	مواقف مقيدة	مواقف ارتباطية
الرعب	الرهبة	العرفان بالجميل
الخوف	التوقير	المجـــاراة
الفزع	التعبد	الرغبة فى التقليد (١)
الحسد	الولاء	عبادة البطل
الخفر	الاحتقار	
	الانصياع (١)	
	الصلاحية للخدمة	
	الأدب	
	التعالى (٢) .	

ثانيا — مواقف تنطوى على احساس فعلى بالسمو :

الاشمئزاز	التباهى	الاشفاق (٤)
المقت	المناصرة	حماية الغير
التقزز	التسامح (٣)	
الاحتقار	الحلم	
الازدراء		
الترفع		
الغطرسة		
عدم التسامح		
الصلف		

ثالثا — مواقف تنطوى على احساس بالحيدة ولا علاقة لها بمستويات الضعة أو السمو :

الكره	المنافسة	العطف
الاعراض	المسابقة	المحبة
الجفاء	الغيرة (٥)	الثقة
عدم الثقة		الحنان
الريبة		الحب
الضغينة		التودد
الحقد		الرقة
القسوة		المجاملة
		المساعدة

١ — فضلنا أن نقول الرغبة فى التقليد لا التقليد ، والانصياع لا الخضوع ، اذ أن الاصطلاح الأول فى الحالين يدل على الموقف ، والاصطلاح الثانى يشير الى عملية اطرادية . لكن لا يوجد غالبا الا اصطلاح واحد لوصف الموقف والعملية الاطرادية .

٢ — التعالى أو النظر الى الناس من عل لا يشجع على خلق العلاقة الاجتماعية . وبالعكس يؤدى احترام الناس الى تنمية هذه العلاقة . وقد أدرجنا هذا الموقف بين الفئة رقم ١ على أساس أنه بينما يتضمن أحاسيس الضعة والسمو معا فان احساس الضعة هو الغالب فيه .

٣ — نحن لا نقصد التسامح بمعنى تفتح الذهن وسعة العقل ، وانما الموقف الذى يلازم عملية التسامح مع الغير .

٤ — ربما بدا من الأنسب ادراج الاشفاق فى عامود المواقف المقيدة . ولكن وضعنا اياها حيث هى الآن يرجع الى أنها كثيرا ما تتصل بمواقف الرعاية نحو الآخرين . وبديهى أن الاشفاق فى حد ذاته كاشفاقنا على صديق أصابه مكروه ، خلو من معنى الرعاية .

٥ — قد يبدو من الأنسب ادراج الغيرة فى القسم الأول من الأقسام الأفقية . من حيث انها متصلة اتصالا وثيقا جدا بالأحاسيس بالضعة — بالرغم من أن من الجائز أن تدخل الغيرة فى الاحساس بالضعة الا أن موقف الشخص الغيران لا يشتمل بالضرورة على هذا الاحساس .

« قيـاس » المواقف : تخصص مراجع علم الاجتماع جـزءا ليس بالقليل من مادتها عن المواقف لموضوع امكان « قياسها » [1] . وقد اصطنع كتاب كثيرون فى السنوات الأخيرة مقاييس صممت بحيث يمكنها أن تقيس بطرق معينة مواقف الناس من الكنيسة ، ومن الزنوج ، ومن تحديد النسل ، ومن هيئة الأمم المتحدة وهلم جرا . ومن حيث ان هذه المحاولات تبين بشكل واضح مسألة اخضاع الظواهر النفسية للدراسة الكمية ، فقد رأينا من الأصوب أن نعلق على هذا الموضوع بايجاز ليعلم الطالب بهذه المسألة الجدلية المألوفة فى علم الاجتماع .

سبق أن أشرنا الى أن المواقف ان هى الا الأساليب المعقدة والمتغيرة للوعى . انها تعبيرات أو نواح من مجموع شخصية الكائن الاجتماعى . ولهذا السبب ليس من السهل على الباحث أن يدرك صفاتها من مظاهرها الخارجية . وكما يعرف عقلاء الطلبة من تجاربهم فى الجامعة يدل وصفهم لأحد الأساتذة بأنه « متلاطف » معهم على واحد من عدة أحاسيس عميقة

---

(١) وسبيل ذلك للرد الايجابى على هذا السؤال ، انظر مثلا :

L. L. Thurstone and E. J. Chave, *The Measurement of Attitudes* (Chicago, 1929); Read Bain, "Theory and Measurement of Attitudes and Opinions", *Psychological* Bulletin, XXVII (1930), 357-379; G. A. Lundberg, *Social Research* (New York, 1942), Chap. VIII.

ومن النقاد المتزنين الذين ليسوا ضد فكرة القياس ، انظر :

Clifford Kirkpatrick, "Assumptions and Methods in Attitude Measurements", *American Sociological Review*, I (1936), 75-88; R. T. La Pierre, "The Sociological Significance of Measurable Attitudes", ibid, (1938), 175-182.

وكموجز لكل ما كتب حول الموضوع أنظر :

Daniel Day, "Methods in Attitude Research", Ibid., V (1940), 395-410.

ينطبق عليها هذا الوصف . ومن أجل هذا تنشأ الحاجة لدراسة المواقف دراسة دقيقة قبل أن نحاول تطبيق المقاييس عليها لقياسها .

يواجه من يرغبون فى قياس المواقف مشكلة أولية من نوع آخر . ما الذى عليهم أن يقيسوه فى المواقف ؟ نحن فى الواقع لا نقيس الأشياء ، وانما نواحى عديدة للأشياء . ولا نقيس الموائد ، وانما أطوالها وارتفاعاتها وأوزانها . ولا نقيس الشمس ، وانما اشعاعها وحركتها الظاهرة وحجمها . وفى ضوء هذه المعلومات عن القياس فى الظواهر الطبيعية تتساءل عما عسى أن تكون هذه النواحى التى يراد قياسها فى أحد المواقف . وللجواب على ذلك نقول ان الذين يرغبون فى قياس المواقف يفكرون فى درجة استحسان الفرد أو استهجانه لشىء ما . انهم يفكرون فى حدة موقفه من هذا الشىء [1] .

اننا تتشكك كل التشكك فى امكان القياس ، بأى معنى رياضى ، أو بدرجات الاستحسان والاستهجان ، أو الميل أو الكراهية [2] . واذا أردت الدقة ، فبوجه عام لا يحصل من يقيسون المواقف الا على تسجيلات لها ناقصة المعنى ، فقولنا التوقير والاعجاب والاحترام وما شابه ذلك ، يستبدل بتعبيرات مبسطة لمجرد الاشارة الى الاستحسان أو الاستهجان تجاه شىء ما . ومع ذلك ينبغى أن نلقى السؤال الآتى : أيمكن أن تكون للشىء دلالته نفسها بالنسبة للأشخاص العديدين الذين يقفون منه موقفا

---

(١) لدينا فى الوقت الحاضر مقاييس للمواقف من ابتكار اثنين من الباحثين قاما بتصميمها بمهارة فائقة لقياس درجات الحدة ابتداء من خط الصفر . أنظر :

Louis Guttman and E. A. Suchman, "Intensity and Zero Point for Attitude Analysis," *American Sociological Review*, XII (1947), 56-67.

(٢) أنظر مثلا : R. M. MacIver, Society: *A Textbook of Sociology* (New York, 1997), pp. 26-27.

معينا ؟ وبعبارة أخرى هل « الديموقراطية » أو « الدين » أو « تحديد النسل » أو « النظام الحكومى » تعنى عند الناس جميعا نفس الشيء ؟ واذا كان الجواب بالسلب فان المقياس المبتكر يعجز عن تصوير درجات حدة الموقف المتفاوتة بتفاوت الأشخاص .

ومهما يكن من شيء فان مقاييس المواقف تساعدنا فى فرز الاستحسان والاستهجان والحب والكره كمواقف لأفراد فريق من الناس ازاء شيء من الأشياء فى وقت معين . وذلك بدرجات أو مراتب [١] . (والمفهوم أن المراتب هى درجات الاستحسان أو الاستهجان عند كل فرد فى الفريق وليس العقدة الكاملة للموقف) . ومثل هذه المقاييس اذا وضعت بعناية وطبقت بما تقتضيه من خبرة ، فانها غالبا ما تمدنا بالمعلومات المفيدة عن التيارات الاجتماعية . وعلى ذلك فمواقف المشترين فى الأسواق من المنتجات المنوعة ومستمعى الاذاعة من برامجها المختلفة ، وطلبة الجامعة من الشئون العامة والمحلية فى الحياة اليومية وما شابه ذلك ، هذه المواقف جميعا تعطى درجات أو مراتب ذات مغزى من طريق المقاييس التى تتحدث عنها وما على شاكلتها من وسائل احصائية [٢] . وان الاهتمام بهذه المقاييس واستخدامها من قبل رجال الصناعة والمعلنين عن أجهزة الراديو وغيرهم لدليلان على الفائدة العملية لتحويل استجابات الأفراد الشفوية والتحريرية الى مراتب أو درجات للانفعالات النفسية نحو الأشياء الخارجية . غير

---

(١) انظر مناقشة ممتازة فى موضوع منطق القياس أو اعطاء المراتب عند :

M. R. Cohen and E. Nagel, *An Introduction to Logic and Scientific Method* (New York, 1934), Chap. XV.

(٢) أنظر مثلا :

P. F. Lazarsfeld, *The Technique of Marketing Research*, (New York, 1937) and *Radio and The Printed Page* (New York, 1940); G. Murphy and R. Likert, *Public Opinion and the Individual* (New York, 1938).

أن هذا لا يدعونا لموافقة هذا الفريق من الاجتماعيين والسيكولوجيين، الذى يعتبر الاستجابات مساوية أو ترمز رمزا كافيا لعقدة الموقف كله .

وتصور لنا الحرب العالمية الثانية كلا من فائدة « قياس » المواقف وقصوره . فقد تبين لجيش الولايات المتحدة أن مشاكله المتعلقة بالسياسة العسكرية والادارة قد أمكن حلها حلا موفقا بوساطة متخصصى العلوم الاجتماعية المدربين على طرق البحث الاحصائى . اذ استطاع هؤلاء المتخصصون ، من طريق الأجوبة الشفوية على أسئلتهم الدقيقة الصياغة، من جانب « عينات » من الجنود ، أن يحصلوا بوسيلة سريعة جدا على عدة مستويات للانفعالات الأولى ازاء أنواع المعدات الحربية الجديدة التى يطلب من الجنود استخدامها ، أو الملابس العسكرية التى توزع عليهم ، أو رأيهم فى المدنيين بالبلاد المحتلة . ولا جدال فى الأهمية العملية لمثل هذه البيانات عند القيادة العليا للجيش — وان كنا لا نعلم على وجه التحديد مدى استفادة الجيش منها ومن جهة أننا نفطن لفائدة علمنا أن ٨٠٪ مثلا من جنود أحد الجيوش « يعارضون بشدة » نوعا جديدا من السلاح ، أو أن ٧٠٪ من هذا الجيش « لا يرحبون كثيرا » بحذاء شتوى ممتاز ، أو أن ٤٠ ٪ من الجنود يرون أن النساء الألمانيات « أحب الى القلب » من النساء الفرنسيات [1]. ولكن من جهة أخرى ينبغى أن نؤكد أن مثل هذه المعلومات لا تروى لنا اطلاقا القصة كاملة ، وذلك بابلاغنا انفعالات هؤلاء الجنود نحو الموضوعات التى وقفوا منها هذه المواقف . ان مقاييس المواقف لا يمكن أن تمدنا بالفهم الكامل لعقد المواقف ، ذلك الفهم الذى نحصل عليه من طريق احدى عيادات فن العلاج

(١) هذه كلها أمثلة وهمية ، ولكنها تمثل نوع المعلومات التى يسعى للحصول عليها متخصصو العلوم الاجتماعية لخدمة الجيش .

النفسي ، أو مقال بقلم صحفي مرهف الحس ، أو حتى من طريق رسم كاريكاتوري بريشة واحد مثل بل مولدن[1] فى الولايات المتحدة .

تسجيل الرأى العام : وربما كانت أفضل طريقة لتوضيح الأساليب الاحصائية المتبعة فى دراسة درجات حدة الموقف ، هى الرجوع الى التسجيلات المتعددة التى أجراها الباحثون لمعرفة حقيقة الرأى العام فى المسائل المختلفة التى تشغل الأذهان [2]. وفى الولايات المتحدة الأمريكية تهرع الصحف والمجلات ورجال السياسة أنفسهم وكذلك المتنبئون بالأحداث السياسية الى عينات لمواقف الجمهور الأمريكى التى يتولى تسجيلها جالوب وروبر وكثيرون غيرهما . هؤلاء الباحثون يمدوننا بصور رأى الجمهور فى هذا الشأن أو ذاك ، من طريق حصولهم على أجوبة شفوية من أجزاء مختارة من السكان . وقد استطاعت التسجيلات السياسية فى مناسبات كثيرة أن تتنبأ بما سيقع فى الميدان السياسى ، وعلى الأخص ما ستسفر عنه نتائج الانتخابات ، مع التسليم بنسبة ضئيلة جدا للخطأ فى التقدير . غير أن هذه التسجيلات ما زالت بعيدة عن أن توصف بأنها صحيحة من كل وجه . وبالرغم من تقدم أساليب القياس منذ اخفاق الاختبار الذى منيت به مجلة Literary Digest عند قياسها اتجاهات الرأى العام بمناسبة انتخاب رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى سنة ١٩٣٦ ، فان الخطأ التام الذى انتهت اليه جميع التنبؤات المتعلقة بانتخابات الرياسة سنة ١٩٤٨ قطعت بشكل يلفت النظر بعدم كفاية الوسائل المتبعة حاليا لجمع عينات ممن يسألون من الأشخاص .

---

(١) أنظر : *Up Front* (Cleveland and New York, 1945)

(٢) يمكن لمن يرغب فى الأطلاع على بحث واف فى هذا الموضوع بقلم شخص ذى دراية ، أن يرجع الى :

G. Gallups and S. F. Roen, *The Pulse of Democracy* (New York, 1940).

ومن المسلم به فيما يتعلق بالأصوات التي تتوقع الحصول عليها في القياس ، أن الاستفتاء يمثل عملية انتخابات غير رسمية . فالأفراد يسألون بطريقة ما عن الشخص الذى يتوقعون اعطاءه أصواتهم . أو بعبارة أخرى يطلب منهم أن يتنبأوا بمسلكهم بشأن حادث محدد قبل وقوعه . وعلى ذلك فالاستفتاءات تستهدف معرفة مدى ما ستحصل عليه الأحـزاب السياسية من تأييد أو معارضة هي ومرشحوها — كما يستدل على ذلك من تقويم الردود على هذه الاستفتاءات . والحقيقة أن كل هذا واضح، الا أن الشيء الذى لايبدو واضحا ألبتة من كشوف الاستفتاءات هو المواقف السياسية من حيث طبيعتها الدقيقة والعناصر التى تتكون منها ومبلغ حدتها الحقيقية . وتتطلب هذه المشاكل تحليلا من النوع الذى يكتمل فى الواقع بمعرفة عدد الأصوات . وهو على كل حال تحليل يتقصى الحقيقة الاجتماعية بكيفية أعمق مما يستطيع مجرد الاحصاء العددى لهذه الأصوات .

وفى العادة يحتاج الأمر لتحرى رأى الناس فى موضوعات كثيرة غير الانتخابات . فالأمريكيون قد يتعرضون لاستفتاءات فردية مثـل : ما الطبقة الاجتماعية التى تضع نفسك فيها ؟ هل تفضل أن تكون موظفا بالحكومة أو بعمل حر ؟ ماذا ترى فى فرصك الاقتصادية ، أهى حسنة أم رديئة ؟ كيف تبدو الفرص المتاحة لأطفالك ، أهى من نوع الفرص التى أتيحت لك فى طفولتك أم تختلف عنها ؟ وهلم جرا [1] . ونحن نعلم

(١) انظر :

"The People of The U.S.A. — A Self-Portrait", *Fortune* (Feb., 1940).

A. W. Kornhauser, "Analysis of 'Class' Structure of Contemporary American Society — Psychological Base of Class Divisions", in *Industrial Conflict: A Psychological Interpretation* G. W. Hartmann and Newcomb, eds., New York, 1939), pp. 199-264.

— اذا شئنا التعبير بالمتوسطات — أن الفرد الأمريكى بوجه عام يعتبر نفسه منتميا الى «الطبقة المتوسطة» ويصف الفرص المهيأة لتقدمه بأنها « طيبة » كما يعتقد أن مصالح أصحاب الأعمال ومصالح العمال والمستخدمين متحدة فى جوهرها ، وهكذا .

ويدفعنا هذا النوع من الاستفتاء بشأن المواقف خطوة واسعة الى الأمام فى سبيل فهم النمط العام — أو المرتفعات والمنخفضات التى تتخلل بعض مركبات المواقف . ومع ذلك فنحن عندما نواجه مشكلة مركب معقد من مركبات المواقف كرأى الأمريكيين فى «الطبقة الاجتماعية » — وهى مشكلة سيتحتم علينا مواجهتها فى الصفحات التالية من هذا الكتاب — نجد أننا لا يمكننا أن نكتفى بالأجوبة الشفوية التى تصدر عن الأفراد ردا على قوائم الأسئلة . وذلك لأن المواقف ماهى الا تعبيرات عن شخصيات انسانية كاملة ، أو تقويمات للكائن الاجتماعى فى مجموعه ، وهى كالشخصية ذاتها يجب أن تفهم على أنها جزء من نمط العلاقات القائمة بين الناس .

أنواع المصلحة فى الحياة الاجتماعية

سبق أن أوضحنا فى هذا الفصل أن جميع العلاقات الاجتماعية تتضمن مواقف ذاتية ومصالح موضوعية على السواء . والآن كل تجربة اجتماعية تمر بالانسان يمكن أن ينظر اليها على أنها علاقة ، أو تفاعل ، بين الشخص الذى تمر به التجربة ، أو الذات المنفعلة وموضوع العلاقة ، أو المصلحة . (ومفهوم أن المصلحة تكون فى الغالب عبارة عن شخص أو عدة أشخاص). فاذا كانت التجارب الاجتماعية تنطوى دائما على انسجام بين المواقف والمصالح بالنسبة لشخصين أو أكثر ، فمن المهم أن نعالج أنواع المصلحة ذات الدلالة القوية فى الحياة الاجتماعية .

المصالح المتشابهة والمشتركة : فى مناقشاتنا للمواقف اعتبرنا التمييز بين كونها ارتباطية أو انفصالية أساسا لتقسيمها الاجتماعى.وهناك أساس آخر للغرض نفسه لا يقل أهمية عنه وهو التمييز بين المصالح المتشابهة والمشتركة . وهذا التمييز الأخير عرضة لكثير من الاضطراب ينشأ بعضه من الغموض اللفظى . فنحن نقول مثلا ان للناس قدرات مشتركة ، أو عادات مشتركة ، حينما نعنى ما نقول بالدقة ويكون كلامنا مطابقا للواقع تماما . واذا كان بين الناس أشياء متشابهة فالشبه فى هذه الحالة شىء موجود عند كل فرد على حدة ، يحتفظ به لنفسه وأما الأشياء المشتركة بين الناس فهى تلك التى يملكونها أو تكون لهم كجماعة فيفيدون منها بالتساوى دون أن يقتسموها . ولتطبيق هذه المعانى نقول ان التقديرات الممتازة التى يحصل عليها طلاب العلم فى كليات الجامعة تمثل المصالح المتشابهة ، أما مايسهم به الطلاب من نشاط فى داخل الكليات فهو عمل يقومون به بالاشتراك . ولزيادة هذه النقطة تأكيدا نقول ان الشبيه غالبا ما يكون مصدرا لمصلحة مشتركة ، كما يحدث على سبيل المثال فى حالة اثنين من رجال الأعمال قد تدفعهما المصلحة المتشابهة فى الربح الى تكوين شركة تصبح ملكا مشتركا لهما يصح أن يتخذا منه مصـــدرا مشتركا للتفاخر . ومن بين العمليات الاطرادية فى المجتمع كما سنرى فيما بعد تلك التى تقع أثناء تحول المصالح المتشابهة الىمصالح مشتركة . وكثيرون منا اليوم يتمنون لو أمكن للمصالح المتشابهة عند الأمم الكبرى ، من حيث اقرار السلام ، أن تكون مصدرا لنمو مصالح دولية مشـــتركة بمعنى الكلمة .

وتشير المصلحة المشتركة كمفهوم من مفهومات علم الاجتماع الى فرق أساسى بين المصالح والمواقف . فالمواقف كما لاحظنا ، يمكن أن تكون متناسقة ، ولكنها لا يمكن أن تكون مشتركة بالمعنى الذى نقصده

عند الحاق هذه الصفة بالمصالح . ولا يستطيع أفراد كثيرون أن يتخذوا معا موقفا مشتركا من أى شيء الا اذا جاز أن يحسوا بالألم احساسا مشتركا ، وهذا غير ممكن . أما الشيء الممكن فهو أن تصيبهم آلام متشابهة وأن تكون لهم مواقف متشابهة من الألم ، وذلك لأن الاصابة تتعلق دائما بالفرد . ولكن الأفراد الكثيرين يمكن أن تكون لهم مصالح مشتركة بالضبط كما يمكن أن تكون لهم ممتلكات مشتركة . ويوجد شكلان رئيسيان للمصلحة المشتركة أو المقتسمة يحتاجان الى أن نذكرهما هنا بصفة خاصة : —

١ — **الانتماء الى زمرة اجتماعية :** يتمثل الشكل الأول بالاخلاص الى « الزمرة المحيطة بالشخص » .

وحينما يشعر الأفراد أنهم داخلون فى اتحاد شامل لا تنفصم عراه مع أقرانهم فان المصلحة المشتركة تظهر فى هذه الحالة . وحينما يفكر الناس فى أنهم ينتمون حقا الى أسرة أو مدينة أو أمة أو الى فريق رياضى أو جماعة من الأصدقاء فانهم يسهمون فى مصلحة مشتركة مع غيرهم . وهذا الاحساس بالارتباط مع وحدة من الأشخاص يوجد بدرجات متفاوتة ويبدو فى أشكال مختلفة فى الزمر الاجتماعية المختلفة الأنواع — كالجماعات المحلية والروابط والطبقات الاجتماعية والطوائف المقفلة فى الزمر الأولية والثانوية على السواء . وهذا الاحساس من خصائص الحياة الجمعية التى ستهمنا الاشارة اليها من وقت لآخر فى هذا الكتاب .

ونستطيع الآن أن نفسر تفسيرا أكثر وضوحا ما قلناه فى أول هذا الفصل ، وهو أن عدم التسامح والتعصب يمكن أن نرجعهما الى نفس العمليات الاطرادية الخاصة بالتنشئة الاجتماعية والتى من طبيعتها أن تؤدى لظهور ضديهما — التسامح والفهم . والانسان ينشأ كعضو فى

زمرة لا بد أن تكون فى أول الأمر زمرة قريبة — كالأسرة أو الأقارب — وبعد ذلك يصبح عضوا فى زمرة أكثر اتساعا كالجماعة المحلية والطبقة الاجتماعية والزمرة البشرية والأمة . وفى الوقت الذى يتعلم فيه كيف ينتمى الى احدى الزمر يتعلم أيضا كيف يبتعد عن زمرة أخرى . وهو يقسم الناس الى فريقين : فريق « نحن » وفريق « هم » أو بعبارة أخرى « الزمرة المحيطة بالشخص » و « الزمرة الخارجة عن الشخص »[1] . ان اخلاصه الى « نحن » من السهل أن يتحول الى كراهية أو عداوة الى « هم » وان تفاخره بـ « نحن » يقويه احتقاره لـ « هم » وعلى ذلك فالتعصب للزمرة ينمو على أكثر من نطاق واحد من الانتماء ، من الأسرة حتى الأمة ، وربما الى « الجنس البشرى » — أى « الجنس » الذى ننتمى نحن اليه .

وهنا نواجه احدى المشاكل الكبرى التى تتميز بها الحضارة الحديثة — هذه الحضارة قد أصبحت متضمنة عدة عناصر ، وعناصرها — الزمر الداخلة فى الأمة ، والأمم أصبحت نفسها متقاربة — كل أولئك أجزاء من الحضارة يتوقف بعضها على بعض توقفا حيويا ، ومع ذلك فان الزمر العديدة الداخلة فى الأمة — كالزمر البشرية ، والزمر الثقافية ، والزمر التى تقوم على المصالح — كثيرا ما تودى باتحاد المجموع ورفاهيته بسبب ما بينها من توتر وخلاف . وفيما يتعلق بالأمم المختلفة من حيث كونها أجزاء فى هذا العالم نلاحظ أنها بعجزها عن أن ترفع مصلحتهـا المشتركة فوق مصالحها المنفصلة ، وبسبب الغيرة القائمة بينها ، قد أصبحت خطرا داهما يهدد استمرار حضارتنا نفسها . ان ما نحتاج اليه بوضوح انما هو توجيه جديد لتنشئتنا الاجتماعية بحيث يمتنع اخلاصنا للزمرة أو للأمة عن أن يتضمن العداء لعضويتنا فى مجتمع أكبر وأشمل .

---

(١) انظر : W. C. Sumner, *Folkways* (Boston, 1907), pp. 11-16.

٢ – الانتماء الى هـــدف عام وغاية نبيـلة : ان ما يظهره الناس من اهتمام بالعلم ، أو الفن، أو الدين ، أو التقاليد ، أو الفلسفة ، أو الرياضة، يمثل الشكل الثانى للمصلحة المشتركة . ويبرز هذا الشكل بوضوح حينما يستثار عند الناس حب الاستطلاع أو التحمس أو الاخلاص على أى نحو . ولا بد أن تدعو أسباب من أى نوع ، كانتشار مذهب دينى ، أو عقيدة سياسية ، أو مصلحة ملحة فى أمر من الأمور كمقاومة اجراء التشريح والتجارب العلمية على الكائنات الحية أو قانون منـع بيع المشروبات الكحولية ، لابد أن تدعو مثل هذه الأسباب الناس للسعى وراء أهداف معينة أو أهداف مشتركة .

ويترتب على ذلك أن يصبح العلم بالنسبة للعالم مصلحة مشتركة ما دام يفكر فيه كهدف يستحق التضحية من أجله ، أو ما دام يتابع البحث فى علمه لمجرد التكسب لضمان العيش ، أو للحصول على مركز فى المجتمع ، وكما توضح بجلاء حياة كل من روجر بيكون وجاليليو ومدام كورى وزوجها ، تدعو المصلحة المشتركة فى البحث عن الحقيقة الى بذل الجهد فى البحث العلمى [1] . وبالطبع يعمل العلماء على كسب

(١) بيش F. W. Taussig فى كتابه الموسوم : Inventors and Money -Makers (New York, 1915) ان المخترعين كالمشتغلين بالعلم البحت ، لايحمسهم فى القيام بعملهم مطمع فى ربح مادى وانما يدفعهم الى العمل لذة الكشف العلمى وحدها ، كما يظهر من السعادة التى يحصلون عليها بسبب توفيقهم فى الاختراع ، ومن عنايتهم بالاختراعات عديمة الفائدة أو غير المربحة ، وكذلك من الصعوبات التى يلاقونها فى وضع اختراعاتهم موضع التنفيذ . وحتى اديسون ، الرجل الذى كان مستريحا من الناحية المالية ، فقد بذل كل ثروته فى مخاطرة تتعلق بالبحث عن المعـادن فى بطن الأرض ، فى نيوجيرسى ، أسفرت عن منشئات هندسـية كبيرة ولكن المخاطرة فشلت فشلا محققا . وعندما سمع أن مجموع خسائره فى هذا المشروع قد بلغت أربعة ملايين دولار عقب على ذلك بقوله : حسنا ، لقد ذهب كل شىء ولكننا تمتعنا بوقت طيب للغاية أنفقناه فى خير الوجوه .

قوتهم والتمتع بمركز محترم فى المجتمع . ولكن عندما يكون كل اهتمام الفرد بالعلم مرده الى الدولارات التى يكسبها أو التشريف الذى يغدق عليه فانه يكون عالما من الصنف الردىء . وفى هذه الحالة ، التى يمكننا أن نضرب عليها عدة أمثلة دون صعوبة ، يفتقر هذا العالم الى المصلحة المشتركة التى تجعل للعلم قيمته فى ذاته كما تكون غالبا القوة الدافعة لخدمة انسانية عامة تؤدى كاملة غير منقوصة .

شـــيوع المصلحة الشخصية فى الحياة الاجتماعية : تختلط فى كل النشاط الانسانى على وجه التقريب المصالح الشخصـــية مع المصالح المشتركة والمتشابهة . فمما لا يمكن تلافيه سعى الناس وراء مصالحهم الخاصة . ومما لا يمكن تلافيه أيضا أن نجدهم يحسون بالقيم الذاتية للزمر التى ينتسبون اليها والأهداف العامة والغايات النبيلة التى يعملون من أجلها . ويظهرنا فحص هذا السلوك الاجتماعى نفسه على هــذين النوعين من المصالح وهما يعملان فى وقت واحد بدرجات متفاوتة .

واذا كانت جميع مصالحنا شخصية فما كان للمجتمع أن يستقر ، واذا كان الناس الذين حولنا مجرد وسائل لتحقيق مطامعنا فاننا لا يمكن أن نكون معا كائنات اجتماعية . وفى هذه الحالة لا تسندنا مظاهر الحب والصداقة والعطف العائلى والاخلاص للزمرة بل تتخلى عنا من حيث كونها مصادر التنشئة الاجتماعية للأفراد . ويترتب على ذلك ألا نحتفظ بأية علاقة مع غيرنا من الناس اذا لم تكن تخدم أنانيتنا فحسب . وطبيعى أن ينجم عن ذلك استحالة قيام الجماعة المحلية أو الحياة الاجتماعية فى أية صورة من الصور .

وقد سبق أن أشرنا فى هذا الفصل الى أشد المواقف تبكيرا فى الظهور عند الطفل تتركز تركزا تاما فيما يبدو حول نفسه . ولكن يجب ألا نفترض

ظهور مركزية النفس قبل المصالح المشتركة وذلك عندما ندرس النمو التاريخي للانسان الاجتماعي . ويقال أحيانا ان القوى الدافعة الأصلية عند الانسان هي قوى المحافظة على النفس والتعبير عن النفس — ولكن الانسان الاجتماعي كما يبدو في كل جيل يعتبر في وقت واحد متركزا حول نفسه وحول الجماعة المحيطة به ، وهذان العنصران يشيع أحدهما في الآخر في كل ما يتعلق بأحوال الانسان وأفعاله أن يعيش لنفسه كما يعيش للزمرة التي هو منها . انه يحيا من أجل نفسه ومن أجل الأهداف الكبيرة العزيزة عليه . ومهما رجعنا الى الماضي السحيق ، الى المراحل الأولى للحياة الانسانية نجد نفس العنصرين بالاهتمام بالنفس والاهتمام بالغير[1] . ودراسة هذين العنصرين والتفاعل القائم بينهما مهمة في تحليل الحقيقة الاجتماعية الواقعة .

المواقف والمصالح من حيث كونها بواعث

البحث عن البواعث : نحن نسعى دائما لكشف البواعث الكامنة خلف السلوك الظاهر لأقراننا . ونحن نحاول أن نعرف بكل الوسائل الباعث الذي يفسر عملا غير متوقع صدر بصفة خاصة عن شخص نعرفه . ونحن نعرف أن رجل المباحث الجنائية يبحث بين من يصح أن يشتبه فيهم بأن تكون لديهم بواعث لاقتراف الجريمة ولا بد للقاضي وهيئة المحكمين من أن يتحروا عن الباعث عليها ، وذلك لأن كل اعتداء خارجي على النفس ، ولنفترض أنه القتل ، يعتبر من الوجهة القانونية جريمة من أكثر من نوع واحد من الجرائم وربما لا يعتبر جريمة على الاطلاق ، تبعا للباعث الذي

(١) يرى بعض علماء التحليل النفسي المعاصرين أن المعنى الكامل للنفس ، وهو المستحيل تحققه بوجه عام في مجتمعنا الحديث ، يشير بالضرورة الى علاقة متناسقة بين المصالح الفردية ومصالح الزمرة الاجتماعية . أنظر مثلا : Erich Fromm, *Escape from Freedom* (New York, 1914).

أدى اليه ، وفى مجالات التاريخ وتراجم الحياة يحــدث على نطاق واسع البحث عن البواعث الكامنة وراء ما صدر من أعمال من يؤرخ أو يترجم لهم . وكلنا يدرك المجهود الذى يبذله القصصى أو المؤلف المسرحى للتغلغل فى أعماق الشخصيات التى يقــدمونها بغية معرفــة البواعث التى تفسّر سلوكها .

ولعلنا نتساءل : وما معنى هذا البحث الذى لا ينتهى عن البواعث ؟ فمن جهة يعتبر سلوكنا الخارجي تعبيرا عن مواقفنا ومصالحنا ، وبالتالى نحاول أن نتقصى العوامل العميقة لسلوك الآخرين . ومن جهة أخرى نحن نفترض بوجه عام ، رغم أن هذا الافتراض كثيرا ما يتضمن تبسيطا أكثر مما يجب للحقيقة ، انه يوجد فى هذا المركب الذى يتكون من مواقف الفرد ومصالحه عامل أو عدة عوامل سائدة تفسر سلوكه فى ظروف معينة مثل هذا العامل السائد نسميه باعثا . وفى بعض الأحيان ينصب اهتمامنا على ناحية الموقف ، مثل ما يحدث حينما ننسب فعلا ما للحسد أو الغيرة أو الخوف ، وفى أحيان أخرى نهتم بناحية المصلحة ، مثل الذى يحدث حينما نقول ان الباعث على فعل ما كان المال أو المحافظة على المكانة . وكما رأينا يتضمن كل سلوك اجتماعى المواقف والمصالح معا .

واذن فالبواعث هى الدوافع المؤثرة فى العمل والكامنة وراء أعمالنا ، أو بعبارة أخرى وراء الستار . ونحن عندما نبحث عن البواعث قد تتعرض الى أن تنزل الى أعماق النفس الواعية أو العقل الباطن أو اللاوعى . وقد نبحث عن الباعث المباشر خلف السلوك الظاهر ، كالذى يحدث حينما ننسب نشاطا معينا ، مثل الذهاب الى الكنيسة ، الى الرغبة فى أن ينظر الناس الى الفرد نظرة احترام . أو الى مستلزمات الحياة فى المجتمع ، أو ربما الى اعتبارات تتعلق بالتجارة أو الى التعبد . وقد نبحث عن البواعث

وراء الأفكار المرتبطة بالعمل الظاهر كما هي الحال عندما نرجع موقفا من مواقف الاحترام الى اعترافنا فيما بيننا وبين أنفسنا بقيمة الشخص الذى نحترمه أو بما أدى من أعمال جليلة ، أو بقبولنا أن يكون ذا سلطة علينا ، كما قد نرجع الاحترام الى رغبة منا فى تحسين علاقتنا بالشخص الذى نحترمه . وربما تغلغلنا فى العقل الباطن بقليل من الأمل فى نجاح مسعانا لنستكشف الدوافع الخفية ، تلك الدوافع أو الميول التى تجد منفذا للتعبير عن نفسها من خلال نشاطنا الواعى بكيفيات مختلفة . وتتعدد أساليب التحقيق العلمى لتفسير هذه الأنواع المتباينة من البواعث .

أنواع النظريات المختلفة للبواعث الانسانية : سوف لا نحاول فى الأمثلة التالية أن نقدم تفاصيل النظريات التامة التحقيق للكتّاب الذين سنشير اليهم . وبالأحرى سينصب اهتمامنا على أن نمكن الطالب من أن يرى بعض وجهات النظر التى سنشير اليها من وقت الى آخر خلال هذا الكتاب ، وذلك لكى يلمس بنفسه صعوبة مشكلة البواعث الانسانية والدروب المختلفة التى سلكها الباحثون فى حلها .

١ ـ البواعث الاقتصادية : لقد كان من تأثير نشأة العمل الحر الرأسمالى وما صاحبه من ترتيب أحوال النظام الاجتماعى ترتيبا جديدا أن أولى المفكرون أهمية العامل الاقتصادى فى الشئون الانسانية عناية كبيرة . ومنذ قرن ونصف قرن من الزمان صور لنا آدم سميث وآخرون « انسانا اقتصاديا » تسيره أولا وقبل كل شىء مصالح قائمة على الحد الأقصى من الفائدة الاقتصادية . واذا أنعمنا النظر فى الدور الكبير الذى لعبته التغيرات الاقتصادية فى المدة التى تلت قيام الرأسمالية فسوف لاندهش اذا رأينا كتابا عديدين يكتفون بالباعث الاقتصادى كأهم

البواعث المحركة لسلوك الفرد ، وفى الوقت نفسه يعتبرون الباعث الرئيسى للتغير التاريخى نفسه . وهذا الرأى فى البواعث يميز مثلا كتابات ألكسندر هاملتون فى سلسلة Federalist المشهورة ، وهو ليس أقل وضوحا فى أبحاث المؤرخين المحدثين من أمثال تشالز ا . بيرد [1] .

وأكثر المحاولات تعقدا وحيوية لكشف البواعث الاقتصادية الكامنة قد تأثرت بكتابات كارل ماركس وأتباعه . ولم يكن ماركس نفسه مهتما اهتماما كبيرا بمشكلة الباعث الفردى ، وانما كان تحليله للصراع الطبقى يتضمن تصويرا للأفراد الذين كانت تتكون منهم طبقة البورجوازية المتملكة وطبقة العمال الكادحة باعتبار أنهما ستتعرضان آخر الأمر للتأثر ببواعث تعارض المصالح الاقتصادية . ومن هذه الوجهة تصبح أشكال الحياة السياسية والدينية والاجتماعية «غير الاقتصادية» التركيب الاجتماعى الظاهر والذى يفسر بتعقب بواعثه فى المصالح المادية والموضوعية الكامنة فيها . وهذا المنفذ التحليلى كما سنؤكد فيما بعد هو كما يرى أصحابه لا يعدو أن يكون فى حقيقة الأمر وسيلة تفسر بها العمليات التاريخية المطردة ، لا السلوك الفردى . ومع ذلك فان التوكيد الماركسى للوظيفة الأساسية للمصالح الاقتصادية قد دعا كتابا عديدين لتفسير المواقف التى لا تتمشى مع المصالح الاقتصادية كما عرفها ماركس وذلك بوصفها بأنها «تسويغات عقلية كاذبة» أو «وجهات نظر خاطئة» [2] .

---

(١) أنظر مثلا :

Charles A. Beard, The Economic Basis of Politics (New York, 1934).

(٢) أنظر مثلا :

B. Freedman, "Stimulus and Response in Economic Behavior", in *Industrial Conflict: A Psychological Interpretation*, pp. 265-279.

ولينظر القارىء Fromm نفس المصدر ، ص ٢٩٦ اذا شاء نقدا قيما لما يسميه وجهة النظر الماركسية الكاذبة .

وأمثال هؤلاء الكتاب يبحثون عن المفتاح الذى يوصلهم الى السلوك الانسانى فى التركيب الاقتصادى للمجتمع .

٢ ـ العناصر الدائمة للطبيعة الانسانية من حيث كونها بواعث :

يفسر كثيرون منذ قرون سلوك الانسان بأن ينسبوه الى « الطبيعة الانسانية » — أو الى هذا الشيء العجيب الذى لا يتغير ويبقى دائماكما هو فى عالم يتغير فيه كل شيء عداه . مثل هذه الوسيلة للتفسير ظلت طريقة ملائمة لأولئك الذين بحثوا وما زالوا يبحثون فى البواعث الكامنة لأعمال الانسان . وهذه الوسيلة لا تزال طريقة ملائمة ، وان كانت نادرا ما تفصح عن شيء لهؤلاء الكتاب المحدثين ، من أمثال مكدوجل [١] الذى يسلم بوجود أربع ، أو ست ، أو عشرين « غريزة » بمثابة القوى الأساسية التى تفسر الوجوه المتعددة لنشاط الانسان . وبينما أخفقت طريقة التفسير الغريزى فى السنوات الحديثة نظرا للمرونة الهائلة التى يتصف بها الكائن الاجتماعى كما كشف عن ذلك علم النفس الحديث وعلم الاجتماع ، فان الأحوال الدائمة للطبيعة الانسانية لاتزال أساسا افتراضيا للحاجات والدوافع ، وهذه الحاجات تتراوح بين المستلزمات الفسيولوجية والمخلفات المادية ، وبين مطالب الحب والمودة التى تخلقها الحياة الاجتماعية نفسها . ولقد أقام حديثا علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا نظريات مستفيضة كلفتهم جهدا كبيرا ، بشأن تحليل المقصود بالحاجات أو « التحرقات » الباعثة على سلوك الأفراد خلال تأثرهم بالحياة الاجتماعية

---

(١) انظر مثلا :

W. McDougall, *An Introduction to Social Psychology* (Boston, 1918), Chaps. II and III.

أو تأثيرهم فيها (١) . وسنهتم ببعض هذه النظريات في الفصل التالي .

وربما كانت أشهر المحاولات التي قام بها علماء الاجتماع لمعالجة مشكلة البواعث الانسانية هي محاولة فلفريدو باريتو (٢) . ويرى باريتو أن السلوك الانساني شيء مستمد في حقيقته من بعض عناصر الطبيعة الانسانية التي يسميها « البواقي » . وهو يقسم البواقي ستة أقسام رئيسية هي : البواقي المجمعة (أو القوة العقلية التي تربط الأشياء بعضها ببعض أو تفكر فيها بتجميعها معا) ، والبواقي التي تحفز الزمرة الاجتماعية على الصمود والبقاء (أو الميول المحافظة) ، وبواقي التعبير عن النفس ، وبواقي التآلف ، وبواقي الكمال الفردي ، وأخيرا بواقي الجنسية (٣) . وهي جميعا ، فيما يرى باريتو البواعث الفعلية على سلوك الانسان ولكنها مطموسة بضروب كثيرة من التفكير المختل والتفسيرات المضللة التي يسميها «الأصول» والأصول هي مظاهر احساس الكائن الانساني

---

(١) فمثلا في علم النفس :

A. H. Maslow, "A Theory of Human Motivation, in *Twentieth Century Psychology* (P. L. Harriman, ed., New York, 1946), pp. 22-48.

وفي علم الاجتماع :

R. S. Lynd, Knowledge for What? (Princeton, 1939), pp. 193-197.

وفي الانثربولوجيا الاجتماعية أو علم الاجتماع المقارن :

B. Malinowski, A Scientific Theory of Culture and Other Essays (Chapel Hill, 1944, pp. 75-131.

(٢) أنظر :

Vilfredo Pareto, *The Mind and Society* (*Trattato di Sociologia Generale*, A. Livingston, ed., New York, 1935).

وللنظرات النقدية لباريتو انظر :

Journal of Social Philosophy, I (1955), Nos. 1 and 3; E. Faris, *The Nature of* Human Nature (New York, 1937), pp. 190-210.

(٣) The Mind and Society, II, 888 ff.

بالجوع نحو التفكير وتقف بينه وبين الحقائق الواقعية لطبيعته كنوع من حجاب من المنطق الكاذب .

وليس هنا محل فحص الجدل المستفيض الذى يدافع به باريتو عن نظريته . ولكن قد يحق لنا أن نشير الى ما تضمنته نظريته من زعم لم نجد له تسويغا حينما قال ان بعض أنواع البواعث (أو البواقى) حقيقى أو أساسى على حين أن البعض الآخر مجرد أصول ، بما فيها البواعث الأكثر مثالية ، تغلب عليها السطحية والمظهرية . ان الآلاف من الأمثلة والتوضيحات التى قدمها تثير فى الغالب التفكير والانتباه . فمثلا يلاحظ فى كثير من الأحوال أن رجل السياسة القوى يناشد ناخبيه اعطاءه أصواتهم بتذكيرهم بالخدمات الوطنية الجليلة التى أداها الى أمتهم المجيدة التى ينتسبون اليها ، مثل هذا الرجل لا يعبر عن عواطفه الحقيقية ولكنه يستخدم هذا الكلام لكى يبلغ أغراضا معينة . غير أن للقصة جانبا آخر ، فما الذى دعا هذا السياسى الى أن يخاطب الناس بمثل هذه الألفاظ ؟ ان السبب فى ذلك يرجع الى أنه يعرف أن مستمعيه يستجيبون لمثل هذه العواطف وما لم يكن جمهوره مستعدا للاهتياج بالبواعث المثالية لما كان من الفائدة مطلقا أن تستخدم مثل هذه الأساليب معهم . وفى وسعنا أن نضرب أمثلة لا حصر لها لنظهر أن الانسان يتأثر بهذه الطريقة — كما أن هنالك أمثلة عديدة يمكن أن تدل على أنه عرضة لبواعث مخالفة .

٣ ـ **علم تحليل النفس والبواعث :** يعتبر تفسير البواعث الذى يقدمه علم التحليل النفسى ، كما جاء فى كتابات فرويد وأتباعه [١] ،

---

(١) أنظر :
The Basic Writings of Sigmund Freud (A. A. Brill), trans. and ed., NewYork,1938).
انظر أيضا مقالا وصفيا قصيرا بقلم
H. M. Kellen, "Psychoanalysis." Encyclopaedia of the Social Sciences (New York, 1935), XII, 580-588.

ترجمة لنوع التحليل الذى ذكرناه توا . وفيما يرى فرويد أن ما يفعله الطبيب أو المحلل النفسى من سبر لأغوار الشخصية الانســانية ، يقوم على فكرة أن هناك عناصر دائمة للطبيعة الانسانية تعد بمثابة القوى الرئيسية الدافعة للسلوك . ولقد سمى هذه القوى الباطنية « غرائز » ايروس والموت — أو بعبارة أخرى غرائز الحياة الجنسية وتدمير النفس — وقد رآهما يتنازعان فيما بينهما وفى نفس الوقت اعتبرهما أساسا لتكوين الشخصية والسلوك الانسانى .

وعلى ذلك ينظر صاحب وجهة النظر التحليلية النفسية الى ما يعتقده الفرد من أن هذا الباعث أو ذاك الذى يسيره فى الحياة ما هو فى الغالب الا مجرد تعمية تخفى وراءها البواعث الحقيقية على ما يأتى من أعمال . ويجد المحللون النفسيون أدلة على أن «العقد النفسية» و«التثبيتات» (١) تنمو فى سن مبكرة عند الفرد كما يلاحظون أنها مؤيدة بالطقوس والنواهى الشائعة فى المجتمعات البدائية . وهم يرون أن هذه العقد النفسية تعمل بنشاط فى العقل الباطن وتبدو فى أشكال رمزية تبرز عند النوم فى الأحلام وأثناء النهار خلال الهواجس ، وفى ما يصيبنا من نسيان وكل ما يصدر عنا من أخطاء لفظية .

ونعتقد أن هذا البيان الموجز قد شرح بقدر الامكان حقيقة الكتابات النظرية المستفيضة ومجموع المشاهدات التى أجريت على المرضى مما دونته مدرسة فرويد ، وان كان لم يوفها كل ما تستحقه من تقدير . وكل الذى أردناه توضيح أهدافها .

---

(١) ترجمنا الاصطلاح Fixation بالتثبيت متأثرين فى ذلك بالأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح . أنظر المعجم الانجليزى العربى فى ذيل كتابه : أصول علم النفس — الطبعة الأولى . الاسكندرية ١٩٥٣ ، حيث شرح التثبيت بأنه التشبث بأساليب سلوكية بدائية .

ونحن نلاحظ أن المحللين النفسيين يحاولون استكشاف البواعث اللاشعورية الكامنة وراء أفعالنا . وان بحثهم لاينتهى الى أعمق التنظيمات الداخلية لجسم الانسان . وان تفسيراتهم للأحلام والعادات البدائية وتاريخ حياة الأفراد البالغين تشتمل على استنتاجات غير يقينية هاجمها ولا يزال يهاجمها علماء النفس والأنثروبولوجيا . وان كان الذين ينكرون ما فى استكشافات المحللين النفسيين من حق قليل عددهم . ومهما يكن من شيء فان هذا الحق ما هو الا جزء من النسيج للسلوك الاجتماعى الذى يمتد أحد طرفيه ليشمل الانسان ككائن عضوى وطرفه الآخر الى المجتمع نفسه . ان الناس فى حقيقة الأمر تدفعهم الى العمل بواعث متعددة. وقد تفيد الدوافع الجنسية أو « الرغبة فى الموت » فى تفسير بعض جوانب سلوكهم ، ولكن كما سنرى فى الفصل التالى لا مفر ، اذا أردنا أن نحصل على نظرية كاملة لهذا المركب الشامل لكل وجوه نشاط الانسان ، من أن نفهم أولا المجتمع الذى هو جزء منه .

تعقد الباعث : لا شك أن النظريات التى أوجزنا الاشارة اليها فيما تقدم تكشف لنا عن رغبة الانسان فى أن يسوغ البواعث تسويغا عمليا ، أو بعبارة أخرى يخضعها للتأثر بالبيئة الاجتماعية . ونحن ككائنات اجتماعية مهيأون لأن نختار أسبابا اجتماعية وجيهة لسلوكنا ، وأن نقدمها لغيرنا ولأنفسنا على اعتبار أنها الحجج التى نستند اليها فى أعمالنا وتصرفاتنا . ونحن نكون عادات بقصد اخفاء بواعث تافهة أو مصدرها الأنانية تحت أسماء براقة ، مثل الواجب والشرف والمبادىء والوطنية . انا نحتاج الى أن يكون لنا مركز محترم فى نظر الآخرين وفى نظر أنفسنا وهذا هو السبب الذى من أجله نسوغ سلوكنا تسويغا عقليا ، وهذا عمل من أسهل ما يكون ومن شأنه الاقناع — بالنسبة لأنفسنا على الأقل — اذ أنه من الصعب دائما أن نفصل العوامل الكثيرة التى تحدد

سلوكنا بعضها عن بعض . والمؤرخون من أمثال بيرد وروبنسون [1] ، والمفكرون السياسيون من مدرسة مكيافيلى ، وعلماء الاجتماع من أمثال باريتو ، والمحللون النفسيون أشباه فرويد قد أدوا التنبيهات الكافية بسعيهم لانتهاج خطة التسويغ العقلى الذى يكشف الغطاء عن القوى الخفية المحركة للتاريخ وينابيع السلوك الداخلية . ويتولى القصصيون أداء نفس الرسالة – بحماسة ظاهرة ، ويشاركهم فى ذلك كتاب التراجم ، واليوم نشهد نفس الاتجاه عند منتجى الأفلام ومؤلفى تمثيليات الاذاعة ، وجميع هؤلاء يقدمون لنا انتاجا ليفصح عن البواعث الخفية للشخصيات التى عنوا بعرضها على الجماهير .

ومع كل ذلك فان مثل هذه التفسيرات عرضة الى تبسيط مضاد لما يحاول المنتجون المشار اليهم أن يقنعونا به . فهناك دائما الخطر الذى يحدث من تبسيطنا لبواعث السلوك ، سواء أكانت البواعث كبيرة أم تافهة ، غيرية أم أنانية . ان بواعث السلوك فى الحقيقة معقدة تعقيد شخصية الانسان نفسها . ويكتشف علم الطب فى كل عام الكثير من التعقيدات الغريبة فى تكويننا العضوى . ولقد طرح هذا العلم جانبا نظرية بقراط ومؤداها أن الكائن العضوى يشتمل على مجرد الدم والبلغم والصفراء . والأمر كذلك بالنسبة للشخصية – فكلما عرف العلم مزيدا من تركيبها ووظائفها أمكننا أن نلم بكيفية تعقيدها . ولزيادة هذه النقطة وضوحا نقول ان كثيرا من الفروض الشائعة الخطأ يتم تصحيحها بوساطة التسويغات العقلية السطحية – غير أن هذه بدورها تعيبها السطحية التى تنسب الى الباعث بساطة فى غير محلها . ويذهب روبنسون الى أنه من الممكن أن يكتب تاريخ للفلسفة والآلهيات يدور حول الأمزجة المنحرفة

---

(١) أنظر :

J. H. Robinson, The Mind in the Making (New York, 1921).

والكبرياء المجروح وأحاسيس الكراهية ، ومثل هذا التاريخ يعد أكثر فائدة لطلاب العلم من الطرق المألوفة فى معالجته [1] . نعم قد يكون أكثر فائدة ولكن ربما كان أبعد من أن يكون جانبيا من زاوية واحـدة مع ما يترتب على ذلك من تضليل .

وليس فى مباحث العلوم ما هو أشد تعقدا من فهم البواعث فهما كاملا ، لأن هذا العمل يتطلب منا أن تفتت عناصر الطبيعة الانسـانية ونكشف خباياها — مع علمنا بأن هذه الطبيعة الانسانيـة لا تتكرر مظاهرها تماما من شخص الى آخر نظرا لأن مجموعة التجارب التى تمر بحياة كل فرد على حـدة فريدة فى بابها رغم أنها فى نفس الوقت تمثـل الخصائص الانسانيـــة العامة . ومن هـــذه الناحية لا تكون مهمة السوسيولوجى أو عالم الاجتماع أقل خطورة من مهمة كل من المؤرخ الذى يسعى لتفسير أحداث معينة أو جزئيات التاريخ أو مهمة المعالج النفسانى الذى يتقصى بواعث السلوك عند هذا الشخص أو ذاك . وذلك لأن اهتمام السوسيولوجى موجه أولا وقبل كل شىء الى الظواهر الجمعية حيث نجد مجموعات من الناس يتصرفون بكيفيات متشابهة أو يستمسكون بنظم سائدة مشتركة . فاذا لاحظنا مثلا نفس الاشارات والعلامات الخارجية مستخدمة بوساطة عدد كبير من الناس أو متكررة فى مناسبات كثـيرة يمكننا أن نستنتج وجود نظم سائدة ونحن مستوثقون من ذلك . وان خطأنا ليقل نوعا ما فى قراءة البواعث التى تسير الحشد من الناس أو « الجمهور » عن خطئنا فى قراءة بواعث سلوك أحد الأفراد . وهـذا موضوع سنرجع اليه فيما بعد ، على أن يسبقه البحث فى العلاقة الأساسية فى الدراسة السوسيولوجية « الاجتماعية » — وهى العلاقة بين الفرد والمجتمع .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٥ .

الفصل الثالث

الفرد والمجتمع

المقصود بقولنا إن الإنسان حيوان اجتماعي

المسألة الأساسية فى علم الاجتماع: ذكرنا فى الفصل الأول الذى قدمنا فيه الاصطلاحات الأولية للتحليل الاجتماعى أن طبيعة الانسان الاجتماعية هى أهم صفاته . وقبل أن نمضى فى معالجة زوايا المجتمع ونواحيه المختلفة ينبغى أن نبحث عن الطريق القويم الذى يحسن أن نسلكه لحل هذه المشكلة التى تعتبر أخطر ما يقدم الينا علم الاجتماع من مشاكل .

ولنبدأ بالأسئلة الآتية : بأى معنى من المعانى يعتبر الانسان حيوانا اجتماعيا ؟ وبأى معنى من المعانى ننتمى الى المجتمع ؟ وكذلك بأى معنى من المعانى ينتمى المجتمع الينا ؟ وما طبيعة توقف حياتنا عليه ؟ وكيف نفسر وحدة المجموع التى ترتبط بها حيوات الأفراد ؟ هذه الأسئلة تمثل جوانب مختلفة لمسألة أساسية واحدة — هى علاقة وحدة المجموع ، أو الفرد بالمجموع وبالنسق الاجتماعى . هذه المسألة هى نقطة البداية وملتقى الأبحاث السوسيولوجية والى حد كبير يقاس مدى نجاح البحث الاجتماعى بما يقدمه من حل لمشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع .

وعلى ذلك فليس بمستغرب أن العقل البشرى سعى لمعرفة الأجوبة على ما قدمنا من أسئلة بشأن هذه المشكلة من قبل أن يصاغ الاصطلاح

علم « الاجتماع » بزمن طويل . ولقد كان هناك جوابان متعارضان لعبا دورا كبيرا فى تاريخ الفكر الاجتماعى الغربى ، وهما نظرية العقـد الاجتماعى ونظرية « الكائن العضوى الاجتماعى » .و قد يخدمنا النظر بايجاز فى هاتين النظريتين من ناحية ازالة بعض الفروض الخاطئة المتعلقة بالفرد والمجتمع الشامل الذى هو جزء منه .

مدخلان يتميز كل منهما بأنه من زاوية واحدة : ذهب كتاب كثيرون خلال عدة قرون الى الأخذ بكل من النظريتين الآتيتين عن العلاقة بين الفرد والمجتمع . وهاتان النظريتان كثيرا ما نصادفهما اليـوم فى الفكر الشعبى — أو « سوسيولوجيا الهواة » — التى ننسبها الى أقراننا من المواطنين . والمطلوب من طالب الاجتماع اذن أن يحاول فهم النظريتين وأن يعرض ما فيهما من وجوه النقص .

١ — **نظرية التعاقد مع المجتمع** : منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل نظر فلاسفة عديدون الى المجتمع كنظام يقـوم على مجموعة من الناس لتحقيق غاية معينة ، وفيما يرى البعض مثل توماس هوبز[١] فى القرن السابع عشر ، ما المجتمع الا وسيلة لحماية الناس من نتائج طبائعهم الجامحة . ورأى الآخرون أن المجتمع ابتكار مصطنع لتحقيق الاقتصاد المتبادل ونادى بهذا الرأى آدم سميث وأتباعه فى فلسفتهم الاقتصادية . وبالكيفية نفسها نادى الفرديون فى القرن الثامن عشر بأن الانسـان « ولد حرا ومساويا لغيره » فى المرحلة التى عاش فيها على الفطرة ، وان ما أبرمه من عقد اجتماعى لم يكن الا لسد الحاجات الاجتماعية المتعلقة بانتظام الحياة فى المجتمع وبحمايته . وتنظر كل هذه النظريات الى المجتمع كما لو كان قائما على نوع من التعاقد الحقيقى فيما بين الأفراد أنفسهم

---

(١) انظر كتابه : Thomas Hobbes, Leviathan, Chape. XIII and XVII.

أو بين الشعب والحكومة . وهذا الرأى قد استخدم فى تأييد « حماية » الفرد من « المجتمع » كما استخدم فى بعض الأحيان للغرض العكسى بقصد تعزيز دور التنظيم السياسى فى المجتمع [1] .

وقد كان هناك اعتقاد مؤداه أن المجتمع اختراع مصطنع ، غير أن هذا الاعتقاد قد فقد قوته وتأثيره ، وهو على كل حال لم يختف تماما . أنظر مثلا بعض النقد المتداول الموجه للتخطيط الحكومى فى هذا الميدان أو ذاك ، هذا النقد المستند الى القول بأن التخطيط وسيلة مصطنعة «تعرض للخطر الانتظام الطبيعى » للحياة . أو تأمل الحنين المؤلم الذى يشعر به بعض الأشخاص الى العودة للأساليب الطبيعية — هـذه الأساليب المفترض وجودها قبل أن يقيم الانسان هذا المجتمع المتعب . وعلى هذا النحو نرى بعض النزوات الشائعة فى السنوات الحديثة تدعو للتوصية بتناول أغذية من غير الطعام المطهو أو تعدد مزايا العرى ، وبذا تردد تصورات القرن الثامن عشر المتعلقة بدولة الانسان الشعرية السابقة على العهد الاجتماعى . أو لاحظ كذلك ميل الكثيرين فى الوقت الحاضر الى أن يوجهوا « اللوم » الى المجتمع الحديث « المصطنع » بسبب ظاهرة هبوط نسبة المواليد — وهذه مشكلة سنتناولها بالبحث فيما بعد فى هـذا الكتاب . ويستطيع القارىء أن يذكر أمثلة عديدة لما يشيع من آراء مبنية على — أو متضمنة — النظرية القائلة بأن المجتمع شىء قد استحدثه بعض الناس فى وقت ما وسهروا على قيامه .

وهناك أسباب وجيهة تدعونا الى رفض هذه النظرية . وذلك لأنها تقوم على زعم خاطىء مؤداه أن الناس هم أناس ، أو يستطيعون أن

---

(١) أنظر: G. D. H. Cole's Introduction to *The Social Contract and Discourses* by Jean Jacques Rousseau (London, 1913).

يكونوا أناسا ، خارج حظيرة المجتمع أو منفصلين عنه . وهذه النظرية تتضمن أن الناس هم أفراد من قبل أن « يدخلوا » فى المجتمع ، وأنهم يقيمون حياة اجتماعية منتظمة لحماية ممتلكاتهم أو حقوقهم أو حياتهم أو لأى غرض آخر يستحسنونه . هذا الزعم الباطل فقط عندما نغض النظر عن مسألة عدم انفصال الفرد والمجتمع أحدهما عن الآخر . وليس لأحدهما على أية حال أسبقية على الآخر فى تاريخ التطور الانسانى .

٢ ـ **النظرية العضوية للمجتمع :** يتحتم علينا أن تتجنب الخطأ المقابل لما انزلق فيه أصحاب نظرية العقد الاجتماعى . وهذا الخطأ متضمن فى الرأى الذى يعتبر المجتمع (أو أى جزء منه كالأمة) نوعا من الكائن العضوى . هذا الرأى الذى هو على الأقل قديم قدم فكرة العقد الاجتماعى ينظر الى المجتمع كنسق بيولوجى ، أو كائن عضوى أكبر ، يشبه فى تركيبه ووظائفه وفى وحدة أجزائه جسم الانسان أو الفرد ويتعرض لقوانين مشابهة فى نموه ونضوجه واضمحلاله . ان خلايا المجتمع هى الأفراد ، وأعضاؤه ونسقه هى الروابط والنظم السائدة . وهذه النظرية فى صورتها الدقيقة لا تفرق بين تركيبات المجتمع أو تنظيماته وبين الأعضاء والنسق البيولوجية . ويبالغ بعض الكتاب حينما يعينون فى المجتمع الأجزاء التى تقابل المخ والرئتين والأطراف فى الكائن العضوى [1] . وهناك اجتماعيون عضويون أقل تطرفا مثل الرائد السوسيولوجى

---

(١) يقول بذلك عالم الاجتماع الروسى نوفيكو وعالم السياسة الالمانى بلونتشلى . أنظر لتفرعات هذه النظرية :

F. W. Coker, *Organismic Theories of the State* (New York, 1910) and P. Sorokin (Contemporary Social Theories) (New York, 1928), pp. 200 ff.

وانظر لتخيلات القرون الوسطى حول هذا الموضوع :

Otto v. Gierke, *Political Theories of the Middle Age* (F. W. Maitland, tr., Cambridge, 1900), pp. 103 ff.

أوجست كونت ، ممن وجهوا اهتمامهم لكى يوضحوا أن وحدة المجتمع ومساهمة الأفراد فيه كل بعمله فى داخله أمور يجب أن تتصورها كما تتصور الكائن العضوى . كما أن هناك آخرين يحاولون البرهنة على أن المجتمع يمر بالعمليات الاطرادية العضوية وهى المولد والشباب والنضوج والشيخوخة والوفاة [1] .

ومن النظريات المتصلة اتصالا وثيقا بالاتجاه العضوى تلك التى تقول ان المجتمع ينبغى أن تتفكر فيه لا من حيث كونه جسما أكبر وانما من حيث كونه عقلا شاملا . وهذه النظرية أيضا قديمة وحديثة معا — سبق التعبير عنها مثلا عند أفلاطون فى كتابه الجمهورية ، وعند مدرسة هيجل للفلسفة السياسية وأيدها علماء النفس من أمثال وليم مكدوجل ، الذى يتحدث عن « العقل الجمعى » [2] كحقيقة واقعة . ولا يثير هذا الرأى أية مشاكل اذا لم يتعد معناه أن الجمع من الناس يضفى على نفسه بعض الخصائص المميزة لأعضائه بوجه عام — أو اذا اقتصر مدلوله مثلا على أن هناك مواقف معينة يعتبر الانجليز والأمريكان والروس عرضة لاتخاذها، غير أن أصحاب هـذه النظرية يعنون شيئا أكثر من ذلك . انهم يصرون

---

(١) لمناقشة هـذا الرأى وآراء أخرى مشابهة بوساطة أحـد علماء الاجتماع الذين تشير كتاباتهم المطولة الى توضيح نظرية شبه عضوية ، انظـر :

P. Sorokin, "Sociocultural Dynamics and Evolutionism", in *Twentieth Century Sociology* (G. Gurvitch and W. E. Moore, eds., New York, 1945, pp. 96-120.

ونضيف الى ما ذكره المؤلفان فى هذا الشأن ما اشار اليه ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان : فصل فى أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص
— المترجم —

(٢) أنظر Plato, Republic, Book II; B. Bosanquet, *Philosophical Theory of the State* (London, 1920), Chap. VII; W. McDougall, *The Group Mind* (Cambridge, 1920), esp. Chap. I.

على أن المجتمع نفسه عبارة عن عقــل ، وبعبارة أصح هو عقــل مشترك بالنسبة لأعضاء المجتمع بالسوية بينهم .

ان تشبيه المجتمع بالكائن العضوى أو بالعقل يشترك مع نظرية العقد الاجتماعى من حيث أنه يجد بين المفكرين المعاصرين المختلفين من يأخذ به كما نلاحظ فى كتاب أوزوولد شبنجلر[1] الضخم الذى يزعم فيه المؤلف أن المجتمعات تمر بمراحل العضوية من المولد الى الوفاة . وكما نقرأ فى المذاهب الرسمية للحكومات الاشتراكية ، مثل النازية والفاشية ، التى تعتبر الشعب « كأم رؤوم » ، الفرد مجرد مظهر من مظاهرها وينبغى أن يكرس لها كل حياته . ومن المألوف بيننا أن ننظر أحيانا الى المجتمعات نظرتنا الى الأشخاص فنقول مثلا « ان انجلترا تتحول نحو اليسارية » أو « أن أمريكا قد بلغت غاية نضوجها » أو « ان الانسانية تدمر نفسها » ، أو « ان عقلية الصين (أو الهند أو روسيا أو فرنسا) تدق على فهمنا » ، مثل هذه الأقوال قد تتضمن أو تشير الى تشبيه المجتمع بالكائن الحى أو العقل . ومن جهة أخرى قد تكون مجرد صياغة أدبية . وما دمنا فى الواقع نقارن الزمرة الاجتماعية أو الجماعة المحلية بالكائن العضوى لكى نبرز نواحى المجتمع المتشابهة لتوقف الأفراد بعضهم على بعض فى خلال النسق الاجتماعى ، فاننا فى هذه الحالة نستخدم تشبيها بسيطا ومعينا لنا[2] . ولكن الوضع مختلف جدا حينما نصف النسق الاجتماعى بأنه كائن عضوى بالفعل . ذلك لأن هذا الرأى يسىء الى فردية الكائن

---

(١) أنظر : Oswald Spengler, *The Decline of the West* (C. F. Atkinson, tr. : New York, 1926).

(٢) أنظر مثلا المقال المفيد بقلم:
W. B. Cannon, "The Body Physiologic and the Body Politic", In *Society and Man* (R. N. Anshen, ed., New York, 1942), pp. 287-308.

الاجتماعى ، بالضبط كما تسىء نظرية العقد الى طبيعته الاجتماعية . ومن المضل أن تقول ان المجتمع هو وحده الذى يحيا ويتنفس من خلال أفراده، أو ان شعورنا ما هو الا تعبير للشعور الاجتماعى [1] . وينبغى أن نجيب بأن المجتمع لا يعيش اطلاقا الا فينا نحن وحدنا ، أو بعبارة أخرى فى أفراده . ومن المضل أيضا أن تقول اننا ننتمى الى المجتمع كما تنتمى أوراق الشجر الى أشجارها أو الخلايا الى الجسم . وفى الحقيقة أن معنى المجتمع لينكمش ما لم يكن أفراده حقائق واقعة . ومهما انطوى التشبيه العضوى على جمال فى الأسلوب أو ايحاء بأى نوع من الفائدة فاننا لاينبغى أن نتخذ منه تفسيرا للعلاقة الأساسية فى الحياة الاجتماعية ، ألا وهى العلاقة بين المجتمع والفرد . وذلك لأن النظرية العضوية ، كالنظرية العكسية بالنسبة لها أى نظرية العقد الاجتماعى القائم على الفردية ، تنكر جانبا من هذه العلاقة .

الفرد والمجتمع ، واستكشاف العلاقة بينهما : يبدو جليا قصور النظريتين اللتين انتهينا من عرضهما توا عندما تتناول أدلة محسوسة معينة على العلاقة المتبادلة بين الفرد والحياة الاجتماعية المنتظمة . وقد لاحظنا أن من بين الدروب المتعددة التى سار عليها الباحثون بغية استكشاف هذه العلاقة ثلاثة لها عند السوسيولوجى دلالة خاصة :

١ ـ **الحالات الهمجية :** لقد ثبت توقف الطبيعة الانسانية على عضوية الانسان فى أحد المجتمعات ببعض الأدلة شبه التجريبية . وبالطبع ليس من السهل اجراء تجارب لعزل الأطفال الرضع عن جميع العلاقات

---

(1) هذا رأى لعالم الاجتماع الفرنسى A. Fouillée وهو يحاول فى كتابه :
La Science Sociale Contemporaine (Paris, 1904).

أن يقرب بين النظرية العضوية ونظرية العقد الاجتماعى بتسميته المجتمع « كائنا عضويا متعاقدا » .

الاجتماعية وان كنا نعرف أن بعض الملوك فى ظل الحكم المطلق ، من الملك بزماتيك فى مصر القديمة الى الملك جيمس الرابع فى اسكتلندا ، قيل انهم قد قاموا بهذه التجربة . ولكن الصدف أو الأحداث الطارئة وحالة أو حالتين من الحالات المدروسة قدمت الينا الدليل الكافى على أهمية المجتمع بالنسبة للفرد [1] . ولقد يحسن أن نذكر ثلاثا من هذه الحالات المدروسة :

أولا — تعتبر حالة كاسبار هاوسر ذات مغزى خاص لأن هذا الشاب السيىء الحظ كان فى الأغلب محروما من الاتصال بغيره من الناس بسبب النظم السياسية ، وترتب على ذلك أنه حينما عثر عليه لم يمكن أن تنسب حالته الى نقص فى قواه العقلية الفطرية . وحينما جال هاوسر وهو فى سن السابعة عشرة فى مدينة نومبرج فى سنة ١٨٢٨ لم يكن يستطيع المشى الا بصعوبة ، وكان له تفكير الأطفال ، ولم يكن يهمهم الا بعبارة أو عبارتين لا معنى لهما . ومما يستحق التسجيل من وجهة نظر علم الاجتماع أن كاسبار كان ينظر الى كل ما يصادفه من جماد على أنه كائنات حية . وحينما قتل بعد ذلك بخمس سنوات اتضح من تشريح جثته أن مخه نما بطريقة غير طبيعية . ان حرمان كاسبار هاوسر من الحياة فى المجتمع حرمه أيضا من أن يستمتع بالطبيعة الانسانية نفسها [2] .

ثانيا — ومن أهم الحالات الهمجية حالة تختص بطفلتين من الهنود اكتشفتا فى سنة ١٩٢٠ فى جحر ذئب ، وكان عمر احداهما فى ذلك الوقت الثامنة وعمر الأخرى أقل من سنتين . فقد ماتت الطفلة الصغيرة بعد

(١) أنظر لمراجعة أمثلة من هذه الحالات :

R. Briffault, *The Mothers* (New York, 1937), Chap. I.

(٢) هذا المثال المستمد من التاريخ هو موضوع قصة Wassermann . وللاطلاع على الوقائع المتعلقة بهذا الموضوع أنظر :

Mayers Konversationslexicon, s. v.

اكتشافها ببضعة شهور ، ولكن الطفلة الكبيرة ، وتدعى « كاملا » لم يكن فى أحوالها ما ينبىء بأنها احتفظت بمظاهر السلوك الانسانى . فقد كانت تمشى على أربع ، ولم تكن تتحدث بأية لغة فيما عدا عواء يشبه عواء الذئب ، وكانت تخشى الآدميين كما يخشاهم أى حيوان غير مستأنس . وبعد جهد كبير وعطف بالغ عليها فى تدريبها وتربيتها استطاعت أن تتعلم بعض العادات الاجتماعية الأولية — ووفقت قبل وفاتها فى أن تتعلم ببطء بعض الكلام البسيط ، وتناول الغذاء الذى يتناوله الآدميون وارتداء الملابس التى يلبسونها وما شابه ذلك . وهذه الطفلة الذئب التى كان يعوزها الاحساس بنفسها الانسانية وقت العثور عليها ، وجدنا هذا الاحساس يظهر عندها بالتدريج ولكن ظهور نفسيتها وفرديتها كان يتوقف على كونها أصبحت بعد العثور عليها عضوا فى مجتمع انسانى[1].

ثالثا — درس بعض علماء الاجتماع والنفس حديثا جدا حالة «أنا»، وهى طفلة أمريكية غير شرعية وضعت فى حجرة لما كانت سنها ستة أشهر حيث عزلت فيها حتى اكتشفت بعد ذلك بخمس سنوات وذلك فى سنة ١٩٣٨. وفى خلال حبسها كانت تغذى «أنا» باللبن كطعام رئيسى وبعض الأطعمة الأخرى القليلة ، ولم تتح لها فرصة التعلم العادى ، وفى الأغلب لم تتصل بأى انسان أو حيوان . هذا الانعزال الاجتماعى فى أقصى صوره وأقساها، والذى يرى فيه العلماء « حالة معملية » ترك الطفلة وليس لديها الا القليل من الصفات التى تكون عند الطفل الطبيعى البالغ من العمر خمس

(١) اذا رغب القارىء فى بيان موجز عن الأطفال الذئاب فليطلع على:
K. Young, *Sociology* (New York, 1942), pp. 5-8.

وتوجد التفاصيل فى :

A. Gesel, *Wolf Child and Human Child* (New York, 1939) and J. A. L. Singh and R. M. Zingg, *Wolf Children and Feral Man* (New York, 1942).

سنوات . وعندما اكتشفت « أنا » لم تكن تقدر على المشى أو الكلام ، وكانت مجردة تماما من العواطف وغير مكترثة بالناس الذين كانوا حولها. وكما حدث فى حالة « كاملا » ، استجابت « آنا » للعناية التى وجهت اليها بعد أن أطلقت من محبسها ، وربما ساعد صغر سنها وقلة احتكاكها بأى كائن أثناء حبسها على أن تعود لها انسانيتها بسرعة قبل موتها فى سنة ١٩٤٢ . وتوضح حالة « أنا » مرة أخرى أن الطبيعـة الانسانية تنمو فى الانسان حينما يعيش فى المجتمع فحسب — أو بعبارة أخرى حينما يكون واحدا من كثيرين من الأفراد يقتسمون حياة مشتركة (١).

٢ ـ **نمـو الاحساس بالنفس** : تمدنا دراسة العملية الاطرادية لنمو الاستعداد للحياة الاجتماعية عند الطفل بمجموعة أخرى من الأدلة على العـلاقة الأساسـية المتبادلة بين الفـرد والمجمـوع . وأن ظهـور الاستعداد للحياة الاجتماعية ما هو الا جانب من جوانب نمو الاحساس بالنفس وبالشخصية . ان الطفل ليس مجرد مقلد للأساليب الاجتماعية التى يتبعها الكبار ، كما يلتقط الببغاء لغة الكلام . ولا شك أن الطفل حيوان مقلد ، ولكنه فى خلال قيامه بالتقليد تتكشف طبيعته الاجتماعية رويدا رويدا . وقد لاحظنا أن الطفل فى مراحـله الأولى لايميز بين الأشخاص والأشياء — وما ثدى أمه و « البزازة » فى نظره الا وسيلتان متساويتان من كل وجه تؤديان غرضا واحدا هو اشباع حاجة عضوية عنده . وكذلك تجرى محادثاته الأولى بينه وبين نفسه ونراه فى هـذه المرحلة يخاطب نفسه بصوت مرتفع . وهذه المحادثات تتحول بالتدريج

---

(١) لزيادة العلم بحالة أنا أنظر :

K. Davis, "Extrem Isolation of a Child," *American Journal of Sociology*, XL (1940), 554-565; and "Final Note on a Case of Extreme Isolation", ibid., LII (1947), 432-437.

الى كلام هو صدى أفكار آخذة فى التعديل [١] . وكما قال جان بياجيه حديثا ، يتحول الفكر المتمركز حول النفس الى « ارتباط عقلى تكاملى يبرز من خلاله منطق العلاقات » القائمة بين الفرد والعالم الذى هو جزء منه [٢] . وعندما يحس الطفل بنفسه يكتشف ضمنا أن للآخرين نفوسا متميزة . وكلما وضحت معالم فرديته يصبح بحق قادرا على ممارسة العلاقات الاجتماعية [٣] . فأول لعب للطفل يبدو أنه مجرد تقليد للغير ويقتصر لعبه فى هذه الحالة لنفسه ومن أجل نفسه ، وكلما تقدم فى تعلم اللعب مع الآخرين تتوقف قواعد اللعبة عن أن تصبح أحكاما خارجة عنه مفروضة عليه من الآخرين ، ونراه يعمل على المحافظة عليها كأنه مسئول عنها [٤] .

وقد درس كثيرون من المتخصصين الأمريكيين فى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى لمدة سنين موضوع نمو الاحساس بالنفس . وقد ثبت من أبحاث ج.هـ. ميد أن نفسية الطفل تنمو كلما أحس خلال أحلام اليقظة وأثناء لعبه بالعرائس ومع أقرانه أن للآخرين — ومن بينهم والداه وغيرهم من الأبطال من وجهة نظره — أدوارا يلعبونها فى حياته هو [٥] .

---

(١) انظر مثلا البحث القيم : Jean Piaget, *The Language and Though of the Child* (New York, 1926), Chap. II.

(٢) أنظر : Jean Piaget, "*Intellectual Evolution*" in *Science and Man*, pp. 409-422

(٣) هذه النقطة تبدو ضعيفة ، وذلك لأن نمـــو الفردية لا يستلزم بالضرورة نمو القدرة على الحياة الاجتماعية .

وليس فى الجملة التالية عند المؤلفين ما يؤيد رأيهما أو يوضحه .

— المترجم

(٤) قارن :

Jean Piaget, *The Moral Judgment of the Child* (New York, 1932), Chap. I.

(٥) أنظر : George H. Mead, *Mind, Self, and Society* (Chicago, 1934), pp. 135-226.

وأكثر من هذا تنطوى العملية الاطرادية لظهور النفس على انسجام الطفل المستمر مع سلوك الآخرين . ويعتبر هذا عند بعض علماء الاجتماع ومن بينهم تشارلز هـ . كولى [1] عاملا ذا دلالة كبيرة فى تكوين الشخصية . وكون الاحساس بالنفس لا يظهر الا عند الشخص الذى يعيش فى مجتمع ما — حيث مبدأ الأخذ والعطاء الذى تتميز به الحياة الجمعية — قد تأيد بالأبحاث العلمية الحديثة [2] .

٣ ـ الانسان وما يختص به ، توقف حياته على الميراث الاجتماعى : لا يعدو كل فرد أن يكون نتاجا لعلاقة اجتماعية أدت اليها بدورها آداب عامة مقررة من قبل مولده [3] . وفوق ذلك فاننا نرى أن كل شخص ، سواء أكان رجلا أم امرأة ، هو فى حقيقته طرف فى علاقة . وليس الفرد فى ذاته بداية أو نهاية ، وانما هو حلقة فى تتابع الحياة . وهـذه حقيقة سوسيولوجية وبيولوجية على السواء ، ولكنها لا تشير حتى الآن الى مدى توقفنا كأفراد على المجتمع .

وذلك لأن المجتمع شىء أكثر من بيئة ضرورية ، وأكثر من التربة التى تتلقى فيها تربيتنا . ان علاقاتنا بالميراث الاجتماعى أقوى وأشـد ارتباطا من علاقة البذرة بالأرض التى تنمو فيها . لقد ولدنا فى مجتمع

---

(١) أنظر : Charles H. Cooley, *Human Nature and the Social Order*, (New York, 1922).

(٢) أنظر من أجل زيادة الالمام بموضـوع توقف الفردية على القوى الجمعية : E. Faris, The Nature of Human Nature (New York, 1937), Part I.

وتقريرا عن البحث التجريبى فى هذا المجال ، فى :

G. and L. B. Murphy and T.M. Newcomb. *Experimental Social Psychology* (New York, 1937), Part II.

(٣) لشرح هذه الفكرة أنظر :

Emile Durkheim, *Les Règles de la Méthode Sociologique*, huitième édition, (Paris, 1927), Chap. I.

حددت عملياته الاطرادية ميراثنا ، ويصبح فى الوقت المناسب بعض ما أخذناه من المجتمع عدتنا العقلية الداخلية — لا مجرد شيء نمتلكه كسائر الأشياء — ويكون من شأن التراث الاجتماعى الذى يتغير باستمرار تبعا لتجاربنا العملية ، أن يوقظ شخصيتنا ويوجهها . ان المجتمع يحررنا ويحد من استعداداتنا كأفراد فى وقت واحد ، ليس فقط بمنحه ايانا الفرص المحددة والتشجيع ، وليس فقط بارهاقه ايانا بالقواعد وتداخله فى سلوكنا ، وانما أيضا بتكييف مواقفنا ومعتقداتنا ومقاييس سلوكنا ومثلنا العليا بطريقة رفيقة لا يشعر بها .

ان ادراكنا لهذه العلاقة المتبادلة الأساسية والديناميكية بين الفرد والتراث الاجتماعى يجعلنا نقدر صحة عبارة أرسطو المشهورة : ان الانسان حيوان اجتماعى . وليس المقصود بذلك أن الانسان حيوان متآلف مع الناس ، فالأفراد مختلفون من هذه الناحية . ولا المقصود أن الانسان غيرى يؤثر الغير على نفسه أحيانا باتجاهه الى المجتمع . ومن أبعد المعانى عما ترمى اليه عبارة أرسطو أن الانسان اجتماعى بحكم تكوين أصيل لا فى الطبيعة الانسانية وانما نقصد أنه بدون المجتمع ، وبدون تأييد الميراث الاجتماعى ، لا تستطيع شخصية الفرد أن تستبين .

الفرد والمجتمع من حيث الاعتبارات النظرية التى لابد من فهمها حول العلاقة بينهما : لاحظنا فيما سبق التفسير الفردى الذى تؤكده نظرية العقد الاجتماعى ذات الجانب الواحد ، وكذلك نظرية التفسير العضوى المماثلة من حيث كونها جانبية . وماتدعو اليه من اهمال يكاد أن يكون كليا لدور الفرد فى الحياة الاجتماعية . ولقد أوضحنا بعض الاستكشافات للعلاقة بين الفرد والمجتمع . ولكننا ما زلنا نرى أن فهم هذه العلاقة فهما واقعيا يحتاج الى كلمة ختامية عامة قبل أن ننتقل الى بعض التفاصيل . فلنبحث الآن المظهر العام لوحدة المجتمع وللعلاقات القائمة بين أفراده من جهة ، وفيما بين كل منهم والمجموع .

هناك بالتأكيد وجوه اتفاق مهمة بين التركيب الاجتماعى والتركيب العضوى ، ولكن هناك أيضا وجوه اختلاف مهمة بينهما . وبالرغم من أن هربرت سبنسر نظر الى المجتمع ككائن عضوى ، فقد أشار الى فارق كبير بينهما حينما قال ان المجتمع يفتقر الى « دماغ » أو مركز للحس أو للتفكير [1] . وذلك لأن الأفراد هم وحدهم الذين يفكرون ويشعرون. اننا نستطيع أن نوصل مشاعرنا وأفكارنا الى غيرنا حتى يمكنهم أن يشاركونا عواطفنا أو يفهمونا . ولكن فى الواقع لا يستطيع الآخرون أن يقتسموا معنا مشاعرنا أو أفكارنا . وبهذا المعنى تكون كل نفس ، بحكم كيفية خلقها ، فى معزل عما عداها من النفوس [2] ، على اعتبار أن المشاعر والأفكار متشابهة وليست مشتركة . انها تمر فى تجارب الأفراد من حيث كونهم أفرادا ، لأن العقل ينقل الأفكار الى عقل آخر . ولكن العقل الناقل والعقل المنقول اليه لا يكونان عقلا واحدا . ولقد تدعو نفس المؤثرات الى تهييج شعب أو حشد من الناس ، لا بطريقة كلية بل من حيث ان هذه المؤثرات تخفق فى نفس كل فرد من الأفراد العديدين الذين يتكون منهم هذا الشعب أو ذاك الحشد . واذا تكلمنا عن « عقل الزمرة » فلن يكون لدينا أى دليل ، وبالتالى أى حق ، فى أن نتصور هذا العقل على أنه مجموع عقول أفراد هذه الزمرة وهم يشعرون أو يفكرون

---

(١) من المهم أن نشير الى أن سبنسر الذى استخدم اصطلاحات التفسير العضوى كان هو نفسه من متطرفى أصحاب التفسير الفردى فى عصره .

(٢) يبدو أن المدرسة الوجودية الحديثة فهمت هذه الحقيقة فهما جيدا وكيفتها بحيث تتلاءم مع نوع من « الفلسفة » المتمركزة حول النفس ، شاع فى فرنسا ذكرها وحديث الناس عنها . ولا ننسى أن الشعب الفرنسى عانى الكثير من الحكم النازى الذى نزل بهم خلال الحرب العالمية الثانية . ومن علامات الشقاء فى زماننا أن تجد الوجودية لها أنصارا جددا فى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد .

بكيفيات متشابهة ، كما يستجيبون استجابات متشابهة ، وتحركهم مصالح متشابهة أو مشتركة .

ان الأفراد لا ينتسبون الى المجتمع كما « تنتسب » الخلايا الى الكائن العضوى : ان مراكز النشاط الوحيدة التى نعرفها للشعور والوظيفة العضوية وأغراض الحياة هى نفوس الأفراد . وان المجتمع الوحيد الذى نعرفه هو مجتمع ترتبط فيه هذه النفوس بعضها ببعض ، خلال الزمان والمكان ، بالعلاقات القائمة بين كل منها والأخرى ، سواء أكانت هذه العلاقات جديدة أم موروثة . وان التجربة الوحيدة التى نعرفها هى تجربة الأفراد . وانه لفى ضوء الصراع القائم بين هؤلاء الأفراد وبين مصالحهم ورغباتهم وآمالهم ومخاوفهم فحسب أننا لنستطيع أن نتبين وظائف المجتمع وأهدافه . وبالعكس ، انه بسبب كون الأفراد جزءا من المجتمع تراهم أصحاب مصالح ورغبات وأهداف . وان الطبيعة الانسانية لتزدهر وتتفتح فى المجتمع وحده . ان العلاقة بين الفرد والمجتمع ليست علاقة من جانب واحد . ان كلتيهما ضرورى لفهم كل منهما .

وتتميز كتابات أصحاب التفسير الفردى فى الماضى والحاضر بعجزهم عن تبين هذه العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع . فقد رأينا توماس هوبز فى القرن السابع عشر وأيضا جون ستيوارت مل فى القرن التاسع عشر يكتبان كما لو كان المجتمع فى طبيعته معاديا لكل ما يساعد الفردية على التعبير عن نفسها ونموها [١] . واليوم ، على أساس نفس الخطأ فى تصور هذه العلاقة نسمع ترديدا صاخبا لما يتهدد الفرد من عدوان النظام الاجتماعى عليه ، تتجاوب أصداؤه فى جمعياتنا التشريعية أو نقرؤه

---

(١) أنظر : Hobbes, op. cit., Chap. XXI, and Mill, *On Liberty, passim.*

فى الجدل الذى يثيره أولئك الذين يرون فى كل اجراء جديد للتأمين الاجتماعى ضربة مسددة للحرية (١)

ويميز نفس الخطأ عند أصحاب النظرية المضادة ، آراء المفكرين الذين نادوا كما نادى بنيامين كد بأن الفرد ينبغى أن يكون تابعا للمجتمع، أو آراء من يتمثلون بأتباع الفيلسوف هيجل حين يذهبون الى أن المجتمع له فى ذاته قيمة تتجاوز الخدمات التى يؤديها لأفراده (٢). وتتضمن مثل هذه الآراء أن المجتمع يتقوم بذاته بكيفية غامضة وغير مدركة تماما لنا ، وان سعادته يمكن أن تتحقق دون نظر للأفراد ، وربما على حساب سعادتهم (٣) . وانا لنرى فى بعض الأحيان أنه من الممكن ، ان لم يكن من المرغوب فيه ، أن تضحى سعادة الفرد أو الأفراد جميعا (وليس بعضهم) فى سبيل المجتمع . وعندما حاول « فلاسفة » موسولينى وهتلر الرسميون أن يفسروا ما استغلق من «النظرية» الفاشية والنازية—وكان القصد من ذلك اعلان تبرير عقلى لتفسير الدكتاتورية وقيمتها الاجتماعية—

---

(١) اننا هنا لا نتعرض للحكم على هـــذا أو ذلك من ضروب التخطيط الاجتماعى من حيث كونه مرغوبا فيه ، وانما نقتصر على مهاجمة ما يفترضه البعض من أن النظام الاجتماعى فى حقيقة أمره ضار بالفردية .

(٢) أنظر : B. Kidd, *Social Evolution*, (New ed. New York, 1920) and *Principles of Western Civilization* (London, 1902).

واذا أراد القارىء مثالا لمذهب هيجل فلينظر :

Banquet, op. cit., Chaps. V and VII.

(٣) مهد أتباع هيجل فى الواقع لنظريات دوركايم ورادكليف بـراون ومالينوسكى بمثل هذه الآراء . ولزيادة هذه النقطة وضوحا ، أنظر :

Aly A. Issa, *The Methods of Social Anthropology An Examination of Current Ideas and Practice*. (Unpublished D. Phil. Thesis, Oxford, 1950).

— المترجم

لم يكن مستغربا أن يجـد هؤلاء الفلاسفة بعض المذاهب التى جاء بها هيجل وغيره معينة لهم فى عملهم [1] .

واذن فجوهر فهمنا النظرى للفرد والمجتمع يقوم على أن هنـاك علاقة بينهما — وهذه العلاقة تتضمن تلك العمليات الاطرادية التى تقوم بين فرد وآخر ، أو بين الفرد والمجموع فى داخل نطاق النمط الدائم التغير للحياة الاجتماعية . وما المجتمع بكل تقاليده ونظمه السائدة وما يقدم من عدة للحياة فيه الا نظام اجتماعى هائل يتصف بالتغير فى كل أجزائه ، وهو يقوم على حاجات الجسم والروح الضرورية لأفراده . وهو مجال منتظم يولد فيه الناس ، وينمون ، فى حدود امكانياتهم ، ثم ينقلون من خلاله احتياجات المعيشة الى الأجيال القادمة . وينبغى أن نرفض أى رأى يتصل بهذا النمط اذا قام على النظر الى العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع من هذا الجانب أو ذاك .

الفرد والمجتمع

طبيعة الوحدة الاجتماعية : تتكشف الوحدة الاجتماعية الفريدة فى بابها اذا قارناها بغيرها . ويمكن أن نميز أشكالا مختلفة لهذه الوحدة اذا نظرنا الى طبيعة العلاقة الوظيفية للوحدات أو الأجزاء بالنسبة للكل.

وأول أنواع الوحدة هو الكائن العضوى الذى فهم المجتمع فى بعض الأحيان خطأ على غراره كما رأينا . ونحن نفسر فى الكائن العضـوى

---

(١) أنظر مثلا : G. Gentile, "Philosophical Basis of Fascism", *Foreign Affairs* VI (1928), 190-304, and A. Kolani, *The War Against the West* (New York, 1938).

وللتعليق أنظر :

R. M. MacIver, *The Web of Government* (New York, 1947), pp. 243-255, and G. Galtin, *The Story of the Political Philosophers* (New Yorl, 1939), chap. XXI.

الخلايا والأعضاء والأجهزة المختلفة التى يتألف منها — كالدورة الدموية والغدد والجهاز العصبى وهلم جرا — باعتبار أنها مهمة فقط من ناحية نفعها لحياة الكائن العضوى فى مجموعه . (وعلى ذلك فالمصران الأعور والصعصص يوصفان أحيانا بأنهما من الناحية العضوية آثار لا فائدة منها) وهناك نوع آخر من الوحدة وهو الميكانيزم ، ويتمثل شكله الخاص فى آلة جسم الانسان . وكلنا نعرف أن الآلة لا تدير نفسها بنفسها ولا تعتمد على نفسها ، كما أنها لا تنتج مثلها الكائن العضوى . ولكننا نرى أجزاءها المختلفة كالعجلات و « التروس » وأحزمة الجلد المستخدمة لنقل الحركة من مكان لآخر وغير ذلك ، لا يمكن فهمها الا من طريق ما تسهم به كل منها لكى تؤدى الآلة الكبرى وظيفتها . وتنطبق من وقت لآخر على المجتمع أو أجزائه اصطلاحات الوحدة الميكانيكية والوحدة العضوية مثلما تتحدث عن « ميكانيزم الأسعار » أو « الآلة السياسية » .

ولكن النسق الاجتماعى ينبغى أن يتميز عن هذه الأنواع وذلك لأن النسق الذى يتكون من العلاقات الاجتماعية ينمو ويتغير تبعا لمواقف الأفراد ومصالحهم المتغيرة ، أو لمواقف بعض أو كل الوحدات الداخلة فى النسق الاجتماعى ومصالحها ، أو لمواقف ومصالح الأفراد الذين تتكون منهم هذه الوحدات . ويستمد النسق أهميته من تأييده بغايات الأفراد أنفسهم وما يمكن أن يسهم به فى هذا السبيل . ولا يمكن تصور الوحدة الاجتماعية بدون هذه الغايات . وهذا المبدأ يجعل التوافق بين المجتمع والفردية ممكنا . وقبل أن نسترسل فى شرح هذا المبدأ ينبغى أولا أن نوضح المعنى الذى نضفيه على هذا الاصطلاح الأخير الذى ذكرناه وهو « الفردية » .

معنى الفردية : يتضح المعنى السوسيولوجى للفردية بجلاء اذا عددنا المدلولات المختلفة لهذا الاصطلاح .

١ ــ معنيا الفردية الجسمي والبيولوجي : اننا نستخدم أحيانا الاصطلاح « الفردية » بمدلول جسمى ، ليشير الى الانفصال الجسمى لشىء من شىء آخر · ومثل هذا الاستخدام قد يكون مربكا ؛ مثلما نطبقه على النباتات التى تنبثق منها جذور جديدة — فهل يجوز لنا أن نحكم بأن هذه الجذور الجديدة أفراد وأن لها فردية ؟ هناك أشكال بسيطة للحياة مثل الأميبا التى تنتج أمثالها بالتكاثر من تلقاء نفسها وتؤدى الى أن يتحول ما هو فرد الى فردين أو أكثر . كذلك هناك بعض الحيوانات التى تعيش وتتحرك فى مجموعات يتخصص فيها الأفراد فى أداء وظائف عضوية مختلفة — مثل الانسال والتغذية والدفاع — للمجموعة بأسرها . ومن أمثلة هذا النوع من المجموعات ما يشار اليه «بالسفينة الحربية البرتغالية» . هذه الأمثلة تدل على أن الفردية الجسمية مسألة فرق فى الدرجة ، وأن الفردية أقل وضوحا لأشكال الحياة البسيطة منها فى الأشكال المعقدة . واذا نحن طبقنا الاصطلاح « الفردية » على الجماد نشأ عن ذلك جانب آخر لهذه الحقيقة . فالنقطتان من الماء أو السحابتان يشيع كل منهما فى الأخرى ويصبحان شيئا واحدا ، وبذا تفقد الوحدات تميزها · ومن الجلى أن يتلاشى معنى الفردية تقريبا اذا طبقناها على الأشياء المتناهية فى صغر الحجم أو التى لا شكل لها والتى يمكن تداخلها بعضها فى بعض تداخلا تاما .

وقد لا نختار للفردية مدلولا جسميا بل بيولوجيا · وبهذا المعنى يمكن أن نقول ان المخلوق الحى كلما أشعرناه بفرديته ازداد رغبة فى توكيد نفسه وازداد قدرة على المفاضلة فى أسلوب الاستجابة للمؤثرات الخارجية ، كما ازداد سيطرة واستفادة من بيئته حتى تسد كثيرا من حاجاته الخاصة · والكائن العضوى الذى تتقاذفه الرياح أو الأمواج مثل السمك الهلامى أقل حظا من الفردية من الكائن العضوى الذى يعرف

كيف يتحرك بارادته مع التيار أو ضده . والكائن العضوى الذى يستطيع أن يقوم بقليل من الانفعالات البسيطة أو الذى لديه قليل من الأعضاء التى تكاد أن تكون متباينة ليؤدى بها وظائفه المختلفة أقل فردية من ذلك المعد لانسجامات أدق وأكثر حساسية ، مثل الانسان .

٢ ـ **المعنى السوسيولوجى للفردية** : عندما نضفى معنى الفردية على الانسان نجد من الضرورى أن نستخدم هذا الاصطلاح بمدلوله السوسيولوجى . فنحن نقول ان الكائن الاجتماعى تشتد فرديته اذا لم يكن سلوكه مجرد محاكاة أو نتيجة لتعرضه للايحاء ، واذا لم يكن عبدا بمعنى الكلمة للعادة الجمعية أو حتى لعاداته الفردية ، وعندما لا تكون استجاباته للبيئة الاجتماعية حاصلة بطريقة أوتوماتيكية وانصياعية ، بل عندما يهم بالتفكير لنفسه وبتحديد أغراض سلوكه ويصبح هذان عاملين من عوامل نشاطه . والفردية بالمعنى السوسيولوجى هى تلك الصفة التى تكشف عضو الجماعة وتبرزه كأكثر من مجرد عضو فيها ، عضو يشعر بنفسه ويرى فيها مركزا للنشاط والاستجابة للمؤثرات الخارجية، معبرا عن طبيعته الخاصة . وهذا التصور يكمن وراء النصيحة التى درجنا على أن نسديها الى الغير أو الى أنفسنا حينما نقول : «احتفظ بشخصيتك» والاحتفاظ بالشخصية هنا لا يعنى مجرد الاصالة فى التصرف . وبالتأكيد ليس معناه شذوذ الطبع . وقد لوحظ أن من الممكن للفرد ذى الشخصية القوية أن يعبر تعبيرا وافيا عن روح أو صفات بلاده أو زمانه ، وانه ليفعل ذلك لا لأنه سريع المحاكاة أو من السهل أن يقع فريسة لايحاء الغير ولكن بسبب حساسيته لمقتضيات العصر .

وصحيح أن أعضاء الزمرة اذا كانوا جميعا أقوياء الفردية دب بينهم الخلاف وأدى ذلك الى أن يعبروا عن أنفسهم بطرق مختلفة . ولكن الخاصة المميزة للفردية ليست هى درجة الانحراف عن باقى الأقران

أو الزملاء . وانما هى كيف يتصرف الفرد معتمدا على نفسه مع قيام العلاقات بينه وبين الآخرين . وكيف يتفهم مطالب الآخرين منه . وعندما يسلك صاحب الشخصية سلوكا معينا ، على الأقل فى الأحوال الضرورية، ملتقيا مع الآخرين فى نفس الاتجاه السلوكى ، لا يقال انه فعل ذلك لمجرد أن الآخرين قد فعلوه ، ولكنه هو نفسه يقر هذا السلوك المعين . وعندما يسير وراء السلطة ، الا اذا أرغم على ذلك ، فانه يتبعهم لأنه من ناحية مقتنع بصواب ما يفعل ولا يتبعهم لمجرد كونهم أصحاب سلطة . وهو لا يقبل دون تمحيص آراء الآخرين ولا يأخذ فى ترديدها . ان لديه بعض الاستقلال فى الحكم ، وبعض المبادأة ، وشيئا من التمييز ، وكما نقول فى أغلب الأوقات عنده « قوة خلق » وتعتبر الحدة التى يفصح بها عن هذه الصفات هى نفسها درجة فردية وشخصية .

ويقتضى الأمر الآن أن نلاحظ ملاحظة قصدنا بها التحوط والاحتراس. اننا لم نقل ان صاحب الفردية يستمتع بقسط من حرية الارادة أكبر من ذلك الذى يستمتع به أقرانه . ولا يهمنا هنا أن نثير المسألة القديمة المتعلقة بما اذا كان لدى الفرد مثل هذه الحرية . وربما كان بعض القراء مقتنعين ، أيا كان الاقتناع ، بقدرة الفرد على أن يمارس حرية الاختيار . وعلى أية حال لابد أن يتفقوا معنا فى فهمنا للفردية — باعتبارها هذا الجانب من الشخصية الذى يزيد حساسية الكائن الاجتماعى لغاياته وغايات الآخرين.

مبدأ التوافق بين الفردية والمجتمع : من المسلم به بوجه عام أن الفردية كما عرفناها توا أقل نموا (ولكنها ليست مختفية) فى المجتمعات البدائية، بسبب العادات الجمعية والمحرمات الصارمة ، منها فى المجتمعات الراقية التنظيم . ويمكن القول بحق ان فى المجتمعات الأكثر تعقيدا وأرقى تنظيما تمس الحاجة الى الافصاح عن الفردية كما تتهيأ أفضل الفرص لتحقيق ذلك.

وهناك أدلة كثيرة تسوغ هذه الخاتمة . انظر مثلا مدى توقف ايقاظ الفردية على مرونة اللغة وغناها ، أو على جمال هذه الأداة الأولية فى التعليم ونقل الأفكار الى الغير . يقول عالم حجة فى هذا الموضوع ، ان اللغة لا تؤدى فقط وظيفة القوة « الموحدة » فى المجتمع ولكنها « فى نفس الوقت تعتبر أقوى عامل معروف لدينا لنمو الفردية »[1] . وينبغى أن نضيف الى اللغة وسائل التعبير الأخرى العديدة التى يتيحها المجتمع المعقد أو الحديث . هذا المجتمع يمد الفرد على نطاق كبير بأنواع كثيرة جدا من الاتصالات والمهن والمصالح والفرص — وبايجاز بالمؤثرات العامة والخاصة التى يمكن أن تستجيب لها فروق الفردية بالطريقة التى تلائمها ، وقد وضع أميل دوركايم رسالة سوسيولوجية « ممتازة » ، عنوانها « تقسيم العمل الاجتماعى » تدور حول هذا البحث[2] . ويرينا دوركايم بمهارة تدعو الى الاعجاب أن فى المجتمعات البدائية حيث يوجد تخصص فى العمل فى أبسط صوره تلعب المشابهة (فى الانتساب الى نفس رئيس العائلة وفى قبول نفس المعتقدات والآداب العامة) أكبر دور فى التماسك الاجتماعى . ولكنه يهتم بأن يلفت نظرنا الى أن التركيب الاجتماعى فى المجتمعات الاكثر تقدما حيث يوجد تخصص متزايد فى العمل يقوم على المخالفة والمشابهة على حد سواء . وبذا يعمل على ايقاظ درجة عالية من الفردية .

وقد أيد سوسيولوجيون كثيرون هذه الحقيقة التى اكتشفها دوركايم،

---

(١) E. Sapir, "Language" *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), IX, 160.

(٢) Emile Durkheim, *De la Division du Travail Social,* translated by G. Simpson as *The Division of Labor in Society,* (New York, 1933).

بما قاموا به من أبحاث [1] . وملخص نظرية دور كايم أنه اذا فكر كل الناس بطريقة متشابهة ، وشعروا بطريقة متشابهة ، وعملوا بطريقة متشابهة ، واذا كانت جميع مقاييسهم ومصالحهم واحدة ، واذا قبلوا نفس العادات الجمعية ، ورددوا نفس الآراء دون اعتراض أو اختلاف ، فما كانت الحضارة الانسانية لتتقدم قيد أنملة ، ولبقيت الثقافة جامدة لا تتحرك من مرحلتها التطورية الأولى . وما كان يمكن أيضا أن ينشأ تخصص أو حياة تتبادل فيها المنافع الا فى القليل النادر . ومن المعلوم أن التخصص وتبادل المنافع من لواحق التربية الفردية — ولأنه لو كانت المشابهة طابع الحياة الاجتماعية لكان كل الوجود الذى حولنا سطحيا ومصطنعا ، ولافتقدنا المعانى الانسانية التى يتصف بها التعاون الاجتماعى ، ولانمحى كل باعث مفيد على الاتصالات الاجتماعية ، كما ضاع من حياتنا كل نوع من أنواع المباداة والعمل الاستقلالى والتخريب ومقاومة كل محاولة لضم الناس فى صف واحد ومعاملتهم كقطعان الغنم ، وبذا ينعدم الأمل فى التقدم ، وتأخذ الحياة هذا اللون القاتم والمظهر الرتيب على النحو الذى صوره خيال الدس هكس فى كتابه « عالم جديد فاضل » . وقد تصور سكان ذلك العالم كأشخاص متساوين من كل وجه قادرين على جعل الحياة محتملة فى دنياهم بفضل تعاطيهم المخدرات من وقت الى آخر .

وفى عالمنا هذا الذى نعيش فيه يسير المجتمع والفردية جنبا الى جنب متعاونين . واذا لم تقم الخصومة بينهما فالمتوقع أن يعتمد كل منهما على

---

(١) أنظر مثلا :

Herbert Spencer, *Principles of Sociology* (New York, 1916), Vol. I, part II; G. Simmel, *Uber Soziale Differenzierung* (Leipzig, 1890); F. Tonnies, *Gemeinschaft und Gesellschaft* (Leipzig, 1887); J.M. Baldwin, *The Individual and Society* (Boston, 1911), es. Chap. I; Cooley, *op. cit.*, Chap. I; R. M. MacIver, *Community*, (New York, 1929), Book III, esp. Chap. III.

الآخر . وكما سنرى فيما بعـد ، أن أفضل العـلامات الدالة على تطور المجتمع درجة مساهمة فردياته المختلفة فى الخدمات التعاونية والمشتركة .

قصور مبدأ التعاون بين الفرد والمجتمع : من المؤكد أن القارىء قد يتساءل : هل كل شىء بين الفردية والمجتمع متوافق ؟ ويمكننا — دون أن نتخلى عن مبدأ توقف كل منهما عن الآخر — أن نجيب بمناقشة القصور فى هذا المبدأ .

١ - **التكامل الاجتماعى لا يقع بتمامه :** ان المجتمع كما نعلم ملىء بالمنازعات والمشاحنات والكبت والتمرد . ففى كل زمرة اجتماعية ، وفيما بين الزمر ، يقوم صراع دائم بين المصالح المختلفـة والمتعارضة ، وهناك الاحتكاك ومظاهر سوء التوافق ، والأحقاد والعقبات الناشئة عن المنافسة والقيود ومظاهر الاستغلال — وغير أولئك مما يعرف القارىء . وهذا كله يؤثر فى التوافق بين الفرد والمجتمع كما يحد من التكامل الاجتماعى بين الأفراد والزمر الاجتماعية الداخلة فى النسق الاجتماعى . وهذا النسق تسوده نظم من طبيعتها أن تمكن بعض الزمر أو الطبقات الاجتماعية من السيطرة على البعض الآخر .

ومعنى هذا أن التكامل الاجتماعى لا يكون تاما أبدا ، ولا يسوده التوافق فى جميـع الأحوال . وقـد زعم كل من موسولينى وهتلر أن دكتاتوريتهما التى أطلقا عليها اسم « النظـام الشمولى » قائمـة على التكامل الاجتماعى ، غير أن ما سجله التاريخ لعهدهما من فظائع ومذابح بشرية ليذكرنا بما يمكن أن تتحول اليه المجتمعات المتمدنة من تطبيق لما هو أشد قسوة من الأساليب البدائية ، فى أوقات الأزمات الاجتماعية . وانه ليذكرنا كذلك بأن تكامل المجتمع والفردية ، ليس فقط من العلامات

البارزة فى تاريخ الانسان القديم ، ولكنه الى جانب ذلك هدف يواصل السعى الى تحقيقه فى الحاضر والمستقبل .

٢ — كبح المجتمع جماح الفرد : أى فرد لم يشعر بينه وبين نفسه فى بعض الأحيان أنه ممتعض من القواعد التى فرضها عليه المجتمع ؟ ومنذا الذى لم يقاوم فى بعض المناسبات الآداب العامة فى محيطه أو ينهزم أمامها ؟ نحن لا نشير هنا الى مجرد قمع الميول المضادة للحياة الاجتماعية السليمة ، فهذا أبعد ما يكون عن تفكيرنا . ولكنا نقصد الى مقاومة الدوافع والحاجات ، وأحيانا الى ما يبدو أنه مثل عليا اذا كان النظام الاجتماعى نفسه يفرضها بقسوة وفظاعة وبروح مجردة من العدالة . ومن منا لم يتلهف أحيانا الى شىء مثل « طاقية الاخفاء » ليقى نفسه طغيان المجتمع عليه ويفلت من رقابته العنيدة ؟

اننا هنا نشعر بأن التضاد بين المجتمع البدائى الأقل تنوعا فى داخله وبين المجتمع المعقد المتباين الأجزاء ، يكشف لنا ما فى مبدأ التوافق بين الفرد والمجتمع من قصور كما يجعل البرهنة عليه صعبة . وذلك لأن المجتمع المعقد فى العالم الحديث يتميز بالعديد من المنظمات والمؤسسات الكبيرة والروابط الاقتصادية والسياسية المنشأة على نطاق واسع التى تقوم جميعا على تقسيم الوظائف والتخصص حتى يصبح الفرد وكأنه أحد « أسنان عجلة » فى آلة اجتماعية ضخمة . وتنحصر مهمته فى أداء عمله بشكل آلى ، داخل دائرة تخصصه ، فلا تتهيأ له الا أقل الفرص لاظهار فرديته . وهذا الكبح الذى يلقاه الانسان فى حياته الحديثة كثيرا ما يتعرض له القصصيون والرسامون الكاريكاتوريون ومؤلفو الروايات ، من طريق تصويرهم اما للنقد اللاذع ، أو التهكم ، أو الفكاهة . ومن ناحية أخرى نرى الباحثين فى علم النفس وعلم الاجتماع يدرسون كيف تتعطل روح الابداع والقوة الخالقة عند الفرد نتيجة لمقتضيات النظام

الآلي الذى تدعو اليه الحياة المهنية الحديثة [1] . ليس فى وسعنا اذن أن تتجاهل قصور الفردية الذى تفرضه النظم السائدة . وهذا القصور ، كما سيتبين فى معظم أجزاء هذا الكتاب ، يثير مشكلة كبيرة من مشاكل الحياة الاجتماعية المعاصرة . الا أننا ينبغى أن نذكر أن الاهتمام الذى تلقاه هذه المشكلة من كثيرين من المفكرين لا يتيسر فى واقع الأمر الا فى مجتمع معقد ومتقدم تسمح نظمه بكشف امكانيات الفردية على نطاق واسع . ومما لاشك فيه أن أسلوب العمل الآلى والمشابهة وتجـديد المستوى فى نواحى الحياة — وهى جميعا من الخصائص التى يسلم بها الرجل البدائى — قد أصبحت نذر سوء مخيفة عند كثير من المجتمعات الحديثة .

٣ ـ **التحديد الاطرادى لمستويات الحياة الاجتماعية** : كذلك ينزعج كثير من الناس لمدى ما تتعرض له مواقف الرجل المتحضر وآراؤه من تشكيل بفعل النمط العام للمجتمع الذى يعيش فيه . وربما كان هناك ما يسوغ هذا الانزعاج عندما نرى فى الولايات المتحدة الأمريكية مظاهر تحديد مستويات الحياة الاجتماعية بتأثير الاعـلان والدعاية العريضة والغذاء العقلى الرتيب الذى تقدمه برامج محطات الاذاعة وانتاج صناعة السينما فى هوليوود . وقد أدت السيطرة على عقول الناس بهذه الكيفية الى تضييق الحدود التى يعمل فى نطاقها كل من المنتج والكاتب والعامل

---

(١) أنظر مثلا :

K. Young, *Personality and Problems of Adjustment* (New York, 1940), Chap. XXIII; *Industrial Conflict: A Psychological Interpretation* (G. W. Hartmann and T. Newcomb, eds., New York, 1939), Part. II.

ولأبحاث أقدم من هذه فى تفسير الاخماد المهنى للفردية ، أنظر :

T. Veblen, *The Instinct of Workmanship and the State of the Industrial Arts* (New York, 1914); Stuart Chase, *Men and Machines* (New York, 1929).

والممثل ، كما حدت من آمال الجماهير وأذواقها بحيث لا تتعدى الحواجز التى أقيمت حولها [1] . وبالطبع يؤدى كل هذا الى انكماش الفردية وصعوبة تعبيرها عن نفسها . وتتضح خطورة هذه المسألة اذا عرفنا — كما لاحظ بعض الباحثين منذ عهد قريب — أن أفضل الطرق للتحقق من تأثير وسائل اقناع الجماهير وقياس النجاح فى هذا العمل لا يكونان الا باحصاء عدد الأفراد الذين أمكن دفعهم الى العمل المرغوب فيه أو تحويل تفكيرهم على النحو المطلوب[2] .

ومنذ قرن ذهبَ واحد من أنصار الحرية وأكبر دعاتها الى أن « المجتمع الآن قد أفاد من الفردية أكبر افادة »[3] . ولكننا نلمس اليوم، بشكل أوضح مما كان فى زمان مل ، فقدان كل أمل فى أى توافق كامل بين الفردية والمجتمع . ومع ذلك لا تزال الوقائع الجوهرية الآتية ماثلة أمام أعيننا : (١) فالمجتمع شرط أساسى لنمو الفردية — وفى الواقع المجتمع شرط لكل رضا نشعر به أو نسعى اليه أو حتى نحلم به ، (٢) وكلما نمت الفردية ازداد الأخذ والعطاء بينها وبين المجتمع .

الفردية و « المذهب الفردى » : ستتركز مناقشتنا فى هذا المطلب حول العلاقة المتبادلة بين الفردية والمجتمع . ويلاحظ أننا لم نستخدم فى هذا الموضوع الاصطلاح « المذهب الفردى » كذلك لم نقصد ونحن نضع مبدأ العلاقة بين الفردية والمجتمع أن نجعله مشتملا على الدفاع عن الدعاوى الكثيرة التى يثيرها البعض باسم المذهب الفردى .

---

(١) نوقشت هذه المشكلة من وجهات نظر متعددة فى :

Print, Radio and Film in a Democracy (D. Waples, ed., Chicago, 1949); and in the report of the Commission on the Freedom of the Press, *A Free and Responsible Press Chicago,* 1947).

(٢) "R.K. Merton, Mass Persuasion.' (New York, 1946), p. 185.

(٣) J.S. Mill, *On Liberty*, Chap. III.

ونحن نقرر من دون أى مبالغة تاريخ المجتمع الغربى خلال القرون الثلاثة الماضية أو أكثر قد سجل مكاسب اجتماعية ضخمة نتيجة لحركات اتباع المذهب الفردى المضادة للسلطات الدينية والسياسية والاقتصادية. وهذا الصراع الذى نربطه بأسماء بعض الأعلام من أمثال جون لوك وآدم سميث وجيريمى بنتام وتوماس جيفرسون ، كانت له نتائج بعيدة المدى — وسّعت من امكانيات الفردية فى الحياة الاجتماعية . ولا يعزب عن البال أن المذهب الفردى ، كما يتصوره كثيرون من دعاته فى الوقت الحاضر ، هو فى الأغلب دعوى من جانب واحد تتجاهل الجانب الآخر وهو المجتمع وما بينه وبين الفردية من علاقة متبادلة أساسية بالنسبة للاثنين . وهذه النقطة أثارت أ.د. لندسى فكتب بشأنها فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية مايلى :

« ان المذهب الفردى كفلسفة كاملة متناسقة للحياة الاجتماعية لابد بالضرورة أن ينهار . وليس فى وسع انسان أن يكون فرديا مطلقا ، كما أنه ليس فى وسع انسان أن يكون اشتراكيا (جماعيا) مطلقا . وذلك لأن كلا من الفرد والمجتمع يؤثر فى الآخر ويعتمد على الآخر ، وحتى الذين تطرفوا فى الفردية الدينية ورفعوا قيمة الشخصية الانسانية فوق جميع النظم السائدة فى المجتمع مضطرون للاعتراف بالدور الذى يلعبه المجتمع والنظم السائدة فى تنمية الفردية ودعمها . ويبين تاريخ الفكر أن المذهب الفردى مفيد كل الفائدة ما دامت الفردية ينظر اليها كشىء ينبغى توفيره وتحقيقه . ولكن اذا كان المقصود بالفردية ، كما جاء فى كثير من نظريات المذهب الفردى ، شيئا يعطى ويدافع عنه (ضد المجتمع) ، لفقد المذهب الفردى قوته الخالقة وأصبح من غير الممكن تمييزه عن الأنانية » (١)

---

(١) بقلم A. D. Lindsay فى : *Encyclopaedia of the Social Sciences,* Vol. 7 Copyright, 1932, by The Macmillan Company.

هذا النص منقول باذن من الناشرين .

ومهما يكن من شيء فسنعالج بالتفصيل ملابسات مبدأ التوافق بين الفردية والمجتمع ومدى قصوره فى فصول تالية . وبينما يظل اهتمامنا مركزا حول العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى ، أو بين الجزء والكل، فينبغى أن نعرض بايجاز لبعض الأبحاث الهامة المتصلة بالموضوع الذى نحن بصدده اتصالا مباشرا .

« الثقافة » والشخصية

مركز الاهتمام في دراسة الثقافة والشخصية : تقوم فى كل أنحاء العالم مجتمعات تتألف من أقوام نسميهم أحيانا « معاصرينا البدائيين » . وهذه المجتمعات فى العادة زمر صغيرة لاتزال بعيدة نسبيا عن حضارتنا، هؤلاء الأقوام الذين يختلفون عن الهنود الأمريكيين « هوبى » ، وسكان جزر اندمان بالمحيط الهندى ، قدموا لعلم الانسان مجالا للتحقيق العلمى لم يسبق أن ادعته لنفسها العلوم الاجتماعية الأكثر قدما . مستكشفو هذا الميدان هم الأنثروبولوجيون « الاجتماعيون » أو « الثقافيون » الذين نقلوا الينا بالتفصيل خلال عدة سنين المعاول والنظم الاجتماعية السائدة والآداب العامة والمعتقدات التى شاهدوها أو شاهدوا مظاهرها عند عدد كبير من الشعوب البدائية . وقد اختار الأنثروبولوجي الاصطلاح العام « الثقافة » للدلالة على كل ما صنعه أى شعب من الشعوب أو أوجده لنفسه — من مصنوعات يدوية ومحرمات ونظم اجتماعية سائدة وأدوات ومعاول وأسلوب للتعبد . وباختصار كل ما صنعه الانسان أينما وجد ، يطلق عليه الأنثروبولوجي اصطلاحه هذا ، الذى هو اسم جنس تتفرع عنه مفرداته [1] . واذن فكلمة « الثقافة » عند الانثروبولوجى تعنى مجمل التراث الاجتماعي للبشرية ، بينما عبارة « ثقافة ما » تعنى

(١) قارن : R. Linton, *The Study of Man* (New York, 1935), p. 78

التراث الاجتماعى لشعب معين . وهذا الاصطلاح سنستخدمه فيما بعد، فى هذا الكتاب بمعنى أكثر تحديدا كأداة تحليلية أكثر دقة . أما فى البحث من هذا الفصل المتقدم فاننا نستخدم المعنى الأنثروبولوجى[1].

أدرك الانثروبولوجيون ادراكا تاما خلال دراستهم للشعوب البدائية وثقافتها ، علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها . وقد أيقنوا أن أى فهم واف لشخصية الفرد أو للمركب الاجتماعى أو الثقافى الذى هو جزء منه، يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل وتوقف كل منهما على الآخر ، وقد ظهر أن المشكلة الرئيسية عند كثيرين من هؤلاء الباحثين هى نفسها المشكلة الرئيسية التى واجهت علم الاجتماع نفسه سنوات عدة ، ألا وهى العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى . وقد علق أحد الكتاب على هذا تعليقا جارفا بلا سند علمى ، قائلا فى مبالغة : « ان المعنى الدقيق للشخصية والثقافة ينحصر فى أنهما لا يمهدان السبيل لخلق مجال جديد للدراسة والما يشيران الى مجال قائم بالفعل تشترك فيه كل العلوم الاجتماعية »[2] . ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا التعليق بحذافيره ، وكل ما يمكننا أن نقوله أننا بالتأكيد نوافق فقط على أن العلاقة بين الشخصية والثقافة ينبغى أن توضع فى المحل الأول عند جميع السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين الاجتماعيين والباحثين فى علم النفس الاجتماعى[3] .

---

(١) لمناقشة معانى الثقافة المختلفة أنظر :

C. Gluckhohn and W. H. Kelly, "The Concept of Culture", *The Science of Man in World Crisis* (R. Linton, ed., New York, 1945), pp. 78-105.

(٢) R. S. Lynd, *Knowledge for What?* (Princeton, 1939), p. 52.

(٣) قارن : R. Linton, *The Cultural Background of Personality* (New York, 1945), Introduction.

تتضمن العلاقة بين الثقافة والشخصية ، من جهة ، التراث الاجتماعى الشامل المحيط بالفرد ، والذى تستجيب له سواء بطريقة شعورية أو لا شعورية . ومن جهة أخرى الصفة الكاملة للفرد . والشخصية كما نفهمها هى كل ما مر بالفرد من تجارب فى الماضى والحاضر بشرط أن يفهم هذا الكل كوحدة . وعلى هـذا الأساس فالشخصية اصطلاح أعرض مدلولا من الفردية . وذلك لأن الشخصية تستوعب هذا « الكل المنظم من العمليات الاطرادية والحالات النفسية المتعلقة بالفرد » [١] . ان التقاء الثقافة بالشخصية يذكرنا بأن النمط العام لأية ثقافة يحدد أكثر من أى عامل آخر الخطوط الرئيسية للشخصيات الفردية . وهذه بدورها تفصح عن النمط الثقافى وتعمل جاهدة على استمراره .

ولسنا نحب أن يفسر القارىء هذا التأكيد بأن يظن أنه ينطوى على علاقة آلية أو جبرية محكمة بين الثقافة والشخصية ، ولعله يستعيد الى ذاكرته فى هذا الشأن مناقشتنا السابقة للفردية اذ تعتبر جانبا من جوانب المشكلة الحالية ، وفيما يلى ماكتبته عالمة من علماء الأنثروبولوجيا أسهمت تحقيقاتها اسهاما جديا فى فهمنا للدور المتبادل بين الثقافة والشخصية :

« لا يعتقد أنثروبولوجى ذو خبرة بثقافات الشعوب المختلفة أن الأفراد أجهزة تتحرك تلقائيا بطريقة آلية منفذة أحكام حضارتها . ولم تدل المشاهدات بعد على أن ثقافة ما استطاعت أن تستأصل الفروق المزاجية للأشخاص الذين تتكون منهم . فالأمر أخذ وعطاء فيما بينهم . وليس فى الامكان ايضاح مشكلة الفرد من طريق تأكيد الخصومة بين الثقافة وبينه ، بل بتأكيد الطرق التى يصطنعها كل منهما لتقوية الآخر .

---

(١) انظر نفس الكتاب ، ص ٨٤ .

وهــذه العلاقة وثيقة جدا الى حد استحالة مناقشة أنماط الثقافة دون مراعاة لعلاقتها بعلم النفس الفردى » [1] .

دراســـات الثقافة والشخصية : سجل الأنثروبولوجيون اكتشافات متتالية للعلاقة الوثيقة بين أنماط الثقافة ومظاهر الشخصية ، التى وجدت عند الـ : زونى الهادئين الوادعين والميالين للتآلف من أهــل الجنوب الغربى ، وعند الـ : كواكيوتل المتطرفين ونزعتهم الفردية ورغبتهم فى المنافسة من أهل الشمال الغربى، وكلاهما فى الولايات المتحدة الأمريكية، وعند أهل دوبو بالقرب من غينا الجديدة ، المشهورين بالتشكك والتشاجر، وعند الـ : كومانش [2] المعروفين بحب العمل والشجاعة والديموقراطية ، وعند كثيرين غير هؤلاء . وليس بمستغرب أن تدعو هــذه الاكتشافات بعض الأنتروبولوجيين لأن يروا أن العلاقة المشار اليها ذات أهمية مباشرة بالنسبة لعلماء النفس . وذلك لأن الاكتشافات التى أعلنت هى بمثابة « أدلة معملية » على الدور الكبير الذى تلعبــه الثقــافة ، لا من حيث تأثيرها فى السلوك فحسب ، بل من حيث تشكيلها لتركيب الشخصية نفسه . فهاهنا مجال لاجراء الاختبارات لفحص بعض المبادىء النفسية الكثيرة المظنون امكان تطبيقها على سائر المجتمعات الانسانية .

١ ــ الأدلة الأنثروبولوجية : يمدنا التحقيق العلمى فى كل مجتمع بدائى بأدلة جديدة على الطرق التى تتيح للتكييف والتقليد والايحاء ، اذ تجتمع فى أساليب تربية الأطفال ، أن تنتج أفــرادا ذوى مصالح ومواقف متناسقة مع المطالب الثقافية . وكل مجتمع كما ظهر من هــذه الأدلة « يحقن » أعضاءه الجدد بما يقرر من مستويات للخــير والشر

---

(١) R.Benedict, *Patterns of Culture* (Boston, 1934), pp. 253-254. Reprinted by permission of the publishers, Houghton Mifflin Company.

(٢) فى جنوب غربى الولايات المتحدة الأمريكية .

أو آداب عامة أو قيم لها مكانة النظم السائدة . وقد وجد فى داخل المجتمع بعض الأفراد ممن تنحرف شخصياتهم وسلوكهم بشكل ملحوظ عن المعايير الثقافية ، حتى ان أقرانهم يعتبرونهم « نشازا » على نحو ما (وان كنا فى بعض الحالات نرى المجتمع يقر هذا الانحراف الجامح عن المستويات المرعية مثلما يحدث عند المتطببين ومن يزعمون حلول العفاريت فى أبدانهم ، فى كثير من المجتمعات البدائية) . وهذه الأشكال الخاصة للسلوك ، العادى أو المنحرف ، تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى . ويبدو هذا واضحا فى المجتمعات البدائية والمتحضرة على السواء ، حتى ان نسبية الثقافة أضحت مبدءا جوهريا فى دراسة النظم الاجتماعية وتركيب الشخصية . هذا المبدأ والأخذ بفكرة أن كلا من الثقافة والشخصية يمكن أن يدرس ككل ، وأنهما ينبغى أن ينظر اليهما من حيث علاقة كل منهما بالآخر ، من الخصائص البارزة فى مراجع الأنثروبولوجيا ، وربما على الأخص فى تحقيقات المرحوم الأستاذ برانسلاو مالينوسكى [1] . وفى سنة ١٩٣٧ بدأ الأنثروبولوجى ريلف لينتون والمحلل النفسى ايبرام كاردنر سلسلة من الاستكشافات المشتركة عن العلاقة بين الثقافة والشخصية من طريق الدراسة التفصيلية للتقارير المكتوبة عن عدة مجتمعات بدائية وقرية أمريكية حديثة [2] . وقد برهنت هذه الدراسات بطريقة مقنعة — رغم نقدها المنصب على بعض تفسيراتها موضع النقاش — أن كل ثقافة تميل الى أن تنتج ، كما

---

(١) أنظر مثلا : B. Malinowski, *A Scientific Theory of Culture and Other Essays* (Chapel Hill, 1944);

وأنظر للتعليق على اهمية دراسات مالينوسكى فى مجال الثقافة والشخصية : A. Kardiner, *The Psychological Frontiers of Society* (New York, 1945), Foreword by R. Linton.

(٢) هذه الدراسات موضحة فى : *The Psychological Frontiers of Society*

ومن قبل فى : A. Kardiner, *The Individual and His Society* (New York, 1939).

تستند الى **نموذج اساسى للشخصية** يتكون من مركب خصائص الشخصية « المتفقة مع المدى الشامل للنظم السائدة .. فى داخل ثقافة ما ». وهذا النموذج الأساسى للشخصية ، الذى يتحقق عند العدد الأكبر من أفراد مجتمع محدد بالذات وليس بالضرورة عند أفراد هذا المجتمع جميعا ، هو نتيجة للتجارب المبكرة فى مرحلة الطفولة والمتشابهة ثقافيا ، وليست بأى معنى مباشر نتيجة الغرائز أو الدوافع الفطرية أو القوى الأساسية .

أنظر مثلا الى السكان الأصليين فى جزر ماركساس حيث لم يكتشف أى دليل تقريبا على أن للدافع الجنسى دورا اجتماعيا خطيرا كما لوحظ فى مجتمعنا نحن ، أو كما يفسر بنظريات فرويد وأتباعه ، باعتباره أساس الأمراض العصبية . ونحن نعلم أن سكان جزر ماركساس قلما يهتمون بالمسائل الجنسية ، فليس فى لغتهم كلمة للعذرة « البكارة » ، وسلوكهم الجنسى لا يقترن الا بالنزر اليسير من العاطفة . ومن جهة أخرى ، يبدى هؤلاء السكان كثيرا من القلق — حتى انهم فى عرفنا يعتبرون مرضى بالأعصاب — لسبب ندرة الطعام وخطر التعرض لأن تؤكل لحومهم . وهذه مظاهر قلق مفهومة عند الشعوب التى تعانى القحط الموسمى وتمارس أكل لحوم البشر . ويعلق لنتون على هذا كله بقوله : « ان حول مظاهر القلق هذه أنواع مختلفة من المحرمات والقواعد تتصل بالحياة الجنسية كما هى الحال فى مجتمعنا الغربى » (١) .

أو فليتأمل القارئ حالة مجتمع الور الصغير فى الهند الشرقية الهولندية . هذا الشعب الزنجى المحدود يخاف بعضه بعضا بوجه عام ، لا يثق أفراده بأحد يفتقرون الى روح العمل والى الطموح ، كل فرد من

(١) R. Linton, "Potential Contributions of Cultural Anthropology to Teacher Education", in *Culture and Personality* (Washington, D.C. 1941), p. 5.

أفراده راغب فى استغلال الآخرين . والاعتداء بعنف عندهم من المظاهر العادية والطبيعية وهو مما يعد فى مجتمعنا شذوذا لايقع الا من أشخاص اختلت قواهم العقلية . وهذه الخصائص ، بناء على ما ذكره الباحثون ، تمثل الشخصية الأساسية للشعب الالورى . وعلى حد قول كاردنر يفسر الوضع كله بأنه تفاعل لمقومات الثقافة تنج عن اهمال الأمهات لأطفالهن وذهابهن للعمل فى الحقل . وهذا التركيب المعين للشخصية الأساسية يساند بدوره ثقافة الور الاستغلالية ، والتى هى فى جوهرها غير تعاونية وقائمة على المنافسة المالية [1] . وتفسر بنفس الطريقة الشخصية الأساسية عند شعوب أخرى متنوعة مثل قبائل التانالا والكومانش وسكان بلينفيل فى الولايات المتحدة الأمريكية — وفى كل مجتمع من هذه المجتمعات يلاحظ مبدأ الأخذ والعطاء بين الثقافة ونموذج الشخصية . وتمدنا هذه الدراسات الأنثروبولوجية بالبرهان المفصل على الوحدة الجوهرية للفرد والمجتمع .

دراسات فى الثقافة « عن طريق الشخصية » : رأينا توا أن تنوع نماذج الشخصية الأساسية لا يفهم الا بالرجوع الى الثقافات التى ترتبط بها النماذج المختلفة . واذن فالاجتماعى المتخصص يواجه فكرة امكان دراسة ثقافة معينة بتركيز بحثه فى من تغمرهم هذه الثقافة ، أى بأن يتخذ كمادة أولية لهذا البحث ما يبدو على أفراد المجتمع من مظاهر الشخصية ، وبعبارة أخرى فان المركب المكون من الشخصية والثقافة وما بينهما من علاقة متبادلة يمكن أن ننفذ اليه « من طريق الشخصية » ويشغل علماء

---

(١) Cora Du Bois reports this group in *The People of Alor*. (Minneapolis, 1924) and in The *Psychological Frontiers of Society*, Chap. V.

أنظر للتحليل الذى قدمه كاردنر ، هـــذا الكتاب الثانى ، الفصول ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

الاجتماع أنفسهم بهذا النوع من البحث منذ عشرات السنين ، وان كانوا يستخدمون له اصطلاحات غير التى نستخدمها نحن هنا .

وأهم الدراسات التى قام بها الاجتماعيون فى هذا الشأن ربما كانت الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا على يد و. أ. توماس وفلوريان زنالكى ، وهى عبارة عن تقرير متضمن خمس مجلدات يشتمل على تفسير علمى للأسرة الريفية والحياة الجمعية وما طرأ عليهما من تغير نتيجة للتصنيع الحديث وهجرة الفلاحين البولنديين الى ألمانيا والولايات المتحدة. ونظرا لأن بحثنا هذا يتضمن مناقشات طويلة حول المشاكل والنظرية والمنهجية ذات الأهمية القصوى لكل من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى ، فقد آثرنا أن نرجع هنا الى الدراسة التى تعاون على القيام بها توماس وزناليكى لاستخدامها استخداما شاملا « الوثائق الانسانية » فى بحث الشخصية والثقافة . فالرسائل والمقالات الصحفية وسجلات المحاكم وتقارير الهيئات والجمعيات ، وعلى الأخص تاريخ حياة الأفراد مع تضمنه المذكرات الشخصية حول هذا الموضوع (المجلد الثالث كله يتعلق بمذكرات من هذا النوع لمهاجر من الفلاحين وتفسير للوقائع) كل أولئك تكشف عن حياة الأفراد — مواقفهم ومصالحهم وتعصبهم ومشاكلهم الشخصية ، وما يجيش فى صدورهم من آمال وكذلك ما يحسون وطأته من قيود اجتماعية . وقد استطاع المؤلفان بمعاونة هذه المادة الفنية أن يفسروا من جهة تكوين الشخصية وتفككها واعادة تكوينها ، ومن جهة أخرى النسق الاجتماعية المتغيرة بسبب الأحوال الجديدة . ومهما وضح فيما سعى المؤلفان الى تحقيقه من وجوه نقص فى ضوء التقدم العلمى الحديث ، فان مما لا شك فيه أنهما قدما لنا مثالا رائعا لمحاولة فهم تفاعلات « الثقافة » وأنماط الشخصية من طريق

الاهتمام بالمظاهر التفصيلية لسلوك الأفراد [1]. ومنذ نشر كتاب «الفلاح البولندي» ضاعف السوسيولوجيون هذه المحاولة ، كما سنبين فى مناسبات عديدة فى هذا الكتاب فيما بعد ، عند تعرضنا للنواحى المختلفة للحياة الاجتماعية . فاشتمل عملهم على دراسة الدوائر المكانية للمدن الحديثة حيث يشيع التفكك الاجتماعى والثقافى ، وذلك باستخدام تاريخ حياة الأفراد الذين لحقهم التفكك والحالات الخاصة بهم . وكذلك حللوا الأنماط المتغيرة للأسرة بوساطة فحص مشاكل الشخصية عند أفرادها . ثم صوروا مظاهر الصراع الاجتماعى والثقافى بين الأقليات بدرس تاريخ حياة أعضائها . وفى هذا المجال وغيره من المجالات يحاول المختصون فى العلوم الاجتماعية منذ عشرات السنين أن يسلكوا السبيل الذى رسمه لهم وأكد أهميته القائلون بمنفذ أو منهج دراسة الثقافة والشخصية [2] .

وهناك أبحاث عديدة توضح الجهود المبذولة فى الوقت الحاضر لدراسة الثقافة « من طريق الشخصية » ، وتدور حول الانقسام الطائفى بين السود والبيض فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وحول التركيب

---

(١) ظهر كتاب : W. I. Thomas and Florian Znaniecki, *The Polish Peasant in Europe and America*

أول ما ظهر فى بوسطون عام ١٩٢٠ — وللاطلاع على تحليل تفصيلى لهذا الكتاب أنظر :

H. Blumer, *Critiques of Research in the Social Sciences I* (New York, 1939);

وأنظر بصفة خاصة التقييمات التى قدمها :

G. W. Allport, Blumber, M.M. Wiley, C.P. Murdock, R. Bain.

(٢) لمناقشة بعض المشاكل المنهجية المتضمنة فى مثل هذا النوع من البحث وللاطلاع على مادة ايضاحية ممتازة أنظر : L. Cottschalk, C. Kluckhohn, and R. Angell, *The Use of Personal Documents in History, Anthropology and Sociology* (New York, 1945)., especially pp. 177-232.

الطبقى فى داخل هاتين الزمرتين . ونحن نعرف أن أحد من وضعوا بعض هذه التقارير المبكرة ، وكان متخصصا أصلا فى علم النفس ، حلل المادة المتعلقة بتاريخ حياة الأفراد بغية استخلاص المظاهر الرئيسية فى تركيب الجماعة المحلية لمدينة فى جنوب الولايات المتحدة . وكانت طريقته أن يستقبل الأفراد كلا على حدة ، ويقوم باجراء التحليل النفسى عليهم مستخدما وسائل أخرى خاصة لاستكشاف ووصف التركيب العاطفى الذى يلائم التركيب الاجتماعى للجماعة ويتفق معه . هذا التقرير الذى كتبه جون دولارد [1] . وغيره من الأبحاث التى تلته مستخدمة نفس المنهج ومؤكدة مثله أهمية استخدام المادة المتعلقة بالشخصية كمعلومات قوية الدلالة فى الكشف عن مكنونات النفس ، قد أكدت بما لا يدع مجالا للشك تلك العلاقة الوثيقة بين التركيب الاجتماعى ونماذج الشخصية . وقد ثبت هذا بنوع خاص عندما لوحظ أن نماذج الشخصية تختلف تبعا لانتماء صاحبها الى طبقة عليا ، أو وسطى ، أو دنيا ، من طبقات المجتمع ، مع انطباق هذه القاعدة على البيض والسود على السواء. وأكثر من ذلك فقد وجد أن كلا من الحواجز المغلقة المحيطة بالنظام الطائفى ، والخطوط المفتوحة الممكن اجتيازها حول النظام الطبقى ، لها صداها وتستند الى تأييد من شخصيات الأفراد الذين يحتلون المراكز الاجتماعية المختلفة فى داخل جماعاتهم المحلية . وعلى كل حال لا تقتصر بالطبع العلاقة المتبادلة بين التركيب الاجتماعى والشخصية على سكان المدن الجنوبية كما ثبت من نتائج الأبحاث الأخرى التى أجريت فى

---

(١) John Dollard, *Caste and Class in Southern Town* (New Haven, 1937), p.17;

فلينظر القارىء الفصل الثانى من هذا الكتاب لمناقشة موجزة للمنهج .
وكذلك ما كتبه قبل ذلك نفس المؤلف فى نفس الموضوع بشىء من التفصيل، فى : *Criteria for the Life History* (New Haven, 1935).

نيوانجلاند وغيرها بالولايات المتحدة الأمريكية [1] . وسنهتم فى أحـد الفصول الأخيرة من هذا الكتاب بايراد بعض هذه الأبحاث فى النظامين الطائفى والطبقى . وما ورد بشأنهما حتى الآن قصدنا به الى أن نوضح توقف كل من الثقافة والشخصية على الأخرى .

بعض الصعوبات فى طريق دراسة الثقافة والشخصية . حينما يضرب الأنثروبولوجى أو عالم الاجتماع المقارن خيمته فى جماعة محلية صغيرة

---

(١) بالاضافة الى ما كتبه دولارد تحت عنوان Caste and Class in a Southern Town انظر :

A. Davis and J. Dollard, *Children of Bondage* Washington, D.C., 1940); E. F. Frazier, *Negro Youth at the Crossways* (Washington, D. C., 1940); C. S. Johnson, *Growing Up in the Black Belt* (Washington, D.C., 1941); W. Lloyd Warner, B. H. Junker, and W. A. Adams, *Color and Human Nature* (Washington, D.C., 1941); R.L. Sutherland, *Color, Class and Personality* (Washington, D.C., 1942); A. Davis, B.B. Gardner, and M. R. Gardner, *Deep South* (Chicago, 1941); and for New England's "Yankee City" ,see W. Lloyd Warner and FP.S. Lunt, *The Social Life of a Modern Community* (New Haven, 1941); W. Lloyd Warner and L. Srole, *The Social Systems of American Ethnic Groups* (New Haven, 1943).

(المؤلفان)

ويلاحظ أن الأستاذ W. Lloyd Warner فى كتابه الأحدث الموسوم :
.Democracy in Jonesville (Harper & Brothers, New York, 1949)

يتزعم الأنثروبولوجيين الاجتماعيين فى مد مجـال دراستهم ليشمل المجتمعات الصناعية المتميزة بنظامها الطبقى . وهو يعلن فى أكثر كتبه أن دراسة الأنثروبولوجيين الاجتماعيين للمجتمعات البدائية لم تكن مقصودة لذاتها وانما لزيادة فهم المجتمعات الحديثة ، الأوربية والأمريكية ، وأنهم اذا كانوا قد صرفوا وقتا طويلا فى دراسـة الأولى فقد فعلوا ذلك لسرعة تسجيل طبائعها قبل أن تنقرض ازاء الحضارة الغربية الجارفة . وممـا يذكر أن وورنر كان تلميذا لرادكليف براون الأنثروبولوجى الاجتمـاعى البريطانى وكلاهما يطلقان على مادتهم اسم علم الاجتماع المقارن وقد أوضحا ذلك صراحة فى أكثر كتاباتهما . — المترجم

منعزلة نسبيا من جماعات ميلانيزيا أو سكان استراليا الأصليين أو الاسكيمو ويشرع فى اجراء مشاهداته العلمية بعناية ، وربما يشاركهم أيضا حياتهم الاجتماعية ، يستطيع أن يرى « ثقافتهم ككل » اذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير . وهو يستطيع زيادة على ذلك أن يسجل تسجيلا موضوعيا بقدر الامكان الطرق التى تؤثر بها كل من الشخصية والثقافة فى الأخرى أو تسند بها الأخرى فى المجتمع الذى يدرسه . ويكون لدى الأنثروبولوجى فى هذه الحالة الفائدة المزدوجة التى ترجع الى ادراكه الحياة الاجتماعية فى شمولها وبقائه فى نفس الوقت منفصلا عاطفيا عن قيم الثقافة البدائية المتميزة بضغطها على الفرد ، ولكن عندما ينتقل الأنثروبولوجى الى مجتمعه الخاص الغربى يفقد هذه المزايا . فهو حين يشترك مع السوسيولوجى والمتخصص فى علم النفس الاجتماعى فى بحث الثقافة والشخصية فى جماعته المحلية يلتقى بنظام اجتماعى مترامى الأطراف يمتاز بتعقده ، وبقيم ثقافية بعضها على الأقل قيمه الخاصة ، وبنموذج للشخصية (أو نماذج منها) هو نفسه مثال منها . ومع ذلك فنحن نجده وزملاءه من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية شاعرين بالحاجة الى فهم تعقيدات المجتمع المتحضر [1] بدرجة لا تقل عن فهمهم لأنماط الثقافة والشخصية عند مجتمعات تانالا وكومانش وزونى . وقد دعت هذه الحاجة متخصصى العلوم الاجتماعية الى أن يستجيبوا لها للأسباب المتقدمة فى صورة هذا الاهتمام البالغ الذى يظهرونه فى استكشافات المجتمعات الحديثة التى نعيش فيها وغيرها من المجتمعات [2] . ونظرا

---

(١) ما دامت تمثل ناحية من الطبيعة الانسانية التى تعمل العلوم الانسانية على اماطة اللثام عنها .

ـ المترجم

(٢) هذا الاتجاه نحو الدراسة المقارنة للمجتمعات الانسانية قد ظهر أول ماظهر عند الأنثروبولوجيين الاجتماعيين اولا بمقارنة المجتمعات البدائية =

للصعوبات الهائلة التى تعترض سبيل دراسة ثقافة الولايات المتحدة مثلا بأسرها ككل ، تلك الصعوبات التى لم تعزب عن بال الباحثين الحقليين ، فقد آثر هؤلاء أن يختاروا جماعات محلية صغيرة نوعا ما بغية دراسة تفاعلاتها الثقافية كأهم ما عنوا به ، ثم بحث خصائص تركيب الشخصية كمبحث أقل قليلا فى الأهمية من المبحث الأول . ومن بين أخطر الدراسات التى من هذا النوع اثنتان تتعلقان بمجتمع « ميدلتاون » ، نشرتا فى عامى ١٩٣٠ ، ١٩٣٧ ، وفيهما استخلص المؤلفان ثقافة مدينة صغيرة ، ربما تعتبر ممثلة لكثير من المدن الصغيرة فى أواسط الولايات المتحدة وذلك باستخدامهم أدوات البحث التي يستخدمها عادة الأنثروبولوجى الحقلى . وقد لقيت الأنماط الثقافية فى هذين المجلدين عناية كبيرة ، الا أن أحد المؤلفين وهو روبرت س . بند ، حلل فى بحث لاحق التأثير المتبادل بين الثقافة والشخصية بشىء من التعميم وبالاشارة الى مناطق أكثر اتساعا فى الحياة الأمريكية [١] . ومدينة مدلتاون التى تقع فى ولاية انديانا يبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة تقريبا ، مما يجعلها جماعة محلية كبيرة معقدة نوعا ما . وقد قام الأنثروبولوجى و . لويد وورنر بدراسة مماثلة ، ولكنه لكى يحدد مجال بحثه بطريقة عملية تجعله صالحا للدراسة صلاحية تامة ، وتمكنه من بحث الثقافة فى بيئة ذات صناعة نامية ومحتوية على

= فيما بينها كما فعل رادكليف براون مثلا فى دراسته للقبائل الاسترالية وثانيا بمقارنة المجتمعات البدائية بالمجتمعات المتحضرة كما فعل تلاميذ رادكليف براون من الباحثين الأمريكيين مثل جون أمبرى وورنر وتلاميذه من المصريين مثل المترجم . — المترجم

(١) أنظر :

R. S. and H. M. Lynd, *Middletown* (New York, 1930) and *Middletown in Transition* (New York, 1937); and R.S. Lynd, *Knowledge for What*? especially Chapts. III abd V.

عدة زمر من الأقليات — وهذه جميعا مظاهر بارزة فى كثير من المدن الأمريكية — نراه قد أقدم هو وآخرون على دراسة مغرقة فى التفصيل تشرح التركيبات العامة للطبقات والأجناس البشرية والمكانة الاجتماعية فى « يانكى سيتى » ، وهى احدى جماعات نيوانجلاند يبلغ عدد سكانها ١٧٠٠٠ نسمة [١] . وهذه الأبحاث جميعا تصور العـلاقات بين الثقافة والشخصية على الأقل فى منطقة واحدة حضرية بالولايات المتحدة [٢] ، وقد سارت جنبا الى جنب مع الدراسات التحليلية ، التى سبقت الاشارة اليها للنظامين الطبقى والطائفى . وقد ورد ذكر دراسة الثقافة والشخصية التى قام بها كل من لنتون وكاردنر فى وصف حديث لثقافة « بلينفيل »، وهى قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها أقل من ثلثمائة نسمة وتقع على الحدود بين الشمال والجنوب فى الولايات المتحدة الأمريكية وتأخـذ الاكتشافات التى وصل اليها هذان الباحثان مكانها بين الأنثروبولوجيا

---

(١) الواقع أن بروفسور وورنر وزملاءه لم يذكروا الاســـم الحقيقى للمدينة التى درسوها وأطلقوا عليها هذا الاسم المستعار « يانكى سيتى » . أنظر: W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, *The Social Life of a Modern Community* (New Haven, Yale University Press, 1941), p. 40.

وهذا ما فعله أيضا بالنسبة للمدينة التى أطلق عليها اسم Jonesville المستعار . أنظر : W. Lloyd Warner, Democracy in Jonesville (Harper and Brothers, 1949), pp. XIV and XV.

وهذه على كل أبحاث تصور حقيقة الحياة فى عدة مدن أمريكية . والكتاب الثانى يصور حياة سكان الولايات المتحدة الأمريكية جميعا على حد تعبير وورنر . — **المترجم**

(٢) أنظر :

Warner and Lunt, *op. cit.*; Warner and Srole, *op. Cit.*; also W. Lloyd Warner and P. S. Lunt, *The Status System of a Modern Community* (New Haven, 1942); and for an account of one aspect of "Yankee City." W. Lloyd Warner and J.O. Low, *The Social System of the Modern Factory* (New Haven, 1947).

والتحليل النفسي ولكنها ليست قاطعة أو نهائية — ولا تهمنا في هذه النقطة التي نعالجها الا من حيث كونها مثالا آخر للتحقيق الشامل لجماعة محلية[1] .

ونحن اذ نوصي القارىء بهذه الأبحاث السوسيولوجية المثمرة ينبغي في نفس الوقت أن نوجه نظره الى بعض نواحي القصور فيها . فلنذكر أن كلا من هذه الجماعات المحلية التي درست — سواء أكانت « مدلتاون » أم « سذرتاون » أم « بلينفيل » — جزء من مركب ثقافي أكثر اتساعا ، يشتمل على النظام الاجتماعي الشامل للمجتمع الأمريكي على الأقل . هذا النمط الأعم يتفرع ويتفاعل مع التركيب الاجتماعي للمدينة أو القرية المحلية بكيفيات متعددة . ولم ينس أحد من الباحثين هذه الحقيقة نسيانا تاما ، غير أن دراسة الجماعة المحلية تميل الى استبعاد العلاقات المتبادلة بين الثقافة المحلية والنمط الأعم . ان فهم الجماعة التامة التكامل في « يانكي سيتي » مثلا لا يقتضي أن نكتفي بأن نوضح في أشكال ورسوم التفاصيل المقررة عرفا وغير المقررة للتركيب الاجتماعي للمدينة ، وذلك لأن هــذا التركيب لا يمثل نسقا مغلقا للحياة الاجتماعية كذلك النسق الذي نراه أحيانا في المجتمعات البدائية. ولنذكر كذلك أن هذه الطريقة المستخدمة بصفة خاصة في دراسة « الجماعات المحلية الصغيرة » تميل الى أن تهمل الدور الثقافي البالغ الأهمية الذي تقوم به على نطاق واسع العملية الاطرادية لنشر التمدن أو التحضر ، تلك العملية التي نلحظها بوضوح في المدينة الكبيرة ووظيفتها الكبرى اقامة « المظهر الثقافي العام » الغالب على حياتنا الاجتماعية كلها . والى جانب كل هذا نرى أن الاهتمام بالطرق التي تعمل بها الجماعة المحلية الصغيرة وتنظم نفسها بمقتضاها كنسق اجتماعي ،

(١) See under the pseudonym "James West", *Plainville*, U.S.A. (New York, 1945); and *The Psychological Frontiers of Society*, Chaps. X & XIII.

من الممكن أن يطغى على العوامل التاريخية الديناميكية التى بدونها لا يكون من الميسور قيام أى كيان للثقافة أو الشخصية ، أو فهمها فى آخر الأمر . ومع ذلك فمهما كان هناك قصور فى هذه الدراسات المتعلقة بالثقافة أو الشخصية فى الحياة المعاصرة فانها تقدمنا خطوات الى الأمام فى طريق المبحث الرئيسى فى علم الاجتماع ، وهو العلاقة بين الفرد والمجتمع. وعلى وجه التقريب نلاحظ أن جميع الكتاب الذين ساهموا فى هذا النوع من الدراسة قد وجدوا أن مبدأ الأخذ والعطاء بين الفرد والمجتمع ، أو بين « الثقافة والشخصية » ، لا يقوم على علاقة قوامها التوافق الكلى . وذلك لأن المجتمع من طبيعته أن يولد الخلاف كما يولد التوافق ، أو بعبارة أخرى أن المجتمع يدعو الى التنازع كما يدعو الى التعاون . وستكون مهمتنا فى هذا القسم من الكتاب أن نختم التحليل المبدئى لهاتين العمليتين المطردتين وهما التعاون والتنازع ، كما يعملان فى حياة المجتمع وحياة الأفراد .

التعاون والتنازع

طرق التعاون الاجتماعى : لا يستطيع الناس أن يجتمعوا على غير تعاون ، أو دون أن يشتركوا معا فى العمل من أجل السعى وراء المصالح المشتركة . وهناك طرق كثيرة للتعاون فى الحياة الاجتماعية يمكن أن نقسمها فى هذه المرحلة من البحث الى قسمين رئيسيين :

١ — **التعاون المباشر :** سندرج تحت التعاون المباشر جميع مظاهر النشاط التى يقوم فيها الناس معا بأعمال متشابهة — كاللعب معا ، والتعبد معا ، وحرث الأرض الزراعية معا ، والعمل معا بطرق مختلفة . وفى مثل هذا النوع من النشاط قد يوجد تنوع بسيط فى تنفيذ العمل المشترك — كما يقول أحد الزوجين للآخر : عليك غسل الأطباق وعلى

تجفيفها — وأهم شيء هنا أن الناس يقبلون أن يعملوا معا ما يمكنهم أن يعملوه أيضا وهم منفصلون أو فى عزلة عن الآخرين . وهم يشتركون فى العمل اما لأن كون المرء يعمل وجها لوجه مع غيره يشجعه على حسن أداء العمل ، واما لأن فى ذلك مزايا اجتماعية أخرى . ويتمثل التعاون المباشر أيضا حينما يؤدى فريق من الناس بالاشتراك عملا يبدو من الصعب على الشخص أن يؤديه بمفرده . كما يحدث فى لعبة «شد الحبل» أو حينما يتعاون أكثر من رجل واحد على ازالة بعض المتاريس .

٢ ـ **التعاون غير المباشر** : سندرج تحت التعاون غير المباشر جميع مظاهر النشاط التى يقوم فيها الناس بأعمال غير متشابهة بالتأكيد بغية تحقيق غاية واحدة . وبهذه المناسبة يجب أن نذكر مبدأ تقسيم العمل [١]، ذلك المبدأ المشهور المتأصل فى طبيعة الحياة الانسانية . ويتكشف تقسيم العمل فى الانتاج البيولوجى أو فى تربية الأبناء ورعاية شئون الأسرة . وانه ليتكشف كذلك حينما يجتمع فى صعيد واحد أناس يختلف الواحد منهم عن الآخر ليؤدوا بالاشتراك عملا بعينه ليرضى كل منهم غيره ، أو لغاية مشتركة . وفى الصناعة ، كما هى الحال فى الحكومة والبحث العلمى، وحتى فى مظاهر الترويح عن النفس ، تميل وظائف الناس الى التخصص شيئا فشيئا . وهذه العملية الاطرادية أكثر وضوحا فى الحياة الحضرية منها فى الحياة الريفية ، وان كان انتهاء الوسائل القـديمة فى الزراعة

(١) كان آدم سميث اول من اشار الى الدلالة الاقتصادية لهـذا المبدأ ويوجد البيان الكلاسيكى الذى يتحتم على كل طالب اجتماع أن يقرأه فى :
The Wealth of Nations, Book One,

انظر لمناقشة حديثة قيمة حول هذا الموضوع :

W. E. Moore, *Industrial Relations and the Social Order* (New York, 1946), Chap. IV,

واستخدام الآلات فيها من طبيعتهما أن يجعلا الناس يبحثون عن وسائل جديدة للتشجيع على العمل الاجتماعي .

ان حلول التعاون غير المباشر صاحب تقدمنا التكنولوجي (الآلي) العظيم ، وهذا يتطلب تخصصا في المهارات والوظائف . واذا دققنا النظر وجدنا أن هذا لا يعتبر كسبا له من وجهة نظر الحاجات الانسانية . وقد أكثر الكلام في أن الفرد الذي يعيش في المجتمع الحديث المتحضر الذي يأخذ بأسباب الصناعة ، يزداد كل يوم بعدا عن مظاهر النشاط التعاوني ويتحول شيئا فشيئا الى « متخصص » منعزل عن الروابط الوثيقة التي تربطه بحياة الجماعة ثم ينتهي به الأمر الى أن يجد نفسه وحيدا وفريسة للأمراض العصبية ، على النحو الذي تزداد أقلام الكتاب تصويرا له يوما بعد يوم [1] . وكما سنوضح فيما بعد يستند هذا الذعر الذي لايوجد ما يسوغه تماما الى بعض الاعتبارات الاضافية . فقد يسمح لنا أن نقول ان من مظاهر زماننا أن الكنائس والمدارس والهيئات العديدة تشجع خطط التعاون المباشر بين أعضائها وروادها ، وان المتخصصين في علم النفس والمحللين النفسانيين يرون أن ما ننسبه الى المجتمع من مظاهر العدوان والمنافسة مرتبط كله ارتباطا ذا مغزى بأنواع الخلل المختلفة التي تصيب الشخصية ، وان هناك ميلا عند المشتغلين بالتعليم العام الى أن يفضلوا تكوين مواطنين مثقفين مفيدين على متخصصين تخصصا ضيقا في هذا النوع من النشاط أو ذاك .

طرق النزاع الاجتماعي : يظهر التنازع بكيفيات متعددة ودرجات متفاوتة في أي اتصال يقع بين انسان وآخر . وتتغير طرقه دائما مع تغير

---

(١) أنظر مثلا مؤلفات K. Horney وعلى الأخص :

The Neurotic Personality of Our Time (New York, 1937) and *Our Inner Conflicts* (New York, 1945).

الأحوال الاجتماعية والثقافية . وتختفى بعض أنواعه من مجتمعنا كما حدث بالنسبة لنظام المبارزة ، وتظهر بدلا منه أنواع أخرى . فان أى شكل منه كالحرب وبعض طرق المنافسة الاقتصادية ، تعتبر كذلك أبدية بالضرورة . ان « التنازع الاجتماعى » يشتمل على كل نشاط يوجهه الشخص ضد أى شخص آخر لتحقيق هدف ما . وله نوعان رئيسيان هما: التنازع المباشر والتنازع غير المباشر .

١ ـ **التنازع المباشر** : يحدث التنازع المباشر حينما يعتدى الأفراد (أو الزمر) بعضهم على بعض اعتداء صارخا يترتب عليه أذى بليغ ، بقصد الحصول على غرض معين . وأما الاعتداء الخفيف بقصد منع الغير من تحقيق غاية معينة ، فوسيلته التقاضى والجدل والدعاية ،وكثير من الصراع الذى تقوم به بعض الزمر الاقتصادية المنظمة للحصول على فائدة أكبر . ويتميز التنازع الاقتصادى بين الطبقات الاجتماعية فى بعض الأحيان بأشكال للتنازع أشد عنفا ، كما يحدث بوضوح فى المبارزة والثأر والثورة والحرب .

٢ ـ **التنازع غير المباشر** : يحدث التنازع غير المباشر حينما لا يحول الأفراد أو الزمر فعلا بين بعضهم وبين تحقيق مصالحهم ، وانما يقع هذا النوع من التنازع حينما يسعى كل فرد لتحقيق مصلحته وهو يعلم أن ذلك لن يتم الا بالحيلولة دون تحقيق مصالح الآخرين . وستعرض لنا الفرصة فيما بعد لأن نحلل فى هذا الكتاب ظاهرتى المساومة والمنافسة اللتين تدرجان بكل أنواعهما تحت هذا النوع من التنازع . وما المنافسة الا تنازع خفى بين الأفراد للحصول على أغراض معينة ، الفرص فيها محدودة ،سواء أكانت هذه الأغراض مالية أم امتيازات أكاديمية أم سيدات جميلات أم تتعلق بالمركز الاجتماعى . فالمنافسة من حيث هى كذلك لا تتدخل

تدخلا مباشرا فى جهود الآخرين للحصول على هـذه الأغراض ، وانما تتدخل بطريقة مباشرة فى نجاح الآخرين .

ونحن اذ نميز بين هذين الشكلين من التنازع ينبغىأن نذكر القارىء أن ليس كلصراع يشترك فيه الانسان تنازعا اجتماعيا من أحد النوعين . اننا نصارع للتغلب على الصعوبات وتذليل العقبات وللوصول الىغاياتنا بوسائل بعيدة عن التنازع مع أقراننا . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة معركة الانسان الدائمة مع البيئة الطبيعية التىيعيش فيها .ان التنازعالاجتماعى سـواء أكان بين رجل وآخر أم بين زمرة وأخرى من الناس لا بد أن يظهر حيثما يوجد أى مجتمع . وما لم يغلغل التعاون فى المجتمع وينتصر على التنازع فان المجتمع لا يمكنه أن يستمر .

اجتماع التعاون والتنازع فى الحيـاة الاجتماعية : ان التعاون من العناصر الدائمة فىالحياة الانسانية عامة . ومن الغريب أنهما يجتمعان معا فى عدد كثير من وجوه النشاط . وكما توجد فى عالم الطبيعة قوىللجذب والدفع تعمل فى وقت واحد محـددة وضع الأجسام فى أماكنها ، كذلك نجد فى عالم الاجتماع اتحادا بين التعاون والتنازع يتكشف فى علاقات الأفراد والزمر الاجتماعية . وقد كتب كولى فى هذا الشأن يقول : « كلما دققنا النظر فى هـذا الموضوع أدركنا أن التنازع والتعاون ليسا شيئين منفصلين ، وانما هما وجهان لعملية اطرادية واحدة تشمل شيئا من الأثنين دائما [١] . وتفصيل ذلك أن النـاس حينما يتعاونون فيما بينهم تـكون مصالحهم متوافقة الى حد محدود فقط . وحتى فى العلاقات الودية جدا والروابط الوثيقة التىتجمع بينالناسهنالك أوقات تتعارضفيها المصالح ، أو مواقف لا تكون واحدة بالنسبة للأفراد المتعاونين . ان أوثق أنواع التعاون وهو ما يقوم داخل نطاق الأسرة لا يمنع من حدوث المشاجرات.

(١) C. H. Cooley, *Social Process* (New York, 1918), p. 39

والاخلاص لقضية مشتركة لا يستبعد من المتفانين فى سبيلها الخلاف فى الرأى أو المطامع المتعارضة . « ويبدو أنه لابد أن يوجد دائما عنصر من عناصر التنازع فى علاقتنا مع الآخرين ، يعمل جنبا الى جنب مع عنصر من عناصر المساعدة المتبادلة . هكذا جعلتنا الحياة . ان ملامح وجوهنا تدل على ذلك ، وعلى جبين المرء ترتسم علائم الحب والكره معا » [1] .

ومع ذلك فالتنازع محدود بوجه عام من حيث مجاله وأسلوبه ، وذلك لاضطرار المتنازعين الى أن يتعاونوا على نحو ما فى داخل مجال التنازع وخارجه . وفى الحق أنه لايوجد شكل من أشكال التنازع الاجتماعى ، سواء أكان وجها لوجه كالمبارزة ، أم المناظرة ، أم السباق فى مجال الرياضة ، أو تنازعا بين الزمر الاجتماعية كذلك الذى يحدث بين الزمر الاقتصادية أو البشرية أو السياسية أو المدنية ، الا ويشتمل على مظهر أو أكثر من مظاهر النشاط التعاونى . وفى واقع الأمر أن الشكل الوحيد للتنازع الاجتماعى الذى يأخذ مظهر التنازع المطلق المجرد من أى تعاون هو الحرب . وذلك لأن الحرب تنتهى آخر الأمر الى أن تتجاهل كل نوع من القواعد . وبالعكس من ذلك لاتوجد أمثلة للأعمال التعاونية فى المجتمع يمكن أن تخلو من مظهر أو أكثر من مظاهر التنازع . وعلى ذلك فالتعاون الذى يقتحمه التنازع يميز المجتمع الانسانى فى كل مكان — فى « الثقافة التعاونية » عند الـ : زونى بين الهنود الحمر المعروفين باسم بويبلو ، وفى « الثقافة التنافسية » عند الـ : كواكتيل بين قبائل الشمال الغربى فى الولايات المتحدة ، وفى الاقتصاديات الجمعية فى روسيا السوفيتية أو الاقتصاديات التنافسية عند الأمم الأخرى . ولا تخلو منه مناظرة فى أحد الأندية أو جلسة عادية تضم بعض الأصدقاء .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

التعاون وانواع المصلحة : يذكر القارىء أننا فرقنا فى الفصل السابق بين المصالح المتشابهة المنفصلة والمصالح المشتركة التى يقتسمها الجميع . وهذان النوعان من المصلحة يميزان أسلوبين من النشاط التعاونى .

١ - **التعاون والمصلحة المشتركة :** من الواضح أن الناس حينما يتبينون مصلحة مشتركة ، يظهرون ميلا الى التعاون لتحقيق هذه المصلحة أنهم يتعاونون لا من قبيل الاعتقاد بأن العمل التعاونى أجلب للخير من العمل الانفرادى ، وانما الى جانب ذلك تدعو المصلحة المشتركة الناس الى احساس بقيمة الكثرة المتعاونة . ولا يمكن أن يتحد الناس دفاعا عن قضية ما ، سواء أكانت المصلحة العلمية هى الأسرة أو الأمة أو العقيدة أو العلم ، دون بعض الشعور بالرغبة فى مواصلة العمل والتعاون مع الغير. وهذه الدوافع بالذات ، التى تمتد جذورها فى المصالح المشتركة ، هى التى يخاطبها القادة والزعماء حينما يدعون الناس الى العمل لخدمة البلاد أو الطبقة الاجتماعية أو الجنس البشرى أو الدين .

٢ - **التعاون والمصالح المتشابهة :** ولقد يقوم النشاط الاجتماعى بأسلوب آخر سعيا وراء مصالح الأفراد المتشابهة والمتوافقة . فالناس مثلا يلتمسون للافادة من تقسيم العمل أو للاكتتاب فى المشروعات التجارية، أو السعى لتحقيق مصلحة لدى الحكومة ، أو للقضاء على منافس خطير. والمتنافسون فى التجارة مثلا يرغبون فى زيادة الطلب على سلعهم ، ويحتاجون الى خفض كلفة البضاعة والعمل ، ولا يعفون من ذلك كلف المنافسة نفسها . ومن هذه النواحى ومن غيرها تكون مصالحهم متوافقة وتؤدى الى درجة من التعاون . وسترى فى فصل لاحق أن التنظيم الاقتصادى هو المجال الأول لهذا الشكل من التعاون .

وللفرق بين هذين الأسلوبين من التعاون من دلالات سوسيولوجية نرى هنا موضع الاشارة اليها : الدلالة الأولى ، وهى الاخلاص الى قضية

مشتركة يقوم فى نوع من المصلحة غير قابل للانقسام ، ولا سبيل الى تحصيله اطلاقا الا اذا أفاد الآخرون من تحصيله . وعلى ذلك فكل من الموقف المتعلق بالتعاون والمصلحة متشابكان . ومن هنا فان الميل الى التعاون لا يتوقف على الرغبة فى النجاح الفردى فحسب ، بل فى نجاح المجموع أيضا — وفى الواقع قد تدعو الهزيمة والقمع الى ربط الأفراد بعضهم ببعض أكثر مما يدعو الى ذلك النجاح ، كالمشاهد فى حالة اتحاد الزمر أو الجماعات الدينية فى وجه اضطهاد صارخ [1] . ويحضرنا ما ذكره أحد أعضاء جمعية يهوا اليهودية الدينية ذات مرة بقوله : « ان ما يقال أو يكتب ضد الجمعية أعتبره كما لو كان موجها نحوى شخصيا ، اذ أننى أؤيد بقوة كل ما يصدر عن الجمعية من قول أو فعل [2] » . وبديهى أنه قد نتج عن المصلحة المشتركة بين أعضاء الجمعية موقف تعاونى قوى . ولكن التعاون القائم على المصلحة المتشابهة والمحدودة بحدود الفرد لا يستطيع أن يجمع الناس بمثل هذه الروابط القوية وذلك لأن هذا النوع الذى نراه مثلا فى التنظيم الاقتصادى يتضمن درجة من الاعتبار الفردى ؛ فالدافع على التعاون يستمد قوته من أن مصلحة الفرد قد وجد أنها من الممكن أن تتفق مع مصلحة الآخرين . واذا لم يتم التوافق بين المتعاونين — كما يحدث فى أكثر الأحيان فى تعاون أصحاب العمل والعمال ، أو فى حالات المنافسة ، أو المشاركة فى العمل — فان الرغبة

---

(١) فى تاريخ المسيحية الأولى والبروتستنتية الأولى توضيحات تامة لهذه النقطة . وربما وجدنا مثلها فى التطور التعاونى الحديث فى فلسطين . أنظر مثلا :

H. F. Infield, *Cooperative Living in Palestine* (New York, 1944) and the novel by A. Koestler, *Thieves in the Night* (New York, 1946).

(٢) جاء ذكر هذا النص فى :

H. H. Stroup, *The Jehovah's Witnesses* (New York, 1945), p. 156.

فى التعاون عرضة لأن تتلاشى . وفى هذه الحالة يكون الموقف المتعلق بالرغبة فى التعاون مجرد نتيجة للمصالحة المؤقتة بين وجهات نظر الأفراد. ويتعرض ما يتم من مصالحة أو تحالف بين المتنافسين بقصد المنفعة المتبادلة الى الانهيار تبعا لحدة المنافسة وما يترتب عليها من مشاعر وشكوك . ويتميز مجتمعنا الحديث مع ما يقوم عليه من تقسيم دقيق للعمل وما يعتمد عليه من توافق بين المصالح المشتركة ، بعدم استقرار تدل عليه من ناحية أشكال التنازع المختلفة فى النظام الاجتماعى، ومن ناحية أخرى اضطرابات الشخصية الفردية [1] .

التنازع والمصالح والمواقف : التنازع شأنه شأن التعاون من حيث ان له أساليب مختلفة ، وهذه الأساليب تتصل بأنواع المصلحة الرئيسية وما يرتبط بها ارتباطا وثيقا من أنماط للمواقف .

١ - **التنازع والمصالح المتشابهة :** يلاحظ أن التنازع يظهر بوضوح حيثما تكون المصالح المتشابهة غير متوافقة . وأبسط حالة من هذا النوع حالة فردين أو زمرتين كل منهما يحتاج الى شىء واحد موجود بالفعل ولكن ليس له ثان . ان عبارة « ما أحتاجه أنا تحتاجه أنت » توحى بالتعاون ، اذا أمكن اقتسام المصلحة أو الاشتراك فى الانتفاع بها . وتوحى بالتنازع اذا كانت المصلحة وحيدة لا يمكن اقتسامها أو الاشتراك فيها . واذن فكل شىء نادر يحتاج اليه الناس للتملك أو الاستمتاع ، سواء أكان سلعة ، أم شخصا محبوبا أم شرفا أم وظيفة ذات سلطة ، لابد أن يتضمن عوامل التنازع . ويجمل بنا أن نسجل ثلاثة أمثلة لمصالح متشابهة غير متوافقة ذات أهمية كبرى . فأولا — جميع السلع الاقتصادية

---

(١) تحزت كتب K. Horney أثر الصدام بين المنافسة والشخصية . أنظر بصفة خاصة كتابه :

The Neurotic Personality of Our Time, Chap. XV.

التى تقتضى من الناس التنافس من أجلها أو المساومة عليها تعتبر من الدوافع على التنازع . وذلك لأن السلع الاقتصادية لها قيمتها التى ترجع الى ندرتها . وهى قلما تسد حاجة من يملك منها الكثير أو القليل . وثانيا — نجد فى مجال العاطفة أن الشخص المرغوب فى صداقته أو وده، من الممكن أن تنشأ بين مريديه مظاهر المنافسة والغيرة والحسد التى تؤدى جميعا الى التنازع فى السر والعلانية . وأخيرا هناك مصالح السلطة والتفوق التى هى بطبيعتها لا يمكن أن تكون مشتركة أو متوافقة . انها لاتتوافق لأنها ترمى دائما الى الحصول على ما عند الآخرين من سلطة أو تفوق . ومثل هذه المصالح تعتبر نوعا من السلع غير الملموسة ، وبالتالى تتعذر قسمتها على النحو الميسور بالنسبة للسلع الاقتصادية الملموسة . وعلى ذلك فالمجتمع يمكن تنسيقه (لتجنب التنازع) على أساس المساواة فى توزيع الثروة ، كما هى الحال فى بعض المجتمعات « الساعية وراء المطالبة » فى العصر الحديث . ولا يمكن أبدا أن يكون هذا التنسيق على أساس المساواة فى السلطة أو التفوق . ومن المسلم به أنه ليس من الممكن أن تقوم سلطة فى أى مجتمع اذا كانت موزعة على الأفراد بالسوية . ان السعى وراء السلطة والتفوق لا ينتهى مع حياتنا الاجتماعية . وهو كما سنرى مصدر دائم للتنازع الاجتماعى .

٢ — **التنازع والمواقف غير المتشابهة :** تناولنا حتى الآن التنازع الناشىء عن عدم التوافق بين المصالح المتشابهة . أما النوع الآخر الخطير من التنازع فهو الذى تمثله فى أبسط أشكاله هذه العبارة : « ما أحبه أنا تكرهه أنت » وهو قبل كل شىء التنازع الذى يشير الى المواقف المتخاصمة غير المتشابهة ، تلك التى تنشأ عن المصالح المتشابهة اذا لم تكن متفقة ، مثل الحرب الاقتصادية بين الطبقات الاجتماعية ، أو لغير هذه الأسباب مثل بعض الخلافات الدينية . وفى أغلب الأحيان يأخذ الاختلاف

فى المصالح الاقتصادية مظهر تنازع ثقافى أعمق. كذلك كثيرا ما نجد المتعصبين لجنس بشرى معين أو لطبقة اجتماعية معينة يسوغون موقفهم بالخلاف العميق بين المصالح . واذن فالمواقف والمصالح يقوى بعضها بعضا ، وتعملان جميعا على اذكاء جذوة التنازع . والناس حينما يكره بعضهم بعضـا يجتهدون فى تسويغ هذا الكره تسويغا عقليا . كما نشهد فى تاريخ كل حرب مرت بنا . ومن طبعهم اذا تعارضت مصالحهم أن ينسبوا البواعث الشريرة الى خصومهم ، كما نرى فى الدعاية المدبرة وغير الواعية ضد السـامية .

وتظهر المواقف غير المتشابهة اما فى صورة عدم اكتراث أو كراهية أو تنازع ايجابى . أما عدم الاكتراث فهو نادر فى الحياة الاجتماعية . فالرجل الذى يحيا للرياضة ويهبها كل وقته وتفكيره ، ولا يهتم بالفن فتيلا ، قد نعتبره غير مكترث بالرجل ذى الأذواق المتضادة . الا أن مثل هذه الحيدة غير عادية ، وذلك لأن الناس عرضة للشعور بعدم الارتياح ازاء الذين يظهرون الجمود البارد نحو الأشياء التى يقدرونها . وان مجرد التباعد عن الغير ينطوى على معارضة شىء ما . ويثير الدخيل والأجنبى والغريب والمخالف فى العقيدة الدينية موجة عدم اطمئنان بمجرد ظهورهم فى الزمرة المحيطة بالشخص ، وذلك لأن أعضاء الزمرة الخارجية موضع الريبة فى نظر الكثيرين ، اذ من الممكن أن يهددوا ما ألفوه من قيم .

وأما الكراهية فتنتج عن عدم الاعتراف بالمصلحة العامة أو المشتركة. وهذا الشكل من العداوة العاطفية ينكر قيم الزمر الخارجية أو يقلل من شأنها . فالخاصة التى تحتقر العامة ، والعامة التى تحتقر الخاصـة ، والمتزمتون من سكان المدن الذين يشعرون أنهم أرقى من الريفيين سكان القرى ، وهؤلاء الذين يعتبرون أهل المدن منحلين لا أخلاق لهم ، كل أولئك انما يقاومون القيم الغريبة بالنسبة اليهم . وتفسير هذه الظاهرة

أن الفروق الثقافية تولد مواقف الكراهية ، وعلى الأخص بين الأفراد الذين يعيشون فى عزلة نسبية عن الزمر التى لا ينتسبون اليها أصـلا ، أو عند المتمسكين بالاستقامة أو الدين داخل زمرتهم . وهم يقيمون بهذه الكراهية حواجز منيعة لكيلا تزحف اليهم القيم التى يرفضونها [1] .

وليس بين الكراهية والتنازع الفعلى ، أو بين الدفاع عن النفس والاساءة الى الغير الا خطوة قصيرة . حينما يكون التنازع غير متكافىء نراه يأخذ شكل الاضطهاد والقمع . أما اذا تكافأ فان كلا من الطرفين المتنازعين يسعى جاهدا لاثارة الطرف الآخر بمهاجمة الأشياء التى لها عنده قيمة خاصة . وللوقوف كحجر عثرة فى سبيل تحقيق أغراضه . وقد يقع التنازع الفعلى داخل نطاق القانون ، كما هو الحال فى الصراع الاقتصادى والمنافسة بين الأحزاب السياسية والنزاع من أجل مركز ذى نفوذ أو لترقية ، وكذلك حـرب الدعاية وكسب الأنصـار للمبادىء والمعتقدات ، الى آخر ما هنالك من خلافات الحياة اليومية ، وفيما عدا ذلك توجد الخصومات القبلية أو العائلية والأخذ بالثأر والمظـاهرات الثورية والاعدام بدون حكم من محكمة ، والثورات وغيرها من الحركات السياسية مما لا يتعرض الا جزئيا لسطوة القانون ، أما الحرب بين بلدين فلا تدخل فى نطاق أى قانون .

وكلما كان التنازع بعيدا عن دائرة القانون ازداد اعتماده على القوة الجثمانية وأصبح أكثر ميلا الى التدمير . وهذا حق بصفة خاصة اذا كانت قوة الطرفين المتنازعين متعادلة بالتقريب . وفى هذه الحالة يكون التنازع مدمرا تدميرا تاما فلا يجرف فى طريقه المصالح المتنازع عليها وحدها

---

(١) فى قصة (H. H. Howe, *We Happy Few* (New York, 1946) صورة صادقة للعزلة النفسية التى فرضها أعضاء زمرة متزمتة غير قانونية على أنفسهم وعلاقتها بمواقف الكراهية .

بل جميع المصالح الأخرى للطرفين . وهذه النقطة يوضحها تاريخ الحروب الحديثة بين الدول أو بين الزمر الكبيرة مثل بعض أجزاء الصين الدائمة التخاصم .

٣ ـ **المصالح المشتركة والتنازع** : من الواضح أن المصالح المشتركة للزمر تحمل فى طياتها عوامل اثارة التنازع ، وذلك لأن المصلحة المشتركة تحتضن بعض أفراد الزمر وتلفظ البعض الآخر . وهذه العملية الأخيرة تؤدى الى أشد أنواع التنازع وأكثرها اصرارا . ولا تشعر الزمرة شعورا قويا بوحدتها الا اذا هددتها زمرة أخرى . ومن هنا نجد أن من بين أساليب نشر الدعوة لتقوية الشعور العام بالمصلحة المشتركة أن ينبه من يعنيه الأمر الى أنها مهددة من مصلحة مضادة ، وأن يوجه كل ضروب التعصب لتأييد الجماعة الأصلية بتمييز قيمها على قيم الجماعة الدخيلة المعتدية . أنظر جمعية كوكلوكس كلان وجمعية بلاك ليجيون السريتين فى الولايات المتحدة ، انهما تريان أن الزنوج واليهود والكاثوليك يشتركون فى مؤامرة خسيسة ضد المثل العليا للرجل الأمريكى الأصيل. وبالمثل تجد الرجل العسكرى الوطنى يرى فى دعاة الاستسلام خونة جبناء . ويحكم السياسى على برنامج الحزب المعارض بأنه مدمر يجانب العقل والصواب . حتى اذا ما رأى الحكام الأوتوقراطيون (المستبدون المستأثرون بكامل السلطة) أن البلد عرضة لانقسامات داخلية حولوا الاهتمام الى عدو خارجى أو الى « فتنة داخلية » . وبذا يتخلصون من الكوارث الوطنية ومسئولياتها ويستخدمون فى نفس الوقت أحد أساليب الدعاية التى ترمى الى اثارة المصلحة المشتركة لهذه الزمرة أو تلك وتوجيهها نحو غاية معينة[1] .

---

(١) هناك مراجع عديدة فى أساليب الدعاية : انظر مثلا :

L.W. Doob, *Propaganda* (New York, 1935); and the *Institute for Propaganda Analysis, The Fine Arts of Propaganda* (New York, 1939).

وعلى ذلك فالمصلحة المشتركة تؤوى الكراهية والاخلاص فيما بين أعضائها . ولكنها تقوى وتشتد وتتحد غاياتها بما يشعر به الأعضاء من كراهية وخوف ازاء عدو خارجي . وهذا يفسر لنا التنازع القائم بين الهيئات الدينية والثقافية والأحزاب السياسية والطبقات كما يدلنا على أهم أسباب الحروب بين الأمم . ويوضح الصراع بين هذه الزمر التى أشرنا اليها توا أهمية الدور الذى تؤديه المواقف الارتباطية والانفصالية، اما فى تقوية الأواصر بين أعضاء الزمرة الواحدة ، واما فى ابعاد الدخلاء والوقوف فى وجه العدو الخارجى . وسنهتم بمعالجة جانبى المصلحة التالى فى انتظام الحياة الاجتماعية .

التعاون والتنازع وتير انتظام الحياة الاجتماعية : فرقنا فيما سبق بين الأشكال المباشرة وغير المباشرة للتعاون والتنازع . واهتممنا على وجه الخصوص بأن نظهر أن الصراع والمساعدة المتبادلة معا من سمات الحياة الاجتماعية كما حللنا الدور الهام الذى تلعبه المصالح المشتركة ، والقائمة على التنافس الحقيقى ، وما يتصل بها من مواقف تعاونية وتنازعية . وأشرنا فى عدة مواضع الى ظهور أثر ذلك كله فى نماذج السلوك عند الأفراد وفى أنماط المجتمعات المتغيرة [1] . ومع ذلك فان معالجتنا الموجزة لهذا الموضوع ما هى الا تمهيد لتفصيله فى الفصول التالية .

ومما يدل على تعقد المشاكل المتضمنة فى التعاون والتنازع أن هاتين العمليتين تأخذان فى الجماعة المحلية أشكالا تتمثل فيها بوضوح الأحوال الاجتماعية والثقافية السائدة فى البيئة . ففى الولايات المتحدة مثلا لدينا أعداد لا حصر لها من الزمر الاجتماعية والمستويات الدينية والبشرية

---

(١) هذا التحليل الذى قدمناه للتعاون والتنازع من ناحية أنواع المصالح والمواقف يناقض – وفى بعض المواضع – الدراسة السيكولوجية التى قام بها L. W. Doob و M. A. May فى كتابهما :

والقوميـــة ، والسكان يتحركون من مكان لآخر بسهولة كمـا ينتقلون من طبقة اجتماعيـــة الى أخــرى بغـير عناء . والنظام الاقتصــادى انتشر بسرعة دون أية سيطرة عليـه من حـــكومات الولايات . كذلك نجــد عقلية الفاتحين الأوائل تعيش مع عقلية المحدثين من الواقدين على البلاد من كل أنحاء العالم ومظاهر الديموقراطية التعاونية المباشرة كديموقراطية المجالس البلدية فى ولاية مثل نيوانجلاند قائمــة جنبا الى جنب مع الديموقراطية الشعبية الواسعة النطاق فى المدن الصناعية الكبيرة . ويعتبر مجتمعنا الى حد كبير نتيجة لسلسلة من الهجرات الضخمة الحديثة العهد ، وكثير من القيم الاجتماعية الحاضرة فى الولايات المتحـدة يعد انعكاسها للتنازع الثقافى الحاصل أثناء اطراد عملية الاندماج بين العناصر المهاجرة . وبالرغم من التنوع الزائد وأنواع التجارب المختلفة التى مرت بالزمر الاجتماعيـــة الموجودة فى بلادنا فاننا نعمــل على تقوية الحواجز الفاصلة بين الطبقة الممتازة التى تكون السكان البيض الأنجلوسكسونيين المعتبرين أرقى العناصر وبين مجموعات السكان المنتمية الى أجناس بشرية أخرى . وما هذه الأمثلة جميعا الا بعض مظاهر حياتنا القومية التى تشير الى ما يسود الولايات المتحدة من تعاون وتنازع [1] . وهـــكذا ففى كل نظام اجتماعى ينبغى أن يظهر الى هذه العمليات الاطرادية من حيث صلتها بالظروف الاجتماعية والثقافية المحيطة بها .

وانا لنلاحظ أن مظاهر التعاون والتنازع تختلف من حيث النـــوع والتفصيل ليس بين جماعة وأخرى بل من وقت لآخر كذلك . ونحن اذا راقبنا العمليات الاطرادية استخلصنا منها بالضرورة أن التنظيم الاجتماعى

(١) انظر سلسلة من المناقشات حول هذه المسائل فى :

Competition and Cooperation (New York, 1937); see a specially Chap. II.

Unity and Difference in American Life (R. M. MacIver, ed., New York, 1947).

دائم التغير . ففى كل حالة تنازع مثلا نجد أنه كلما تطور التنازع ،سواء آكان بين أمم ، أم طبقات اجتماعية ، أم أفراد متنافسين ، تغيرت المواقف والمصالح عنـد الأطراف المتنازعة ، اذ أن نشاطها فى ذاته من طبيعته أن يغير مجرى الأمور . وفى كل حالة من حالات قيام التنازع ، سواء أكان بوسائل مؤقتة كانشاء الحواجز الفاصلة أو بفرض مطالب من قبل هيئة منتصرة ، أو بما يتمخض عنـه التنازع نفسه من اكتشاف دائرة مصالح أكثر اتساعا ، نجد أن قيام هذا التنازع جزء من تتابع تاريخى لانهاية له .

وكلما درسنا العمليات الاطرادية المتعلقة بالتعاون والتنازع ، قادتنا الصفة الديناميكية الكامنة فيهما الى بحث مشاكل التغير الاجتماعى . واذا أردنا الدقة ، سيظل اهتمامنا الحاضر بالتعاون والتنازع ، كلما أوغلنا فى خصائص التركيب الاجتماعى فى الكتاب الثامن من هـذا المؤلف ، اذ أن هـذه العمليات الأساسية تدخل دائما فى النظام الاجتماعى . أما التغير الاجتماعى ذاته فهو معقد أشد التعقيد ، وذو أهمية كبيرة بالنسبة لحياة الفرد والمجتمع حتى ان الكتاب الثالث والأخير سيختص به .

تقديم

الباب الثاني :

المجتمع والبيئة

كلمـــة استهلالية

قبل أن تدرس تركيب المجتمع والتغيرات التى تطرأ عليه يجدر بنا أن نتناول ظروف العالم الخارجى التى تتوقف عليها الحياة الاجتماعيــة كما تتوقف كل حياة أخرى . وأن نتفهم طبيعة هذا التوقف . وهنا تبدو لنا مسألتان كبيرتان خليقتان بالتأمل .

فمن حيث ان كل زمرة اجتماعيــة ، سواء أكانت بشرية أم قومية أم ثقافية ، متميزة كطبقة اجتماعية أو كجماعة محليــة ، أم كانت لها خاصة أخرى تحددها ، أم تختلف من عدة وجوه عن غيرها من الزمر ، فاننا نواجه مسألة ملحة ملخصها : هل تتحدد هــذه الفروق بصفة رئيسية بالوراثة أو بظروف المعيشة ؟ وللاجابة التى تقدمها عن هذا السؤال نتائج عملية هامة وشديدة الخطر ، وهى فى الحقيقة تؤثر على نظرتنا العامة للمجتمع . وسنعالج هذا الموضوع فى الفصل الرابع .

وأما المسألة الثانية فتتعلق بالطريقة والدرجة التى تؤثر بهما النواحى المختلفة للبيئة كل على حدة فى حياة الانسان الاجتماعية ، وسنبحث هذا الموضوع فى الفصل الخامس ، مع الاشارة بصفــة خاصة الى الأحوال الجغرافية التى يتصل بها المجتمع والثقافة دائما بكيفيات معينة . وسنواجه فى الفصل السادس بصفة مباشرة تلك المشكلة المعقدة المتصلة بالعلاقات القائمة بين الفرد وبيئته الشاملة .

الفصل الرابع

البيئة والحياة

البيئة والتوافق

العلاقة الوثيقة بين البيئة والحياة : من الحقائق الثابتة بالمشاهدة أننا اذا غرسنا بذرة فى الأرض ، فى ظروف ملائمة ، نبتت بدفــع أوراقها فى الهواء ومد جذورها فى التربة . ومعنى هذا أنها تنشىء علاقات معقدة كل التعقيــد مع البيئــة لدرجة أننا اذا انتزعناها من التربة ورددنا لها استقلالها عن التربة كما كانت فى أول الأمر لهلكت . وتظهر على النبات أثناء هذه العملية الاطرادية المعقدة جميع القوى الكامنة فى بذرته ، وفى بذرته وحدها . وبذا يصبح هذا النبات نوعا من القمح أو الحبوب ، أو عباد الشمس ، أو أى شجر حسب نوعه ، الا أن البيئة تؤثر تأثيرا جوهريا فى اكساب النبات القوة على الأزهار أو الأثمار أو جعله يذبل قبل الأوان أو ينمو عاليا قويا أو قصيرا ضعيفا ، أو محوطا بنباتات أخرى تعطله أو قائما وحده فى تماسك . وهناك أنواع مختلفــة من النباتات تلائم بيئات متباينة ، كالمستنقع ، أو التربة الصخرية، أو الصحراء القاحلة ، أو الأرض الخصبة الغنية بسمادها الطبيعى والواقعة فى السهول الميسورة الرى ، أو الحرارة أو البرودة أو ضوء الشمس أو الظل . ومن الملاحظ أن النبات الواحد تبدو عليه تغيرات هامة اذا نما فى أنواع مختلفة من المناخ . وهذه الصلة بين النبات والتربة قوية الدلالة لدرجة أن فرعا خاصا من علم النبات هو ايكولوجيا النبات قد إنفرد بدراستها .

ولا ترتبط أنواع الحيوان بالتربة على النحو المشاهد فى النبات .
ولكنها مع ذلك لا تقل اعتمادا على البيئة أو تجاوبا معها . ويستطيع الآدميون عادة أن ينتقلوا من بيئة لأخرى ، وكذلك أن يغيروا من أحوال بيئة معينة لكى تلائم أغراضهم . واذن فهم ليسوا من هذه الناحية أكثر اعتمادا على بيئتهم من الحيوان . وليست البيئة فى الاصطلاح مجرد العالم الخارجى ، أو شيئا نظنه محيطا بنا وملتفا حولنا . ولو أننا نظرنا للبيئة على هذا النحو لقللنا من شأنها ومن أهمية الدور الذى تلعبه فى حياتنا . وفى الحق أن هذه الصلة القائمة بين حياتنا وبين البيئة صلة وثيقة الى حد كبير . ولعلنا نذكر أن الكائن العضوى نفسه ، أو تركيبه الحيوى ، ان هو الا نتيجة لحياة ماضية وبيئة ماضية . ان البيئة موجودة منذ النشأة الأولى للحياة ، حتى فى الخلايا البيولوجية الأولية . اننا نفكر فى تركيبنا العضوى كما لو كان المقصود به نفسنا ، ونفكر فى البيئة كما لو كانت قائمة خارجا عنا . الا أن قدرات التركيب العضوى وصفاته متصلة بالبيئة العامة التى تكتنفها . والبيئة شىء أكثر من عامل من عوامل تشكيل الحياة التى يمكن تصورها منفردة عنه . وليتخيل القارىء مثلا أننا نقلنا فجأة الى كوكب أكبر حجما من كوكبنا . فان أجسامنا يزداد وزنها فى الحال . وهذه الواقعة وحدها سيترتب عليها تغيرات أخرى كثيرة لا حصر لها فى حياتنا ، وأول ما سينتابنا أننا سوف لا نعرف أنفسنا ، بمعنى أننا سنكون أغرابا فى نظرنا . واذا افترضنا أننا سنستطيع الحياة فى هذا الكوكب الجديد فمما لا شك فيه أننا سنمارس الحياة كأشخاص آخرين . ولن يكون فى وسعنا ادراك معنى الحياة الا فى بيئة ملائمة تسمح بذلك ، أو بعبارة أخرى فى بيئة معدة للحياة : وعلى ذلك فالحياة والبيئة فى الحقيقة أمران متلازمان .

وتتداخل الحياة والبيئة بعضها فى بعض بدرجة قوية حتى ان لكل

حياة ، أو لكل نوع معين من الأحياء ، أو فرد حي ، البيئة التي تلائمه ، والتي تختلف عما يلائم غيره من بيئات . ومن المحقق أن البيئة ليست شيئا فردا ولكنها عدة أشياء لا نهاية لها . ومن الأدلة على هذه الحقيقة أن بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك معروضات تمثل أكثر من ألف نوع من الحشرات جمعت من فناء واحد في احدى الضواحي . أي ان هذا المكان المحدود والمحصور قد وجد فيه أكثر من ألف نوع من البيئة تلائم حياة الحشرات وحدها . ومن الأمثلة العجيبة على تنوع البيئة هذا التمييز الذي نراه بين قملة الرأس وقملة الجسم ، وكل منهما لا يمكن أن تعيش في البيئة التي تلائم الأخرى . واذن فالبيئة تتخصص كما تتخصص الحياة التي تقوم في كنفها .

وفوق ذلك فان كل تغير يطرأ على أي كائن حي من شأنه أن يحدث تغييرا في صلته بالبيئة . وكل تغير يصيب البيئة يستتبع تغيرا في استجابة الكائن الحي لها . ان بيئتنا هي المكان الذي تتخذ منه موطنا ومعاشا بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى . واذا نظرنا اليها من حيث شمولها وصلتها بأية زمرة اجتماعية (وفي النهاية من حيث صلتها بأي فرد) فهي عامل من عوامل الحياة شديد التعقيد . ان كل اختلاف في البيئة يعني اختلافا في عادتنا الفردية وفي أسلوب حياتنا . ومن ناحية أخرى فان عاداتنا وأساليب حياتنا تخلق لنا كلما اختلفت بيئة جديدة يتنوع فيها الاختيار كما تهيئنا بطريقة أخرى للحياة في هذه البيئة الجديدة . ومن خلال عمليتي الاختيار والتوافق الدائبين يتحقق باستمرار هذا التوازن المتحرك اللازم للحياة .

البيئة والحياة والمجتمع الانساني : ان خير ما يوضح تقابل الحياة والبيئة هو الزمر الاجتماعية . وكما يختلف كل أقليم عن الأقاليم الأخرى في كل بلد من بعض النواحي ، كذلك يختلف سكان كل أقليم فيما بينهم .

فالفرد من سكان أوزاركس أو جبال كنتوكى يفكر ويشعر بطريقة تختلف عن تلك التى يفكر أو يشعر بها النيويوركى وما يقال عن هذين ينطبق علـى كل من المواطن من نيوانجلاند وأحـد ساكنى أقليم المروج (فى الولايات المتحدة) . والفرق بين الاثنين فى كل من الحالتين يرجع بكيفية ما الى البيئة التى يعيش فيها كل من الشخصين (وان كان مدلول العلاقة بالبيئة كما سنرى ينطوى على صعوبات كبيرة) . وتؤكد المشاهدة العامة أن الناس يختلفون فى القرية عنهم فى المدينة . وفى حالة احترافهم الزراعة عنهم فى حالة احترافهم الصناعة ، وفيما اذا سكنوا الجبال عما اذا سكنوا السهول ، وفى المناخ الحار عنهم فى المناخ المعتدل . وهم يهيئون أنفسهم للأحوال الجديدة بأن يخضعوا لعملية تغير اطرادية كلما تغيرت بيئتهم . ومن الواضح أن الأثرياء يعيشون فى بيئة تختلف عن بيئة الفقراء . وان بيئة الطوائف الملونة فى المدن الأمريكية تختلف عن ذوى اللون الأبيض . وبيئة أصحاب المهن الكبيرة شىء غير بيئة الصناع . وهذا القول ينطبق على جميع الوحدات الإجتماعية مهما كان حجمها . خذ مثلا أهم الجماعات الكبيرة كالأمة أو منطقة حضارية برمتها ، تر أن خصائصها متصلة اتصالا حقيقيا بالبيئة الشاملة التى نمت فيها . أو خذ أصغر زمرة اجتماعية وهى الأسرة الصغيرة ، وستجد فيها هذا التقابل بين الحياة والبيئة واضحا لكل ذى عينين .

ومن أهم الاكتشافات التى توصلت اليها العلوم الاجتماعية طريقة تشكيل البيئة لحياة الجماعة واكسابها طابعها الذى تتميز به ، وكذلك تأثر البيئة بالجماعة . وقد لاحظ الناس منذ العصور القديمة على التحقيق بعض وجوه التقابل العامة بين الأحوال الطبيعية (البيئية) بأوسع معانيها وبين أساليب الحياة . مثل الفروق فى خصائص سكان المناطق الحـارة وسكان المناطق المعتدلة والباردة . وان المشتغلين بصناعة البحر مختلفون عن سكان اليابسة . ولكن هذه المشاهدات قد نقحت فى السنوات الأخيرة بالتدريج وتوسع فيها حتى وصلت الى وضعها الحاضر المتناسق . وقد

أسهم علم الاجتماع الفرنسى بنصيب وفير فى نمو هذه الدراسات منذ أيام منتسكيو حتى وقتنـا الحاضر بارشـاد باحثين من أمثال لوبليى وديمولان وبرونز [1] .

وقد كانت ولا تزال العلاقة بين البيئة الطبيعية والظواهر الاجتماعية مثار الاهتمام الخاص عند فريقين من علماء الاجتمـاع الأمريكيين فى السنين الأخيرة . فقد نشأت أولا « مدرسة ايكولوجية » شجـع على ظهورها تلك الأبحـاث التى قام بها كل من المغفـور له ز . أ . بارك ، ا . و . بيرجس فى جامعة شيكاجو . وأنا لنرى الايكولوجيا الانسانية أو الاجتماعية معنية بصفة خاصة بالظواهر الاجتماعية والثقافية المتعلقـة بمناطق التجمعات الحضرية المختلفة ، مستفيدة فى ذلك العمل من وجوه شبه نافعة فى دراسة ايكولوجيا النبات والحيوان . وعلى ذلك فالظواهر التى تتراوح بين أنماط النظام العـائلى وبين الاصابة بالأمراض العقلية وأنواعها تعتبر وسائل لازاحة الستار عن عملية اطرادية القصد منها تهيئة حياة الزمرة الاجتماعية ومحاولة جعلها منسجمة مع الظروف الحاضرة المتمثلة فى الدائرة المكانية . واذ يهتم الايكولوجيون بالآثار الاجتماعية للدائرة المحلية نجدهم قد توسعوا فى دراسة العملية الاطرادية كما تبدو فى صورة تنافس وتعاون ، ومركزية ولا مركزية ، وتخصص وانقسـام بين مجموعات الأفراد ، وغزو من الخارج وتوارث للسلطة أو الملكية ،

---

(١) أشار Frederic Le Pla فى بحثه الهام عن العمال الاوربيين وعنوانه : Les ouvriers Européens (Paris,1855) إلى نظريته القائلة بأن الدائرة المكانية locality تحدد العمل work وبهذا يكون لها تأثير كبير فى النظام الاقتصادى للاسرة والنظم الاجتماعية السائدة بين الناس . وقد واصل ديمولان عمل لوبليى ، ونشر فى مجلة La Science Sociale عدة بحوث الغرض منها اظهار الخصائص الاجتماعية لبعض أقاليم فرنسا . أنظر بشأن ج برونز الفصل الخامس فيها بعد .

مما يميز التركيب الاجتماعي في المجتمعات الريفية والحضرية على السواء، وتضيف اكتشافاتهم الى معرفتنا بالنواحي « المكانية » للحياة الاجتماعية [1] .

وقد عادت الايكولوجيا الانسانية تركز نفس اهتمامها في السنوات الأخيرة حول موضوعاتها القديمة ، وإن تم ذلك بطريقة مغايرة على أيدي أعضاء « المدرسة الاقليمية » المعروفة بين علماء الاجتماع الأمريكيين . والذي فعله الاقليميون بزعامة هوورد و . أودم وزملائه في جامعة نورث كارولينا ، أنهم جددوا بعبارات مستحدثة ما نادى به لوبليي منذ قرن مضى ، بالسعي للبحث عن التفاعل القائم بين البيئة الطبيعية للانسان وحياته الاجتماعية ، فمثلا تنقسم الولايات المتحدة حاليا الى عدة أقاليم « طبيعية » كل منها له أحواله الجغرافية والاجتماعية التي تتكامل فيما بينها كما يرى البعض بحيث ينشأ عنها أسلوب متزن للحياة . وهذا التقسيم الاقليمي اذ يعمل على تحقيق التوازن والتكامل بين الظروف البيئية والاجتماعية لتنمية حياة الجماعة نفسها ، وتهتم هذه الخطة اهتماما

---

(١) أوضح الطريقة الايكولوجية من خيرة ممثليها ، هم :

R. E. Park, E.W. Burgess, and R.D. McKenzie in *The City* (Chicago, 1925).

For sympathetic surveys of the ecological school, see J.A. Quinn, "The Development of Human Ecology in Sociology", *Contemporary Social Theory* (H.E. Barnes and H. Becker, eds., New York, 1940), pp. 212-244, and E.C. Llewellyn and A. Hawthorn, "Human Ecology", *Twentieth Sociology* (G. Gurvitch and W.E. Moore, Eds., New York, 1945), pp. 466-499; and for a critique of its theoretical aspects, M.A. Alihan, *Social Ecology: A Critical Analysis* (New York, 1938).

ومن أدق الدراسات الايكولوجية في بريطانيا :

E.E. Evans-Prichard, *The Nuer : A Description of the Moder of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People* (Oxford, 1940).

خاصا مع ذلك بابراز التفاعل الحادث بين مظاهر نشاط الانسان والظروف المحيطة به[1] .

وسنتناول فى فصل تال أهم اكتشافات الايكولوجيا الاجتماعية والنظرية الاقليمية [2] . هذه الدراسات وسواها تعمل معا لتظهر لنا أمرين : الأول مدى تعقد البيئة ، والثانى كيفية تغلغلها تغلغلا تاما فى حياة الزمرة الاجتماعية . وأكثر من ذلك فان هذه الدراسات تثير تساؤلا أعمق مما ذكر . ويتصل بمعرفة مدى امكان تفسير الفروق القائمة بين الآدميين أو بين الزمر الاجتماعية على أساس الفروق البيئية . أما الاجابة على هذا التساؤل — وهى كما نرى تتضمن العلاقة بين ذلك العامل الحيوى الذى نسميه الوراثة وبين البيئة نفسها — فتعتبر أساسية لفهمنا طبيعة المجتمع الحقيقية والتغيرات الدائمة التى تطرأ عليه . وسنحاول أن نوضح بعض النقط الأولية قبل أن نشرع فى الاجابة المطلوبة .

ثلاثة اتجاهات للتكيف مع البيئة : كثيرا ما نسمع أو نقرأ التعبير الآتى : « الانسان يتكيف مع بيئته » مستخدما بطريقة تشعر بأن المقصود بذلك شكل أساسى واحد أو طريقة واحدة للتكيف . ويؤدى هذا المعنى فى الغالب الى شيء من الخلط ، وعلى الأخص فى دراسة الحياة الاجتماعية. وعلى ذلك سنراعى كما فعلنا فى الاصطلاح « الفردية » أن هذا الاصطلاح الذى نحن بصدده وهو « التكيف » يمكن استخدامه بمعنى طبيعى أو بيولوجى أو اجتماعى .

---

(١) يمكن للقارىء لكى يلم بالتفصيل بالطريقة الاقليمية أن يطلع على:
H.W. Odum and H.E. Moore, *American Regionalism* (New York, (1938)
ولتطبيق هذه الطريقة على هيئة فديرالية (لا وجود لها الآن) انظر :
National Resources Committee, *Regional Factors in National Planning and Development* (Washington, D.C. 1935).

وللاطلاع على تأييد قوى للتخطيط الاقليمى أنظر :
L. Mumford, *The Culture of Cities* (New York, 1938), Chaps. V and VI.

(٢) أنظر الفصل الثمن فيما بعد .

١ ـ التكيف الطبيعي : يحدث التكيف الطبيعي البحت سواء أردناه أم لم نرده : انه مستقل عن مسعانا وعن غايتنا . وان الشمس لتصبغ جلدنا اذا عرضنا أجسامنا لأشعتها . وينجم عن ذلك تكيف طبيعي فى أحد أشكاله واما أن يجعلنا قادرين على أو عاجزين عن المعيشة فى البلاد المشمسة . وان الهواء النقى لينشط رئتينا والغاز السام ليفتك بهما . ومن الوجهة الطبيعية كل من الهواء النقى والغاز السام يحدث تكيفا فى جسم الانسان . وما القوة والضعف ، أو الصحة والمرض ، الا تعبيرات للدلالة عما نعنيه بقولنا « القانون الطبيعى » . وهذه جميعا مطالب تفرضها الطبيعة علينا حيثما وجدنا حتى ان الموت نفسه لا يعدو أن يكون مظهرا أخيرا للتكيف الطبيعي . ومهما كانت الظروف المحيطة بالانسان ، صحراء قاحلة ، أو مدينة آهلة ، فقر أو رخاء ، مواتية أو غير مواتية ، طيبة أو سيئة ، فان هذا التكيف الطبيعى الذى يحدث بلا قيد أو شرط يبقى دائما كقوة قاهرة .

وتوحى الأمثلة التى ضربناها أن الانسان مهتم أشد الاهتمام بعدة مشاكل مرتبطة بالتكيف الطبيعى كالموت والصحة والتغيرات الجثمانية التى أدت اليها حالة التغذية والحياة الاجتماعية . الا أن هذا الاهتمام وما يصاحبه من جهود يبذلها الانسان لاطالة حياته وتحسين صحته وقد تنجح فى بعض الأحيان ، لا ينبغى أن نخلطها بعملية التكيف الطبيعى المطرد فى ذاته . ان التكيف الطبيعى البحت مقدم أبدا ولا يمكن أن يكون « سوء توافق » .

٢ ـ التكيف البيولوجي : اننا نقصد بالتكيف بالمعنى البيولوجى أن شكلا خاصا من أشكال الحياة مهيأ بحيث يعيش أو يزدهر فى ظروف بيئية معينة . ونحن نقول ان السمك متكيف مع البيئة البحرية ، والنمور متكيفة مع أحوال العيش فى الغابة . وبهذا المعنى نتحدث أيضا عن سوء التكيف أو سوء التوافق . فاذا قلنا مثلا ان النمر سيء التكيف مع ظروف

الحياة فى الصحراء أو فوق الجليد القطبى ، فاننا نعنى أن الظروف هناك ليست بحيث تسمح للكائن الحى بأن يؤدى وظائفه كاملة ، وان التكيف الطبيعى الذى لا مفر منه فى واقع الأمر ضار بالمطالب البيولوجية . واذا أردنا أن نحصل على توازن معين يساعد على بقاء الكائن العضوى أو حسن أدائه لوظائفه ، وجب أن نشترط فى البيئة شروطا معينة . وهذا الاشتراط الذى نعنيه الزام موجه ، كما هو معلوم ، الى الكائن العضوى .

٣ ـ **التكيف الاجتماعى** : يكشف مفهوم التكيف الاجتماعى عن امتداد للتكيف البيولوجى . غير أن الأول يمتاز بأنه يرمز على الدوام الى مستوى معيارى معين — وبعبارة أخرى أنه تكيف مشروط . وكثيرون من السوسيولوجيين يتحدثون عن العملية الاطرادية المتعلقة بالتكيف والسعى لاستكمال الحاجات ، وان كان الاصطلاح الأخير يستخدم أحيانا للاشارة بصفة خاصة لتكيف الانسان مع ظروف معينة أكثر مما يقصد به تكيف هذه الظروف مع الانسان [1] . ولكن اذا كنا نريد أن نعيش على الطريقة التى نودها لأنفسنا ، فينبغى أن نختار بين أمرين : اما البحث عن البيئة التى تلائمنا ، واما خلق هذه البيئة . ولا يستطيع الانسان أن يفعل أكثر مما يفعل أى كائن حى بالنسبة لذكائه ؛ انه يختار بيئته ويعدل فيها بحيث يؤدى التكيف الذى لا محيص عنه لسد أقصى ما يمكن من حاجاته . وبهذا المعنى الاجتماعى ينطوى التكيف حتما على تقويم لقيم معينة ، بينما نجد أن التكيف الطبيعى البحت لا يتضمن فكرة السعادة أو القيمة المفيدة أو الأفضلية .

وعلى ذلك فحينما نتحدث عن سوء التوافق أو سوء الانسجام لا

---

(١) أنظر مثلا :

R.W. Burgess, "Accommodation", *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), I, 403-404.

لا نقصد أن القانون العام للتكيف الطبيعي قد انهار . وانما نعني أن التكيف الاجتماعي الحاصل بالفعل ينطوي على سد ناقص لحاجتنا ومثلنا العليا التي كان يمكن أن تكتمل لو أن تغييرا شمل البيئة في اتجاه معين . وليس بمستغرب على كل حال أن نجد الانسان — بسبب طبيعته الاجتماعية الطامحة ورغباته المتعددة — ينظر الى أي توازن بين حياته وبيئته نظرة غير القانع الذي يرى في هذا التوازن درجة ما من « سوء التوافق » . ان رغباتنا هي التي تدعونا دائما لنقد عملية توافقنا مع البيئة مع أن هذا التوافق يعتبر تاما اذا نظرنا اليه كظاهرة طبيعية أو فيزيقية فحسب . ان الذي ننقده في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون البيئة التي تتكيف حياتنا معها . أو أنفسنا اذا ما عجزنا عن السيطرة على هذه البيئة وتغيير ظروف التوازن .

وبالضرورة يدرس السوسيولوجي العملية الإطرادية للتكيف الاجتماعي ، وتتضمن هذه العملية محاولات الانسان المتصلة لضبط هذا التكيف بحيث يتفق مع ظروف حياته المتغيرة ، كما تندرج تحتها تقديراته لمحاولاته وظروفه هذه . وهو بعكس العالم الطبيعي — كالبيولوجي مثلا — يواجه مهمة تحليل بيئة معقدة تكون آماله وحاجاته وآراؤه النقدية عنصرا حيويا فيها .

البيئة الخارجية والداخلية للانسان الاجتماعي : يخلق الانسان عادة نوعا خاصا من البيئة وذلك خلال جهوده المتواصلة لتعديل ظروفه المعيشية . ولهذه البيئة التي صنعها الانسان مظهران : الأول خارجي ، والثاني داخلي .

١ — **البيئة الخارجية :** وهذه تشتمل على التعديلات الفيزيقية للطبيعة وتدخل في ذلك المساكن والمدائن ووسائل النقل والمواصلات ، وأساليب الراحة واليسر ، وأدوات الحضارة وآلاتها . وتضم هذه البيئة فيما يذهب بعض الأنثروبولوجيين ، كل ما يسمى « ثقافتنا المادية » ولا

شك أن هذا التركيب الفيزيقى الآلى ، أو على الأقل جزء منه ، قادر على البقاء زمنا ما اذا هلك المجتمع نفســه . ودليل ذلك الآثار المتخلفــة عن الحضارات القديمة ، كالحضارتين المصرية أو الانديزية . على أن هذا ليس صحيحا بالنسبة للمظهر الثانى المتعلق بالبيئة الاجتماعية .

٢ - **البيئة الداخليــة** : وهذه هى المجتمع نفسه ، ولا تبقى الا مابقى المجتمع [١] . وهى تشتمل على التنظيمات والقواعد والتقاليد والنظم السائدة وكل ما هو محظور أو مسموح به فى الحياة الاجتماعية . أو بعبارة أخرى كل ما نسميه فى جملته التراث الاجتماعى . وبالنسبة لكل فرد من أفراد المجتمع يقف هذا النسق الكبير على قدم المساواة مع مظاهر الحياة المادية والخارجية كجزء من البيئة . فيما عدا أن توافق الانسان معه لا يتم بنفس القوة ، نظرا لأنه ليس مفروضا بقانون طبيعى [٢] . ومع كل ذلك فالانسان لا يستطيع أن يفلت من تأثيره لأنه أعد للحياة فى داخله وألف هذا التأثير . ولن يكون فى وسعه أن يحقق رغبة من رغباته الا اذا أقام له ما يستحقه من الاعتبار .

واذن فالبيئة الشاملة تتضمن[٢] : - ١ - بيئــة خارجية يعدلها الإنسان بطرق مختلفة ، وهذا التعديل يتم على نطاق واسع فى مراكز الحضــارة الحديثــة ، ولكنها ما زالت تحتــاج فى جميع الظروف الى تكيف عام أو فيزيقى . و - ٢ - بيئة داخليــة أو اجتماعية يتكيف معها الانســان بالاستجابة الواعية والتعود وسنرى أن التمييز بين هذين المظهرين للبيئة الشاملة جوهرى فى تحليلنا للحقيقة الاجتماعية الواقعة . ولكن ينبغى أن

---

(١) Cf. E. Rignano, "Sociology, Its Methods and Laws", *American Journal of Sociology*, XXXIV (1928), 429-450.

(٢) يستخدم المؤلفان « القانون الطبيعى » فى كل ما يتصل بالمادة وهذا الاتجاه يخالف ما يذهب اليــه كثيرون من أمثال كيتليه ورادكليف براون الذين يرون المجتمع نفسه جزءا من الطبيعة وأن ظواهره على هــذا الأساس تخضع لقوانين طبيعية .

- المترجم

لذكر أيضا أنهما يتفاعلان بعضهما مع بعض .وذلك يرجع الى أن الانسان يعمل باستمرار على تغيير كل من البيئة الخارجية والبيئة الداخلية ، أو عالمه الفيزيقى وعالمه الطبيعى ، لمجرد رغبته فى اشباع حاجاته التى لا سبيل الى اشباعهـا .

الحضارة والتكيف : المشاهد أنه قد تمت أثناء المراحل الحديثة للتاريخ الانسانى تعديلات جمة أجراها الانسان على نطاق واسع فى البيئة الخارجية والداخلية ، وتتميز بصفة خاصة بأنهـا تمت بسرعة . والمقول أن هـذه التغييرات الواسعة فى البيئة قد زادت من بعض حاجات الانسان على حساب البعض الآخر . وجعلت الطبيعة الانسانية غريبة فى عالم الحضارة الذى صنعته لنفسها . ومن هذا النقد ما ذهب اليه جراهام والاس من أن البيئة الحديثة تحد من بعض « طبائعنا أو أمزجتنا الغريزية » . وعلى حد قوله : « يولد المرء وفى تكوينه مجموعة من الاستعدادات تتصل بطريقة تدعو الى الاشمئزاز ولكن معقولة فى نفس الوقت ، بعـالم الغـابات والكهوف فى المناطق الاستوائية والأراضى المتاخمة لها ، تلك المنـاطق التى سكنها أسلافه ملايين السنين ولم يتطوروا أثناءها الا ببطء شديد » . ويذهب هذا المفكر الى أن هذه الاستعدادات كانت تتكيف خلال العصور لتستجيب الى عوامل البيئة التى عاشت فيها . وبمجرد افلاتها (بعـد التطور الطويل) من ظروف بيئتها وجدت حياتها صعبـة واضطرت أن تتخبط [1] .ووفقا لهذا الرأى يتكيف الانسان تكيفا بيولوجيا مع الحقول والغابات لا مع الحياة التى تفرضها المدنية أو المصنع أو المكتب . والقول بأن التكنولوجيا الحديثة والحياة الاجتماعية تعطل بالضرورة الاستعدادات المتوارثة قد عم ترديده فى السنوات الأخيرة . ويجمل بنا أن نبحث هذه المسألة بايجاز .

ونستهل الكلام بقولنا انه ليس لدينا دليـل على أن الأفـراد فى المجتمعات البدائية أكثر أو أقل منا قناعة بنصيبهم من الحياة ، أو أكثر

(١) Graham Wallas, The Great Society (London, 1920), Chap. IX.

منا تكيفا لظروف حيـاتهم ، على ما نعـرف من أساليبهم التكنولوجية ونظمهم من الاجتماعية البسـيطة نسبيا . وقد بددت الانثروبولوجيـا الحديثة الخرافة القائلة بسعادة المتوحشين وقناعتهم . ومما لاريب فيه كذلك أننا اذ نعدل بيئتنا لكى تزيد اشباع بعض رغباتنا ، قد نجعلهـا بذلك أقل استعدادا لارضاء الآخرين . وهناك على التحقيق كثير من أسباب سوء التوافق خلقتها ظروف الحياة الحديثة ، فى البيئة الجديدة المعقدة التى صنعها الانسان لنفسه . غير أن هذه الأسباب يمكن تفسيرها فيما نعتقد بالعادات المتوارثة .

واذا كان الانسان قد عاش فى الكهوف عصورا طويلة فاننا لا نلمس منه رغبة ملحة فى الرجوع ثانية لهذا الأسلوب من أساليب الحياة . بل بالعكس ان ما يفتقر اليه أكثر مما عداه فى كثير من بيئات المدن الحديثة انما هو نصيب أوفى من الحاجات العامة لصحة الجسم ، كالهواء النقى وضوء الشمس وحرية الحركة . وبالنسبة للملايين من سكان المدن تعتبر أحوال المسكن والعمل واللعب مقيدة لنشاط الجسم والعقل وغير صحية . وفوق ذلك فان لهذه الأحوال نتائج كثيرة وأمورا مثيرة للنفس تؤدى الى ارهاق الأعصاب . وفيما يتعلق بصفة خاصة بأولئك الذين نشأوا فى القرية ينتهى الانتقال الى الحياة فى المدينة كأى انتقال آخر من البيئة التى ألفها الشخص ، الى نوع من الاحساس بالحرمان مصحوبة بالشعور بالحنين الى الموطن الأصلى . ولما كان نمو المدن السريع قائما على وجود نسبة كبيرة من السكان بها أصلهم من الذين نشأوا بالقرية ونزحوا منها ، فان هذا الضيق النفسى الذى أشرنا اليه لابد أن يكون ظاهرة عامة للحياة فى المـدن .

وحينما تتعرض البيئة لتعديل سريع من طريق التقدم التكنولوجى تظهر فيها علامات مختلفة لسوء التوافق . فيوجد مثلا ، كما ذكرنا قبل الآن ، اضطراب شخصى يصيب الأفراد ينتج عن تغير أحوالهم المفاجىء

بعد أن كانوا قد ألفوا أحوالا أخرى قبلها . وهناك أيضا — كما أوضح أوجبرن — هذا « التخلف » العام بين الأحوال الاجتماعية الملائمة للنظام الآلى الحديث والأحوال الاجتماعية الموروثة عن النظم القديمة(١). وكذلك نجد فى كل نظام اجتماعى معقد متناقضات كثيرة فيما بين الآداب العامة العديدة ، وأيضا بين الآداب العامة المستقرة وبين مظاهر السلوك التى فرضتها الأحوال الاجتماعية السريعة التغير . ومن ثم ينبغى أن ندخل فى الاعتبار مثل هذه العوامل عندما نحصى أسباب سوء التوافق وقيود الحركة والعمل والاضطرابات التى يتعرض لها الأفراد : ويجدر بنا فى نهاية هذا القسم أن نلفت النظر الى أن هذه الفكرة الصعبة المتعذر اثبات صحتها ، هى التناقض الشديد بين رغبات الانسان الواعية فى العمل على تعديل بيئته وبين استعداداته العضوية أو « الغريزية » (للرجوع الى ثقافته الأولى التى كانت لأسلافه فى عصر ما قبل التاريخ) (٢) ، لا يحسن الالتجاء اليها الا اذا لم تكن هناك تفسيرات أخرى كافية .

دراسة الوراثة والبيئة

الجدل حول موضوع (الوراثة « ضد » البيئة) : توصل الأفراد فى المجتمعات الانسانية منذ القدم الى أمر أيدته المشاهدة مؤداه أن دم الوالدين يجرى فى عروق أولادهم ، وأن الشبيه ينتج ذرية شبيهة . وعلى ذلك فالاختلاف فى الوراثة قد يفسر تفسيرا صحيحا الاختلاف فى خصائص أو صفات الأفراد أو الزمر (مجموعات الأفراد الذين تجمعهم

---

(١) W.F. Ogburn, *Social Change* (New York, 1922), Part II, Chap. VIII and Part IV, Chap. I.

ولاستخدام مفهوم « التخلف » لاوجبرن على نطاق واسع أنظر :

H.E. Barnes, *Society in Transition* (New York, 1939), especially Chaps. IV and XXI.

وأنظر فيما بعد Chap. XXVI بحثنا فى قيمة هذا المفهوم .

(٢) ما بين القوسين اضافة منى — **المترجم**

عوامل مشتركة) [1] حتى اذا كانوا فى بيئــات مختلفة كل الاختلاف .
ويميل بالطبع بعض البيولوجيين لهذا التفسير ، يؤيدهم فى ذلك عــدد
من علماء النفس وقليل من علمــاء الاجتماع ، على حين نجد الباحثين فى
البيئة يؤيدون بوجه عام تأثيرها فى خصائص الأفراد وصفاتهم . وقد
ترتب على ذلك أن احتدم الجدل وما زال محتدما حتى اليوم حول أهمية
كل من الوراثة والبيئة . فذهب البعض فى تفسير تنوع الناس والمجتمعات
الى أن الوراثة هى العامل الأول المحدد لهذا التنوع ، بينما قلل آخرون
من شأن الوراثة باسم البيئة . وجادل فريق من العلماء قائــلا ان بعض
الصفات كالصحة والذكاء تعتمد أساسا على الوراثة ، بينما سلموا بأن
الصفات الأخرى — وعلى الأخص الصفات الاجتماعيــة كما تبدو فى
مقاييس السلوك والعــادات الجمعية والمعتقدات — تعتمــد اعتمادا
مباشرا على البيئة .

١ ـ **الدراسات القديمــة للمشــكلة :** أثار فرنسيس جالتون هذا
الموضوع بصراحة فى كتابه الأول من نوعه ، وعنوانه « العبقرية الوراثية»
وقد حاول أن يظهر فيه أنه بينما يبدو أن ظهور العبقرية خاضع للحظ فان
هناك احتمالا كبيرا فى أن يكون الأطفال الموهوبون أبناء لآباء ، هم أنفسهم
ذوو درجة عالية من الذكاء . وقد أتم عمل جالتون باحث آخر هو كارل
بيرسون ، الذى طبق طريقة التضايف (أو الترابط بين الظواهر) على المشكلة
واستخلص أن تأثير البيئة أقل بكثير من تأثير الوراثة فى تحديد الفروق
الانسانية الهامة . وذهب بيرسون الى أنه حتى قوة تأثير كل عامل على
حدة كان من الممكن قياسها ، كما قدم أدلة تحمل الى الذهن رأيا خلاصته
أنه بالنسبة للأفراد الذين ينتمون الى جنس بشرى واحد داخل مجتمع
ما ، تلعب الوراثة دورا أهم سبع مرات من الدور الذى تلعبه البيئة [2] .

---

(١) ما بين القوسين اضافة منى لزيادة الايضاح . — المترجم

(٢) K. Pearson, *Nature and Nurture* (London, 1910), and other papers in the Eugenics Laboratory Lecture Series.

وقد اقتفى أثر بيرسون باحثون كثيرون آخرون. وبعضهم اشتغل على مجموعات طبقية أو مهنية وأظهروا أن الزمر التى تتميز بأعلى درجات المكانة الاجتماعية أو الحالة العقلية قد أنجبت عددا من الأشخاص العباقرة أو المتازين . وقد وضح هذا الترابط مثلا فى أبحاث ثبت منها أن الأسر المالكة تنتج من العباقرة نسبة أعلى من العباقرة ، وأن أسر رجال الدين فى الولايات المتحدة الأمريكية تنجب أكبر نسبة من الرجال الممتازين ، ويتبعها بالترتيب أصحاب المهن الأخرى ، فرجال الأعمال ، فالمزارعون ، فالعمال ، وأن رجال العلم الأمريكيين يبرزون أكبر عدد منهم من طبقات أصحاب المهن ، كما أن أقلهم يجيئون من طبقة الزراع وهكذا [1] .
واختار غير هؤلاء من الباحثين مجموعات بشرية وقومية وتوصلوا بعد تطبيق الاختبارات السيكولوجية — وعلى الأخص « اختبارات الذكاء » — الى فروق ذات شأن بينها ، كما فى حالة اختبارات الجيش المعروفة الجماعات المهاجرة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبوجه أعم بين أقسام السكان المتضمنة المواليد المحليين والمواليد الأجانب والزنوج[2].
كذلك نرى بعض الباحثين اقتصروا على دراسة بعض الزمر العائلية للمقارنة فيما بينها وزودونا بتلك المقابلة المشهورة بين سلسلة الأخيار

---

(١) F.A.Woods, *Mental and Moral Heredity in Royalty*, (New York, 1906);S.S. Visher, "Study of the Type of the Place of Birth etc. of Fathers of Subjects of Sketches in Who's in America" *American Journal of Sociology*, XXX (1925) 551-557; J. McKeen Cattell, *American Men of Science* (3d ed., New York, 1921), p. 783.

(٢) للاطلاع على مثل هذه الدراسات ومعرفة القيمة العلمية لكل منها انظر :

O. Klineberg, *Race Differences* (New York, 1935), Chaps. I VII and IX.

الممتازين من نسب جوناثان ادواردز ، وبين الذريتين التعستين لآل جيوك وآل كاليكاك [1].

٢ ـ ما تكشف عنه هذه الأبحاث وما لا تظهره : كثيرا ما تستخلص من هذه الأبحاث نتائج لا تدل على أكثر من تحليل سطحي لمشكلة الوراثة والبيئة . ومعظم هذه التحقيقات القديمة قدمت لنا أدلة أكثر دقة بشأن الملاحظة العامة الآتية : وهى أن أولئك الذين ولدوا فى عائلات أو زمر حاصلة على امتياز ما أو مكانة اجتماعية ، من المتوقع أن تبدو عليهم أكثر من غيرهم مظاهر الارتقاء العقلى أو غيرها من الصفات العالية . فمثلا جاء فى بحث أشرنا اليه فيما تقدم أن الفرص التى سنحت لأبناء العمال غير المهرة ليتبوأوا مراكز عالية (استنادا الى البيانات التى احتوتها طبعة ١٩٢٢ — ١٩٢٣ من دليل Who's Who in America) لم تتعد فرصة واحدة فى ٤٨٠٠٠ حالة ، وبالمقارنة بأبناء الزمر المهنية الأخرى ظهر أن من وصلوا لمراكز عالية من هذا المجموع كانوا بالتقريب كما يلى : من العمال المهرة ٣٠ ومن المزارعين ٧٠ ومن رجال العمل والتجارة ٦٠٠ ومن أصحاب المهن الكبيرة عدا رجال الدين ١٠٣٥ ومن رجال الدين ٢٤٠٠ [2].

مثل هذه الوقائع هامة ولا شك . الا أننا حينما تتناولها ينبغى أن نفرق بينها وبين ما نستخلصه منها . انها فى حقيقة الأمر تخبرنا أننا باختبارنا خاصة من خصائص التميز نجد أن بعض الجماعات المهنية فى بلد ما (وفى زمن معين) قد أنجبت أشخاصا ذوى مكانة بنسب مختلفة تتفق مع أعدادها . ولا يلزمنا هنا أن نناقش خاصة التميز المختارة . ولكننا مضطرون لأن نلاحظ أن هذه الأرقام لا تنبئنا مباشرة بأى شىء عن الوراثة أو عن البيئة . وان كانت تفيدنا بعض الشىء عن مظاهر التداخل

(١) A.E. Winship, *Jukes-Edwards* (Harrisburg, P., 1900); H.H. Goddard, *The Kallikak Family* (New York, 1912); R.L. Dugdale, *The Jukes* (New York, 1877); and A.H. Estabrook, *The Jukes in* 1915, (Washington, D.C. 1916).

(٢) Visher, op. cit.

العديدة بينهما . وكثيرون من الباحثين الذين جمعوا هذه الوقائع يستنتجون منها أن الوراثة عامل أقوى أثرا من البيئة . رغم أن هذه الوقائع نفسها يمكن أيضا أن تستخدم — وأن تستخدم بطريقة مشروعة لتأييد النتيجة العكسية . فقد لاحظنا أن كل زمرة معينة من هذه الزمر لها بيئتها الخاصة . ولقد قيل ان أوجه الشبه القائمة بين أعضاء الأسر المالكة يجب أن ترجع بسبب الأوساط المختلفة التى انحدر منها أسلافهم ، الى الخلايا الجرثومية الفسيولوجية وحدها [1] (غير أنهم كانوا جميعا أعضاء فى البلاط الملكى !) . ومما تردد ذكره أيضا أن الزنجى يفتقر الى بلازما جرثومية ممتازة من النوع الذى يملكه الجنس الأبيض بعد أن لوحظ ما حصل عليه الزنجى من درجة واطئة فى اختبارات الذكاء [2] . كذلك كثيرا ما نسمع أن الأعمال التى تصدر عن أفراد الطبقات العليا الاجتماعية والاقتصادية تعتبر فى ذاتها علامة مميزة لما يتركز فى هذه الزمر من وراثة أفضل . وليس بخاف ما نقوله فى لغتنا اليومية الدارجة « العرق شديد ، أو العظمة جامدة » . ولا يؤدى تقرير مثل هذه النتائج الى استبعاد تأثير الأحوال البيئية فحسب ، ولكنه كما سنرى يغفل أو يطمس التفاعل المستمر بين البيئة والحياة .

٣ — **كلمة تحذير تمهيدية :** كثير من هذه التحقيقات العلمية التى نحن بصددها هنا اهتمت بأعمال الناس أو سلوكهم وقاست هذه الأعمال بالرجوع الى هذه الصفة المميزة أو تلك ، كما تبدو فى الزمر الطبقية أو المهنية المختلفة . ونحن نعلم أن أطفال الطبقات « العليا » بوجه عام تقوم بمقدار كبير من العمل يفوق ما تقوم به أطفال الطبقات « الدنيا » ويجب ألا نفترض ، كما يفعل بعض الكتاب ، أن توزيع الزمر المهنية يمثل التشكيل الذى لا معدى عنه للسكان الى مستويات من المقدرة «الطبيعية»

---

(١) Woods, op. cit.

(٢) P. Popens and R.H. Johnson, Applied Eugenics (New York, 1926), Chap. XIV.

لأن هـذا الافتراض يتجاهل بعض الجوانب الحاسمة للمشكلة التى نعالجها . وهو يغفل أن التوزيع المهنى للناس ظاهرة اجتماعية معقدة، ليست محددة أو مقيسة بالعامل البيولوجي أو أى عامل آخر أوحد ، وسنعود الى هذه النقطة فيما بعد فى هذا الكتاب [1] . وفوق ذلك فانه يسلط الى حد كبير دور التحرك العمودى [2] . ، أو التحرك الى فوق أو تحت فى الطبقات المهنية —وهو عملية يختص بها مجتمعنا الحاضر (فى الولايات المتحدة) وان كانت تتلاشى بالتدريج فى السنوات الأخيرة [3] . ان التحرك الاجتماعى لم يحدث أنه حصل بحرية تامة بحيث يسمح لكل أو ربما معظم الأشخاص ذوى المواهب الموروثة بأن يستكشفوا مستوياتهم المهنية « الطبيعية » والا فما كنا لنجد ، كما يحدث الآن ، أنه فى أى زمن لابد أن نعثر على بعض الأفراد الموهوبين فى أية زمرة مهنية كبيرة مهما كان مركزها الاجتماعى .

---

(١) أنظر الفصل الرابع والعشرين .

(٢) اصطلاح معناه انتقال الفرد من طبقة اجتماعية الى أخرى . ويقابله التحرك الأفقى وهـو انتقال الفرد الى مستوى آخر فى طبقته . والأول كالانتقال من الطبقة الوسطى الى الطبقة العليا أما الثانى فمثل انتقال العامل فى داخل طبقته من عامل غير مدرب الى عامل مدرب أو ماهر أو رئيس عمال . — المترجم

(٣) حاول L. Corey أن يقلل من أهمية التحرك الاجتماعى وفى بعض كتاباته أنكر وجوده فى الولايات المتحدة الأمريكية فى كتابه The Crisis of the Middle Class (New York, 1934), p. 222 and *passim*.

ومع ذلك فوجود هـذه الظاهرة مؤيد بالوثائق بالنسبة لاحدى الجماعات المحلية فى :

P.E. Davidson and H.D. Andreson, *Occupational Mobility in an American Community* (Standford University, 1937); see also the same authors' *Occupational Trends in the United States* (Standford University, 1940), especially Chap. I. The economic aspects of the process are discussed in O. Pancoast, Jr., *Occupational Mobility* (New York, 1941).

وسنتوسع فى مناقشة التحرك الاجتماعى فى الفصل الرابع عشر فيما بعد .

وأخيرا فان الافتراض الذى نقدناه توا يقوم على تصورنا الناقص للعلاقة بين الوراثة والبيئة ، هذه العلاقة التى لابد لنا من تناولها بشىء من التفصيل .

الوراثة « ضد » البيئة : بعض ما فحص من حالات غير مقنعة . يقع الناس فى أخطاء جدية كثيرة بشأن طبيعة الطبقات الاجتماعية والتمييز العنصرى (بين الأجناس البشرية) والوحدات القومية وغير هذه من الموضوعات ذات الأهمية السوسيولوجية الكبيرة ، بسبب الآراء المنحرفة عن العلاقة بين الوراثة والبيئة الاجتماعية . ومن أجل ذلك سنستخدم مجموعة منوعة من « الأدلة » الكثيرة التداول بقصد توضيح الحاجة لتحليل أكثر عناية لهذه المسائل :

١ – الدراسات المقارنة لاختبارات الذكاء بين الزنوج والبيض : وهنا سنتناول أولا الدراسات المعروفة التى كثيرا ما يرجع اليها الكتاب فى موضوع الذكاء المقارن بين الزنوج والبيض فى الولايات المتحدة . وقد جاء فى البعض من أقدم هذه الأبحاث ، استنادا الى وقائع تتعلق باختبارات للذكاء مطبقة على المطلوبين للتجنيد أثناء الحرب العالمية الأولى ، أن متوسط العمر العقلى للزنوج كان ١٠٫٤ سنوات ، يقابله ١٣٫١ سنة للبيض [1] . وقد أظهرت كثير من التحقيقات التالية بشأن نفس المقارنة درجات أعلى مماثلة لذكاء البيض وأقل منها للزنوج [2] ، وان كانت هناك اثنتان منهما على الأقل أجريتا على الترتيب فى لوس

(١) B.W. Yerkes, *Psychological Examining in the U.S. Army, Memoirs, National* Academy of Sciences, XV (1912).

(٢) هذه الدراسات قد أحصيت وحللت مثلا فى كتاب :

Klineberg, op. cit., and in *Intelligence: Its Nature and Nurture,* The Thirty-ninth Yearbook of the National Society, for the Study of Education (Bllloomington, II., 1940), Vol. I, Chap. IX.

انجليس ونيويورك ولم تكشفا مثل هذا التقابل [١] . ومع ذلك فان الاكتشافات المتطابقة بشأن الدرجات الدنيا لذكاء الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية تحتاج الى تفسير . وهناك مسألتان هامتان تثيرهما فى الحال هذه الاكتشافات . (وقد يجوز لنا أن نغفل مشكلة مدى صدق تمثيل عينات السكان التى درست ، بسبب التطابق العام لنتائج كثير من التحقيقات) .

ففى أول الأمر ينبغى أن نتساءل عن مدى ما يمكننا أن نستخلصه بشأن المستوى العام للعقلية للبيض والزنوج ، من نتائج معينة مطبقة على زمر منتقاة ؟ هل هذه الاختبارات صحيحة ؟ اننا نواجه هنا صعوبتين : احداهما تختص بالفرض العلمى الذى نقرر على أساسه أن الاختبارات المتضمنة درجات للسهولة فى أداء عمليات معينة فى ظروف معينة ، تمثل بصدق درجات للذكاء العام أو « العمر العقلى » . ويذهب أحد الخبراء الى أن « اختبارات الذكاء تعتبر الى حد كبير مجرد اختبارات للمعرفة تبين بطريقة نسبية طاقة العمل عند الأطفال المتساوية أعمارهم ، وأن كثيرا من هذه الاختبارات لا تعدو أن تكون بالضرورة أقيسة غير مباشرة لدرجة الاستعداد المدرسى أو القابلية للتعليم » [٢] . فما الذى يمكن أن

---

(١) W.S.Clark, "Los Angeles Negro Children" *Educational Research Bulletin*, "Los Angeles City Schools" (1923); J. Peterson and L.H. Lanier, "Studies in the Comparative Abilities of Whites and Negroes" *Mental Measurement* Monographs, V (1929).

(٢) G.D. Stoddard in Intelligence: Its Nature and Nurture, I, 6.

وهو يقول أيضا « ان ذكاء الزنوج كما ظهر كفاءتهم العامة أمر مسلم به، وأن الأدوات الحاسبة المستخدمة فى الاختبارات العقلية هى من الأشياء التى يألفها الأطفال فى المدارس وقبل أن يدخلوا المدارس مثل الخرز الذى يسلك « يلضم » والمكعبات الخشبية التى تبنى والألغاز وصور الحيوانات والأحاجى والمسائل الحسابية والتعاريف والالقاء من الذاكرة » (الكلمات المطبوعة بالرقعة مميزة بتوجيه من ستودارد) .

— المؤلفان

نستخلصه من نتائج الاختبارات التى تقيس « الاستعداد المدرسى » أو القدرات المشابهة المتعلقة بتلك الصفة العامة (العسيرة التعريف) التى نطلق عليها « ذكاء الأهالى الزنوج » ؟ أما الصعوبة الثانية وهى متصلة بالأولى أشد الاتصال فتختص بالأساس الثقافى لكل من البيض والزنوج . فهل الاختبارات المطبقة على الفريقين غير متحيزة ، بمعنى أنهـا تقيس بالتساوى هذه القدرات التى يتبين الذكاء من خلالها تحت تأثير ظروف المعيشة عند كل منهما ؟ وبالرغم من أن علماء النفس قد قاموا بتحسين كبير فى السـنوات الأخيرة فى مقدار عـدم تحيز — أو موضوعية — اختبارات الذكاء فان قلة منهم تدعى أنه قد أمكن التوصل الى طرق جديدة يمكن بها أن نقيس بالتسـاوى ذكاء الزنوج الذين ينتسبون لمستويات ثقافية الفروق بينها شاسعة ونظرا لأن المستوى الثقافى للزنجى يختلف بوجه عام عنه عند الرجل الأبيض ، فان الصعوبة الناشئة هنـا لابد أن تكون جدية .

ولنفترض مع ذلك أن هذه الصعوبات أمكن التغلب عليها . ففى هذه الحالة يكون علينا أن نواجه مسألتنا الرئيسية الثانية . اننا نزعم الآن أننا قد وجدنا العلامات الدالة على الذكاء عنـد كل من فريقى البيض والزنوج . فهل يكون من حقنا أن نستنتج أن هذه العلامات تكشف فروق الذكاء الوراثية والبشرية عند الفريقين ؟ حتما لا ، لأننا لم نفعل شيئا حتى الآن لاستبعاد عامل تفاوت البيئة . ولا تستطيع مثل هـذه الاختبارات أن تغفل تأثير تفاوت التعليم والخبرة والحياة المنزلية والفرص الاجتماعية . واذا كان الزنجى هو الشخص الأردأ فى هذه الاختبارات أفلا يمكن أن يكون للبيئة دخل فى هذه النتيجة ، تلك البيئة الشاملة التى لا تتضمن نواحى التخلف الاقتصادى والتعليم المدرسى المتأخر أو النادر فحسب ، وانما يدخل فيها كذلك النواحى الأقل كالافتقار الى بواعث النشاط الاجتماعى وكل ما يتهيأ للرجل الأبيض من آمال فسيحة

فى الحياة ؟ وللجواب على هذا السؤال نذكر أن الأطفال الزنوج فى شمالى الولايات المتحدة الأمريكية يصيبون درجات أعلى فى الذكاء مما يبلغ أقرانهم فى الجنوب — وبالضبط حوالى سبع درجات زيادة فى نسبة الذكاء ، فى مدينة نيويورك . وقد قرر بروفسور كلاينبرج أن هذا الفرق لا يرجع الى الهجرات المختارة ، كما خلص بأن أصح اختبار لمعرفة الفرق بين الأجناس البشرية ينبغى أن يتم فى ظروف مثالية من حيث استبعاد التمييز العنصرى والتحقق من تكافؤ الفرص . واذ ذاك تكون اختبارات الذكاء مقاييس لاستجلاء القدرة على العمل المنتج ، لا مجرد وسيلة لمعرفة الفروق البشرية فى القدرة العقلية كما فطرت عليها جبلة البيض أو السود [1] .

ولا شك أن البيئة التى عاش فيها ماضينا والبيئة التى يعيش فيها حاضرنا ، كلتاهما تدفعان حياتنا . هل يا ترى يمكننا أن نقيس تأثير البيئة ومنها ننتقل الى تأثير الموضوع فيما بعد . وكل ما نستطيع أن نؤكده هنا هو أن اختبارات الذكاء لا تسمح لنا بتعرف دور الوراثة . انها مفيدة فقط من حيث اظهار الفروق القائمة فى زمان ومكان معينين للدلالة على القدرة على العمل الانسانى ، كنتيجة لما تقتضيه البيئة والحياة معا .

٢ — **قياس الخصائص الجثمانية** : الظاهر أن بعض الصعوبات التى اعترضتنا فى القسم السابق لا وجود لها هنا . وذلك لأن الخصائص الجثمانية أشياء محسوسة وقياسها أسهل بالتأكيد من قياس الخصائص العقلية . ومن الممكن تمثيل مدى تنوع الخصائص الجثمانية للزمر المنتسبة لجنسيات مختلفة فى رسوم بيانية . وترينا احدى الدراسات المعنية بهذا الموضوع أن ارتفاع قامة جنود الجيش اليابانيين يتراوح من أقل من ٥٦ بوصة الى ٦٩ بوصة والجنود الأمريكيين من حوالى ٦١ بوصة

(1) Klineberg, op. cit., Chap. IX.

الى ٧٥ بوصة تقريبا ، وأن متوسـط طول القامة للفريق الأول ٦٣٫٢٤ بوصة وبالنسبة للفريق الثانى ٦٧٫٥١ [1] . وقد يلزمنا أن نذكر ملاحظة عابرة بشأن هذه الأرقام ، فهى لا تقيس بالدقة متوسط قامة الذكور عند الشعبين ، ولكنها توضيحات مفيدة لما بينهما من فروق . وفيما نرى يكمن الخطر الأول فى هذه المقارنة العددية فى أنهـا تقيس فرقا وراثيـا بين الفريقين . ولذلك لأننا لا نعرف حتى الآن تأثير التعرض المستمر لبيئات مختلفة . ونحن لا يمكننا أن نفترض أن ظروف الحياة ونوع الطعـام والنشأة والمناخ لا دخل لها فى ما وضح من فروق .

وفى الواقع يوجد دليل مقنع على أن الأطفال حينما يتعرضون لأحوال غير ملائمة كأن يعوزهم الغذاء الكافى خلال حرب أو اضطراب اقتصادى شديد ، كما هى الحـال اليوم فى جزء كبير من العـالم [2] ، فان بعض التغـيرات تطرأ على قامتهم ووزنهم . وعكس هـذا يحدث اذا كانت الظروف التى يعيش فيها الأفراد مواتية . فقد أثبت فرانز بواس مثلا أن مواليد المهاجرين الى أمريكا ، وعلى الأخص اليهود واليابانيين لا ينمون فى متوسط طول القامة الى أن يبلغوا بوصتين زيادة على متوسط طول والديهم فحسب بل ان شكل رؤوسهم قد تغير كذلك [3] . ومن الأحكام القاطعة أو الجازمة أن يقال استنادا الى تكاثر هذا النوع من الأدلة ،

---

(١) توجد الرسوم الخاصة بهذه النتائج فى :

R.E. Chaddock, *Principles of Statistics* (New York, 1925), p. 227; see comments in F.H. Hankins, *Racial Basis of Civilization* (New York, 1926), Part II, Chap. II.

(٢) وضع المؤلفان هذا الكتاب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وقيود الطعام كانت لا تزال شديدة فى كل الدول سواء التى خرجت من الحرب منتصرة أو مخذولة . — المترجم

(٣) أنظر F. Boas, "Effect of American Environment on Immigrants and Their Decendants", *Science*, Dec. 11, 1936; and *The Mind of Primitive Man* (Rev. ed., New York, 1938), especially Chap. VII.

ان الوراثة وحدها هى المسئولة عما يظهر من فروق فسيولوجية بين الزمر القومية أو البشرية .

ونحب أن نؤكد للقارىء أننا لا نفتعل الأدلة لتأييد أثر البيئة . فنحن لا ننكر لحظة أن الوراثة تسهم فى تفسير فروق المقاييس الجثمانية بالنسبة للزمر المختلفة ، وانما الذى ننكره أن تكون هذه الفروق مقاييس دقيقة لمدى تأثير الوراثة أو البيئة . خذ مثلا مسألة طول القامة كما يعرضها أحد المشتغلين بالوراثة اذ يقول : « هناك عوامل كثيرة تؤثر فى وراثة صفات القامة منذ اللحظة الأولى لوقوع الحمل وخلال مرحلة البلوغ ، مثل صحة الأم وما يعتريها من اضطرابات فى الغدد ، وعاداتها الغذائية ، والمناخ ، والأحوال المعيشية ، ونوع المهنة — ان وجدت — والرياضة البدنية ، وطرق المشى ، وكيفية النوم ، وجميع هذه الأمور تتدخل فى تحديد بنية الجسم[1] . وما دامت هذه المؤثرات تتكاتف جميعا فلا عجب أن تكون مهمة قياس العوامل المختلفة للوراثة أشد تعقيدا مما يظن كثيرون من المهتمين بالمقاييس الحيوية . ونحن نعلم من طريق دراسات مندل وسواه أن الذرية ترث بعض الشىء الصفات أو الخصائص التى قد تكون متوارية فى الوالدين ولكن ظاهرة فى الجدود والأسلاف البعيدين . وبعبارة أخرى ينبغى أن ننظر الى الوراثة وفى ذهننا عدة أجيال على الأقل ، واذا كنا من جهة أخرى ننظر الى البيئة على أساس تأثيرها فى جيل واحد ليس غير فقد نستخلص استنتاجات مضللة بشأن أهميتها . وهناك ما يدعو الى الاعتقاد أن قامة الشعوب الأوربية بوجه عام قد طالت منذ أيام الفرسان المسلحين . كذلك توجد أدلة على أن طلبة الكليات الأمريكية فى الوقت الحاضر أطول قامة وأثقل وزنا من من زملائهم منذ عشرين أو ثلاثين عاما . وربما كانت قامة الذكور

---

(١) A. Scheinfeld. (*You and Heredity*, (New York, 1939), pp. 81-82
نوصى الطالب بقراءة هذا الكتاب كله اذ أنه من خير الكتب وأكثرها رصانة فى مناقشة موضوع الوراثة .

الأمريكيين من المواليد المحليين أكثر بوصتين عن قامة أمثالهم منذ نصف قرن . فاذا كانت الحال كذلك فمن الواجب ألا نسقط تأثير البيئة على مدى طويل ولا تأثير الوراثة . واذا كان هذا صحيحا بالنسبة للخصائص الجثمانية فان صحته تكون أشد وضوحا بالنسبة للخصائص العقلية والاجتماعية التى تحمل كما سنرى علامات لا شك فيها على الميراث الاجتماعى .

٣ ــ **الفروق القائمة بين الزمر المهنية** : ويتعلق الموضوع التالى بمسألة سبق أن أثرناها ، وهى كيف نفسر الفروق فى القدرة على العمل وفى الذكاء التى يبدو أنها موجودة بين الأفراد المنتمين الى زمر مهنية مختلفة ؟ وقد يعيننا أن نستعرض بحثا أو بحثين حول هذا الموضوع :

الأول بحث يتعلق بالبيئة الاجتماعية التى انحدر منها كبار رجال الأعمال الأمريكيين ، وهذا تحقيق علمى ذكر عنه مؤلفاه أنه « يوحى بقوة أن لتباين الدخل بين الطبقات المهنية العديدة أصولا تتوغل فى الماضى بحيث يمكن ارجاعها الى فروق أساسية فى المواهب منذ المولد ، لا الى عدم تكافؤ الفرص » [1] . وقد استمد الدليل الموصل لهذه النتيجة من قائمة أسئلة اشترك فى الاجابة عليها عدد كبير من ممثلى كبار رجال الأعمال ، اشتملوا على شركاء وأصحاب أعمال ومديرين لديهم من المبيعات أو من الدخل ما يبلغ قيمته ٥٠٠٫٠٠٠ دولار . ومن هؤلاء وجد أن ٣٦ فى المائة كانوا أبناء لرجال أعمال « كبار » ومن المجموع بوجه عام ٥٦٫٧ فى المائة كانوا أبناء « رجال أعمال يتفاوت مركزهم المالى صعودا أو هبوطا » ، بينما كان ١٢٫٤ فى المائة أبناء مزارعين و ٥ فى المائة أبناء كتبة أو بائعين فى المحال التجارية و ٨ فى المائة أبناء عمال مهرة و ٢٫٢ فى المائة أبناء عمال عاديين . وفيما يختص برأس المال أو الاتصالات من حيث

(١) F.W. Taussing and C.S. Joslyn, *American Business Leaders* (New York, 1932)

كونها عوامل بيئية تسهم بقدر كبير فى نجاح الأعمال ، فقد وجه المؤلفان عدة أسئلة تتعلق بارث المال والمعونة المالية من الأهل والأصدقاء وأمثالهم، فقرر ١١٫٦ فى المائة ممن استجابوا لهذا الاستفسار أنهم تلقوا « معونة مالية جدية » من مثل هذه المصادر كما أجاب ٣٦ فى المائة تقريبا بأن « اتصالات ببعض ذوى النفوذ » نفعتهم فى نجاح أعمالهم . وسجل أن ٣٢ فى المائة من المجموع الكلى لرجال الأعمال الذين درسوا كانوا من خريجى الكليات .

وقد استنتج المؤلفان من هذه البيانات أن « الافتقار الى المواهب عند المولد لا الافتقار الى الفرص » هو الذى يفسر التمثيل غير المتناسب للزمر المهنية المختلفة . وبالاشارة الى مناقشتنا السابقة لا يسعنا الا أن ندع للطالب أن يقرر ما اذا كانت الأدلة التى سقناها (حتى اذا كانت

الجدول ١ — الذكاء وطول مدة التربية المدرسية وعلاقتهما بالمستويات المهنية

المستويات المهنية	عدد الحالات	متوسط عدد السنوات المقضية بالمدرسة	متوسط نسبة الذكاء
١ – المهن الكبيرة والأعمال الحرة وإدارة الأعمال ، إلى آخره	١٣٠	١٧٫٣	١١٥
٢ – المهن الصغيرة والأعمال الحرة الصغيرة والمزارعون والبائعون بالمحال التجارية ، إلى آخره	٥٦٥	١٤٫٠	١٠٨
٣ – الوظائف الكتابية والصناعات المحتاجة لتدريب ومهارة ، إلى آخره	٢٢٨	١٢٫٠	١٠٤
٤ – العمال شبه المهرة	١٢	١٠٫٨	٩٩
٥ – العمال غير المهرة	١٠	٩٫٤	٩٧

أدلة ذات جانب واحد) تؤيد « بقوة » النتيجة التى وصلنا اليها . كذلك هل هذه النتيجة تتفق والواقعية التى تؤيدها عرضا الأدلة المسوقة نفسها ، ومؤداها أن « كبار رجال الأعمال فى الولايات المتحدة هى

اليوم (حوالى عام ١٩٣٩) يجندون ، أكثر مما كانت عليه الحال لدرجة كبيرة منذ ثلاثين أو أربعين عاما ، من بين أبناء مديرى الأعمال » ؟ أما بخصوص المسألة الأكبر خطرا والمتعلقة بدور كل من الوراثة والبيئة فهل يمكننا أن نستخلص أية نتيجة صحيحة مهما كانت من مثل هذه الأرقام التى قدمناها ؟

قد يتساءل القارىء قائلا : « حسن جدا ، وما موقفنا بشأن فروق الذكاء بين الزمر المهنية المختلفة ؟ » والحقيقة أن الطبقات المهنية العليا أصابت درجات أعلى فى اختبارات الذكاء كما ثبت فى عدد من الأبحاث التى تتفق نتائجها مع تلك التى ضمها الجدول ١ (١) . وترينا هذه الأبحاث بالطبع أن الأعمال التى تعطى أجرا « أفضل » والتى هى موضع التقدير العالى يقوم بأدائها فى العادة الأفراد « الأذكى » من غيرهم كما أيدت ذلك الاختبارات . ومما هو ذو مغزى خاص أن هؤلاء الأفراد قد نالوا حظا موفورا من التربية المدرسية الطيبة . ولكنا قد نتساءل مرة ثانية عما تفيدنا هذه الأبحاث فى موضوع تأثير كل من الوراثة والبيئة فى تحديد الفروق الطبقية ؟ واذا كنا نستخلص من مثل هذه البيانات التى جاءت فى الجدول رقم ١ أن الطبقات الاقتصادية العليا تستمتع أكثر مما عداها بميزات ترجع الى الوراثة ، فقد يكون ذلك تمشيا مع اعتقاد سائد فى بعض الدوائر العلمية ، الا أن هذا الاعتقاد لم يتأيد بعد ماديا . وقد لاحظ أحد المجتهدين من الباحثين فى هذه المشكلة أنه بينما أظهر البحث المتصل « ما أسهمت به كل من الوراثة والبيئة من تأثيرات فان المسألة

---

(١) W.M. Proctor, "Intelligence and Length of Schooling in Relation to Occupational Levels", *School and Society*, XLII (1935), 783-786. This study and several other similar ones are discussed by A.W. Kornhauser in *Industrial Conflict* : A Psychological Interpretation (G.W. Hartmann and Newcomb, eds., New York, 1939), Chap. XI, pp. 203-216.

كلها ما زالت جدلية لدرجة أننا عندما تتبين الفروق الطبقية » من خلال قياس الذكاء [1] .

٤ ـ **سلاسل النسب الراقيـة والمنحطة** : سيكون المثل الأخير الذى نضربه هذا التقابل المعروف بين بعض الزمر مثل عائلات آدمز وادواردز وسولتنستول من جهة وعائلات كاليكاك ونام وجوك من جهة أخرى ، وكانت جميعا موضع اهتمام كتب الأمس فى علم الاجتماع [2] ، وما تزال تستخدم لسوء الحظ كدليل على الوراثة الحسنة والوراثة الرديئـة . ولننظر الى سلالة جوك . فقد أمكن فى عام ١٨٧٧ تسجيل ١٢٠٠ شخص من ذرية رجل يدعى جوك وأبنائهم وأحفادهم . وكان جوك هذا جدهم الأكبر قد ولد فى نيويورك عام ١٧٣٠ ، ووجد أن ٤٤٠ شخصا من هذا العدد يعانون من العيوب الجثمانيـة أو المرض ، وأن ٣١٠ كانوا فقراء معدمين ، و ٣٠٠ ماتوا فى دور العـلاج ، وأن ١٣٠ كانت قد صـدرت ضدهم أحكام دمغتهم بالاجرام ، منهم ٧ قتلة ، وأنه ربما كان أكثر من نصف النساء اللواتى حملن اسم جوك من المومسات . وظهر عندما بحثت هذه العائلة مرة ثانية فى عام ١٩١٥ أن عدد أفراد سلالتها كانوا قد بلغوا ٢٨٢٠ شخصا ، منهم ٦٠٠ قواهم العقلية مختلة ، وكانوا أحياء عنـد التسجيل . وفى مقابل هذه الصورة المعتمة الكئيبة سجلت الصفحة المشرقة لسلالة جوناثان ادواردز ، الذين أمكن احصاء ١٣٩٤ شخصا منهم فى عام ١٩٠٠ . وكان من هذا العدد على الأقل ٢٩٥ من خريجى الكليات ، كثيرون منهم من الممتازين فى عالم المهن الكبيرة ومن رجال الأعمال كما أنهم تضمنوا ١٣ شخصية شغلت وظائف عمداء كليات ، وواحدا كان نائبا

---

(١) Kornhauser, op. cit., pp. 215-216. • وضع خط تحت كلمتين أشار كورنهاوز بأهميتهما كما ذكر المؤلفان فى النص الانجليزى •

ـ المترجم

(٢) Scheinfeld, op. cit., p. 360; see Chap. XXXIX of this volume for an excellent discussion of ancestry.

لرئيس الولايات المتحدة . ولم يبـد فى السجل أن أحدا ممن حملوا اسم ادواردز قد دمغتهم المحاكم بأنهم مجرمون .

ان التقابل فى هاتين الحالتين صـارخ . ولكن لا شـك أن الذين يندفعون فى الادعاء بأنه يكشف عن انتصار الوراثة على البيئة قد ضلوا السبيل . ففى أول الأمر ينبغى أن نوجه السؤال الآتى : بأى معنى يعتبر أفراد جوك وادواردز الموجودون فى جيل حاضرهم نفس عائلاتهم التى عاشت فى الجيل التاسع أو العاشر فى الماضى ؟ ان كل جيـل ما هو فى الواقع الا خليط جديد من الأفراد والدم الذى يجرى فى عروقنا هو دم الأجيال العديدة المختلطة . وان الأسماء البارزة من أسلافنا قد أسهم فى انجابها أو اخراجها من الظلمات الى النور أشخاص عديدون خلو ممـا عندهم من كروموزومات أو خصائص وراثية بالمعنى البيولوجى . وفوق ذلك فان انتاج أى فرد ينطوى على فقدان نصف عدد الوحدات الوراثية من كل من الوالدين . وهذه الوحـدات غير المتناهية فى العـدد بشكل خارق ، توحى فى النادر من الأحوال حدوث نفس التركيب البيولوجى فى شخصين أو أكثر . « ويترتب على ذلك أن أفضل الصفات الوراثية قد تظهر فى الوالدين وتتـلاشى فى ذريتهمـا ، وأن العبقـرية التى تكون نصيب أحد الأسلاف قد يحل محلها انعدام المقدرة أو البلاهة أو الجنون فى أحد أفراد الذرية » [١] . ولننظر الفروق الممكن مشاهدتها بين أفراد الأسرة الواحدة . اننا عندما ندرس هذه الفروق نصادف من العوامل البيئية الجديدة ما يعقد بحثنا فى علل هذه الفروق تعقيدا شديدا . فنحن نكتشف مثلا أن مظاهر السلوك المنوعة بين الأطفال متصلة ببعض الظروف

---

(١) E.C. Conklin, *Heredity and Environment* (Princeton, 1923), p. 312.

واذا شاء القارىء التوسع فى هـذه النقطة فلينظر أحدث مناقشات الباحثين البيولوجيين لهذه العملية ، على سبيل المثال ، فى :

F Osborn, *Preface to Eugenics* (New York, 1940), and S.J. Home , *Human Genetics and Its Social Import* (New York, 1936).

كالترتيب الزمنى فى المولد ، والتغيرات التى تطرأ على تجارب الوالدين ومواقفهم أو نظرتهم للأمور . وينبغى أن نذكر أنه لايوجد اثنان من سلالة جوك أو أدواردز يطابق أحدهما الآخر من جميع الوجوه .

وليس معنى ما تقدم أننا نرفض ما يراه أكثر علماء تحسين النسل الانسانى اعتدالا ، من أن الشبيه يميل الى انتاج الشبيه [1] . كذلك ليس لدينا تسويغ لانكار أهمية الوراثة أقوى من تسويغ بعض علماء تحسين النسل الانسانى لانكار أهمية البيئة . ومع ذلك فان هذه الآراء التى عرضناها توا تشير الى نقطتين على جانب من الخطر : الأولى تعقد الوراثة نفسها وكونها غير مؤكدة ، والثانية هذا السخف الذى يجعل البعض ينسبون الى جد سابق دون غيره جميع الفضائل أو الرذائل الاجتماعية التى تلاحظ فى بعض زمر السلالة . ويطلب منا باحث معروف فى « علم تحسين النسل الانسانى » أن نضع فى ذهننا دائما أن الفرد واحد لا يتكرر ، وأن كل خلية فى جسمه الحى تحمل كل ما تحتاج اليه من كروموزومات ووحدات وراثية ، كلها متشابهة ، ولكنها رغم ذلك تختلف عن نظائرها فى أى كائن حى آخر ، حتى ان كل جزء من الجسم ينفعل انفعالاته الخاصة مع المؤثرات البيئية التى تحدد درجة نموه [2] ، وفى هذا تذكرة ذات مغزى للباحث فى الحياة الاجتماعية .

وتوحى طبيعة موضوع جوك وادواردز من جوانب أخرى الحاجة

---

(١) فمثلا نجد عند L. Darwin, in *What is Eugenics?* (New York, 1928) شرحا معقولا لحقيقة الوراثة على النحو الآتى : نحن لا نستطيع أن نتنبأ بصفات أى انسان قبل مولده . ولكن اذا عرفنا صفات أقرب الناس اليه أمكننا ان نقرر الكثير مما يحتمل أن تكون صفاته . ومعنى هذا أننا رغم ما نتعرض له من خطأ من جراء استخدام هذه الطريقة نكون بوجه عام أقرب بكثير من الحقيقة مما لو اعتمدنا على الصدفة .

(٢) Osborn, op. cit., p. 37.

الى التحوط . فقد وصف حوالى ٦٠٠ شخص من سلالة ادواردز بأنهم من « العظماء » ولكن كم كان العدد الكلى للسلالة ؟ لا أحد يعرف ذلك بالدقـة ، وان كان المفهوم أن هـذا العـدد يبلغ عدة آلاف — مع ذلك بالدقة ، وان كان المفهوم أن هذا العدد يبلغ عدة آلاف — مع ما تجهل من صفات بعضهم [١] . وينبغى أن نلاحظ أن الأعضاء الأكثر يسرا فى التعرف عليهم فى أى سلالة هم أولئك الذين تميزوا عن أقرانهم على نحو ما ، أى كما حدث تماما فى حالة عائلة جوك ، فان الذين أخفقوا منهم اخفاقا ذريعا فى حياتهم هم الذين كان تتبعهم أكثر سهولة [٢] . ومع كل ذلك فالفرق بين السلالتين قائم بلا ريب . فنحن نبحث عن سلالة جوك فى مستشفيات الأمراض العقلية والبيوت الفقيرة ونجد بعضهم فى هذه الأماكن ، بينما نفحص وظائف الخدمات الممتازة بحثا عن سلالة ادواردز فنوفق فى العثور عليها . ولكن يجب ألا ننسى هنا أن عائلة جوك عاشت فى بيئة اجتماعية غير مواتية ، بينما عاشت عائلة ادواردز فى بيئة مواتية . واذا ادعى أحد أن تحديد الزمرة للبيئة أكثر من تحديد البيئة للزمرة كان هذا الحكم متحيزا . وقد عرفت أبحاث السلالات العائلية المشهورة

---

(١) Cf. P.A. Witty and H.C. Lehmann, "*An Interpretation of the Hereditary* Background of Two Groups of Mental Deviates", *American Journal of Sociology* XXXIV (1928), 28. See also by the same authors. "The Dogma and Biology of Human Inheritence", idib., XXV (1930), 548-563.

(٢) هذه النقطة أوضحها بعناية Scheinfeld, loc. cit. حيث يقول :

There was a Bostonese
Who searched out pedigrees
Which she stored in the middle of her forehead;
And when they were very, very good,
And when they were bad — they were horrid.

(أى أن الباحث فى السلالات لا يلفت نظره ولا يذكر الا الحسن جدا أو الردىء جدا من الأفراد) . — المترجم

بهذا النوع من التحيز . فقد عجزت عن أن تفرق بين توريث الوحدات الوراثية وتأثيرات البيئة الرديئة التى تنتقل من جيل الى آخر . وعلى ذلك فهذه الأبحاث شيقة من حيث هى دراسات اجتماعية ، أما أن تتخذ منها دليلا على تأثير الوراثة فهى مرفوضة بوجه عام فى الوقت الحاضر (١) .

الوراثة « ضـد » البيئة : فحص التجارب العلميـة « المتحكم فيها » :

توحى هذه الحالات التى فحصناها حتى الآن بالتفاعل الدائم بين الوراثة والبيئة . والذين يقللون من أهمية البيئة لا يرون الا جانبا واحدا منها ، ويرى الجانب الآخر من يحقرون شأن الوراثة . ولما كانت خصائص كل من البيئة والزمرة الاجتماعية التى تعيش فيها مترابطة — وليست منفصلة البتة فى الحياة نفسها — فان من السهل أن نستخلص نتائج مضادة من نفس الظواهر . وذلك مع بقاء الترابط نفسه قائما بدقة ووضوح — فمما لاشك فيه أن أبناء الآباء الناجحين أكثر نجاحا من متوسط نجاح آبائهم . ولكن ينبغى ألا ندع أى يقين سابق يحدد مقدما جانب الترابط — سواء أكان الوراثة أو البيئة — الذى نرى فيه علة النجاح أو الاخفاق.

وازاء هذا الترابط الدائم حاول باحثون كثيرون استنباط طرائق تعين على معرفة العوامل الدائمة والعوامل المتغيرة . والقاعدة المتضمنة هنا أن الفروق التى تظهر لنا يمكن ارجاعها الى العامل المتغير وحده ، ويؤيد ذلك أن اخصائى النبات يمكنه أن يحصل على بذور من نبات معين ثم يزرعها فى أحوال مختلفة فيما يتعلق بالتربة والمناخ . ويستطيع فى هذه الظروف أن يرجع الفروق الى عامل البيئة ، أو بالدقة الى مزيج من نفس

(١) Osborn, op. cit., pp. 47-48 . ويذكر لا نسلوت هوجبن ، اخصائى علم الوراثة ، بصراحة ما يلى : « اذا قدر لعلم الحياة الاجتماعى أن يصبح علما مضبوطا فان هذا التاريخ المقبض لسلالة جوك سينظر اليه كما ينظر الآن الى الكيمياء القديمة . »

الوراثة وبيئات مختلفة . والآن فهل فى مقدور السوسيولوجى أن يجرى تجاربه على هذا النحو ؟

أولئك الذين أجابوا على هذا السؤال بالايجاب وجهوا اهتماما خاصا منذ بداية البحث العلمى فى الوراثة — الى تلك الحالات أو الأمثلة التى يمكن أن ينظر فيها الى الوراثة البيولوجية على أنها ، عمليا ، واحدة من ناحية تشابهها . وذلك لأن هذه الحالات تمدنا بفرصة قيمة لتحديد مدى الدور الذى يلعبه عامل البيئة المتغير ، وبالتالى عامل الوراثة أيضا . والفرصة سانحة بالفعل فى حالة التوأمين « الشبيهين » اللذين انحدرا من بيضة مبيض معينة . وكان جالتون أول من تعرض لهذه الموضوعات خلال القرن الماضى (وذلك على أساس نظريات بيولوجية تعتبر فى وقتنا الحاضر غير كافية) وقد أدى ما بين التوأمين من تشابه ملحوظ تحت ظروف عديدة الى أن يزداد يقينا فى الدور الرئيسى الذى تقوم به الوراثة فى احداث ما بين الناس من تشابه وفروق [1] . وحاول باحثون من بعده أن يقلبوا الوضع بأن يدرسوا حالة أطفال متباينين وراثيا بعد تنشئتهم فى بيئة واحدة بمعنى الكلمة . هذان الوضعان المختلفان يبعثان الأمل فى أن تتمكن من تذليل الصعوبات التى عرقلت قليلا ما أشرنا اليه توا من أبحاث .

١ — **الأبحاث الخاصة بتنشئة التوائم الشبيهة معا** : منذ أربعين سنة والبيولوجيون والسيكولوجيون والاخصائيون يدرسون الخصائص الجثمانية والسلوكية للتوائم ، واستطاع الباحثون فى السنوات الأخيرة أن يميزوا بين التوأمين الأخوين المنحدرين من بيضتى مبيض مختلفتين

---

(١) F. Galton, *Inquiries into the Human Faculty and Its Development* (London, 1883). See G.C. Schwesinger, *Heredity and Environment* (New York, 1933), pp. 175-231, for a review of the series of researches initiated by Galton.

وبين التوأمين الشبيهين المنحدرين من بيضة واحدة . ولقد أصبح من الأمور المقررة أن التوأمين يظهران صفات جثمانية وعقلية أكثر تشابها فيما بينها من نظيرها عند الشقيقين غير التوأمين ، وانه من ناحية بعض الخصائص الجثمانية المعينة نجد التوأمين الشبيهين أكثر تقاربا فى مظهرهما من التوأمين الأخوين . وقليل من هذه الأبحاث أدى الى اكتشافها بعض حالات التشابه الكلى فى العقل والجسم معا ، لدرجة تسوغ تلك التمثيلية القديمة المعروفة باسم ملهاة الأخطاء Comedy of Errors . وكذلك انتهى بعض الباحثين الى أن تأثير البيئة ضعيف جدا اذا قورن بتأثير الوراثة [١].

ومع كل ما تقدم فان أحدث الأبحاث وأشملها بشأن التوائم الشبيهة (أو غيرها) التى تمت تنشئتها معا ، لا تأخذ بهذه النتيجة ذات الجانب الواحد . وقد أجريت فى السنوات الأخيرة مشاهدات علمية عديدة الغرض منها تحليل الوقائع ، مقرونة بتجارب على التربية والتعلم كما جمعت البيانات الاحصائية بدقة . واستخدمت فى كل هذه العمليات أرقى أساليب البحث لتحقيق العوامل المؤدية للفروق الجثمانية ولتباين الذكاء والشخصية. ونتيجة لذلك وجدت أوجه شبه قوية بين التوائم والأشباه دون أن يمنع هذا من بعض الفروق الهامة بينها . ولا بد أن ننوه من بين هذه الدراسات بالتقارير التفصيلية المتعلقة بخمسة الأطفال الأشباه المشهورين ، الذين رزق بهم آل ديون . فقد وجد أن جميع هؤلاء الأطفال ، بالرغم من انحدارهم من بيضة واحدة ومن الوراثة المشتركة (والبيئة المتشابهة

---

(١) من الدراسات القديمة فى هذا الموضوع :

E.L. Thorndike, *Measurement of Twins* (New York, 1905) and *Educational Psychology* (New York, 1914), Vol. III ; A. Gesell, "Mental and Physical Correspondence in Twins", *Popular Science Monthly*, XIV (1922), 305-331, 415-428 ; N.D.M. Hirsch, *Twins* (Cambridge, Mass., 1930).

وتمتاز جميع هذه المصادر بمنطقها المنحرف .

لا البيئة المطابقة من جميع الوجوه) يظهرون تباينا ملحوظا فى الخصائص الجثمانية والعقلية . وعلى الأخص فى الشخصية والمزاج [١] .

والآن ماذا نستخلص من هذه الأبحاث التى تدور حـول الوراثة والبيئة ؟ اننا نكرر ما سبق أن ذكرناه من أن كلا من هذين العاملين هام . ويمكن أن نرجـع جزئيا وجوه الشبه القوية بين التوائم الشبيهة ، الى ميراثهم المشترك ، كذلك يمكن أن نرجعها جزئيا الىالبيئات السابقة على الولادة واللاحقة لها (ويجدر بنا أن نشير الى أن الرحم نفسه لا يهيىء للأجنة دائما نفسالبيئة) . ومع ذلك فالفروق القائمة بينالتوائم الشبيهة تخلق ، كما رأينا ، فروقا تفسر حتما بتنوع فىالبيئة . وما الذىنستخلصه بشأنالمقادير النسبية لتأثير الوراثة والبيئة ؟ فلنستمعالىكلمة ممن عملوا فى هذا الميدان بعض الوقت اذ يقول : « يبدو أن كل ما اشتملت عليـه الدراسات التوأمية يوحى .. بأن فكرة فصل مؤثرات الطبيعـة (أو الوراثة) عن مؤثرات البيئة بقصد معرفة النسبة المئوية لما تسهم به كل منهما فى حياة الانسان بأى معنى عام ، لفكرة تافهة وفجة » [٢] .

٢ ـ **الأبحاث الخاصـة بتنشئة التوائم الأشباه منفصلة :** هنا يصح أن نتأمل اختبارا موضحا للجدل الذى نحن بصدده حول الوراثة والبيئة. فقد اعترف العلماء منذ زمن طويل بقيمة دراسة التـوائم التى تمت تنشئتها متباينة . ولكن بعض الأبحاث القليلة التى أجريت فى الماضى على حالات فردية للتوائم ، قدمت لنا أدلة ، هى أبعد الأشياء عن أن

---

(١) للدراسات المتصلة بالتوائم من حيث تنشئتها معا ، عرض ونقد بقلم فى المرجع الآتى :

H.D. Carter in *Intelligence: Its Nature and Nurture*, Vol. I, Chap. VIII.

وفيما يختص بالخمسة المولودين معا لأسرة ديون ، أنظر :

W.E. Blatz and others, *Collected Studies on the Dionne Quintuplets* (Toronto, 1937).

(٢) Carter, op. cit., p. 248.

تكون حاسمة [1] . ومنــذ عهد قريب قام كل من هـ . هـ : نيومان ، البيولوجي ، و ف . ن . فريمان ، البيولوجي ، وك . ج . هولتزنجر ، الاخصائي [2] ، بدراسة تسعة عشر زوجا من التوائم الشبيهة الذين تمت تنشئتهم فى مساكن منفصلة . وأجرى هؤلاء العلماء تحليلا لما بين التوائم من فروق فى الجسم والعقل والشخصية ، من حيث علاقتها بالفروق البيئية ، كما عقدوا مقارنات بين البيانات المتعلقة بخمسين زوجـا من التوائم الأشباه واثنين وخمسين زوجا من التوائم الأخوية الذين حصلت تنشئتهم كلهم معا . وكانت النتائج التى استخلصها الباحثون من هذا التحليل القيم الشامل حذرة ولكن موجهة . وبينما هم قد سجلوا فروقا عديدة مختلفة الأنواع بين التوائم الأشباه الذين تلقوا تربيتهم منفصلين ، فانهم وصلوا الى نتائج وخلاصتها أن الخصائص الجثمانية أقل ما تكون تأثرا بالبيئة ، وأن الأعمال والمهارات المختلفة أكثر حساسية لها وأن صفات الشخصية هى التى تتعرض لتأثيرها الأقوى . وقد كشفت أغلب التسع عشرة حالة المنفصل بعضها عن بعض عن قدرات عقلية متشابهة على وجه التقريب . غير أن خمسا من هذه الحالات كانت تعيش فى أوساط متباينــة تباينــا ملحوظا ، وجد أن نسبة الذكاء تنوعت فيها تنوعا عريضا بين العــلو والانخفاض ، يتفق مع نتائج أبحاث أخرى عديدة أجريت فى السنوات الأخيرة . ويجدر بنا أن نثبت هنا نص البيان الذى ختموا به كلامهم فى هذا الموضوع :

---

(١) هناك دراسة قديمة عن توأمين شبيهين فصل كل منهما عن الآخر وهما فى سن أسبوعين قام بها :

H.J. Mpller, "Mental Traits and Heredity", *The Journal of Heredity*, XVI 1925), 433-448).

وخلاصة هذه الدراسة أن القدرة العقلية تتحدد بالوراثة بينما يتحدد تنوع الخصائص غير العقلية بالبيئة . وللاطلاع على مناقشة لبعض الأبحاث الأحدث فى الموضوع ، والتى لم تصل لمثل هذه النتائج المحددة ، انظر :

Carter, op. cit., pp. 248-251.

(٢) *Twins: A Study of Heredity and Environment* (Chicago: The University of Chicago Press, 1937).

« لو كان المؤلفون فى بدء قيامهم بهذه الدراسة منذ أكثر من عشر سنوات قد اكتفوا بالأمل فى أن يصلوا الى حل نهائى للمشكلة العامة الخاصة بالوراثة والبيئة ، أو حتى لجزء كبير من المشاكل المترتبة عليها ، بمجرد أن يوفقوا الى قاعدة بسيطة وواضحة ، لكان نصيبهم المحتوم أن يصدموا بخيبة الأمل ؛ فقد ظهر فى معالجة هــذه المشكلة أنه كلما تعمق الباحث فى الالتواءات المركبة لعوامل الوراثة والبيئة ، تلك العوامل التى تحدد معا نمو الأفراد ، كان أكثر فرعية — وان من المستحيل بلوغ حل عام للمشاكل الرئيسية ، أو حتى لأية مشكلة فرعية .. وانا لنشعر أننا أكثر ميلا لموافقة بروفسور هـ.س. جننجز على قوله الحكيم بأن ما تفعله الوراثة تستطيع البيئة أيضا أن تفعله »[1] .

واذن فالأبحاث التى من هذا النوع تقلل من أهمية النظرية التى تدعى امكان قياس القدرة الصحيحة لتأثير الوراثة ، كما تقف نفس الموقف من أية نظرية أخرى تؤيد أى دور رئيسى للوراثة كعامل مضاد للبيئة ، وذلك بشأن الفروق القائمة فيما بين الأفراد والزمر الانسانية . ولا يزال فى استطاعة عالم الوراثة أن يقرر أنه حتى فى حالة التوائم « الشبيهين » من الممكن أن توجد فروق وراثية . ويستطيع كذلك الأخصائيون فى دراسة البيئة أن يربطوا كل الفروق تقريبا بالظروف الحيــوية التى تحتويها — ولا تؤيد الأبحاث الحديثة أى تفسير من جانب واحد على كل حال . وربما كانت التجربة الحاسمة بمعنى الكلمة تلك التى تبحث

---

(١) Ibid ., p. 362 . فى النص كلمتان مطبوعتان بالخط الرقعة لاهمية لفت النظر اليهما من وجهة نظرنا ، ويمكن لمن أراد الاطلاع على نقد هذا البحث وأمثاله ممــا أجرى حديثا على التوائم الشبيهين التى تمت تنشئتهما منفصلين أن ينظر :

R.S. Woodworth, *Heredity and Environment*, Social Science Research Council Bulletin No. 47 New York, 1941), pp. 21-32.

تربية التوأمين الشبيهين منذ مولدهم فى ظروف متباينة تباينا كبيرا . فاذا ربى أحدهما فى بيت أمريكى والثانى فى مجاهل افريقيا ، أو اذا قدر لأحدهما أن يكون حظه من الحياة حظ كاسبار هاوزر ، أو اذا أمكن لخمسة أشباه ولدوا معا كأولاد آل ديون أن ينشـأوا فى خمس بيئات مختلفة اختلافا كبيرا ، ففى مثل هذه الحالات يمكن أن نحصـل على اختبار يمدنا ببرهان قاطع . ومن المعقول على أية حال أن نخمن — استنادا الى ما سنقدم من توضيحات فى الفصول التالية — أن مما يسوغ زعمنا هذا ، أن البيئة عامل يقف على قدم المساواة الى جانب غيره من العوامل التى تقرر اتجاهات نمونا وتحدد مصائرنا .

٣ — الأبحـاث الخاصـة بالاطفال المنتسبين لآباء مختلفين واجريت تنشئتهم معا : وهذه آخر نوع من الأبحاث ينبغى أن تتجه اليـه ، عسى أن يؤدى الى حل المشكلة من طريق دراسة الحالات التى تكون فيها البيئة لا الوراثة هى العامل الثابت الدائم لتفسير النمو الانسانى . ومن المستحيل ، كما رأينا ، أن يعيش فردان فى بيئة واحدة من جميع الوجوه . وأشد البيئات تقاربا هى تلك التى يحيا فيها أطفال من أصول وراثيـة مختلفة ، منذ زمن الرضاعة أو الطفولة المبكرة تحت رعاية مربين ليسوا آباءهم[١] . وقد أجرى عدد من البحوث فى هذا الاتجاه ، وهناك بحث أو اثنان منها يقوم بهما أصحابهما على مدى طويل الآن[٢] ، وهما يختلفان من حيث نتائجهما اختلافا كبيرا .

---

(١) فى مثل هذه البيئة يشعر كل طفل أن علاقته بالمربين تساوى علاقة كل من الأطفال الآخرين بهم . — المترجم

(٢) أى فى سنة ١٩٤٩ عند نشر الأصل الانجليزى لهذا الكتاب أو قبل هذه السنة أثناء تأليفه . — المترجم

Earlier studies by F.N. Freeman, K.J. Holzinger, and B.C. Mitchell and by B.S. Burks, referred to in the text, are reported in The Twenty-seventh Yearbook of the Nation Society for the Study of Education (Bloomington, Ill., 1928). These and more recent studies by A.M. Leahy, by. H.M. Skeels and M. Skodak of the famous University of Iowa investigations, and by various others are analyzed by F.L. Goodnoughe in *Intelligence: Its Nature and Nurture*, I, pp. 331-362, and by Woodworth, op., cit., pp. 33-70.

وعلى سبيل المثال نذكر أن الآنسة ب.س. بيركس درست منذ بضع سنوات ذلك التشابه بين الأطفال المتبنــين وبين مربيهم وقابلته بالتشابه بين أطفال آخرين وآبائهم الحقيقيين ، محاولة بذلك مرة أخرى أن تقيس تأثيرات الوراثة والبيئة . وقد وصلت فى الواقع الى نتيجة خلاصتها أن نصيب الوراثة كان حوالى ٨٠٪ والبيئة ١٧ فى المائة على التحديد . وبنيت هذه النتيجة الاحصائية على أساس الزعم الخاطىء بأن ما اكتسبه الأطفال بالوراثة تمكن معرفته حتما . وانه قد قيس فعلا بالاختبارات المنطبقة فى هذه الدراسة . ومما لاشك فيه أنه لا يمكن بمثل هــذه الطريقة الحصول على مقاييس صحيحة لأى من القدرة الفطرية أو البيئة (ومعلوم أنهما لم يخضعا للقياس « بنجاح ») . وقد غاب عن البال فى هذه الدراسة درجة تعقد البيئة والتفاعل الملتوى بين حياة الانسان النامية والظروف المتغيرة فى البيئة . وتحدثنا الآنسة بيرنز قائلة ان أفضل بيئة منزلية نتصورها قد تسهم بـ ٢٠ نقطة فى اختبار نسبة الذكاء . كما أن أسوأ بيئة من هذا النوع قد تخفض هذه النسبة بنفس هذا القدر من النقط . وما هذه الا مقارنة فى داخل نطاق الحياة المنزلية الأمريكية ، وليست بين « أفضل » و « أسوأ » بيئة ، فبأى منطق اذن استطاعت أن تستنتج « أن النصيب الشامل للوراثة .. هو على وجه الاحتمال غير متجاوز ٧٥ أو ٨٠ فى المائة » ؟

وفى بحث تقابلى أجرى حوالى نفس الوقت بوساطة ف.ن. فريمان واثنين غيره قام الدليل على أن صفات بيت التبنى تؤثر حتما فى درجــة القدرة العقلية التى يحصل عليها الأطفال الذين يربون فى هذه البيئة ، وكذلك على أن الأطفال الذين ألحقوا فى السن الصغيرة المبكرة بأحد بيوت الطبقة العالية زاد نموهم العقلى على نمو أقرانهم الذين ألحقوا بنفس البيت فى سن متأخرة . وفوق ذلك ثبت أن هذه البيئة الراقيةالتى

تحيط بهذا البيت أدت الى تحسين سلوك الأطفال وقدرتهم الى حد تجاوز ما كان ينتظر أن يبلغوه اعتمادا على التنبؤ القائم على أساس معرفتنا بأخلاق آبائهم وذكائهم . وهذه النتائج التى تتحدى بشدة تفسيرات الآنسة بيركس وأمثالها لاتنفذ فى نفوسنا نفوذ الدراسات الأحدث التى أجريت خلال عدة سنين فى جامعة آيوا الرسمية [1] ، وملخصها أن أكثر من ١٥٠ طفلا ، أكثرهم غير شرعيين ، وضعوا فى بيوت غير بيوت آبائهم وهم فى سن ستة شهور ، وكانوا يخضعون لاختبارات دورية فى الذكاء ، تقارن نتائجهـا بما يتيسر من معلومات عن ذكاء آبائهـم الحقيقيين أو البيولوجيين . وهذه البيانات وما عداها مما أمكن الحصول عليه يبدو أنها تشير الى « أن الذكاء كما هو مفهوم عادة يعتبر أكثر استجابة بكثير لتغيرات البيئة ، مما كان يظن قبلا » وأن تفسير القصور العقلى لأى شخص لأسباب بيولوجية ليس فى الواقع بالدقة التى يوصف بها فى أكثر الأحيان [2] . وهذه النقطة الأخيرة قد تأيدت بشكل ظاهر فى أبحاث جامعة آيوا وما أماطت اللثام عنه من أن ١٦ من هؤلاء الأطفال أثبت تشخيص أمهاتهم أنهن ضعيفات العقل بمتوسط نسبة ذكاء قدره ٧١ ، قد بلغوا فى بيوت من تبنوهم ، بعد انقضاء حوالى عامين متوسط نسبة ذكاء قدره ١١٦ (وان كان هذا المتوسط الأخير قد هبط بعد عامين ونصف عام الى ١٠٨) .

---

(١) قام بمعظم هذه الدراسات هـ . م . سكيلز الذى لخصها فى :
Intelligence: Its Nature and Nurture, II, Chap. XX

و م . سكوداك ، مؤلف :

Children in Foster Homes: A Study of Mental Development (Iowa City, 1939). For a thorough but less environmentally focused study of the same problem, see A.M. Leahy, "Nature-Nurture and Intelligence", *Genetic Psychological Monographs*, XVII (1935), 235-308.

(٢) Skeels, op. cit., p. 305

وقد أذيع على نطاق واسع هذا « البرهان » على قدرة البيئة — وحمل من الأهمية أكثر مما يسمح به أو يسوغه صغر العينة ، وما احتواه منهج البحث من قصور . ومع كل ذلك فان هذه النتائج تهمنا من ناحية معارضتها لبعض النتائج الأخرى التى قدمناها فيما سبق . ولكن الحذر ضرورى هنا أيضا عندما ننتقل من الوقائع الى تفسيرها . وهناك كذلك كثير مما لا يمكن التنبؤ به عن الوراثة الفردية بحيث يتعذر الوصول الى تعميمات تتصل بتأثير البيئة ، قائمة على مثل هذه النتائج التى اعتمدت عليها أبحاث جامعة آيوا . ان البيئة معقدة دائما ومتغيرة دائما ، والوراثة لا يمكن أن تعرف معرفة تامة . ومن جهة أخرى فان مثل هذه الأبحاث المشار اليها ، تساعدنا على الأقل فى أن ندرك أننا مضطرون لأن نوجه للبيئة من الاهتمام ما لا يقل عما نوجهه للوراثة .

عدم إمكان الفصل بين الوراثة والبيئة

الصواب والخطأ فى الأسئلة المتعلقة بالوراثة والبيئة : اننا ولا شك تضيع جهدنا اذا أصررنا على توجيه أسئلة خاطئة . ومن هـذه الأسئلة الخاطئة ما قد نظن أننا نستطيع أن نوجهه فى موضوع الوراثة والبيئة بوجه عام ، بأن نقول : « أيهما الأكثر أهمية أو الأكثر تأثيرا ؟ » ان كل ظاهرة من ظواهر الحياة نتيجة للاثنتين معا . ولا تقل ضرورة احداهما بالنسبة للنتيجة عن ضرورة الأخرى . وكذلك لا يمكن لأحداهما أن تستبعد أو أن تعزل وحدها . والتعقد لا البساطة هو الصفة التى تلازمها فى كل حالة من الحالات التى نبحثها وكل منهما يعمل مع الأخرى لانتاج هذه الحالة أو سواها فى خلال زمن لا يمكننا أن نتخيل مداه . ولهذه الأسباب يبدو من المستحيل أن نتخيل حالتين تنطويان تماما على مزيج واحد من عوامل الوراثة والبيئة . ومن هذه الناحية تعتبر كل حالة فريدة

فى بابها ، بالضبط كما تعتبر كل سحنة انسانية مختلفة بطريقة ما عن أى سحنة أخرى . وحيثما كان هناك عاملان لابد منهما معا لاحداث نتيجة معينة ، فمن العبث أن نبحث فى أيهما بوجه عام أكثر أهمية من الآخر . هل الطعام مثلا أكثر ضرورة من الهواء لحفظ الحياة ؟ وهل العلاقات القائمة فيما بين الناس أكثر جوهرية من الناس أنفسهم لخلق المجتمع ؟ وهل القيود المفروضة على النفس أكثر أو أقل أهمية مما يمنح من حقوق فيما يختص بصيانة ما نسميه الحرية ؟ فى الحق أن البحث الذى سعى اليه الكثيرون بشأن الوراثة « ضد » البيئة ، ما هو الا واحد من هذه المسائل التى لا يمكن الاجابة عليها لعدم جدواها .

ان الوراثة — أو بمعنى آخر الخلايا الجرثومية — تشتمل على كل الاستعدادات التى تعين المرء على الحياة ، ولكنها لا تعمل فى الواقع الا تحت تأثير ظروف البيئة . فما هو اذن نوع السؤال الذى يحق لنا أن نوجهه والذى نأمل أن يكون فى امكاننا الاجابة عليه ؟ انه لا يمكن أن يكون البتة سؤالا يختص بالنصيب المطلق لأى من هذين العاملين بوجه عام . غير أن هناك أسئلة ذات دلالة كبيرة لكل من البيولوجى .. والسوسيولوجى . فالبيولوجى مثلا يهتم بتتبع توريث صفات معينة ، كلون العين الأزرق ، واجتماع بياض الجلد وشعر الرأس وجهر العين فى شخص واحد ، والكزاج النكفى [1] وما شابه ذلك ، وكلها أمور توحى وجود عوامل معينة منفصل بعضها عن بعض فى ميكانزم الوراثة . وكذلك يهتم بالطريقة التى تعبر بها استعدادات الجسم عن نفسها تحت الظروف المنوعة للبيئة ، كأن يبدو عليهما ميل للتأثير ببعض الأمراض ، أما السوسيولوجى فهو يهتم مثلا بكيفية تصرف زمرة من الناس فى البيئة العامة التى تحيط بهم . وكذلك بالطريقة التى تتأثر بها الزمرة من التغيرات

---

(١) استعداد الشخص لنزف الدم بكثرة
— المترجم

التى تحدث للأفراد داخل بيئة معينة ، أو اذا انتقلوا بهذه التغيرات الى بيئة أخرى . فان أية جماعة من المهاجرين مهما كانت مصادر الوراثة التى انحدرت منها تظهر عليها صفات جثمانية متشابهة عندما تنتقل من ايطاليا أو اليونان أو ايرلندا الى أمريكا الشمالية . ولا يستطيع المرء أن يغفل الطريقــة التى تتغير بها العادات الجماعية والمواقف وأساليب الحياة ، استجابة الى تغير الأحوال الاقتصادية والنشاط الجديد فى نوع العمل الى غير ذلك . ولدينا أمثلة عديدة عن الكيفية التى يتم بها تسجيل الانتقال من الفقر الى الثروة وبالعكس ، بما يبدو من تغيير فى مواقف الأفــراد والجماعات ومستوى المعيشة . كما أننا نستطيع أن نقدم أمثلة تاريخية لا حصر لها عن كيفية تغير مظاهر الحياة الجمعية لمجرد حــدوث بعض التغيير فى ظروف البيئة . فالعشائر الاسكتلندية المخورة بالمحبة للثأر والانتقام ، والنصب ، وهذه جميعا اتجاهات سادت بينهم فى القرن السابع عشر ، قد تحولت من طريق اندماجها بفريق السكان المشتغل بالصناعة فى القرن الثامن عشر . وان الآداب العامة التى مرت عليها أزمنة طويلة وهى باقية ، قد تغيرت كلما اتسعت حدود الحضارة . وأظهرت الشعوب البدائية تفاعلا خاصا عندما انتقلت أدوات الحضارة الغربية اليها أو فرضت عليها . وقد كشف السكان الزراعيون فى كل أنحاء العالم ، وعلى سبيل المثال فى أمريكا أو روسيا أو اليابان عن تغييرات ذات دلالة كبيرة فى عملية التصنيع الاطرادية . وبالرغم من تنوع مظاهر استجابة أفــراد الجماعة للبيئة ، فان فى وسعنا أن نجد تغيرات معينــة ثابتة حدثت لهم كنتيجة لوقوع تغيرات معينة ثابتة فى داخل البيئة . وهنا نحصل على المفتاح الذى يساعدنا على فهم العلاقة بين البيئة والحياة .

ولا تدلنا دراسة هذه التغيرات عما اذا كانت الغلبة للوراثة أو البيئة ، ولكنها على الأقل تدلنا عن السبب الذى من أجلة تعــد كل منهما هامة ،

والكيفية التى تتكشف بها هذه الأهمية ولا شك أنه عندما يظهر عامل جديد على المسرح عند نظرنا لأية مشكلة ونلاحظ أن تغيرات هامة قد نتجت عن ظهور هذا العامل فينبغى ألا ننسب هذا التغير له وحـده . ولنذكر فى هذه المناسبة أن أى تغيير وان بدا تافها فى أى تعبير كيموى قد يؤدى الى فرق شاسع فى النتيجة كالفرق بين الطعام والسم . ولكن الحقيقة أن المزيج الجديد الذى يتألف من العناصر المقومة للتركيب الذى ترجم اليه هذا التعبير ، هى التى أصبحت سامة ، وليس كل عنصر من هذه العناصر على حدة . فان أى تغيير تافه يطرأ عليهما قد يؤدى الى ظهور وضع جديد مختلف من كل وجه . على أننا لا يجب علينا ، بناء على هذا الرأى ، أن نستخلص أن البيئة هى الأهم . ان الحاجة الاجتماعية للمواهب القادرة على الاختراع التى يشجع عليها هذا العصر الصناعى قد رفعت الى ذروة المجد رجالا لو أنهم عاشوا فى عصر سابق لظلوا فى طى النسيان ، وكذلك فان الفرص الحديثة لتكديس الثروة من طريق النظام الرأسمالى قد جلبت الامتياز والقوة ، ان لم تكن السلطة ، لرجال نشأوا أصلا فى أوساط حقـيرة ، مثل كارنيجى وفورد وكثـيرين غيرهما من أساطين الصناعة والمال فى أمريكا ، وهؤلاء ما كانوا فى العصر الاقطاعى ليبلغوا أكثر من وظائف الكتبة والكادحين . والوضع الاجتماعى الجديد أو مجرد المصادفة السعيدة قد تهيىء الفرصة لشخص عبقرى لكى يكشف عن قوته الكامنة . ولكن لا يستطيع أى مقدار من فرصة مواتية أن يحول شخصا متوسط الذكاء الى عبقرى . ومن ناحية أخرى لا ينبغى أن نفترض مع بعض أساتذة الوراثة أن العبقرية تشق طريقها حتما مهما اعترضت هذا الطريق عقبات من البيئة . واذا كان بعض الناس قد انتصروا على ظروفهم ، فهل يخولنا هذا حق القول بأن كل ما فى النفس من عظمـة تستطيع أن تتخطى الحواجز القائمة حولها بحكم مولدها ؟ اننا فى هذا

المجال مضطرون بصفة خاصة الى أن نحافظ على أحكامنا خشية أن تتأثر بمظاهر التحيز الدقيق الذى تدعو اليه وطنيتنا ، أو جنسنا البشرى، أو احساسنا الطبقى أو درجة نجاحنا أو اخفاقنا فى صراعنا من أجل الحياة.

بعض النتائج العامة : أولى هذه النتائج أن الوراثة لا يمكن أن تعمل الا فى نطاق بيئة معينة . اذ جميع الصفات الحيوية تنتقل بالوراثة، ولكن اتاحة الفرص لهذه الصفات حتى تظهر، مسألة تتوقف على البيئة . ويترتب على هذا المبدأ الأولى أنه كلما كانت الاستعدادات الكامنة قوية كانت الحاجة الى البيئة شديدة . وبدلا من أن نحاول تفضيل أحد العاملين على الآخر ينبغى أن ندرك الحقيقة التالية كمظهر من مظاهر الترابط التى أكدناها كثيرا ، وهى أنه كلما كانت الوراثة تنطوى على صفات ممتازة وكبيرة ازداد عامل ملاءمة البيئة أهمية . وعلى ذلك فأبسط الفروق وأدقها فى البيئة قد يكون لها تأثير تافه على الأفراد من ذوى الاستعدادات الضعيفة ، بينما نراها واسعة الدلالة بالنسبة للأفراد الأكثر استجابة لها ، لحاجتهم للافادة منها . ان أى تغيير وان بدا طفيفا فى أية حالة أو أى ظرف من الظروف ، كدافع ما على النجاح أو أى تشجيع أو تثبيط ، قد يكون حاسما عند شخص ذى طبيعة حساسة وقد لا يؤثر الا فى القليل النادر فيمن هم أقل منه حساسية . ويترتب على ذلك أن تصبح دقائق البيئة الاجتماعية أكثر أهمية للأفراد المتدينين والزمر الانسانية الراقية . وهذه الدقائق ، كالتقدير الاجتماعى أو انعدامه ، ووجود أو اختفاء المثيرات الداعية لمضاعفة الجهد فى الأعمال وما شابه ذلك ، لايمكن قياسها ، ولكن اذا أغفلنا أمرها ربما تكونت لنا صورة جد خاطئة عن الفرق بين أية بيئة انسانية وأخرى .

وكلما كانت الحياة مرنة (كحياة الانسان وبعض الحيوان) ازدادت طواعية للبيئة وظلت تحت رحمتها ، الا اذا استطاعت أن تسيطر على هذه

البيئة وأن تخضعها لأغراضها . ولما كان الانسان أكثر الحيوانات مرونة فقد سعى خلال عصور قديمة لا نعرف الكثير عنها لأن يجعل بيئته أكثر ملاءمـــة لسد حاجاته المتزايدة . وقد انفرد من دون ســـائر الحيوانات بالبحث المتصل عن البيئة المواتية ، ويعتبر هذا البحث بالنسبة له أزليا ، وتهم البيئة أهمية كبرى — لسبب يشبه هـذا السبب — خلال المرحلة التى تكون فيها الحياة الانسانية قابلة للتشكل ، وهى السنوات الأولى بعد المولد . وذلك لأننا نتأثر بشدة فى تلك الأثناء بكل ما يشجع الهمم أو يثبطها على السواء . واذن فعلينا لهذا السبب ، ان لم تكن هناك أسباب أخـرى ، أن نقرر الأهمية المتعادلة لعاملى الوراثة والبيئة اللذين بهما يتحدد كل شىء فى حياتنا آخر الأمر .

الفصل الخامس

الجغرافيا والإنسان

الجغرافيا والحياة الاجتماعية

الجغرافيا وسيطرتها : ما دمنا ندرس المجتمع فنحن نهتم بالضرورة بالظاهرة الجغرافية وبالكيفية التى تعترض بها حياتنا باعتبارنا كائنات اجتماعية . ولكنا لا نحاول بالطبع أن نلم بكل هذا الالمام الواسع الهام الذى تشغله الجغرافيا . انما سنجتهد أن نبين الدور الذى تلعبه البيئة الجغرافية فى الحياة الاجتماعية ، ومع الاشارة الى الاحتياطات الضرورية من التعميمات الكثيرة المائعة التى تصادفنا فى أغلب الأحيان بشأن الجغرافيا والانسان .

١ ـ **معنى الجغرافيا** : اننا نستطيع داخل نطاق البيئة الشاملة للانسان أن نميز بوجه عام بين الأحوال الجغرافية وغيرها من الأحوال التى تتوقف هى نفسها على النشاط الانسانى . وتشتمل البيئة الجغرافية على تلك الأحوال التى تمد الطبيعة بها الانسان . وتتضمن سطح الأرض وما عليه من معالم فيزيقية ومصادر للثروة الطبيعية ـ كتوزيع الأرض والمياه ، والجبال والسهول ، والمواد المعدنية والنباتات والحيوانات والمناخ وجميع القوى الكونية ، الجاذبة والكهربية والاشعاعية ، التى تعمل فوق الأرض وتؤثر فى حياة الانسان . ونحن نميز هذه البيئة الأولية أولا عن كل تعديل يصيبها من طريق التخيل التكنولوجى (الآلى) للانسان ، كالذى يحدث عند تنقية الأرض من العشب ، أو عند زراعة التربة ، أو

انشاء الطرق واقامة المدن ، أو استغلال قوى الطبيعة ، وثانيا عن البيئة الداخلية أو الاجتماعية وقوامها مظاهر السلوك العام والآداب العامة والنظم السائدة التى تمد الزمر الانسانية أعضاءها بها ، وسنرجع من وقت لآخر فى هذا الكتاب الى البيئات الجغرافية والتكنولوجية والاجتماعية من حيث تأثيراتها وعلاقاتها بعضها ببعض . وقد يحسن أن نستعرض بايجاز تلك العوامل التى تتكون منها البيئة الجغرافية ، اذ يبدو أن بعض هذه العوامل لا سيطرة للانسان عليه ، بينما يحمل البعض الآخر طابع نشاطه بدرجات متفاوتة .

٢ - العوامل القابلة للسيطرة عليها والعوامل غير القابلة لهذه السيطرة : يمكن أن ندخل من بين العوامل غير القابلة للسيطرة عليها علاقة الأرض بالشمس والقمر ، ومساحة الأرض ، ومدى ثروتها من المواد المعدنية وتعيين أماكنها ، وتوزيع أراضيها الفسيحة والمحيطات المترامية ، وكذلك السهول والجبال ، والأنهار والبحيرات الكبرى ، ومظاهر المد والجزر ، وتيارات المحيطات ، والطاقات الكهربية ، وسقوط المطر [١] ، وهبوط الرياح ، والطاقات الكهربية . ويستطيع الانسان أن يجرى تعديلا طفيفا جدا فى معظم هذه الظواهر ، أما التغييرات الكبيرة فتتوقف على قوى ليست فى طوقه . فالشواهد تدل على أنه آخذ فى استخدامها ، ومستفيد من المزايا التى تقدمها اليه ، وكذلك قادر على تحطيم بعض الحواجز التى وضعتها فى طريق غاياته . فهو لا يقوى على السيطرة على الرياح ولكنه يستطيع أن ينشر شراعه ليملأه بالرياح وبهذه الطريقة يدفع قاربه . وهو لم يتمكن حتى الآن من ازالة الجبال الشامخة، غير أنه شق النفق فى داخلها ، كما أنه لا يستطيع أن يعين خط سير

---

(١) نجح العلم فى السنوات الأخيرة فى اسقاط المطر مع توافر شروط معينة تلائم هذه العملية .

العاصفة ولكنه عرف كيف يستغل الكهرباء فى نقل الكلمات والصور وكيف يجعل منها مصدرا للقوة المحركة لآلاته . وهو لا حيلة له فى تغيير فصول السنة ولكنه يعرف كيف يقى نفسه الحر والبرد [١] . وتوجد هناك عوامل جغرافية أخرى يمكن اخضاعها جزئيا لسيطرة الانسان وما قد يدخله من تعديل عليها ، غير مكتف باستخدامها فحسب . وأهمها توزيع الحيوان والنبات على الأرض وخصوبة التربة . وهو يستولى على الحيوانات والنباتات التى تسد حاجاته ، ثم يستولد الأولى ويزرع الثانية ، ويتخلى عن البعض الآخر لنفس الأغراض . ويترتب على كل هذا أن يضطرب الميزان « الطبيعى » [٢] للحياة العضوية بفعل الانسان . وهو قادر على أن يختار بعض الأنواع يولد كائنات جديدة باخصاب بعضها ببعض بأسلوب لا تعرفه الطبيعة الأصلية أو تطبقه . فهناك مساحات واسعة تختص بحياة نباتية أدخلها الانسان وحده وسهر على المحافظة عليها ، كمناطق القمح والقطن والحبوب والطباق والرز . وهذه الزراعات بدورها تنتهى الى الارتباط بثقافة هذه المناطق ونظمها الاجتماعية السائدة ، كما يلاحظ كل من أتيح له السفر عبر « الحزام القطنى » فى جنوب الولايات المتحدة أو مناطق القمح الشاسعة فى غربها أو مساحات زراعة الرز فى الشرق الأقصى . وعلى ذلك فاننا بالاضافة الى أو عبر الأقاليم

---

(١) ذكر جوليان هكسلى فى خطاب عام له ، القاه فى شتاء ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ، امكان استخدام القنبلة الذرية كنوع من « الديناميت الصناعى » بغية تهشيم ثلوج المناطق القطبية وبذلك يتغير مجرى بعض تيارات المحيطات ودرجة حرارتها والأحوال المناخية فى بعض أجزاء الكرة الأرضية . ومهما كان هذا الأمل عريضا نوعا ما فان القوى التكنولوجية الكامنة فى الانقسام الذرى هائلة جدا لدرجة أنها تسوغ مثل هذا التغيير فى العوامل التى ذكرناها توا والتى كان يظن أنها غير قابلة للسيطرة عليها .

(٢) لا ينبغى أن نعتبر الانسان وأعماله مظاهر غير طبيعية وهذا مادعانا لاحاطة كلمة « الطبيعى » بالعلامات .

الجغرافية المتميزة بظواهرها الطبيعية الخاصة ، نجد مناطق جديدة ساعد على خلقها رغبة الانسان فى استغلال أنواع عدة من الحياة العضوية .

٣ ـ « **الطبيعة ضد الإنسان** » : بعد أن حطم الانسان الميزان الطبيعى كما رأينا فى الأسطر السابقة — وجد نفسه مضطرا لأن يعمل جاهدا وبصفة مستمرة على حفظ الميزان « المصطنع » فهو لا يكف عن مصارعة أعدائه من متلفى زراعاته ، كالأعشاب الضارة والحشرات وغيرها من الآفات الضارة والنباتات الطفيلية والكائنات العضوية المتناهية فى الصغر كالديدان والسوس . ومن جهة أخرى فان زراعة الانسان للأرض بالطرق الفنية من شأنها أن تضعف خصوبتها ولكنه عرف بالتدريج كيف يعيد الى التربة ما تفقده من خصائص ، بل ويزيد من قوتها الأصلية. ومثال ذلك أن المحصول الزراعى فى أوربا فى الوقت الحاضر يساوى حوالى أربعة أمثال ما كان عليه منذ خمسة قرون مضت . وقد تجاوز المحصول ذلك بكثير فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جمهوريات روسيا السوفييتية . ويتعاون اليوم علم الحياة والكيميا وعلوم أخرى فى خدمة الانسان بحيث يسيطر سيطرة كبيرة على خصوبة التربة وقدرتها على انتاج المحصولات . وبوساطة طرق الرى الحديثة يجرى العمل على تمكين الأنهار والبحيرات بكل قواها الكامنة من أن تمدنا بالمياه والقوة المحركة ومخصبات التربة وغير ذلك من ضروريات الزراعة الحديثة لخدمة أقاليم واسعة برمتها ، مثل وادى تنيسى وأراضى كاليفورنيا الخصبة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن ينبغى ألا نستخلص مما تقدم أن الانسان قد تحكم فى بيئته الفيزيقية والبيولوجية . ونحن نعرف أن مدن حضارة مييا[1] التى دفنتها

---

(١) بالمكسيك . ـ المترجم

الغابات دليل صريح على الطريقة التي يمكن أن تؤكد بها الطبيعة سلطانها. ولقد زعم بعض المؤرخين أن سقوط الحضارة السومبرية القديمة [1] كان مصحوبا بانتشار الملاريا ، كما أن اضمحلال الثقافات فى سواحل شرقى البحر الأبيض المتوسط [2] قد لازمه تحول نحو الفقر وجفاف فى التربة، جعلها أشبه ما تكون بالصحراء القاحلة [3] . وهناك الأوبئة التاريخية ، التى لا يستبعد أن يتكرر وقوعها ، كتلك التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تذكرنا بأن سيطرة الانسان على بيئته البيولوجية لاتزال بعيدة عن أن يعتمد عليها [4] . كذلك نحن لسنا فى حاجة الى أن نشير بالتفصيل الى أن فى بلادنا (الولايات المتحدة الأمريكية) مناطق شاسعة مهددة بأن تصبح كالصحارى نتيجة لعملية اقتلاع الغابات واتلاف التربة، ولا سبيل الى انقاذها الا بالمحافظة عليها بالطرق العلمية فى أوسع نطاق، وأن لدينا أيضا مصادر للثروة الطبيعية يظن أنها « غير قابلة للنفـاد » كالبترول وتراب الحديد ، مع أنها قريبة جدا من النفاد قربا خطرا [5] .

---

(١) وتمثل العنصر غير السامى حضارة بابل . — المترجم

(٢) نلفت نظر القارىء الى أن المؤلفين يستخدمان « الثقافة » و « الحضارة » هنا كمرادفين . وهكذا يفعل معظم المؤلفين الغربيين المحدثين . — المترجم

(٣) See, for example, V.G. Sim Khovitch, "Hay and History", *Political Science Quarterly*, XXVIII (1913), 385-403.

(٤) هناك أبحاث قيمة عن هذا الصراع فى :

H. Zinsser, *Rats, Lice and History* (Boston, 1935), and H.E. Sigerist, *Civilization and Disease* (Ithaca, N.Y., 1943).

(٥) من خير الأبحاث المتعلقة بموضوع اتلاف مصادر الثروة الطبيعية والمحافظة عليها ، ما يلى :

S. Chase, *The Tragedy of Waste* (New York, 1925) and *Rich Land, Poor Land*, (New York, 1936); K. Glover, *America Begins Again* (New York, 1939); H.R. Muelder and D.M. Delo, *Years of This Land*, (New York, 1943); F. Osborn, *Our Plundered Planet* (Boston, 1948); and W. Vogt, *Road to Survival* (New York, 1948).

وليس من المستغرب اذن أن العلاقة المستوحاة من هذه الأمثلة القليلة ، بين الفيزيقية للانسان وبين الحياة الاجتماعية ، قد أدت الى قيام مدرسة جغرافية لعلم الاجتماع .

المدرسة الجغرافية لعلم الاجتماع : كثيرا ما نقرأ أن المفكرين تحدثوا فيما مضى عن تأثيرات الأحوال الجغرافية فى المجتمع الانسانى . وهم ازاء ما لمسوه من فروق أساليب الحياة الانسانية ومقتضياتها على سفوح الجبال ، وفى السهول ، وبالقرب من شاطىء البحر ، وفى الصحراء وفى الغابة ، وفى المناطق المعتدلة المناخ والمناطق الحارة ، لم يترددوا فى أن ينسبوا للجغرافيا دورا رئيسيا ، وأن ينظروا اليها باعتبارها العامل الأول من حيث الأهمية فى تحديد صحة السكان وثرواتهم وكثافتهم وطاقتهم الحيوية ، وعاداتهم الجمعية ونظمهم الاجتماعية وعقائدهم وفلسفاتهم . وقد نشأت خلال القرن الماضى ، من أمثال هذه المشاهدات ، مدرسة واضحة للجغرافية البشرية والاجتماعية .

١ ـ بعض ممثلى المدرسة الجغرافية : يمكننا هنا أن نمر دون توقف بالكتابات الجغرافية التى خلفها المفكرون ابتداء من أرسطو فى الزمن القديم الى مونتسكيو فى القرن الثامن عشر . ومن رواد الجغرافيا الاجتماعية عالم فرنسى مثل هذا الأخير ، هو فريدريك لوبليى ، الذى تبعه فى بلاده ديمولان وآخرون ، ومن المشاهد أن دراسة الاقليم كمجال تختص به « الجغرافيا البشرية » أصبحت منهاجا مفضلا عند علماء الاجتماع الفرنسيين ، وقد امتد تطبيقه فى السنوات الأخيرة الى أقاليم فى خارج فرنسا [١] . وهذا التوكيد من قبل لوبليى وخلفائه للعلاقة بين خصائص البيئة الفيزيقية ومظاهر نمو الحياة الاجتماعية ، كما ذكرنا فى

---

(١) See, for example, J. Gottmann, "French Geography in Wartime", *Geographical Review*, XXXVI (1946), 80-91.

الفصل السابق ، قد أثر فى أبحاث الايكولوجيين البشريين والدراسات الاقليمية التى أجراها هاورد و . أودم وزملاؤه . وقد نشأ فى ألمانيا فرع هام للمدرسة الجغرافية البشرية . وفى انجلترا ظهر تاريخ للحضارة يتبع نفس المنهاج بقلم هـ . ت . باكل . ويمكن أن نذكر من بين ممثلى هـذه المدرسة من الأمريكيين الن سمبل ، وهى من أتباع راتسل ، وكلا من أ.ج. دكستر والزويرث هانتنجتون ، وقد تحرى هذا الاسم الأخير فى سلسلة من المجلدات آثار التصادم أو الاحتكاك الحادث بين المجتمع والثقافة من جهة وبين الأحوال البشرية (المتعلقة بالأجناس البشرية) والمناخية من جهة أخرى [1] .

وقد أضاف كتاب هذه المدرسة اضافات وافية لمعرفتنا بدور الجغرافيا فى نمو الحياة الانسانية . انهم جعلونا ندرك العلاقة المتبادلة بين المناخ والطبوغرافيا والجوانب المختلفة للبيئة الفيزيقية من ناحية ، وبين الظواهر السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية من ناحية أخرى . الا أن مما يؤخذ عليهم أنها تفسيرات مضلة .

٢ ـ **مظاهر قصور هـذا المنهاج :** تظهر فى كثير من أبحاث المدرسة الجغرافية صعوبة منشؤها أن هذه المدرسة تعنى بجانب واحد ليس غير من جوانب البيئة الشاملة ، كما لو كان علة منفصلة وكافية ، بدلا من

---

(١) أنظر بشأن المدرسة الجغرافية :

P. Sorokin, *Contemporary Sociological Theories* (New York, 1928), Chap. III ; and F. Thomas, "The Role of Anthropogeography in Contemporary Social Theory", in *Contemporary Social Theory* (H.E. Bernes and H. Becker, eds., New York, 1940), Chap. VII.

وأحدث كتب هانتنجتون وأشملها الكتاب التالى :

Mainsprings of Civilization (New York, 1945).

النظر الى هذا الجانب على اعتبار أنه عامل مؤثر متشابك تشابكا قويا مع عدة عوامل مؤثرة . وقد أبانت مناقشتنا للوراثة والبيئة فى الفصل السابق الحاجة الى كثير من الحذر فى هذا الشأن ، وهو حذر كثيرا ما نجد كتابات هذه المدرسة مفتقرة اليه . فمثلا يخبرنا لوبليى أن الشكل الخاص الذى تتميز به الأسرة ينتج عن ظروف العمل الذى تحدده طبيعة الدائرة المحلية التى تعيش فيها الأسرة . ولكن ما القول فى أن أشكالا للأسرة قد تنمو فى نفس الظروف الجغرافية أو فى ظروف متشابهة ؟ ويخبرنا باكل كذلك أن نمو الثروة يتوقف كلية الى التربة والمناخ . ولكن كيف نفسر مثلا التاريخ الموصوف بالرخاء النسبى لولاية نيوالجلاند المعروفة بأنها « موحشة وصخرية » ؟ ويسعى هاتنجتون فى كتابه الحضارة والمناخ الى أن يرينا أن الظروف المناخية المواتية عامل رئيسى فى تحديد خط السير التقدمى للحضارة . وانا لنتساءل بشأن اليابان الحديثة ، التى تستمتع بظروف هاتنجتون « المواتية » ومع ذلك نراها قد استعارت جزءا ضخما من حضارتها من العالم الغربى ؟

وسبق أن ذكرنا أن الحضارة نفسها قادرة على أن تعدل تأثير الجغرافيا . ويمكن أن نضيف هنا أن الجغرافيا لا تستطيع أن تحدد بنفسها أو فى ذاتها على الاطلاق مجرى الأحداث الانسانية . وهذه وجهة نظر يؤيدها كثيرون من الجغرافيين المعاصرين أنفسهم . وقد عبر عن ذلك واحد من ممثليهم المبرزين على النحو الآتى :

« لا يأخذ العلم أو الفكر الجغرافى المعاصر بنظرية المدارس القديمة التى نادت بالجبرية الميكانيكية [1] . ان الوقائع المتعلقة بالأرض لا تحدد شكل المجتمع الانسانى وطبيعته خلال تطوره ولكنها تكيفه . وهناك

(١) ومؤداها أن مجرد توافر ظروف جغرافية معينة يؤدى حتما لنوع معين من الظواهر الاجتماعية . — المترجم

وقائع أرضية جديدة تكشف من وقت لآخر ، من شأنها أن تجعل الوقائع القديمة عرضة لأن تفسر تفسيرات جديدة كلما تقدمت المعرفة الانسانية، وتطور الفكر ونمت الحياة الاجتماعية ، مما يدعونا لأن نقرر أن العلاقات متناوبة بين هذه الوقائع وبين نمو المجتمع »[1].

٣ ـ همسة بخصوص « الجيوبوليطيقا » : كثر الكلام فى السنوات الأخيرة حول « الجيوبوليطيقا » (علم السياسة الجغرافى) ، التى لم تعد علما صحيحا فى رأى الكثيرين فى الوقت الحاضر . وبالرغم من أنها لا تنتمى الى المدرسة الجغرافية لعلم الاجتماع فانها تحتاج الى تعليق موجز . وذلك لأن هذا المزيج المركب من الأمانى الوطنية والاستراتيجية العسكرية والدراسة الجغرافية ، والذى برز الى المكان الأول من الأهمية فى ألمانيا بين الحربين العالميتين الأخيرتين ، كان تطبيقا لنظرية أحد الكتاب الذين سلفت الاشارة اليهم وهو راتسل ، وقد تزعم نفسه هذا الاتجاه الى حد ما عندما بدأ لأول مرة . ونحن نذكر أن راتسل دافع فى كتاب له وضعه عام ١٨٩٧ وعنوانه الجغرافيا السياسية عن نظرية مؤداها أن الدولة كائن عضوى حى يحتاج الى مجال حيوى تتسع دائرته على الدوام لضمان البقاء والاصرار عليه . ولقد لقيت هذه الفكرة بالطبع ترحابا لدى التوسعيين الألمان وأصبحت جزءا من التقاليد القومية والعسكرية المتطرفة فى ألمانيا — واستطاعت الجيوبوليطيقا أن تحرز خلال الحرب العالمية الأولى وفيما بعدها مركزا أكاديميا محترما بزعامة كارل هوشوفر ، العالم الجغرافى والضابط السابق فى الجيش ، الذى أسس معهدا وصحيفة

(١) Isaiah Bowmann, *Geography in Relation to the Social Sciences* (New York, 1934), p. 225.

وهذا الرأى معبر عنه ضمنا وصراحة فى كتابات بعض الجغرافيين من أمثال :

R. Hartshorne, J. Rjssell Smith, V. Stefansson, H.W. Weigert, and D. Whittlesey..

للجيوبوليطيقا فى ميونيخ . وقد استعارها هاوشوفر على نطاق واسع من كتابات البحاثة البريطانى هـ . ج . ماكنور ، ولهذا نظرية مشهورة عن « الأرض التى بمثابة القلب » تقول بأن قوة العالم تلتقى عند مركز تلك الكتلة الأرضية الكبرى المعروفة باسم القارة الأوراسية ، التى تعتبر من أجل ذلك منطقة ذات شأن سياسى كبير بالنسبة لجميع الأمم . وقد استخدم ماكنور هذه النظرية لتأييد تحالف بريطانى مع روسيا ، كما استغلها هاوشوفر لتأييد تحالف ألمانى مع روسيا أيضا — وهذا رأى كان يعتنقه بعض العسكريين الألمان . وفى خلال الحرب العالمية الثانية أصبح كثير من اكتشافات الجيوبوليطيقا جزءا هاما من الاستراتيجية العسكرية لمحور روما — برلين . ومما نذكر بهذه المناسبة أنه حتى اليابان ظهرت فيها مدرسة فكرية للجيوبوليطيقا .

ان دراسة الوقائع الجغرافية لبلاد الأصدقاء والأعداء محل عناية الاستراتيجيين العسكريين وواضعى السياسة الدولية كما تشهد بذلك الجيوبوليطيقا الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك فحينما ينظر الى كتل اليابسة ومساحات الماء وما على شاكلتها باعتبار أنها العلل الأساسية للقوة القومية والمصير التاريخى ، كذلك لتسويغ سياسة التوسع ، يكون معنى هذا أننا نواجه أقوى وأشهر الأدلة على الجبرية الجغرافية فى أشد أشكالها تطرفا . ومهما جمعت المعلومات الجغرافية وتم وصلها بعضها ببعض بحذق ومهارة (هذا رغم أن الباحثين الذين استخدمهم هاوشوفر لم يكونوا فى جملتهم من الجغرافيين المقتدرين) ، ومهما كانت هذه المعلومات مفيدة لواضعى الخطط الحربية ، فانها لا تسوغ فى ذاتها أية نظرية للجبرية الجغرافية . ان قوة أقوى أمتين فى العالم فى الوقت الحاضر ، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ترتكز جزئيا ، فى حقيقة الأمر على موقعهما وما لديهما من مصادر للثروة

الفيزيقية . ولا يستطيع أى باحث دقيق – سواء أكان جغرافيا أم باحثا عاما أم من رجال الدولة أم من علماء الاجتماع – أن يقدر قوة أى من هاتين الأمتين دون أن يدخل فى الحساب حالة الفنون الصناعية والمستويات التعليمية وآمال المواطنين ودواعى وحدتهم وتفككهم ومظاهر ولائهم وكيفية قيادتهم . وعلى ذلك ، فمهما كانت الوقائع المتصلة بالأرض ، ينبغى أن ينظر اليها بالاشارة الى تراث الانسان الاجتماعى [1] .

الحضارة والاحوال الجغرافية : من أهم مظاهر الحضارة مقدرتها على السيطرة على البيئة الخارجية . وهناك مبدأ أو قانون هام تكشف عنه علاقة الانسان بالأحوال الجغرافيـــة خلاصته : كلما زادت سيطرة الانسان نقص اعتماده المباشر وقل اعتماده الكامل على البيئـــة المباشرة التى يعيش فيها وأصبحت هذه أقل تأثيرا فيه . ولا بد لنـــا من فحص حقيقة هذا المبدأ وما يسوغه .

١ – **الدافع الجغـــرافى :** لا تستطيع البيئة الجغرافية وحدها البتة أن تفسر نشوء حضارة ما . وليس فى وسعنا أن نكشف أية علة كامنة فى الأحوال الجغرافية بحيث تتخذها كدافع على مولد حضارة كبيرة فى وسط

---

(١) من بين المراجع العديدة عن الجيوبوليطيقا ما يأتى :

H.W. Weigert, *Generals and Geographers* (New York, 1942); R. Strauz-Hupe, *Geopolitics* (New York, 1942); A. Gyorgy, *Geopolitics, The New German Science* Berkeley, Cal., 1944).

وللبيانات الموجزة بأقلام كتاب آخرين من الاخصائيين أنظر :

Compass of the World (H.W. Weigert and V. Stefansson, eds., New York, 1944), especially those of E.A. Walsh, I. Bowman, R.E. Harrison and H.W. Weigert, J. Russell Smith, and H.J. Mackinder, *Examples of the More Moderate American* "Geopolitics" include D. "Whittlesey, The Earth and the State (New York, 1939); N.J. Spykman, *America's Strategy in World Politics* (New York, 1942) and *The Geography of the Place* (New York, 1944).

جزيرة كريت بدلا من مولدها فى وسط جزيرة صقلية . أو تعطينا تفسيرا لنمو حضارة ميبا العظيمة فى منطقة الغابات بأمريكا الوسطى بدلا من نموها فى الأراضى الجبلية أو المناطق الساحلية . ومما يستوقف النظر حقا قيام حضارات قصيرة العمر وأخرى طويلته بالرغم من نشوئها تحت نفس الأحوال الجغرافية أو ما يشبهها .

« ومن الواضح أن نفس المزيج المركب من العنصرين البشرى وغير البشرى فى البيئة قد يؤدى لقيام حضارة فى احدى الحالات ويعجز عن أن يفعل ذلك فى حالة أخرى ، دون أن يكون فى مقدورنا أن نعلل هـــذا الفارق البين فى النتيجة بتحرى أى فارق مادى فى الظروف مهما كنـــا دقيقين فى المقارنة . وبالعكس نرى جليا أن الحضارات يمكنها أن تنشأ ، وانها لتنشأ بالفعل فى بيئات متباينة أشـــد التباين . والبيئة غير البشرية أنواع مثل النـــوع النهرى الذى أدى لقيـــام » الحضـــارات المصرية والسومرية وربما أيضا لقيام ثقافة هندية قديمة مستقلة ، أو « النوع الهضبى » الذى ساعد على نشوء حضارات الأنديز والحيثيين والمكسيك، أو « النوع الأرخبيلى » الذى بعث الحضارات المينوسية [1] ، والهلينية وحضارة الشرق الأقصى ، فى اليابان ، أو النوع القارى الذى أوجد حضارات الصين والهند والحضارات الغربية والحضارة الأرثوذكسية المسيحية فى روسيا ، أو نوع « الغـــابة » الذى تولدت عنه حضـــارة « ميبا » [2] .

---

(١) وهى حضارة جزيرة كريت المنتسبة الى الملك الأسطورى الكريتى « مينوس » . — **المترجم**

(٢) *From A Study of History*, by Arnold J. Toynbee (London, 1934), I, 269. Published by Oxford University Press under the auspices of the Royal Institute of International Affairs. See pp. 249 ff. in this volume or Part II of D.C. Somervell's abridgment of Toynbee's work (New York, 1947) for the latter's discussion of Geography and civilization.

ان صاحب هذا النص وهو ارنولدج . توينبى قد أوضح بطريقة مقنعة أنه مهما كانت البيئة الجغرافية ذات تأثير فى تحديد صفات الحضارات ، فليس هناك دليل على أن للجغرافيا قوة تسيير الأعمال البشرية . وأكثر من ذلك فان توينبي يسعى الى « أن يرفض الوهم الشائع بأن الحضارات تنشأ عندما تمنح البيئات ظروفا مواتية للحياة ، والى أن يقدم لنا رأيا يؤيد الفكرة المضادة تماما » [1] . وعلى ذلك فهو يمدنا بالحالة بعد الحالة ، من حضارة ميبا الى الحضارة الهندية فى سيلان ومن انتشار الحضارة البولينيزية فى المحيط الهادى الى الحضارة القائمة فى ولاية نيوانجلاند [2] ، لكى يوضح « فضل الشدة » التى استجاب بها ازاء هذه الظروف حتى استطاع أن يخلق حضارات رائعة تثير الاعجاب . ومهما شككنا فى طريقة توينبى التى قلب بها المدخل المتواضع عليه فى دراسة التأثير الجغرافى ، فإن هناك عددا ممن يقرأون له لا يمكن أن ينتهوا من كتابه الضخم الا وقد أصبحوا جبريين جغرافيين ولا يخامرهم أى ريب فى صحة نظريته . ونحن لا نستطيع على كل حال أن نرفض الدافع الجغرافى على العمل البشرى فحينما نعلل ما حقيقة ثقافات وديان الأنهار فى العصور القديمة ، كالنيل ودجلة والفرات ، ينبغى أن نشير الى الخصائص الفيزيقية لهذه الأنهار وأوديتها . وحينما نتحرى مدى نجاح ادارة مشروع التنيسى [3] ، لا يمكننا أن نغفل أحوال الأرض والتربة والمياه فى وادى تنيسى .

٢ ـ **الجغرافيا والحضارة** : من الخطأ مع كل ذلك أن نفترض أن دور الجغرافيا كان هو هو فى مصر والعراق ووادى تنيسى . ويرجع هذا الى أن الحضارة نفسها تتعرض لتغييرات كبرى . وقد أدى ما صنع الانسان من وسائل للمواصلات الى أن تكون للحضارات أهداف

(١) Somervell abridgment, op. cit., p. 80

(٢) بالولايات المتحدة الأمريكية . ـ المترجم

(٣) بالولايات المتحدة الأمريكية . ـ المترجم

جديدة . فالخصوبة الزراعية أصبحت أقل شأنا فى تحديد عدد السكان وثروتهم . وربما كان أهم ما أحرزته ادارة وادى تنيسى من نجاح استصلاح أرض المنطقة وجعلها صالحة للزراعة من جديد . ومما دفع السكان الى الهجرة بالجملة الافادة من الظروف الجديدة باستغلال المهارة الصناعية والعمل الحر فى ميدان التجارة والمال ، وتلك الفرص الاقتصادية المتوقفة جزئيا على تحكم الانسان فى الطبيعة . وقد حدث فى انجلترا أن تغيرت مراكز تجمع السكان بعد الثورة الصناعيـــة ، بأن انتقلت من المنـــاطق الجنوبية الخصبة الى المناطق الشـــمالية الأقل خصوبة ، بينما تعمـــل التغييرات الاقتصادية الحديثة فى الوقت الحاضر على اعادة تغير هـــذه المراكز . وفى الولايات المتحدة ساعدت الأحـــوال الاقتصادية فى أول الأمر على قيام صنـــاعة النسيج فى ولاية نيوانجـــلاند ، ولكن عوامل اقتصادية لاحقة نقلت جزءا من هذه الصناعة الى ولايتى كارولينا مع بقاء العوامل الجغرافية كما هى . ومعنى هذا أن تؤدى ســـيادة العـــوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية الى أن يبدو المجتمع مستقلا نسبيـــا عن التأثير المباشر للعوامل الجغرافية المحيطة به . لقد ذهب أحد الكتاب الى أن خط سير الحضارة متجه «نحو الجو البارد» ، منذ الامبراطوريات السومرية والمصرية [1] . هذا التعميم مشكوك فيه بالطبع ، ومن جهـــة أخرى فان الصلة بين الحضارة العالية وبين درجة الحرارة المنخفضة غير مؤكدة . والذى تدل عليه هذه التغيرات التى أشرنا اليها هو كيف أن القوى المنبعثة من داخل المجتمع تحدد على الدوام بيئات الحضارات الكبرى .

وليس من الصعب أن نبين سبب ذلك . ففى الحياة البدائية يقتصر

---

(١) S.C. Gilfillan, "The Coldward Course of Progress", Political Science Quaterly, XXXV (1920), 393 ff.

وحتى هانتنجتون الذى كتب بالتفصيل فى موضوع « العلاقة القوية بين كفاية الأحوال الجوية والحضارة » ، يشير الآن الى « الواقعة الرئيسية ومؤداها أن الحضارة تتوقف على تأثير الوراثة والبيئة الفيزيقية والتاريخ الثقافى معا » — أنظر : *Mainsprings of Civilization*, p. 399.

نشاط الانسان على ما تحدده له الدائرة المحلية التى يعيش فيها . وهو يعتمد على المنتجات الغذائية وأدوات البناء ونسيج لباسه مما تمده به الجيرة المباشرة . فاذا كان هناك قحط محلى لا تكون لديه وسيلة يتقى بها المجاعة . ان نشاطه الاقتصادى متوقف على المنتجات التى تقدمها له البيئة المحلية أو تسمح له بها أدواته وآلاته المحدودة . ان فنونه وصناعاته وعاداته الجمعية ومعتقداته تتجاوب كلها مع بيئته المحلية ومن أجل ذلك دأب الأنثروبولوجيون على أن يصفوا ثقافات بدائية كاملة على أساس انتاج زراعى أو حيوانى معين خاص بالأقليم مثل قولهم : ثقافة الجاموس وثقافة الذرة وثقافة اقليم الغابات فى الشرق — وهى أسماء « مناطق ثقافية » تنطبق على أمريكا التى كان يقطنها الهنود الحمر قبل اكتشاف كولمبس .

واذن فان نمو الحضارة يغير التأثير المباشر للأحوال الجغرافية المحلية ويقلل من مفعوليته . وانا لنرى الرجل الحديث يحصل على أنواع عدة من المنتجات من مناطق كثيرة . وكثير من صناعاته لا يمت بأية صلة على الاطلاق بالبيئة الجغرافية . كما أن وسائل مواصلاته تنقله الى بلاد تتيح له أن يواجه عادات جمعية جديدة وأساليب مختلفة للحياة لم تكن مألوفة له من قبل . وفى الحقيقة يصادف الانتشار السريع للمؤثرات الثقافية فى الوقت الحاضر عقبات من صنع الانسان باسم السياسة أو التعصب أكثر مما يلاقى من حواجز بيئية فى اليابسة والماء . ولما كان من الممكن التغلب على هذه العقبات بالتكنولوجيا الحديثة وتعجيل انتشار الثقافة تبعا لذلك فقد ترتب على هذا تناقض فى التجانس المحلى فى المجتمع الواحد من جهة وتقارب ثقافى بين بعض المجتمعات وبعضها من جهة أخرى .

أنظر مثلا التباين الثقافى المشاهد فى جماعة محلية مثل « ميدلتاون » القائمة فى مروج الميدويست بالولايات المتحدة حيث تجد أحدث ما وصلت اليه التكنولوجيا الى جانب التقاليد الشعبية القديمة التى ترجع الى عدة أجيال مضت ، ثم تأمل بعد ذلك الأشياء العديدة المشتركة — فى النواحى

الاقتصادية والمدنية والتقاليد السياسية والتعليم وما شابه ذلك — بين ميدلتاون وبين الجماعة المحلية الساحليــة فى نيوانجلاند المعروفة باسم « يانكى سيتى » . وغير هذين المثالين لا تنسى الشكوى التى يرددها بعض الأوربيين من أن قارتهم آخذة فى أن تصير « متأمركة » أو بعبارة أخرى مختومة بخاتم ثقافتنــا الأمريكية . وعلى العكس من ذلك هناك التباين الثقافى الملاحظ فى كل مدينة من المدن الكبرى فى العالم — حيث لا يتعذر أن نجد جميع المستويات الحضارية اذا بحثنا عنها فى نيويورك أو باريس أو سان فرانسيسكو أو شنغهاى . ومن الممكن أن نعدد الأمثلة الى ما لا نهاية عن دور الحضارة المتزايدة الأهمية فى تحديد شكل الجماعة المحلية والدور المباشر المتناقض للجغرافيا فى تحديد طريقة حياة الانسان .

ان الانسان أقدر على أن يتعلم قوانين الطبيعة لمصلحته ونفســه . وأما توقف حياته على الأحوال الجغرافية المحيطة به فيمكن أن يعدله بطريقتين أوليين . فمن جهة يرى أنه حر فى التحرك الجغرافى، وهذه الحرية قوة كبيرة تساعده فى اختيار المكان الذى يرغب فى الاســتقرار فيه أو تغييره . وهو الآن يستطيع أن ينتقل بسرعة ، دون أى عناء شخصى وبأقل النفقات من مكان الى آخر ، حتى ان الهجرة من موطن قديم الى موطن جديد لا يقف فى سبيلها الآن الا ما يفرضه المجتمع ، لا الجغرافيا ، من عقبات ، ومن جهة أخرى فانه يتعرض لنتائج ارتطام المؤثرات المختلفة فى البيئات النائية . ونحن نرى أن أسلوب حياته وتفكيره ونظامه الاجتماعى، كل أولئك يتأثر بما يفعله أو يفكر فيه غيره من الأقوام وهم على بعــد آلاف الأميال منه . كما أن غذاءه يشتمل على أشياء منتجة فى بلاد بعيدة ومجمل القول أن التراث الاجتماعى كلما نما قلت أهمية العوامل الجغرافية من حيث امكانها تفسير الحياة الاجتماعية .

وليس معنى هذا — بالرغم من ذلك — أن بيئة الانسان الفيزيقية تقل دلالتها العامة كلما تقدمت فنونه الآلية :

« فكلما زاد التراث الثقافى ، أصبح جزء كبير من البيئة مفيدا ويعنى

الكثير . وان الأحوال الطبيعية للاقليم تكون خطيرة الأهمية اذا لم يتقدم مفعولها نتيجة لزيادة الثقافة والمهارة الفنية . فالصياد يعرف الغابة فقط كموطن للطيور التى يصطادها ، ولكن الرجل الحديث يعتبر الغابة مصدرا للأخشاب ووسيلة لحماية التربة من التآكل كما يجد فيها فضاء لتجديد النشاط ومجالا للمشاهدة العلمية » (١) .

ان لويس ممفورد ، صاحب هـذا النص ومن المتحمسين للتخطيط الاقليمى ، ربما كان مبالغا فيما يقول . غير أنه يوجه أنظارنا الى ما بين الجغرافيا والحضارة من أخذ وعطاء .

العلاقة الخاصـــة والمحـددة بين الجغرافيا والمجتمع : اننا لا نرفض « الوقائع الأرضية » فهى ما زالت ذات تأثير واضح ودقيق جدا فى حياة المجتمع . وقد يحسن أن نفحص بعض العلاقات القائمة بينهما .

١ ـ **التأثيرات المباشرة للجغرافيـا :** انه لمن الواضح كل الوضوح أن الجغرافيا تهيىء ظروفا معينة ذات دلالة اقتصادية كبيرة . وقد ذكر أحد الثقات ستة أنواع من النشاط البشرى تعتمد اعتمادا مباشرا على الوقائع الجغرافية : (١) البيئة والسكن ، (٢) نوع الطرق واتجاهها ، (٣) زرع النباتات ، (٤) تربية الحيوان ، (٥) استغلال الثروة المعدنية ، (٦) الأضرار التى تصيب النبات والحيوان (٢) .

وينبغى أن نذكر أن الوقائع الجغرافية تختلف دلالتها بالنسبة لهذا النشاط البشرى أو ذاك تبعا للتقدم التكنولوجى وغير ذلك من مظاهر التغير الحضارى . وعلى سبيل المثال لم يكن ظهور الفحم فى أوربا أولا وفى أمريكا من بعدها « واقعة أرضية » لها معناها الا عندما بدأ العصر الصناعى . وبنفس الكيفية ظهرت هناك أهمية اجتماعية لم تكن فيما قبل لحقول البترول ومصـــادر القوة المائية الكهربيـــة ، وأخـــيرا لكميات

---

(١) From *The Culture of Cities* by Lewis Mumford, Copyright, 1938, by Harcourt, brace and Company, Inc.

(٢) Jean Brunhes, *Human Geography* (New York, 1920), Chaps. I and II.

الأورانيوم الموجودة فى اركنساس . وفى الحقيقة ، ان ما نسميه « مصدرا للثروة الطبيعية » ليس مجرد نوع من التربة أو المعادن أو الأنهار ، وانما هو نتيجة لتقدم حضارى — أو لمعرفة طبيعة الأرض واستغلالها بوساطة أحد المجتمعات القائمة . واليك مثالا آخر — فهناك بلاد تقدمت الحياة فيها وازدحمت بالسكان بفضل العوامل الجغرافية ، الا أن هذه العوامل فقدت أهميتها فيما بعد بتقدم الفنون الصناعية وانتشارها بين مكان الى آخر . وهذا هو السبب الذى من أجله ساعدت الأحوال المتغيرة على تكوين أهمية مدينة كالبندقية ، أو قادش ، أو مدن الهنسا أو مراكز صيد الحوت القديمة فى نيوانجلاند ، كما أدت التغيرات الجديدة بعد ذلك الى أن تفقد هذه المدن والمراكز أهميتها . وانظر كذلك الى الطرق المائية والموانىء الطبيعية أو النقل المتعذر لأسباب طبوغرافية كما هى الحال عند التقاء ممر جبلى بهضبة أو حافة الصحراء بأحد السهول الخصيبة ، وكيف أثرت هذه الظروف فى قيام مدن مثل نيو أورليانز وسان فرانسيسكو وبافالو ودنفر والقاهرة والقسطنطينية وأنتويرب ، ثم كيف أدى تقدم حركة النقل ونمو التجارة والصناعة الى ازدهار هذه المدن أو تدهورها . ومما يستحق التسجيل أيضا أن الاكتشافات الجديدة فى صناعة التعدين مثلا تبرز فجأة أهمية مناطق كانت قيمتها فى أول الأمر محصورة فى أرضها وطرق الانتفاع بها مثل مناطق الخام اللازمة لانتاج الألومنيوم . هذه الأمثلة جميعها ترينا التأثير المباشر لبعض العوامل الجغرافية على الحياة الاجتماعية ، ولكنها توقفنا كذلك على التفاعل المستمر بين الوقائع الجغرافية ووقائع التراث الاجتماعى .

٢ - التأثيرات الجغرافيـة غير المباشرة : اننا حينما نعرج على التأثيرات الجغرافية التى تدق على الملاحظة أو تخفى عليها أكثر من سواها نحتاج الى كثير من الاحتياط . وذلك لأنه من السهل أن نجد علاقات تربط بين الأحوال المناخية أو المتعلقة بطبيعة الأرض وبين الظواهر الاجتماعية . وقد أشار بعض الكتاب الى علاقات ترابط بين المناخ وبين

الجريمة والانتحار والجنون وقوة الجسم والعقل وغير ذلك [١] . غير أن الترابط ليس تفسيرا ، انه لا شيء أكثر من دافع الى مواصلة البحث والدرس .

أنظر الى الترابط القائم بين القوة البشرية وبين المناخ العنيف المتغير الموجود فى انجلترا أو فى نيوانجلاند (بالولايات المتحدة الأمريكية) . هذا الترابط يرينا — ويؤيد فى ذلك ما يلاحظه عامة الناس — أن أهل الشمال كثيرو العمل ، معروفون بالعزم والقوة على حين أن أهل الجنوب كسالى ، غير منتجين . واذا كان الأمر يتعلق بالمناخ أجبنا بأن قوة الفرد وصحته نتيجة لعدة عوامل كالغذاء والأحوال الصحية ومستويات المعيشة ثم هناك شيء ليس آخر الأشياء ، وهو هذا « الجو » من المواقف والقيم ومشجعات العمل التى يعيش فيها الفرد . وما « الكسل » الجاثم فى الجهات الجنوبية الا فكرة شعبية منتشرة حتى فى ايرلندا وألمانيا ، رغم بعد هذين البلدين البعيد عن « نشاط » الجهات الشمالية فى فرنسا وايطاليا [٢] . وكيف يمكننا فى بلادنا (الولايات المتحدة الأمريكية) أن نفسر هذه الحياة الصاخبة التى تطالعنا فى فرجينيا أو ميريلاند مثلا دون أن ندخل فى الاعتبار العوامل الاجتماعية المتصلة بالنمو الصناعى والتجارى ؟ ولعلنا لا ننسى الترابط القائم بين شهور الصيف والجرائم التى تقترف ضد النفس ، كالقتل والاعتداء على النساء . وهناك أسباب واضحة تمام الوضوح يمكن أن نسوقها كتفسير لهذه الواقعة ، كالفرص المتاحة للتوسع فى العلاقات الشخصية بفضل درجة الحرارة السائدة فى

---

(١) من بين المراجع المتقدمة زمنيا ما يلى :

E.C. Dexter, *Weather Influences* (New York, 1904) and E. Huntington, Civilization and Climate (New Haven, 1924).

ومن المحاولات الجديدة فى نسبة الصحة والقوة الى المناخ :

S.F. Markhan, *Climate and the Energy of Nations* (New York, 1944) and C.A. Mills, *Climate Makes the Man*, (New York, 1942).

(٢) Cf. R.T. La Pierre, *Sociology*, (New York, 1946), p. 96.

فصل الصيف ، والتى تتميز بها المنطقة الجغرافية المعروفة بالمنطقة المعتدلة. غير أن هذه التفسيرات ينبغى أن توضع موضع الاختبـار . ففى ولاية كارولينا الجنوبية تبلغ حوادث القتل أقصاها فى شهر ديسمبر ، ويأتى شهر يوليه فى المحل الثانى . ويدل البحث فى هذه الولاية على أن الترابط بين المتوسط الشهرى لدرجة الحراة وعدد حوادث القتل ضعيف جدا . ومن جهة أخرى فان يوم عطلة عيد الميلاد (المسيحى) يشهد أكبر عدد من هذه الحوادث ،وهذه واقعة توحى بالتفسير الاجتماعى لا المناخى[1] . كذلك لا يمكننا القول بأن من طبيعة الجو الحار أن يولد الجرائم على غرار قولنا ان من طبيعة الشمس أن تذيب الجليد .

وعلى ذلك نكون الآن قد وصلنا الى عقدة العقد ، فالترابط مهما كان دقيقا لا يدل على العلية ، اذ من اللازم أن تتبع الصلة بين الواقعـة الطبيعية والواقعة الاجتماعية ، قبل أن ننسب أى معنى من معانى العلية للواقعة الأولى . وعنـدما تتحرى التأثيرات الجغرافية غير المبـاشرة فى الحياة الاجتماعية ينبغى أن نستكشف الحلقات الوسطى فى السلسلة . نعم لابد لنا من أن نستكشف العلاقة بين الواقعة المناخية أو غيرها من الوقائع الجغرافية وبين حالة الانسان ككائن عضوى . ويلى ذلك أن نربط هذه الحـالة بالبواعث التى تعبر عن نفسهـا فى صـورة ظواهر اجتماعية . ولما كان البواعث تخضع بداهة لأحوال غير جغرافية ، فقـد نحتاج بالطبع ، كما رأينا ، الى أن نستكشف ظروفا لا يمكن تفسيرها بهذا الترابط الذى يتبادر الى ذهننا لأول وهلة .

٣ ـ مثال من دراسة الانتحار : منذ حوالى نصف قرن حقق العالم الفرنسى اميل دوركايم موضوع الصـلة بين العامل المنـاخى والظاهرة الاجتماعية ممثلة فى الانتحار . وكان الغرض من دراسته هذه تحرى منهج البحث العلمى الدقيق الذى يهمله الكثيرون لسوء الحظ عندما يحاولون

---

(١) See H.C. Brearley, "Homicide in South Carolina", *Social Forces*, VIII (1929), 218-221.

تفسير المؤثرات البيئية ، والذى ما يزال فى حاجة لعناية الباحثين . وكانت هناك دراسات سابقة كثيرة قد أظهرت أن نسبة الانتحار فى البلاد الأوربية فى النصف الأول من السنة (من مارس الى أغسطس) كانت دائما أعلى منها فى النصف الثانى المتميز بالبرودة . الا أن التحليل الذى قام به دوركايم قد كشف أن مستوى درجة الحرارة الفعلية ليس له سوى علاقة بسيطة ومحدودة بهذا الترابط الذى نحن بصدده . اذ قد وضح أن التغيرات الشهرية فى درجة الحرارة لم تتفق والتغييرات التى حدثت فى نسبة الانتحار . وزيادة على ذلك فقد ثبت أن هناك بلادا حارة جدا ، نسبة الانتحار فيها واطئة . وقد دعت هذه الأمور دوركايم الى أن يبحث الارتباطات القائمة بين الانتحار وبين عوامل اجتماعية معينة . واذا لنراه يسجل أن حوادث الانتحار يزداد عددها كلما ارتفع المستوى الحضارى . وانه تبعا لذلك تقع حوادث انتحار فى المدينة أكثر مما فى الريف ، وأكثر بين العزاب والأرامل مما بين المتزوجين ، وأكثر بين البروتستنت وغير المتدينين مما بين الكاثوليك . وجميع هذه الوقائع توحى بتفسير ذى صفة اجتماعية — مؤداه أن الانتحار يقع بصفة خاصة حيثما تشجع الظروف على العزلة الاجتماعية وحينما يفتقر الناس الى حاسة التضامن التى تخلقها المسئوليات الاجتماعية القوية ، فيشعرون أنهم أكثر عرضة الى الرجوع الى مدخراتهم الخاصة طلبا للراحة أو بحثا عن الصديق أو التماسا للسلوى .

وبالطبع لم يحاول دوركايم أن يفسر كل حوادث الانتحار بهذه الكيفية . الا أنه قد قدم لنا فرضا علميا أكثر وضوحا فى معناه من الغرض القائل بأن درجة الحرارة المرتفعة تدفع الى الانتحار . ونحن اذ نعود الى الترابط المناخى نشير الى ما سجله على كل حال ومن أن العامل الأول المؤثر قد لا يكون درجة الحرارة فى شهور الصيف ، وانما أيام النهار الطويل — حينما تكون الحياة الاجتماعية أكثر نشاطا وأشد حدة . وذلك

لأن النهار الطويل يمدنا بفرص كبيرة لزيادة اتصالنا بالغير بدلا من العلاقات المتباعدة التى تجعل حاسة العزلة الاجتماعية أكثر عرضة للنمو . وقد برهن دوركايم بمهارة فائقة على أن هذه النظرية تتفق والتغييرات التى تطرأ على الانتحار من موسم الى موسم ، ومن شهر الى شهر ، ومن أى يوم من أيام الأسبوع الى أى يوم آخر [1] .

٤ ـ ما تلعب البيئة الطبيعية من دور محدود : توضح دراسة دوركايم ما ذهبنا اليه من أن الجغرافيا تمدنا بمجموعة خارجية من الأحوال تجرى فى ظلها حياة الانسان فى المجتمع . ولا يستطيع السوسيولوجى أبدا أن يتجاهل هذه الأحوال . غير أن مهمته تنحصر فى اظهاره لعلاقتها بالعلل المباشرة للظواهر الاجتماعية ومواقف الناس ومصالحهم . فالانسان يعمل على أن توائم نفسه جميع أنواع الأحوال الجغرافية ، ولكنه ليس بخال من المدخرات عندما يواجهها . نعم ان تغيرا ما يطرأ عليه حينما يقع تحت تأثير بيئة جديدة . ولكن هذه البيئة تتأثر أيضا بما يضفى عليها من شخصيته . أنظر مثلا الى الرجل الأبيض الذى يعيش فى المناطق الحارة . انه هنا يختلف عن أقرانه البيض الذين خلفهم فى بلده وذلك بحكم البيئة الجديدة . ولكن من المسلم به أنه قد جلب معه حضارته هو . ولا شك أن الأمريكيين والأوربيين الذين يعملون فى الشرق الأقصى يتغيرون عن زملائهم الذين لم يغادروا أوطانهم ، فالأحوال المناخية تؤثر فى نشاطهم ، ولكنهم لا يتحولون فى العادة الى أتباع لكونفوشيوس أو بوذا . ومن الواضح أن هناك عوامل أخرى قائمة

---

(١) E. Durkheim, Le Suicide (Paris, 1897), especially Book I, Chap. III

وتوسع هاليفاكس فى كتابه :

M. Halbwachs, Les Causes du Suicide (Paris, 1930):

فى تطبيق طرق البحث التى اتبعها دوركايم كما نقحها ، بينما اختلف معه فى أكثر من نقطة فرعية .

ولزيادة تحرى سلامة هذا المنهج من الناحية السوسيولوجية ، انظر :

P. Sorokin, Society, Culture and Personality (New York, 1947), pp. 8-13.

كالاصطدام بحضارة أجنبية ، أو بأجناس بشرية يشعرون أنهم غرباء عنها . وقد يمارسون سلطانا عليها . واذن فالمسألة هنا لا تنحصر فى وجود اختلاف فى الأرض ، وانما فى الوضع كله . وكثير من العوامل البيئية تعمل بالاشتراك مع غيرها من العوامل حيثما وجدت المجتمعات الانسانية .

الأرض والسكان

السكان ووسائل العيش بالكفاف : رأينا فيما سبق أن لرقعة الأرض التى تحتلها أية زمرة انسانية تأثيرا على صحة أفرادها وثروتهم وعملهم وفرصهم فى الحياة ، وكذلك على أسلوب معيشتهم . وربما كان للجغرافيا بصفة خاصة دخل كبير فى تحديد عددهم . ونحن نستبقى هذه المسألة الأساسية المتعلقة بالصلة بين الجغرافيا وحجم المجتمع أو درجة كثافته لنعالجها علاجا مستقلا فيما بعد [1] .

١ ــ اختلال التوزيع السكانى فى العالم : هناك مناطق على سطح الأرض نجد فيها السكان موزعين ومبعثرين ، ومناطق أخرى سكانها متصلة حلقاتهم بعضها ببعض ، وتتميز بالكثافة . ويعيش ثلاثة أرباع سكان العالم البالغ عددهم بليونى نسمة فى جنوب شرقى آسيا وغربى أوربا ووسطها ، وشرقى أمريكا الشمالية ووسطها — وهذه هى مناطق كثافة السكان . وتضم آسيا وحدها أكثر من نصف سكان العالم : ففيها ٤٥٠ مليون نسمة فى الصين وأكثر من ٣٨٠ مليون نسمة فى الهند . وفى

---

(١) ليس من أغراضنا أن نقدم هذا المبحث كملخص واف ـ لاستحالة ذلك هنا ـ لمادة الديموغرافيا التى تأخذ أهميتها فى الازدياد ـ وهى المادة الممثلة فى بعض المراجع الجامعية مثل :

W.S. Thompson, *Population Problem* (3rd ed., New York, 1942) and P.H. Landis, *Population Problem* (New York, 1943).

وقد عنينا فى هذا الفصل ببعض جوانب دراسة السكان ، ذات الصلة بمشكلة العلاقة بين الجغرافيا والمجتمع .

جاوا يعيش أكثر من ٩٠٠ من الناس فى الميل المربع ، ويقابل هذا العدد الضخم ثلاثة أشخاص أو أكثر قليلا فى الميل المربع فى كندا ، على سبيل ايراد الأمثلة الصارخة . ومن الواضح أن هذا الاختلال فى توزيع السكان متصل بعوامل جغرافية ، وذلك لأن الانسان يعتمد على مقدرة الأرض الانتاجية ، وهذه لا تشمل خصوبة التربة فحسب بل أيضـا امكانيات الثروة المعدنية ، لسد حاجاته الغذائية وللحصول على كل ما من شأنه أن يحول مجرد تعيشه الى مستوى معين للمعيشة . وهناك مساحات شاسعة على ظهر الكرة الأرضية اما جافة شديدة الجفاف ، واما باردة شديدة البرودة بحيث لا تسمح بقيام أعداد كبيرة من السكان . والثابت أن ٨٠ فى المائة من الأرض فى العالم قد وجد غير ملائم لزراعة المحصولات ولا للرعى ، وربما كان ثلث العشرين فى المائة الباقية من الأرض مستغلا فى انتاج الطعـام . واذا فكرنا فى السـكان من حيث صلتهم بالأرض والأنواع الاقتصادية للانتاج الاقتصادى ، أمكن أن نقسم اليابسـة الى أربعة أقسام كبرى : (١) الأمم الأوروبيـة الكثيفة السكان والآخـذة بالتصنيع ، (٢) الشرق الزراعى المزدحم بالسكان ، (٣) البلاد التى فى أمس الحاجة الى السـكان ، مثل كندا واستراليـا ، (٤) الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، حيث نجد السكان والمنطقة والانتاج فى توازن سليم أكثر مما عليه الحال فى بلاد العالم الأخرى [١] . ومن الواضح أن حجم السكان فى أى بلد ، أو فى الكرة الأرضية كلها ، ومستوى التقدم المادى لهـذه المناطق التى أشرنا اليها ، أمران متصـلان بمنح الطبيعة وبجهود الانسان معا .

٢ – **السكان الذين يعيشون بالكفاف** : لوحظ منذ مدة طويلة أن بعض مجموعات السكان تميل الى النمو فى العدد الى الدرجة التى تصبح عندها غير قادرة الا على مجرد مد أفرادها بالطعام ، وهنا تتدخل الطبيعة

(١) "Two Billion People", Fortune (Feb., 1944).

لتعمل بطرقها الخاصة على الحيلولة دون وقوع زيادات جديدةفى السكان وهذه الطرق تشمل التجويع والمرض وما يترتب عليهما من آثار ترفع نسبة الوفيات عاليا وعلى الأخص بين صغار السن . وهذا مثال قيم للتوافق الفيزيقى مع البيئة ، والشعوب التى تتعرض للسيطرة على حجمها بمثل هذه المراقبة الطبيعية يطلق عليها فى الاصطلاح « السكان الذين يعيشون بالكفاف » . وهؤلاء يواجهون ظروفا سيئة كلما ازداد انتاجهم للطعام ، اذ تظهر بينهم فى هذه الحالة بطون جديدة ترغب فى التهام هذه الزيادة ، حتى ان الفقر المادى يصبح القاعدة بينهم . والأغلبية الكبيرة من الأفراد الذين عاشوا خلال القرون الماضية كانوا ينتسبون الى مجموعات السكان الذين يعيشون بالكفاف التى لم تكن تهيىء أى مستوى عال للمعيشة الا لفئة قليلة من الطبقات المترفة فيها ، وحتى المغانم الكبيرة التى كسبتها الحضارات المختلفة من طريق الانتاج الزراعى السابق على القرن التاسع عشر لم تحسن الوضع الا قليلا ، اذ أن هذه المغانم قد صاحبها نمو كبير فى عدد السكان [1] .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمعات حتى عهد قريب لم تتعرض الا لتدخل الطبيعة فى الأوضاع السكانية . ففى الحضارات التى سبقت العصر الحديث ، وفى المجتمعات البدائية تؤيد مشاهدتها وجود عادات مقصود بممارستها الحد من الأعداد الكثيرة من الناس ، ومن بين هذه العادات عادة وأد الأطفال التى يجيزها العرف ، وقتل العجزة وكبار السن كما هو الشأن بين أهالى استراليا الوطنيين ، والاجهاض الذى تمارسه كل الشعوب على وجه التقريب ، والآداب العامة التى تقيد العلاقات الجنسية ، ودفع الناس الى المهاجرة ، والحرب . ومما لا شك فيه أن هذه الأمثلة دليل ذو مغزى على المحاولات التى يبذلها الانسان للتحكم فى الزيادة المطردة البادية على نموه العددى . ومهما كانت قدرة هذه العوامل

---

(1) Cf. La Pierre, op. cit., pp. 136-138

الضابطة للسكان فى العصور القديمة ، فان تدخل الطبيعة العنيف للغرض نفسه كان عاملا رئيسيا فى تحديد أعدادهم ، وان مستوى المعيشة الذى يسمح فقط بالبقاء كان القاعدة بالنسبة للأغلبية العظمى من البشر — وهذا ما هو حادث بالفعل فى أيامنا هذه للملايين الكثيرة من الناس الذين يعيشون بعيدين عما وصلت اليه المدنية من اختراع وتقدم فى العصر الحديث [1] .

٣ ـ مذهب مالتوس : ونعرض الآن لتوماس ر : مالتوس الذى تأثر الى حد كبير فى أوائل القرن التاسع عشر بفكرة الضبط الواقع على عدد السكان بسبب الأحوال الجغرافية وكان ذلك الوقت متنبئون من أمثال جودوين وكوندورسيه [2] ، منّوا الناس بعهد جديد باسم تعمه الراحةويسوده الاطمئنان وينتفى منه عناء العمل، نتيجة للكشوف العلمية والتقدم التكنولوجى . ولكن مالتوس أعلن أن فى مثل هذه التخمينات عنوانا بينا على تواضع الطبيعة ؛ فالعلم فى نظره قد يتقدم بخطى سريعة ، الا أن قدرة الأرض على امدادنا بحاجاتنا الأولية محدودة . وقد أكد هذا الباحث أن السرعة الطبيعية للانسان البشرى لا مفر من أن تتجاوز امكانيات الأرض لاطعام السكان المتزايدين ، الا اذا تحكمنا بطريقة ما فى تزايدهم وفقا لخطة مرسومة .

وفى الواقع ذهب مالتوس الى أن الجغرافيا هى العامل الذى يحد من نمو السكان ، وكذلك من تقدم المجتمع . وقد قابل بجلاء فى دراسته المشهورة بحث فى السكان بين الخصوبة النوعية لبنى الانسان وامكانيات المواد الغذائية [3] . وقد وصف تطورات حياة السكان الذين لا يفعلون

---

(١) فيما يتعلق بضبط السكان فيما قبل العصر الحديث ، أنظر :

Thompson, op. cit., Chap. I

(٢) W. Godwin, Political Justice (1793) and The Enquirer (1797); M.J. Condorcet, Tableau Historique de l'Esprit Humain (1794).

(٣) أنظر بصفة خاصة الفصلين الأولين من كتابه :

Thomas R. Malthus, *Essay on Populati:n* (edition of 1803).

بحكم ظروفهم شيئا أكثر من التعيش ، على النحو الآتي: الأفراد يتزايدون حتى يبلغوا حدود التعيش فحسب ، بل ويتجاوزون هذه الحدود الى الفاقة ، والطبيعة تتدخل للحد من هذه الزيادة بتعريض السكان للمرض والموت جوعا ، ويمنع الضغط الحادث بسبب الزيادة المستمرة ، أى ارتقاء فى مستويات المعيشـــة . ومن رأى مالتوس أن التقدم العــلمى والتكنولوجى لا يستطيع أن يرفع مستوى البشرية الا اذا تدخل باعث قوى مشجع على ضبط غريزة حب الاكثار من النسل . وقد رأى أنه لتحقيق هذه الغاية لابد من اصطناع حد وقائى قوامه الضبط الخلقى أو النفسى فى مواجهة ذلك الضبط الايجابى الذى تقوم به الطبيعة — ولكن بدون أية ثقة فى أن لدى الأول القوة الكافية للتحكم فى الرغبة الدافعة على الانســـال .

وأعقب مالتوس باحثون مدققون ، أخذوا بوجهة نظره المتشائمة ، وان كانوا قد فعلوا ذلك بتعبيرات مختلفة كتحدثهم مثلا عن « قانون الثمار الضائعة » . وزعم كتاب أحدث منهم أن الزيادة الخارقة فى عدد السكان فى كل من أوربا وأمريكا خلال القرن الماضى أو القرنين السابقين، ينبغى أن ينظر اليها على اعتبار أنها حدث لم يسبق له مثيل ، مرده الى مجموعة غير عادية من الأحداث ذات الصلة بظروف ملائمة ، وأشاروا الى أنه لا توجـــد فى الوقت الحـــاضر أراض زراعيـــة بكر يمكن أن يستثمرها العلم الحديث . وبعض هؤلاء الكتاب رأى أن الجنس البشرى فى مفترق الطرق ، وأن عليه أن يختار اما بين خصوبة نوعية ضئيلة واما بين حضارة دنيا [1] . والبعض قدر أن الأرض ما زالت قادرة على انتاج الحب والقطن وغير ذلك من الحاجيات الضرورية ، كما أقروا بأن زيادة السكان الآخذة فى الاطراد تنهدد المستقبل [2] . وهناك كتاب عديدون عنوا باظهار أهمية ما يحيق ببلاد العالم جميعا من أخطار جسيمة خلقها

(١) E.M. East, *Mankind at the Crossroads* (New York, 1923).

(٢) W.S. Thompson, *Population: a Study in Malthusianism* (New York, 1915).

وما يزال يخلقها ضغط السكان على مصادر الثورة فى المناطق الآهلة بهم أو المفتقرة الى مثل هذه المصادر [1] .

ووجد كتاب غير هؤلاء ، أكثر تفاؤلا منهم . فقد لاحظ بعض علماء الاقتصاد القدامى تلازما بين نمو السكان وزيادة راحة البشرية . ويؤمن كتاب كثيرون بالامكانيات الضخمة للزراعة العلمية ، وأحدهم آمن بذلك لدرجة أنه قدر أن تطبيق هذا النوع من أساليب الزراعة فى البرازيل مثلا يمكن أن يؤدى الى امداد كل أوربا بحاجتها من الطعام . وكثيرا ما يشار الى أن مجموعات السكان الضخمة الموجودة فى العالم الغربى حاليا تنال حظا من التغذية يزيد زيادة كبيرة عن حظ السكان القلائل الذين سبقوهم فى نفس المكان قبل الانقلاب الصناعى — ولعلنا نذكر ما تناولناه فى الفصل السابق من التأثير الجثمانى لذلك فى طول القامة وزنة الجسم . ومن الملاحظ فى كل مكان أن التقدم العلمى الباهر فى انتاج الطعام ما زال فى بدايته ، وأن مخاوف مالتوس تبدو اليوم ، بسبب هذا التقدم ولأسباب أخرى سنعرض لها فيما بعد ، أقل خطرا مما كان يظن فى أول الأمر .

نمو المجموعات السكانية الحديثة : لا يزال صحيحا قولنا ان الزيادة فى وسائل التعيش لا يمكن أن تلاحق فى سرعتها الكفاية الانتاجية بالمعنى الفسيولوجى لأية مجموعة من السكان [2] . ومن الصحيح أيضا أن جزءا كبيرا من مناطق الأرض الخصبة قد استغل فعلا فى الزراعة ، وأن كثيرا

---

(١) W.S. Thompson, *Danger Spots in World Civilization* (New York, 1929); H.P. Fairchild, "Postwar Population Problems", *Social Forces*, XXIII (Oct., 1944).

(٢) يجدر بالذكر أن نشير الى أن الكفاية الانتاجية الفسيولوجية بالنسبة لأنثى الانسان — أى خصوبتها ومقدرتها على الحمل والولادة — تبلغ أقل قليلا من ٢٥ طفلا لكل أم . وبالطبع تعكس نسبة الخصوبة الواقعية العوامل الاجتماعية التى تتدخل فى تحديد هذه الكفاية الانتاجية .

Cf. S.J. Holmes, *Human Genetics and Its Social Imports* (New York, 1936), pp. 197-198.

من الأراضى كالصين والهند ، تطغى فيها كثافة السكان لدرجة أن الجموع الكبرى من الأهالى ما تزال تحيا — بسبب أساليب الزراعة السائدة بينهم — على هامش التعيش . وعلى العكس من ذلك نجد أنه قد نمت فى مناطق المدنية الحديثة ظواهر جديدة ذات أهمية كبرى ، من حيث انها تبسط مشكلة السكان فى ضوء جديد من كل وجه .

١ — **نمو السكان ذاته :** بالرغم من أننا لا نملك الا تقديرات تقريبية ، فاننا نعلم أن زيادة السكان فى أوربا الغربية زادت من خمسة ملايين فى العصر الرومانى الى خمسين مليونا فى القرن السادس عشر ، وأن هذه الزيادة كانت الى حد كبير نتيجة لتحسن وسائل التغذية . الا أنه فى أثناء هذه المدة وخلال القرنين التاليين ، وبالرغم من الزيادة المطردة فى عدد السكان والهبوط القليل فى نسبة حالات المرض والموت بسبب الجوع ، فان الأوبئة الدورية الخطيرة التى كانت تكتسح ضحاياها كالمعتاد ، ونسبة وفيات الأطفال ، لم يطرأ عليها جميعا الا هبوط بسيط حتى منتصف القرن التاسع عشر .

والثابت أن زيادة سكان العالم منذ ١٦٥٠ (وهى السنة التى استطاع الديموغرافيون ابتداء منها أن يقدموا لنا أضبط تقديراتهم) آخذة فى التمايل دون استقامة ، فمنذ عام ١٨٠٠ ، كما يوضح الجدول رقم ٢ ، حدث أن سكان الأرض الذين كانوا أقل من بليون نسمة زادوا

الجدول ٢ [١] — تقديرات لعدد سكان العالم والنسب المئوية لزيادتهم

التاريخ	تقدير سكان العالم (بالملايين)	النسبة المئوية للزيادة السنوية خلال المدة السابقة
١٦٥٠	٥٤٥	٠ر٢٩
١٧٥٠	٧٢٨	٠ر٤٤
١٨٠٠	٩٠٦	٠ر٥١
١٨٥٠	١١٧١	٠ر٦٣
١٩٠٠	١٦٠٨	٠ر٧٥
١٩٤٠	٢١٧١	—

(١) هذه الأرقام منقولة عن by K. Davis, "The World Demographic Transition", *The Annals of the American of Political and Social Science*, CCXXXII (1945), 1-3, and are taken from A.M. Carr-Saunders, *World Population* (Oxford, 1936) and, for 1940), *League of Nations Statistical Yearbook* for 1941-1942.

أكثر من ضعف عددهم بكثير . فما الذي يفسر هذه السرعة الفائقة الزيادة؟ وما الذي يفسر بصفة خاصة ذلك الهبوط الشديد فى الوفيات الى الدرجة التى ضاعفت امكانيات الحياة منذ اللحظة الأولى للولادة ، وذلك من أواخر القرن السابع عشر ؟ ومن بين العوامل الكثيرة التى أدت لهذا الهبوط ، والتى لابد منها لتحقيق نمو السكان الحادث بالفعل ، ينبغى أن نذكر ما يلى : (١) تحسن الآلات الزراعية والتخصص الاقليمى فى أنواع المحصولات ، مما أدى لوفرة المواد الغذائية وتنوعها ، (٢) تقدم التجارة ووسائل النقل التى ساعدت جميعا على ارتياد الأراضى البكر وتوزيع المواد الغذائية توزيعا وافيا — فمثلا انجلترا أصبحت تعتمد على استيراد الحبوب بعد عام ١٧٥٠ مباشرة ، (٣) بعد عام ١٨٥٠ تقدمت وسائل العناية بالصحة العمومية وانتشر الطب العلمى ، وساعد هذا كله فى العصور الحديثة على اطالة عمر الانسان ، (٤) العوامل غير المملوسة — كنمو النظم الديموقراطية والمثل العليا وعواطف حب الانسانية » [1] ، وربما كان هذا النوع من العوامل لا يقل شأنا عن غيره من حيث قدرته على تخفيض نسبة الوفيات . وهنا نرى موضحا مرة ثانية العلاقة بين الجغرافيا والسكان ، ولكنها علاقة أصبحت آخذة فى أن تصير غير مباشرة فى السنوات الأخيرة .

٢ — **نسبة المواليد الآخذة فى الهبوط** : يتضح الهبوط الشديد فى نسبة الوفيات بشكل ملموس عندما ندخل فى الاعتبار أنه فى الأزمنة الحديثة ، وربما ابتداء من عام ١٨٠٠ فى بعض البلاد الأوربية ، قد أخذت نسبة المواليد تهبط بنفس الكيفية . ويبين الجدول ٣ هبوط الخصوبة الفعلية بعرض عدد حالات الولادة (ونكتفى هنا بالنسبة التقريبية للمواليد) فى كل ألف من السكان فى أوقات مختارة خلال المائة والخمسين السنة الأخيرة (ومن وجهة النظر الديموغرافية ، ان زيادة عدد السكان

---

(١) Cf. Davis, op. cit., pp. 3-5

الجدول ٣[1] ـ متوسط النسبة التقريبية للمواليد في بلاد وسنوات مختارة

البلد	١٨٠٨—١٨١٢	١٨٧٨—١٨٨٢	١٩٣٥—١٩٣٩
الولايات المتحدة الأمريكية	—	—	١٧ر١
انجلترا وويلز	—	٣٤ر٤	١٥ر٠
فرنسا	٣١ر٤	٢٤ر٩	١٤ر٩
ألمانيا	—	٣٨ر٠	١٩ر٣ (١٧ر٠ فى عام ١٩٣٠)
روسيا	—	٤٨ر٤ (١٨٧٦-١٨٨٠)	٤٤ر٢ (١٩٣٣-١٩٣٥)
السويد..	٣١ر٨	٢٩ر٦	١٤ر٥
أستراليا..	—	٣٥ر٢	١٧ر٣

فى العالم الغربى ترجع الى هبوط أشد وأسبق فى نسبة الوفيات منه فى نسبة المواليد) . وقد هبطت نسبة المواليد فى جميع الطبقات بالبلاد المتحضرة جميعها ، ولكن بصفة خاصة فى الطبقات العالية والبلاد التى يعمها الرخاء . ففى هذه الزمر وهذه البلاد ارتدت « غريزة التكاثر » ، الا أن ارتدادها لم يكن بالطريقة التى نادى بها مالتوس ، أى « بالنهى الخلقى » ، ولكن من طريق ضبط النسل .

وبتقدم التصنيع وتلاشى الاعتماد المباشر على الزراعة ، ومع التعليم العام والحياة فى المدن ، واتحاد هذه القوى فى رفع المستوى المادى للحياة الانسانية ، أخذت أسر كثيرة تدرك فائدة وسائل منع الحمل بغية الحد من عدد الأفواه المطلوب اطعامها . وكما أن الأسرة الواحدة يمكن أن

(١) هذا الجدول يحتوى على أرقام مستقاة من

Thompson, *Population Problems*, p. 152.

أنظر الفصل العاشر من كتابنا هذا حيث تجد مناقشة مفصلة لنسبة المواليد الآخذة فى الهبوط .

تحتفظ بمستوى أعلى للمعيشة بتحديد عدد أفرادها ، كذلك أوضحت مجموعات كبيرة من سكان العالم حل مشكلة مالتوس بتحديد أعدادها [1] . والدليل على ذلك هذه الأرقام المبينة فى الجدول ٤ حيث يتعين على القارىء أن يلاحظ بصفة خاصة التقابل بين نسبة المواليد ، والأمية ، والاعتماد على الزراعة فيما يتعلق بشمالى أمريكا وأوربا من جهة ، وبآسيا وأفريقيا من جهة أخرى .

الجدول ٤ [2] ـ الالمام بالقراءة والكتابة ، والخصوبة النوعية، والاعتماد على الزراعة ، في العالم والقارات المختلفة ، عام ١٩٣٠

الإقليم	النسبة المئوية للأميين (من سن العاشرة فما فوقها)	النسبة المئوية المعتمدين على الزراعة	النسبة التقريبية للمواليد
العالم كله	٥٩	٦٠	٣٩
أمريكا الشمالية	٤	٢٥	٢٠
جزر المحيط الهادى والبحار المجاورة	١٤	٣١	٢٣
أوربا (ما عدا روسيا) ...	١٥	٣٦	٢٣
روسيا	٤٠	٦٧	٤٥
أمريكا الجنوبية	٥٤	٦٥	٤١
وسط أمريكا والمنطقة الكاريبية	٥٩	٧٢	٤٤
آسيا (ما عدا روسيا) ...	٨١	٦٩	٤٤
أفريقيا	٨٨	٧٧	٤٨

(١) لا يعتبر منع الحمل الوسيلة الهامة الوحيدة لمنع الذرية ، فان طريقة الاجهاض القديمة ، وهى التى تعنى منع الولادة بعد وقوع الحمل بالفعل ، لاتزال تمارس فى كل بلاد العالم . ففى المدة بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٤٠ وفقا لبعض التقديرات ، بلغت نسبة الاجهاض من الارتفاع ما بلغته نسبة المواليد فى بعض بلاد غربى أوربا . أما فى بعض أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية فقد تبلغ نسبة الاجهاض ثلث ما بلغته نسبة المواليد من ارتفاع . أنظر :

National Committee on Maternal Health *The Abortion Problem* (Baltimore, 1944).

(٢) Davis, op. cit., p. 10.

٣ ـ **مذهب مالتوس اليوم** : رأينا أنه كلما ارتفع مستوى المعيشة اصطنع هذا المستوى وسائل عملية للبقاء مرتفعا وللحد من ارتفاع نسبة الزيادة « الطبيعية » أو « البيولوجية » . وبعبارة أخرى يدخل المستوى العالى للمعيشة مظاهر ارتدادية على السكان من قبل أن تبدأ العمل بزمن طويل مظاهر مالتوس « الايجابية » التى تستهدف نفس الغرض ، كالموت جوعا والأمراض وما شابهها . وعلى ذلك فان خطر نظرية مالتوس آخذ فى الزوال بالنسبة للشعوب التى اهتمت بالتصنيع وتنظيم الحياةفىالمدن .

ورغم ما تقدم فاننا ما زلنا الى يومنا هذا نلاحظ أن أكثر من نصف البشرية ، حيث يعيش السكان بالكفاف أو بما يقرب منه — كما هى الحال بين البليون آسيوى — يقدمون الدليل المؤسف على صدق نظرية مالتوس . وذلك لأن الأخير قد أصاب عندما أوضح ما تأيد تماما فيما بعد بالبحث العلمى ، من أن ضغط السكان على وسائل العيش كان ولا يزال فى كل العصور ، فيما عدا بين طبقات قليلة محظوظة والأقل من الشعوب المسيطرة ، شديدا وملحا ، كما يكشف عن ذلك البؤس المنتشر فى عدة أماكن والصراع المدمر للشعوب ، مما لم يكن هناك من سبيل لتخفيف حدته فى أكثر الأحيان الا شرور أخرى مثل الاجهاض ووأد الأطفال . نعم لقد نقص الى درجة كبيرة خطر مذهب مالتوس بالنسبة للشعوب الغربية ، ولكنه لا يزال جاثما عليها كذلك بطريقة غير مباشرة ما دامت هناك مئات الملايين من الناس الذين لا سبيل الى الحد من تزايد أعدادهم الا باستخدام الأساليب العنيفة السائدة فى الشعوب المتأخرة فى الحضارة ولو أريد لمستوى المعيشة فى بلاد آسيا وأفريقيا والمناطق الأخرى « المتخلفة » أن يرتفع ، فان على أهل هذه البلاد أن يبدأوا فى الحد من أعدادهم بوسائل ليست بعد فى متناول أيديهم ، اذ أن مستوى المعيشة العالى والتسويغ العقلى لضبط النسل أمران يسيران جنبا الى

جنب ولا سبيل الى أن بجرفنا شبح مالتوس اذا ارتبطا معا عند جميع الشعوب [١] .

الجغرافيا كظرف محدد للنسل : نلاحظ مرة ثانية فى هذه الاشارة الموجزة لأعداد السكان العوامل الجغرافية تمثل ظروفا محددة للنسل أكثر منها ظروفا مباشرة مجددة للأوضاع الاجتماعية ، فمن جهة أن عدد الأفراد الذين يمكن أن يعتمدوا على الأرض يتوقف على مدى ما وصلوا اليه من وسائل . وعلى ذلك فان كثافة السكان تختلف باختلاف طريقة الحصول على الغذاء . فقبائل الصيد مثلا تحتاج الى رقعة فسيحة من الأرض تسمح بأن يجول كل شخص فيها خلال مساحة تبلغ من بضعة أميال الى مائتى ميل مربع ، حسب الظروف المحلية . وأما كثافة الرحل من الرعاة فتبلغ من شخصين الى خمسة أشخاص فى الميل المربع ، واذا ارتبطت الزراعة البدائية بالحياة الرعوية ، ارتفعت النسبة من عشرة الى خمسين شخصا فى الميل المربع . وفى امكان الشعب الزراعى اذا حسنت ظروفه أن يمد بوسائل المعيشة مائة أو مائتين من الأشخاص ، يرتفعون بصناعة ما الى خمسمائة فى الميل المربع . وبالطبع تبلغ الشعوب الصناعية كثافة أكثر فى سكانها [٢] :

ومن جهة أخرى فان امكانيات وسائل المعيشة تتوقف عن تحديد السكان عندما يفكر الناس بطريقة فعالة فى ضبط زيادتهم ؛ فالاجهاض ووأد الأطفال واعدام المسنين — وكلها وسائل لتدمير الحياة الانسانية لا تزال سارية — ان هى الا أساليب استخدمها الانسان زمنا طويلا لضبط زيادة السكان ، الا أن تأثيرها كان دائما محدودا ، والرغبة فيها محل نقاش شديد فى ضوء القيم الحديثة . غير أن الطرق الجديدة لمنع

---

(١) هذه النقطة مضغوط عليها وربما تكرر ذكرها باسهاب فى :

Vogt's *Road to Survival.*

(٢) See, for example, E.C. Semple, Influences of Geographic Environment (New York 1927), Chap. III.

الحمل توفر للانسان وسيلة قادرة على أن تحـدد بالفعل عدد أفراده ـ وزيادة على ذلك فان ضبط النسل الحديث ، فى أعين عـدة ملايين من الناس ، يلتقى مع مطالب مبادئنا الخلقية ، بمعنى أنه يسمح لنا بالتسويغ الفعلى لما تقدم عليه من تخطيطات لتحسين مظهر الحياة الانسانيـة ولا يسمح بالتخلى عن هذا التسويغ بعد أن تبلور فى أذهاننا . ومن جهـة أخرى ، فان ضبط النسل قد خلق مشاكل جديدة ، يتحتم علينا أن نعود اليها فى فصول تالية (١) .

(١) أنظر الفصلين ١١ و ٢٤ .

الفصل السادس

البيئة الشاملة وسد الحاجات

البيئة والتراث الاجتماعى

مفهوم البيئة الشاملة : عندما ينظر المتخصص فى علم طبقات الأرض، أو علم الفلك أو علم الطبيعة الى العالم الخارجى كحقيقة واقعة منفصلة عنه وموضوعية خالصة ، فانه يفعل ذلك كعالم وليس ككائن اجتماعى . وهذا العالم الخارجى هو بالنسبة لعالم الطبيعة شىء يختلف عن الشىء الذى نشعر به ونسميه البيئة ، انه الطبيعة بلا زيادة أو نقصان . ونحن كطلاب اجتماع نهتم أكثر الاهتمام بالبيئة الشاملة التى يحسها هذا الانسان الاجتماعى بطبعه — ونعنى بذلك كل الظواهر التى تحيط به وينفعل معها وتكون فى نظره ذات معان خاصة .

١ ـ **البيئة الفيزيقية والانسان :** ولتوضيح التفريق الذى ذكرناه تواقد يحسن أن نبحث البيئة الفيزيقية للانسان . وأول ما نلاحظه أن هذا العالم الفيزيقى الذى يعيش فيه لم يكن فى أى وقت من الأوقات مجرد عالم فيزيقى أو « طبيعى » ، فبالنسبة للصياد البدائى تعتبر الغابات الأماكن التى يستطيع أن يبحث فيها عن طعامه ، والتى تهيم فيها الأرواح تماما كما يجوسها الانسان ، وهى بوجه عام أماكن تتعلق بها آماله ومخاوفه ، كذلك تجاربه وتخيلاته . وليست الأشياء التى تحيط به مجرد حقائق فيزيقية واقعة ، انها خصائص حياته تصبغها عقليته وتفسرها . والأمر كذلك بالنسبة للطفل الصغير ، فهو فى سنواته الأولى يدخل باب دنيا لا شىء فيها فيزيقى ينتهى عند هذه الصفة ولا شىء فيها مطلق فى ذاته ثابت الهيكل مثل تلكم الأشياء التى نعرفها عن طريق العلم ... وانما

الأشياء التى يراها أشياء يمكن أن يتملكها وأن يجدها اذا بحث عنها وأن يصنعها ويقدم لها المعونة ، أو يخشاها أو يحبها ويسعى للحصول عليها ، أو تحول بينه وبينها الحوائل ، أو من الممكن أن تكون موضع المتعة ، أو واعدة الى درجة كبيرة اذا كان الهجوم عليها يتطلب الجرأة والاقدام ، أو على العكس من ذلك يقتضى التراجع الحكيم [1] .

ولا يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للشخص البالغ المتحضر الا من حيث ان للأشياء عنده مدلولا حافلا بالمعانى الاجتماعية أسهم العلم فى تبيانه وتوضيحه . اننا فى الواقع لا نواجه طبيعة موضوعية خالصة ؛ فتراثنا الاجتماعى يتدخل دائما ليلعب دوره الهام - وفى العملية الاطرادية التى نسميها الحضارة نعدل باستمرار فى البيئة الطبيعية حتى يمكن أن تستجيب لمطالبنا بقدر الامكان ، وفى نفس الوقت نحن نغير تصوراتنا لحقيقة هذه البيئة فى ضوء ما نحصل عليه من تجارب ، وكلما تقدم هذا التقابل بين أفكارنا والحقائق الواقعة الخارجية وجدنا أنفسنا لا نتصرف اطلاقا بطريقة تختلف عن تصرف الرجل البدائى أو الطفل الصغير ، وانفعلنا بنفس الكيفية التى ينفعل بها ازاء البيئة الطبيعية ، فلا ننظر اليها كشىء منفصل عنا .

٢ ـ البيئة ككل مركب في تجربة الانسان : واذن ففى تجربة الكائن الاجتماعى تبدو البيئة ككل مركب ، والانسان لا يفصل البيئة الجغرافية كمجموعة أشياء عن البيئة الاجتماعية كمجموعة أخرى من الأشياء . وهذه الميادين التى نرمز اليها بالبيئة الطبيعية هى فى نظره ممتلكات يضع يده عليها — فالمنازل ما هى الا الدور التى يعيش فيها ، والجوانب الاجتماعية والفيزيقية للبيئة ممتزج بعضها ببعض فى كل حقيقة ملموسة واقعة . ومثل ذلك النظم السائدة والتنظيمات التى نعتبرها البيئة الداخلة لابد أن تكسوها مظاهر خارجية . فالكنيسة تبدو لنا فى شكل مبنى من المبانى ، والعطلة تظهر فيما نرى من تغيير فى العالم الذى

(١) A.G.A. Balz, The Basis of Social Theory (New York, 1924), Chap. I.

من حولنا ، والزواج له علاقاته المادية من خواتم ومسموحات ومساكن مشتركة .

ونحن نميز العوامل المختلفة للبيئة الشاملة لأغراض تتعلق بالدراسة ، وهذه العوامل متجمعة معا فى تجربتنا . فعندما يحول الانسان رقعة من الأرض الى بلد ، أو جزءا منها الى دار يسكنها ، فانه بهذا العمل أو ذاك انما يشيع كلا من البيئة الفيزيقية والبيئة الاجتماعية بعضهما فى بعض . ومما لا شك فيه أن نشاطه فى استصلاح التربة وزرعها ، وفى حجز مياه الأنهار وانشاء الطرق وما الى ذلك يؤدى بمرور الزمن الى استحالة التمييز بين النقطة التى عندها تنتهى البيئة الجغرافية أو هبة الطبيعة وتبدأ البيئة التى صنعها الانسان . اذ فى هذه الحالة تصبح الأولى فى نفس الوقت رمزا للثانية . أو بعبارة أخرى محملة بذكريات وتقاليد وقيم انسانية . وكثير من عناصرها يصبح المظهر الخارجى للنظم الاجتماعية السائدة ، كما أوضحنا قبل الآن .

٣ ـ تصنيف نواحى البيئة الشاملة : تحتوى البيئة الشاملة ، من وجهة نظر الفرد ، على عنصر معين بالاضافة الى العناصر التى تتكون منها بيئة الزمرة الاجتماعية ، وهذا العنصر هو الزمرة نفسها ، التى تعتبر فى ذاتها بيئة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للفرد . وعلى ذلك فيمكننا أن نصدر التعميمات الآتية وفى ذهننا كل من الفرد والزمرة معا :

(ا) الأحوال الجغرافية أحوال بيئية لكل من الجماعة المحلية أو غيرها من الزمر الاجتماعية ولأعضائها الأفراد .

(ب) التراث الاجتماعى ذو صفة بيئية بالنسبة لكل من الجماعة المحلية أو غيرها من الزمر الاجتماعية ولأعضائها الأفراد ، ما دامت الزمرة نفسها تقتسم هذا التراث .

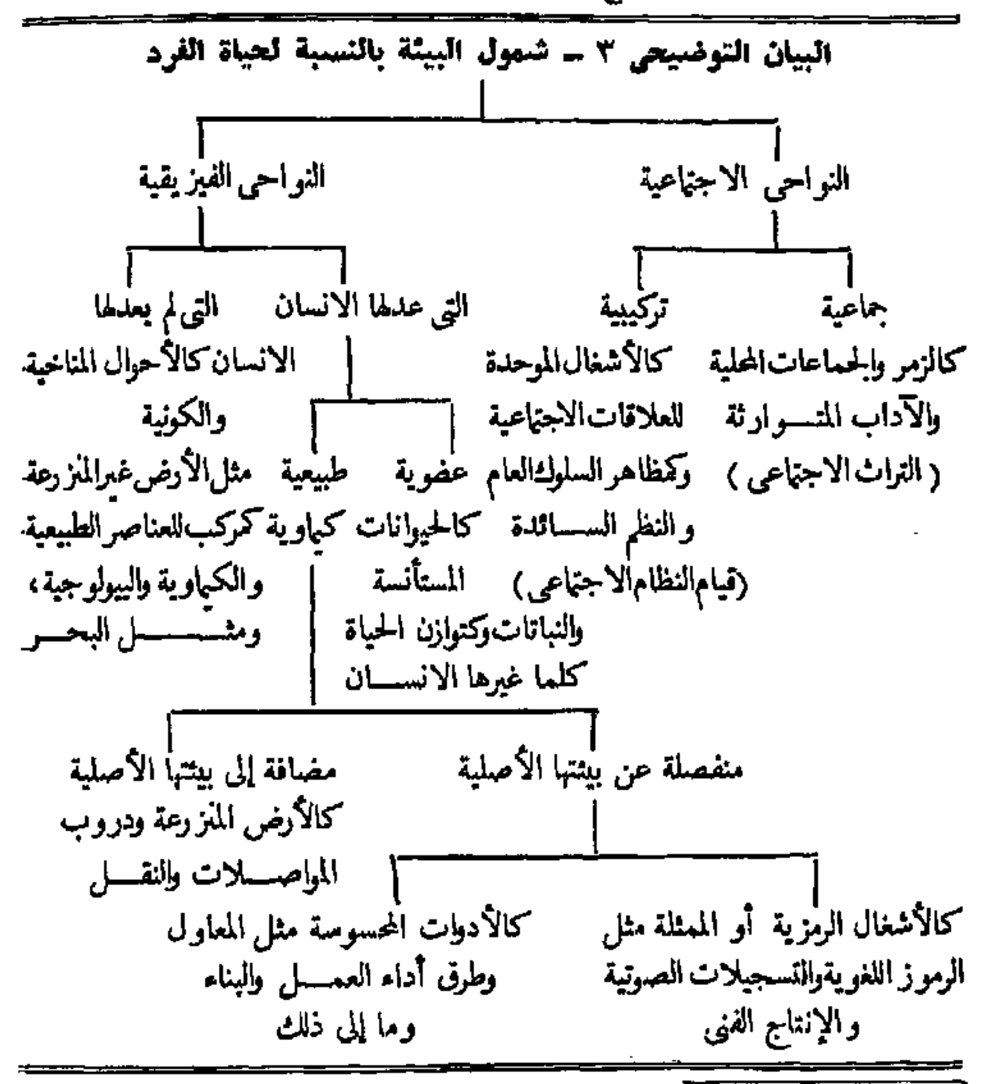
(جـ) تعتبر الجماعة المحلية أو أية زمرة اجتماعية غيرها مظهرا من مظاهر البيئة بالنسبة لأعضائها الأفراد .

(د) تعتبر الجماعة المحلية اذا كانت زمرة كبرى مظهرا من مظاهر

البيئة بالنسبة للزمرة الصغيرة التي تقتسم بأية درجة حياة الزمرة الكبيرة .

ومنذ هربرت سبنسر حتى أيامنا هذه قسم علماء الاجتماع البيئة الى ما سموه مظاهرها الرئيسية [١] .

وفى التصنيف المبين بالبيان التوضيحي ٣ نعرض البيئة الشاملة للفرد كما يبدو فى داخل المجتمع .



(١) أنظر على سبيل المثال Spencer's *Principles of Sociology* (New York, 1880-1896), Vol. I, Chap. I; واذا أردت بيانا أحدث منه W.F. Ogburn and M.F. Nimkoff, *Sociology* (Boston, 1940), pp. 6-7. واذا أردت ترتيبا مختلفا بعض الشيء the *Journal of Sociology*, XXXI (1925), 318-332.

التراث الاجتماعي للانسان : يرجع نشاط الانسان فى داخل بيئته وتأثيره فيها الى عصور قديمة مجهولة . وهذه العملية الاطرادية تأخذ مظهرا تجميعيا أو تراكميا ، اذ أن الانسان أقل قناعة من سائر الحيوان بمجرد اتخاذ عادات معينة والتوافق مع ظروفه فهو يضيف الى حياته من طريق هذه العادات تراثا اجتماعيا هو فى ذاته أساس لاضافات جديدة . وقد استخدم جراهام والاس الاصطلاح « التراث الاجتماعى » ليعنى به « المعرفة والوسائل المؤدية لتحقيق الأغراض والعادات » التى تنتقل من جيل الى جيل اجتماعيا وليس بيولوجيا ، من طريق المشاركة فى الحياة الاجتماعية ، والتربية [1] . وما الفنون والاختراعات والآلات والمعارف المتوارثة والأساطيروالتقاليد والرموز والآدابالعامة والنظم السائدة التى تميز الانسان—وكلها وسائل للسيطرة على البيئة الخارجية—الا مقتنيات اجتماعية . (وفى البيان التوضيحى (٣) الكثير من هذه العناصر) :

١ ـ توقف حياة الانسان على التراث الاجتماعى : ان مدونات حالات التجارب الوحشية مثل حالة كاسبار هاوزر ، تبين توقف حياة الانسان توقفا تاما على قوى تنتقل اجتماعيا من جيل الى جيل ؛ فالغريزة كافية بالنسبة لبعض الكائنات الحية التى لا تسجل لنفسها ثقافة ما ولا تفعل أكثر من مواءمة نفسها للحقائق الواقعة التى تعيش فيها . الا أن الانسان لا يقنع أبدا بمجرد « الحقيقة الواقعة » وهو يعبر بكيفية فعالة عن عدم رضاه بمجرد « الحقيقة الواقعة » ، وذلك بطرق اجتماعية أكثر منها بيولوجية . وعندما فقدت الغريزة ثباتها فى حياة الانسان عاونتها مظاهر السلوك العام فى أداء وظيفتها ، فجاءت المعاول والآلات التى استخدمتها جموع الناس لتساعيد الانسان . وكما يقول والاس أصبحنا « متطفلين بيولوجيا على تراثنا الاجتماعى » . وهو يخمن وقوع ما يأتى :

«اذا اصطدم بالأرض أحد مذنبات مستر ويلز ، واذا ترتب على ذلك

---

(١) *Our Social Heritage* (New Haven, 1921), p. 14.

أن كل انسان حي في الوقت الحاضر كان لابد أن يفقد كل المعارف والعادات التي آلت اليه من الأجيال السابقة (وان ظل محتفظا بجميع قدراته على الاختراع والتذكر واكتساب العادات دون أن يطرأ عليها تغيير ما) فان تسعة أعشار سكان مدينة لندن أو مدينة نيويورك يتعرضون للموت بعد شهر ، و ٩٩ في المائة من العشر الباقي منهم يموتون في خلال ستة أشهر . فهم سيفتقرون الى لغة يعبرون بها عن أفكارهم . ولن تكون أفكارهم أكثر من هذيان غامض . وسوف يتعذر عليهم أن يقرأوا الاعلانات أو يقودوا السيارات أو الجياد . وسيهيمون على وجوههم لا يلوون على شيء ، صيحات متقطعة تنبعث من قليل من الأفراد ممن حبتهم الطبيعة ببعض مظاهر السيادة ، وسوف يغرقون أنفسهم في لجج الأنهار اذا ما دنوا من مشارفها عند احساسهم بالعطش ، وسينهبون المتاجر التي تنبعث منها رائحة الطعام الآخذ في الفساد منجذبين نحوه ، وربما انتهى بهم الأمر الى أن ينحرفوا نحو أكل لحوم البشر » (١) .

ان اعتماد الانسان على التراث الاجتماعي جزء جوهري من تقدمه الذي يدعوه الى أن يرفض بنجاح مطالب البيئة الخارجية . والثمن الذي ندفعه لذلك أننا أصبحنا حتى من الوجهة البيولوجية ، أقل صلاحية لأن نعيش بدون عون تراثنا الاجتماعي . ويجدر بنا ألا نسيء فهم هذه الحقيقة ؛ فليس معناها أن حياتنا لم تعد «طبيعية» . ولماذا نعتبر من الأمور الطبيعية للكائنات البشرية أن تحيا معدمة لا تقدم فيها ، ولا سبيل الى انتشالنا منها الا بالتراث الاجتماعي ؟ وان ما يسمى حالة الطبيعة (ولنسترجع الى ذاكرتنا هنا نظرية العقد الاجتماعي المضللة) التي ظلت رمزا للفقر والانعزال والبشاعة وبلادة الفكر وقصر الأمد ، ليس من حقها أن تطالبنا بأن نزكيها أو أن ندعو لها . وكذلك ليس معنى اعتمادنا على

---

(١) *Our Social Heritage*, p. 16. Copyright 1921. Reprinted by permission of the publishers, Yale University Press.

التراث الاجتماعى أننا ضعاف بيولوجيا . وربما كانت أسناننا أضعف من أسنان الذين عاشوا من قبلنا ، كذلك ربما كانت عملية ولادة الطفل أشد صعوبة مما كانت عليه ، ولكن الانسان المتحضر أصبح ؛ بفضل المعونة التى يحظى بها من طريق ما لديه من فنون ، أكثر قوة وأشد عافية وأطول عمرا من الانسان القديم والرجل البدائى [1] . ونحن لا نود أن نناقش موضوع أيهما أسعد ، ذلك الموضوع لا يمكن الاجابة عليه . وذلك لأن نوع السعادة التى يحصل عليها متصل دائما بنوع الحياة ، ومن ثم فانه نسبى وبالتالى تستحيل المقارنة . غير أن الاستعداد البيولوجى ليس له بالتأكيد مقياس أدق من النجاح فى الحياة ، نجاحا مستمرا عبر الأجيال .

٢ ـ **تحصيل الانسان للتراث الاجتماعى** : ان اعتمادنا التام على التراث الاجتماعى معناه أن التعليم (بأوسع معانيه) ذو أهمية كبرى فى كل مجتمع انسانى . وفى المجتمع الحديث المتميز بالنمو السريع لتراثه ، يعتبر التعليم ذا دلالة كبيرة كما يؤيد ذلك التضاد المشاهد بين أجدادنا وبيننا مثلا . ويختلف التراث الاجتماعى بشكل ملحوظ عن مجرد الميراث الاقتصادى ، فالأول لا ينتقل الينا لنستمتع به ونستخدمه . انه أكثر من ذلك . اذ نحن ورثة مشروطون له . وشرط الحصول عليه هو أننا ينبغى أن نعد أنفسنا لتسلمه . ونجعله ملكنا بمجهودنا . ومع أن هذا التراث اجتماعى بمعنى من المعانى ، الا أنه من الضرورى أن يكتسب صفة الفردية جزءا بعد جزء ، حينما يوزع على أفراد المجتمع .

وهذه العملية الاطرادية المتعلقة باكتساب التراث الاجتماعى هى اذن ذات أهمية كبيرة بالنسبة للسوسيولوجيين والسيكولوجيين وغيرهم من المعنيين بدراسة سلوك الانسان .

ولا يكتفى كثيرون من هؤلاء الباحثين بأن يدرسوا المظاهر المتعددة لميكانيزم السلوك والمتضمنة فى اكتساب العادات الاجتماعية ، مثل

---

(١) Ibid., p. 29

وجهات النظر والمهارات وما الى ذلك ، وانما يهتمون كذلك باكتشافات علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع المقارنين التى تزيح الستار عن العلاقة الوثيقة القائمة بين طبيعة تراث اجتماعى معين وطبيعة سلوك أولئك الذين يشتركون فى الانتفاع بهذا التراث [١] . ان كلا من المحاكاة والايحاء والعمليات الاطرادية الأخرى التى يشتمل عليها التعلم يقوم بالفعل حيثما وجد مجتمع انسانى . وهذه الظواهر تعمل لتمد الفرد على الأقل بضروريات التراث الاجتماعى اللازمة للمشاركة الاجتماعية والبقاء . ولو أن أحدنا نقل بمجرد ولادته الى بلد أجنبى لأمكن أن يكتسب ، بلا أية عقبة ، آداب السلوك وأساليب الكلام ، ومعظم أو كل طريقة للحياة المختلفة فى هذا البلد كما تسود هناك ، ثم يستخدمها كما يستخدم الآن أساليب بلده . ولا يمكننا أن نعول كثيرا ، أو باهتمام زائد ، على الفكرة القائلة بأن النتاج الحضارى والثقافى لا يورث من طريق البلازما الجرثومية ، وانما بوساطة الجهاز الاجتماعى . وعلى ذلك فالمعاول التى يستخدمها الانسان ، والفن الذى يخلقه ، والآلهة التى يعبدها ، ومراسيم خطوبته وزواجه ، وحتى نفس أفكاره وآرائه ، كلها تعتمد على تراثه الاجتماعى . ومهما كان الجنس البشرى الذى ينتمى اليه أو ميراثه العائلى أو قدراته الفطرية ، فإن اعتماده على هذا التراث باق — رغم ما يعتقده العامة من العكس .

وسبق أن ناقشنا (فى الفصل الثالث) الطريقة التى يصبح بها الفرد منشأ اجتماعيا . ونضيف هنا جانبا جديدا من جوانب هذه العملية الاطرادية . فبعض أجزاء التراث الاجتماعى يكتسب بسهولة — كأن نهيىء أنفسنا بسرعة لمباهج الحضارة وما تقدمه لنا من خدمات ، وأن

---

(١) انظر على سبيل المثال C.L. Hull, *Principles of Behavior* (New York, 1943); N.E. Miller and J. Dollard, *Social Learning and Imitation* (New Haven, 1941); J. Dollard, "The Acquisition of New Social Habits", in *The Science of Man in the World Crisis* (R. Linton, ed., New York, 1945), pp. 442-464.

نستمتع بغير مشقة بالاختراعات والأجهزة التى أبدعتها عبقرية الانسان . وبعض هذه الأمور يحصل عليه بالتعود البسيط ، كاللغة التى نتكلمها وكآداب سلوكنا وكثير من الأدوات والآلات التى نستخدمها ومعظم عاداتنا الجمعية ومظاهر سلوكنا العام . والبعض الآخر أكثر صعوبة فى تحصيلها ، ويقتضينا أولا وقبل كل شىء أن تثبت ببراهين عسيرة قدرتنا على تقبلها . وان المهارة التى تجعل صاحبها قادرا على أن يخترع وأن يحسن وجه الحضارة ، ليست متوافرة الا عند أقلية نسبية من الأفراد ، ولكنا جميعا نستطيع أن نستمتع بالمزايا التى تقدمها لنا هذه المهارة . ولأجزاء التراث الاجتماعى التى يسهل اكتسابها علاقة أقل ارتباطا بالشخصية . وهذه الأجزاء تكشف عن طبيعة المجتمع بوجه عام لا عن طبيعة الأفراد الذين يتكون منهم هذا المجتمع . أما الأجزاء التى يصعب الحصول عليها من هذا التراث فتعتمد الى حد كبير على صفاتنا الفردية . وتتأثر بهذه فتصبح ذات مظهر فردى عند كل من يحصل عليها . وهذا يجعلها تفسر تفسيرا خاصا جدا لما لها من جانب شخصى عند كل منا . وعلى ذلك فالموسيقى والفن والفلسفة والآداب وبعض جوانب الدين — لها من المعانى المنوعة ما يختلف باختلاف الأفراد — وفى نفس الوقت تتضمن ، كما يعرف كل مشتغل بدراسة الفن ، صفات المجتمع الذى انبثقت منه .

واذن فالتراث الاجتماعى موجود عند أفراد المجتمع كلهم . ولا يستطيع أى فرد فى عالمنا هذا المعقد أن يحصل الا على جزء منه ، ولتوضيح ذلك : أن التخصص فى ميدان التعلم لا يقل فى حقيقته عن التخصص فى عالم الاقتصاد . ولا تحتاج الحياة الشخصية المستكملة الى أن تحتجز لنفسها أكثر من جزء صغير من التراث الاجتماعى ، ومع ذلك فمن المرغوب فيه جدا أن يشترك أكبر عدد ممكن من الناس فى بعض عناصره ، ونحن مضطرون لتأجيل مناقشة هذه المشكلة حتى نصل الى نقطة معينة فيما بعد نميز عندها بين ناحيتين رئيسيتين من التراث الاجتماعى : الأولى الناحية الحضارية ، والثانية الناحية الثقافية [1] .

---

(١) أنظر الفصل الحادى والعشرين فيما بعد .

عملية الانسجام المطرد مع البيئة الشاملة

البيئة والانسجام معها ـ بعض الاعتبارات العــامة : رأينا أن بيئتنــا ليست العالم الذى من حولنا فحسب ، ولكن العالم بمعنــاه الواســع وجوانبه المتعددة من حيث اتصــاله بنا . وكلما تعقدت الحيــاة تعقدت البيئة وتعقد الانسجام مع البيئة الشاملة .

١ ـ من الانسجام العضــوى الى الانسجام الحضــارى : وهكذا اذ ننتقل من الأشكال العليا للحياة أو من الأميبا الى الانسان مثلا يصبح الانسجام الفسيولوجى المباشر جزءا صغيرا من العملية الاطرادية ككل — وفى نمو الانسان تحدث انسجامات عضوية ولكنها تستعين باســتمرار بمخترعات الحضارة ، الا أن الحيوانات الدنيا ليست لديها معاول وهى مضطرة الى تكييف أعضائها لكى تؤدى وظائف جديدة — كأن تكون لها مخالب تقطع بها ما تشاء أو أنياب تمزق بها الأشــياء عند اللزوم . ولمثل هذه الأغراض صنع الانسان السكاكين والمقصات الكبيرة الحجم والمناشير ومعاول أخرى منوعة . وبهذه الطريقة أمكن أن يوسع دائرة عمله . وباستخدامه للمعاول لا يضطر الى أن يتبع طريقة واحدة فرضها عليه تكوينه العضوى المباشر ، وعندما تضم الآلات الى المعاول تصبح عنده طرق أكثر تنوعا للتصرف : وبهذه الكيفية تفقد مظاهر الســلوك المحددة عضويا الكثير من جمودهــا . وأما المظاهر المرنة المكتسبة من التراث الاجتماعى فتأخذ أهميتها فى الازدياد. ونحن نلاحظ هنا فرقا هاما فى الانسجام مع البيئة الشاملة بين الانسان المتحضر وبين الانسان البدائى ، وكذلك بين الأخير وبين الحيوانات الدنيا .

وان عملية التكيف الاطرادية بين الانسان المتحضر وبين بيئته الشاملة هى تبعا لما تقدم شديدة التعقد وذات أوجه متعددة حتى اننا لا نستطيع أن نعرض لها هنا الا عرضا عاما وسننظر الى هذه العملية من ناحيتين : الأولى من حيث الفروق بين التوافق التكيف الخاص بالانسان المتحضر والتكيف الخاص بالرجل البدائى ، والثانية من حيث الطريقة التى يعيد

بها المتحضر تكييف نفسه ليواجه بيئة شاملة جديدة ، أو بيئة شاملة استهدفت لتغيير عنيف قلبها رأسا على عقب .

٢ ـ **خصائص انسجام او تكيف الانسان المتحضر** : يحتاج كل من التعميمات التى سترد فيما بعد الى اختبار دقيق : وستسنح الفرصة فى الفصول التالية الى أن نعود اليها ، أما فى الفصل الحالى فسنقتصر على استخدامها كدليل لمناقشتنا موضوع تكيف الانسان مع بيئته :

اولا ـ التكيف جزئى فقط : يحصل الانسان فى الحضارات الراقية على انسجام غير كامل وغير شامل مع سائر الظروف التى يعيش فيها . (وسيتضح سبب ذلك عند مناقشتنا علاقة الحضارة والثقافة فى الفصل الحادى والعشرين) . ان الانسان لا يستطيع أن ينجز الا تكيفا جزئيا فى عالمه المتغير المتعقد ، وهذا التكيف خليط من النزاع والشعور بالاستقرار (ونقصد بالاستقرار عملية انسجام الشخص أو الزمرة مع وضع معين وأن يحس فيه بالراحة كما لو كان فى بيته) [١] ، وقلما يشعر الرجل المتحضر أنه متسق مع بيئته ؛ فمطالبه معقدة كل التعقيد والظروف المحيطة به معقدة كذلك كل التعقيد ، لدرجة أنه من الصعب الاحتفاظ بالحس الدقيق بالتوازن الصحيح ، الا اذا كان الانسان قد أذهله عن

---

(١) نحن نستخدم الاصطلاح "Accomodation" للاشارة بصفة خاصة الى العملية الاطرادية التي يشعر الانسان أثناءها بحسن الاتساق مع بيئته . وربما كان تأكيدنا لهذا المعنى متضمنا فى استخدام الاصطلاح عند « المدرسة الايكولوجية » .

انظر مثلا : E.W. Burgess, "Accomodation" in the *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), I, 340-404.

وأما الاصطلاح "Adjustment" فمعناه بصفة خاصة العملية الاطرادية التى يسعى الانسان عمدا فى أثنائها الى أن يعدل حاجاته وفقا للبيئة أو بيئته وفقا لحاجاته .

See R.M. MacIver, "Maladjustment" in the same *Encyclopaedia*. Compare with the definitions of "accomodation" and "Social adjustment", in *Dictionary of Sociology* (H.P. Fairchild, ed., New York, 1944).

هذا عمره ورخاؤه الاقتصادى ، أو كان من هؤلاء المتصوفة الذين يحسون بوحدة الوجود بينهم وبين الكون كله. ان عدم القناعة الأبدى الذى يشعر به الرجل المتحضر ان هو الا حافز دائم يدفعه نحو عمل جديد . ويعتبر كل جيل بالضرورة جيلا من المتبرمين .

ثانيا ــ الانسجام ديناميكى : ان انسجام الرجل المتحضر أقل استقرارا . ولديه وسائل عديدة للسيطرة على بيئته : فهو دائما يغير فيها أو يبحث فى اجراء تغييرها . وكلما عدل فى بيئته الطبيعية الأولية ازداد رغبة فى مواصلة التعديل ان بيئة الرجل المتحضر مليئة أبدا بالتغير فى كل لحظة واذا استقرت أوضاعه فى بعض الأحيان من قبيل المصادفة فسرعان ما يصيبه شيء من الاضطراب أو الازعاج بسبب تغير خارج عنه ، أو ثورة فى داخل نفسه تحضه على تحقيق مطالب جديدة : وليس عند من يعيش فى هذا العالم اليوم درس أبلغ من هذا .

ثالثا ــ الانسجام يتصف بالاختيار والتنوع : يتصف انسجام الرجل المتحضر مع بيئته بأنه اختيارى الى درجة كبيرة ومتنوع الى أبعد حد اذا قورن بانسجام الرجل البدائى . ويمكنك أن تتصور عددا من الرجال العصريين ذهبوا جميعا للتجوال فى غابة بعينها ، وقد يكون أحدهما صيادا، والثانى محبا للطير ، والثالث متخصصا فى دراسة الحشرات ، والرابع صانعا نشأ فى المدينة . ففى هذه الحالة تبدو الغابة فى نظر كل منهم كبيئة مختلفة لأن كل واحد من هذه المجموعة مستعد لأن يرى ناحية معينة من الغابة وأن يستجيب لها بشكل خاص : ويقابل هؤلاء الزمرة من الهنود الحمر الأمريكيين الذين نشأوا فى الغابة وعرفوها كموطن لهم تجتمع فيه ضروريات وعادات متشابهة ، وتسيطر عليهم فيه معتقدات وأساطير متشابهة كذلك : واذا نحن انتقلنا الى بيئة المدينة وجدنا فيها أوساطا مختلفة كثيرة العدد ، كالوسط الذى يعيش فى حى من الأحياء القذرة ويشعر فى مناطق أخرى غيرها بأنه غريب عنها .

رابعا ــ محاولة الانسجام من جديد سهلة نسبيا : وأخيرا نلاحظ أن انسجام الرجل المتحضر يسمح مع مابه من تعقيد وبسبب ذلك الى حد ما ، بدرجة كبيرة من التحرك ، ونحن نستخدم هذا الاصطلاح للدلالة على سرعة الانسجام من جديد مع بيئات أخرى مختلفة . وفى الواقع أن لدى الرجل المتحضر مهارة عقلية معينة تجعله قادرا على معالجة التعقيد المتغير الذى يطرأ على أى وضع من الأوضاع التى يمر بها . وهذه الصفة تمكنه من التوافق بسهولة مع البيئات الأخرى . فهو قادر ، رغم معارضته البعض وعدم تقبلهم للفكرة ، أن يصول بين المناطق الحارة وجليد المناطق القطبية ، وأن يتحرك من حالة الفقر المدقع الى حالة الشهرة والغنى ، أو بالعكس وأن ينسجم مع الحياة المعتدلة فى جمهورية فيمر ، أو قسوة النظام العسكرى والتوحش اللذين اتسم بهما الحكم النازى . واذن فمهما جلب هذا التعقيد المتعقد باستمرار فى الحضارة الحديثة الى الانسان من سعادة أو شقاء ، فانه يكسبه ولا ريب مرونة لا نظير لها فى العالم العضوى .

الانسجام من جديد مع ظروف مغايرة : رأينا أن الانسان المتحضر أقدر على الانسجام من جديد مع الظروف المغايرة من أفراد المجتمعات البدائية . مع ذلك ينبغى ألا ننسى أن هذا الرجل المتحضر تواجهه أحيانا ظروف يشعر ازاءها أن محاولة الانسجام من جديد للتوافق معها تتميز بالصعوبة واحداث قلب عام عنيف للأوضاع .

١ ــ الأمور العامة التى تجعل الانسجام من جديد عملية شاقة : بوجه عام تنشأ صعوبة الانسجام من جديد مع الظروف المغايرة على وجهين : ففى أول الأمر قد تكون هذه الصعوبة نتيجة لعدم الاستقرار الكامن فى التركيب الاجتماعى نفسه ، والذى يؤدى الى ثورة ، سلمية كانت أو عاتية ، تذهب بالنظام القديم للمجتمع . ويكون على الأفراد فى هذه الحالة أن يقبلوا النظام الجديد الذى لا يقر الأوضاع القديمة التى أحبوها وأنزلوها من قلوبهم منزلة الاعزاز ، كتقاليدهم القديمة ومعتقداتهم ومقدساتهم وامتيازاتهم وأحكامهم المتعصبة وحقوقهم . ومن الأمثلة على

ذلك الثورات العديدة التى وقعت فى أوربا بعد الحرب العالمية الأولى والانقلابات التى حدثت على نطاق واسع فى أوربا وآسيا وأفريقيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ؛ ففى هذه الثورات جميعا تغيرت الأوضاع بعنف شديد حتى انها لم تصب النظم الحكومية فحسب ، بل قد ترتب عليها تغيير شامل كامل فى أساليب الحياه . وسنهتم بمعالجة هذه التغيرات الكبرى التى طرأت على التركيب الاجتماعى فى الكتاب الثالث بصفة خاصة .

وثانيا أن مشكلة الانسجام المفاجىء من جديد يخلقها كذلك التحرك المتزايد الذى تتصف به الحياة الحديثة التى تجمع شمل الناس فى بيئات جديدة تقتضى من يعيش فيها أن يكوّن لنفسه عادات مختلفة كل الاختلاف عن العادات التى كانت له من قبل . ويحدث هذا مثلا عندما يهاجر أهل الريف الى المدينة أو أهل المدينة الى الريف ، أو عندما يهجر الشباب بيئاتهم المنزلية للعمل أو للدراسة فى جو اجتماعى مختلف ، وبصورة جلية فى حالة هجرة الناس ومعيشتهم كأغراب فى مجتمع جديد . وهذه جميعا ظروف تميز على وجه الخصوص الحضارة المتحركة المعروفة عن الولايات المتحدة الأمريكية (١) :

٢ ـ أمثلة صادقة تتضمن مشكلة الانسجام من جديد : ان الظروف التى يدخل الأفراد أو الزمر تحتها فى بيئة اجتماعية غريبة ، معقدة ومنوعة : فهناك أنماط عديدة جدا من هذه الظروف تنشأ نتيجة لاصطدام ثقافات متباينة تباينا شديدا فى داخل بيئة احداها ، لدرجة أن التعميم يكون من أصعب الأشياء فى هذه الحالة . واذا كان النازحون ينتسبون الى نظام ثقافى أو جنس بشرى أعلى مما لدى الأفراد فى المجتمع الجديد ، فان عملية التكيف تصبح بالطبع أشد تعقيدا .

---

(١) يهتم John Gunther أول ما يهتم فى كتابه Inside U.S.A. (New York, 1947) باظهار الميوعة القصوى التى تميز المجتمع الأمريكى . وهذا التقرير ضخم مع ما فيه من عدم تناسق ، ويشتمل على ثروة من المادة التوضيحية التى تهم طالب الاجتماع .

ولنبحث الآن قليلا من أنماط هذه الظروف : فاذا كان المهاجرون الى المكان من ذوى المكانة الاجتماعية العالية والنفوذ ، فانهم قد يسيطرون على أهالى المكان الأصليين . وفى حـالة تفوقهم الكبير عليهم فانهم قد يعملون على ابادتهم ، كما حدث من البيض المهاجرين الى طسمانيا وفى بعض أجزاء ميلانيزيا . ان انهيار معظم قبائل الهنود الحمر الأمريكيين ، وفى بعض الحالات تدميرهم الصريح انما ينهض دليلا على صدق هذه النظرية . ونجد تحت ظروف أخرى المهاجرين ذوى النزعة نحو السيطرة يقيمون مجتمعا غريبا لا يسمح للأهالى الأصليين بالاندماج فيه ، وان كان هؤلاء يعارضون قيامه بالمقاومة الايجابية والسلبية كما حدث فى الهند . وقد يعيش مجتمع المهاجرين ومجتمع الأهالى فى سلام تسبى جنبا الى جنب كما نشـاهد فى حـالة زمر الهنود الأمريكيين والانجلوس فى جنوب غربى الولايات المتحدة . وهناك ظروف تؤدى الى الاتصـال البيولوجى بين الأجناس البشرية المختلفة ، ويترتب على ذلك أن تخف حـدة العناصر الأصلية التى تحصل بهذه الطريقة على درجة من الانسجام مع الحضارة الجديدة التى فرضت عليها . وقد حدث هذا مثـلا فى نيوزيلندا ، وفى أجزاء كبيرة من أمريكا اللاتينية ، وبشكل ملحوظ فى أوكلاهوما حيث اختلط تماما دم الأمريكيين الأصليين بدم المهاجرين . وكذلك الشعوب الكبيرة ذات الثقافة المتقدمة كالصين قد تقاوم بنجاح السيطرة السياسية والاقتصادية التى يحاول أن يفرضها عليها الأجنبى ، بينما نرى ادخال الحضارة الآلية التى جلبها هذا الأجنبى تكتسح ثقافة الوطنيين وتقضى عليها من أساسها أو تتمثلها فى ثقافة الأجنبى . وكل من درس تاريخ الاستعمار يستطيع أن يعطى أمثلة محسوسة عن ضروب أخرى من الانسجام المتجدد فى الظروف غير المألوفة [1] .

---

(١) من أجل أمثلة أخرى ، أنظر :

G.H.L.F. Pitt-Rivers, *The Clash of Culture and the Contact of Races* (London 1927), and the excellent collection of readings, *When Peoples Meet* (A. Locke and B.J. Stern, eds., New York, 1942).

ان مشكلة الزنوج فى شمال أمريكا تضع تحت أعيننا مظاهرها المميزة وفى عهود الرق ساعد المركز القانونى الواطىء للعبيد فى أن يحدد لدرجة كبيرة طريقة انسجام الزنوج مع البيئة الجديدة . وقد أدى الغاء هـذا المركز الى خلق وضع جديد ؛ فقد بقى النقص الاجتماعى وان قام شىء من الاحتجاج والتحـدى حينما اتسعت أمام الزنوج الفرص التعليمية والاقتصادية .

وهكذا نشأت حالة الانسجام الجزئى غير السهل التى نراها الآن . وقد تتحدث مقدما عن مناقشتنا التالية لهذه المشكلة (فى الفصل الخامس عشر) اذ نذكر أنه كلما بقى الحاجز السائد حاليا (سواء أكان قانونيا أم اجتماعيا) ضد تبادل الزواج ، وكلما أيدت الزمرة المتفوقة الانفصـال الطبيعى والاجتماعى ، فان هذه الحالة سـتدوم بكل ما تشتمل عليه من صعوبات [1] .

تمثل المهاجرين فى الولايات المتحـدة [2] : أقبل المهاجرون من كل حدب وصوب ومن كل بلاد العالم تقريبا الى القـارة الأمريكية وعلى الأخص الولايات المتحدة ، حاملين معهم عاداتهم وتعميماتهم للأمـور ، تؤيدهم حضارات وثقافات متباينة . ولما كانت حركة الهجرة غير مقصورة على الأفراد بل تشمل أيضا الجماعات المتشابهة من المواطنين فقد نشأت

---

(1) Among the hundreds of volumes on the Negro-White relationship, note at this point the important two-volume work of G. Myrdal, *An American Dilemma* (New York, 1944); E.R. Embree, *Brown Americans* (New York, 1943); C.S. Johnson, *Patterns of Negro Segregation* (New York, 1943); and the "Segregation" issue of *Survey Graphic* (Jan., 1947).

(٢) التمثل اصطلاح مستعار من علم الفسيولوجيا أو وظائف أعضاء الجسم . والمؤلفان يتحدثان فى هذا القسم عن تمثل المهاجرين الى الولايات المتحدة بحيث يصبحون مندمجين فى المواطنين الأمريكيين كجزء منهم كما تتمثل الأطعمة فى جسم الانسان بان تتحول الى أنسجته وتصبح بالتقريب جزءا منها . — المترجم

تبعا لذلك مشكلة انسجام الزمر الى جانب انسجام الأفراد ، مع الحياة الجديدة فى المهجر ، ومما يعقد هذه المشكلة وجود أقلية زنجية كبيرة العدد رغم أنها أقلية ، اذ يبلغون حوالى عشر العدد الكلى للسكان . وبالنسبة للزنجى كما هو الشأن بالنسبة للمهاجر من أوربا أو غيرها (وكذلك بالنسبة للزمرة الأمريكية الغالبة) نجد أن أهم ما فى هذه المشكلة مسألة الانسجام فيما بين هذه الزمر المتباينة ، من الناحية الاجتماعية لا البيولوجية . ومن ثم فالولايات المتحدة تهيىء للباحثين معملا فريدا للدراسة لاجراء تجاربهم على هذه المجموعات التى لا نهاية لها من السكان ، وعلى اطراد عمليات التعلم التى يزاولها المهاجرون ، أفرادا كانوا أم زمرا ، ممن نقلوا من بيئات اجتماعية معينة الى بيئات جديدة فى غير مواطن آبائهم تقصد العيش فيها .

١ ــ **أنماط الانسجام المختلفة :** توجد فروق متعددة للطريقة التى يتبعها الأفراد والزمر المختلفة المنتمون لمستويات ثقافية متشابهة ، لتحقيق الانسجام التام مع البيئة الجديدة . ومنذ قرن أو أكثر أخذنا نضيف الى مشاهداتنا فى هذا الموضوع المذكرات الأوتوبيوغرافية (الشخصية) التى كتبها الوافدون للاقامة بالولايات المتحدة الأمريكية ، وسجلوا فيها انفعالاتهم ازاء مسرح الحياة الأمريكى ، وهى تتراوح بين الارتماء الكلى المباشر فى أحضان هذه الحياة وبين النفور الثقافى والجماعى منها [١] . والملاحظ أن الزمر المنتمية الى ثقافات مختلفة تبعا لجنسيتها تكشف عن أنماط مختلفة للتمثل والانسجام . ولأسباب مفهومة فقد الانجليز والاسكتلنديون ، والى حد ما الايرلنديون المهاجرون، شعورهم بأنهم فى

---

(١) تشتمل مئات من هذه المذكرات، وبعضها كتب فى القرن العشرين، على : M.I. Pupin, *From Immigrant to Inventor* (New York, 1923; L. Lewisohn, *Upstream* (New York, 1923); L. Adamic, *Laughing in the Jungle* (New York, 1932); E. Corsi, *In the Shadow of Liberty* (New York, 1935).

وفيما يتعلق بمجموعة من البيانات الأكثر ايجازا بأقلام بعض المهاجرين المشهورين ، أنظر . I am an American (R.S. Benjamin, ed., New York, 1941).

منفى ، وهم أكثر استعدادا لذلك من الفرنسيين مثلا . وبوجه عام لم يجد المهاجرون القدماء الوافدون على الولايات المتحدة الأمريكية من جنوبى أوربا قبل سنة ١٨٨٠ الا صعوبة قليلة فى الانسجام مع البيئة الجديدة ، اذا قورنوا بالمهاجرين الجدد القادمين من جنوبى أوربا وشرقها بعد تلك السنة ، وقد دفعت البيئة الغريبة هؤلاء المهاجرين فى أغلب الأحيان الى أن يكونوا « مستعمرات » أو شبه جماعات محلية ، وفى داخل هذه « الجزر الثقافية » ربما أتيح لهم لمدة معلومة أن يتمسكوا بمظاهر السلوك العام السارية فى مواطنهم الأصلية ، وأن يقدروا هذه المظاهر تقديرا أعظم مما كانت تحظى به على أيديهم وهم فى بلادهم ، وربما أشعرتهم هذه الظروف بالتمسك بالوحدة نظرا لانفصالهم عن الظروف التى خلقتها [1] .

وتضم جميع المدن الأمريكية الكبيرة وكثير من المناطق الريفية أشباه جماعات محلية من هذا النوع تتميز بطابعها البشرى أو الثقافى . خذ مثلا الكنديين الفرنسيين فهم يعيشون منذ عدة سنوات فى جميع مدن ولاية نيوانجلاند ، فى أحياء منعزلة من هذه المدن ، لهم بعض اليد فى سبب انعزالهم فيها . بل وأكثر من ذلك أنهم يعملون باستمرار على توطيد صلاتهم بكندا بكل ما أوتوا من قوة : ومن بين الـ ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ بولندى تقريبا الموجودين بالولايات المتحدة الأمريكية ، تعيش أعداد ضخمة فى أحياء « بولندية » داخل المدن الكبيرة على النحو الآتى — حوالى ٥٠٠٫٠٠٠ فى شيكاجو ، وحوالى ٣٠٠٫٠٠٠ فى ديترويت، وحوالى ٢٠٠٫٠٠٠ فى نيويورك : وأكثر هؤلاء يشتغلون فى المحطات الصناعية أو المطاحن (المجارش) أو المسابك ، ومن جهة أخرى فان مزارع كونيكتيكت

---

(١) هناك كتابات كثيرة عن المهاجر فى أمريكا ، ومن بين الدراسات التى تعالج عدة زمر خاصة :

E. de S. Brunner, *Immigrant Farmers and Their Children* (New York, 1929); F.J. Brown and J.S. Roucek, *One American* (New York, 1940); C. Wittke, *We Who Built America* (New York, 1940); C. McWilliams, *Brothers under the Skin* (Boston, 1943).

ريفر فالى أفادت رخاء جديدا أثناء ملكيتها للبولنديين وبسبب مهارتهم . ولقد استقر البولنديون فى هذا الاقليم وهم الآن موضع الترحيب كزمرة مقيمة اقامة متصلة . والآن خذ الصينيين الأمريكيين ، وهم أقل من ٨٠٫٠٠٠ نسمة فى الوقت الحاضر . وكانوا قد وفدوا على الولايات المتحدة فى أعداد ضخمة حتى عام ١٨٨٠ وبضع السنوات التالية . وهؤلاء قدموا يدا عاملة كافية ورخيصة لانشاء خطوط السكة الحديدية الغربية وغير ذلك من الأعمال . وفيما بين عامى ١٨٨٢ و ١٩٤٣ لم يكن من نصيبهم مجرد تشريعات لحصرهم مبعدين عن غيرهم وانما للتمييز بينهم وبين الأمريكيين تمييزا تاما ، وبلغت الحال أنهم فى بعض المناسبات كانوا يعانون من هياج الجماهير ضدهم . ولما كان أكثر استقرار الصينيين فى المدن الأمريكية الكبيرة (وبصفة خاصة فى سان فرانسيسكو ونيويورك ولوس أنجيليز وشيكاجو) فقد احتفظوا بذاتيتهم الثقافية أكثر مما استطاع ذلك أى فريق من المهاجرين [1] . ويمدنا تاريخ أمريكا بالمثال تلو المثال، وكل منها مختلف عن الآخر من بعض النواحى .

٢ ـ **التمثل بين التعسير والتيسير** : والآن فلنتساءل : الى أى حد يمكننا أن نعمم بشأن العمليات الاطرادية التى تقع فى « وعاء الصهر » الأمريكى [2] ؟ يمكننا أن نشير بالطبع الى أنه اذا لم يكن الوافد على الولايات المتحدة للاقامة الدائمة فى حالة نفسية تسمح له بأن يكون لديه، أو أن ينمى فى نفسه ، أى حس قوى بالمسافة الاجتماعية ، أو الشعور بوضاعة المكانة أو علوها ، فان عملية الانسجام تطرد فى يسر وسهولة . ولكن كيف نفسر الفرق الشاسع بين زمرة وأخرى من جهة الاحساس ، أو بين تقبل الأمريكيين لبعض الأوربيين من غربى أوربا مثلا وبين النفور

---

(١) نوقشت هذه الأمثلة وأخرى كثيرة من نوعها فى :

Brown and Roucek, op. cit.

(٢) هنا تشبه امريكا بالوعاء الذى تذوب أو تصهر فيه جماعات المهاجرين . ـ المترجم

النسبي من الايطاليين واليونانيين والروس ؟ وهناك في الواقع أبحاث متعددة في التمثل وكتابات وفيرة ميسورة لمن يرغب في التوسع في هذه المسائل: ويجدر بنا أن نشير هنا الى بعض العوامل المتداخلة ، التي توضح تعقد العملية الاطرادية وتنوعها :

اولا — مرحلة النمو في المجتمع الذي وفد المهاجرون اليه : تتوقف الى حد كبير جدا كيفية استقبال المهاجر الى الأرض الجديدة على الظروف القائمة في الوقت الذي يفد فيه : وعلى ذلك فبالنسبة لهؤلاء الملايين الذين جاءوا الى الولايات المتحدة حينما كانت حدودها ما تزال آخذة في الامتداد عبر القارة الأمريكية ، وحينما كانت الحاجة ماسة الى القوة والمهارة مهما كان طابع هذه أو تلك لاستخدامها في اصلاح الأراضي الجديدة وتنمية الصناعات ، كان اختلاف اللغة أو الدين أو الجنسية من الموانع قليلة الأهمية لقبول المهاجرين . وكل ما نرمي اليه الآن هو أن نقابل بين المزايا العظيمة التي أتيحت للمهاجرين القدماء من هذه الناحية ، وبين الأضرار التي ألمت بالمهاجرين الجدد بسبب تعيين معالم الحدود وقيام مجتمع مستقر نسبيا فيما يلي عام ١٨٨٠ . ان اللاجئين الأوربيين الذين دخلوا الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن استولى هتلر على مقاليد الحكم في بلاده في عام ١٩٣٣ ، يمكن أن يضرب بهم المثل على الطريقة التي كان ينظر بها اليهم في أغلب الأحيان ، وبعبارة أخرى من حيث كونهم تهديدا للانعاش الاقتصادي ولعمال البلاد وأصحاب المهن الكبيرة — وقد اعتبر كثيرون من الأمريكيين أنهم وصلوا في الوقت غير الملائم [١] . ويمكن أن نلاحظ سريان هذا العامل — عامل احتياج المجتمع أو عدم احتياجه للمهاجرين — في الوقت الحاضر بمقارنة الولايات التي لا تزال غير متقدمة نسبيا مثل أريزونا حيث يلقى بوجه عام كل ترحيب ويصبحون

---

(١) On the recent refugees situation, see G. Saenger, *Today's Refugees,* Tomorrows. Citizens (New York, 1941), M.R. Davide, *The Refugee Immigrant in the United States* (New York, 1946).

بسرعة من السكان الأصليين بفعل التمثل ، وولايات فيرمونت أو مين المواطن المعتبر من أهل البلاد .

ثانيا ـ مهارات العمل السابقة : للمهاجر نفسه ميزة كبيرة اذا كان قد سبق له أن حصل فى بلاده التى هاجر منها على نوع من التمرين والاعداد فى عمل تحتاج اليه البلاد الجديدة . فمثلا الاسكندناويون والألمان الذين حطوا رحالهم فى الميدلويست بالولايات المتحدة كانوا فى الأغلب ممن مارسوا الزراعة والحياة الريفية فى بلادهم الأصلية . وكل الذى فعلوه فى المهجر أنهم طبقوا مهاراتهم الزراعية المشار اليها. ونظرا لأن يهود بلاد شرقى أوربا الذين وصلوا الى الولايات المتحدة منذ ثلاثين أو ستين سنة ،كانوا مدربين فى بلادهم الأولى على صناعة الملابس وانتاج الأحذية ، فقد أكسبتهم هذه الظروف ميزة اقتصادية فى المدن الشرقية بالولايات حيث كانت مثل هذه الصناعات آخذة فى النمو . ومن جهة أخرى فان أحدث اللاجئين من أوربا وأغلبهم من التجار وأصحاب المهن الكبيرة لم يجدوا سوقا مستعدة للانتفاع بمهاراتهم المتخصصة . كذلك نذكر صعوبات التمثل التى صادفت الايطاليين واليونانيين والبولنديين الذين وصلوا أفواجا فى الربع الأول من القرن العشرين ، وكانت ترجع الى حد ما الى أن هؤلاء المهاجرين وأكثرهم من مهارات معينة ، استلزمتها فى ذلك الحين الصناعات النامية فى المدن الأمريكية .

ثالثا ـ كثرة عدد المهاجرين : لوحظ أن موقف المجتمع ازاء الأغراب يميل الى التسامح ، ويستمر كذلك الى أن يبلغ عدد هؤلاء نسبة كبيرة . وهذه النسبة تعتبر كبيرة أو صغيرة تبعا لعدة عوامل متداخلة . فمنذ عام ١٨٧٠ والأعوام التالية ، وتقريبا لمدة نصف قرن كانت الصناعة الأمريكية النامية تمتص الملايين تلو الملايين من المهاجرين الأوائل من جنوبى أوربا وشرقيها ، وتعرض فرص العمل الرخيص للمطاحن وطرق السكة الحديدية والمصانع والمناجم . وفى ذلك العهد كانت تجرى فى عنفوانها أعظم تجربة فى تاريخ الانسان . ولكن بحلول الآلات محل الأيدى العاملة ، وبازدياد

الطلب على المهارات الفنية ، وبشروع العمال الأمريكيين فى تنظيم أنفسهم فى اتحـادات تضمهم ، فإن المهاجرين من غير المدربين وغير المهرة وغير المتحدين نسبيا أصبحوا يستهدفون بشكل متزايد لانصراف أهل البلاد عنهم والارتياب فى الغرض من هجرتهم ، حتى ان كثيرين من الأمريكيين بدأوا يتحدثون عن « خطأ وعاء الصهر » ، على أساس أن الأغراب قليلى العدد نسبيا ممن عاشوا وسط الأمريكيين فى الماضى لم يكونوا خطرا ذا بال ، أما الآن فهذه الحشود من الغزاة ذوى اللون الأسمر أصبحت خطرا أى خطر [1] .

رابعا ـ الفروق الفيزيقيـة : تثير الهجرة الجديدة الى الولايات المتحدة مسألة الكيفية التى تتدخل بها الفروق المتعلقة بملامح الجسم ولون الجلد وغير هذا من الصفات الجثمانية ، كحائل فى سبيل التمثل . ومن الضرورى هنا أن نحذر بعض التحذير . فالفروق الفيزيقية فى ذاتهـا لا تؤدى الى النفور أو الكراهية بين الشـعوب ، كما يثبت ذلك فى مناطق معينة من العالم ، مثل بعض أجزاء جنوب شرقى آسـيا وأمريكا اللاتينية ، حيث نشاهد أن فروق اللون نفسها لا ينظر اليها على أنها ذات مغزى اجتماعى ومع ذلك فعندما تتدخل عوامل أخرى لايجاد الاحتكاك بين الزمر المختلفة قد يرجـع المتخاصمون الى الفروق الفيزيقية كدليل على الوضـاعة أو مسبب للنفور . وقد توصل العـالمان وورنر وسرول الى أن التمثل فى الولايات المتحدة هو بوجه عام أسهل وأسرع بالنسبة للمهاجرين الذين هم من أصل قوقازى اذا كانوا فاتحى اللون . وأصعب وأبطأ تنازليـا بالنسبة للقوقازيين السمر ، ثم أخلاط المغوليين والقوقازيين ، ذوى المظهر القوقازى ، ثم نفس هؤلاء اذا كان مظهرهم مغوليا ، وأخـيرا الزنوج وأخلاطهم [2] . ويبدو أن هذا الدليل يبرهن على وجود مثل هذا السلم

---

(١) Cf. Brown and Roucek, op. cit., pp. 4-12.

(٢) W.L. Warner and L. Srole, *The Social Systems of American Ethnic Groups* (New Haven, 1945), Chap. X.

التدريجي للتعبئة أو التمثل في العلاقات البشرية . ومعنى هذا أنه بوجه عام تعتبر مشاكل الانسجام أسهل بالنسبة للوافدين الذين يشبهون الأمريكيين القدامى في مظهرهم شبها كبيرا .

خامسا ـ الفروق الثقافية : وهي أكثر العوامل تعقدا وأعصاها على المعالجة : فالباحثان اللذان أشرنا اليهما آنفا مزجا سلمهم البشرى بسلم مشابه يختص بمدى الانحراف عن الثقافة الأمريكية السائدة واعتبرا اللغة والدين في هذا السلم الثاني أساسين أو خاصتين لهذه الثقافة . وبهذه الطريقة عملا على تقسيم المهاجرين وفقا لمكانتهم الثقافية ، مبتدئين بالبروتستنت الذين يتحدثون الانجليزية وهؤلاء يتمثلون بسرعة كبيرة وبسهولة ويشتملون تصاعديا ، تبعا لتعقد التمثل وصعوبته ، على البروتستنت الذين لا يتحدثون الانجليزية ، ثم الكاثوليك وغير البروتستنت الذين يتحدثون الانجليزية ، ثم غير البروتستنت الذين يتكلمون عدة لغات هندية أوربية متقاربة ، ثم غير المسيحيين ممن يتحدثون الانجليزية ، وأخيرا غير المسيحيين الذين لا يتحدثون الانجليزية [1] . وكما هو الشأن في حالة العامل البشرى [2] يسهل في أكثر الأحيان حدوث الانسجام مع الظروف القائمة بالولايات المتحدة بالنسبة للذين يشبهون الأمريكيين القدامى ثقافيا . وتوجد بالطبع خصائص ثقافية كثيرة الى جانب اللغة والدين ، قد تساعد على التمثل أو تحول دونه — ومن أمثال تلك ، العادات الجمعية والمعتقدات والفلسفات وما الى ذلك .

سادسا ـ مستعمرات المهاجرين والدور الذى تلعبه كمجتمعات شبه مستقلة : في الولايات المتحدة مستعمرات كثيرة من هذا النوع ، وهي كما يدل عليها اسمها أنشأها المهاجرون ، وتأخذ شكل الأحياء العادية في داخل المدن الكبيرة أو المحلات الريفية . وجميعها تلعب دورا مزدوجا وهاما في

---

(١) Ibid

(٢) من الناحية الفيزيقية . ـ المترجم

عملية التمثل الاطرادية فمن جهة يسد الاحتفاظ بالكثير من مظاهر الحياة التقليدية ونمو حياة اجتماعية شبه مستقلة حاجات المهاجرين للتقارب فيما بينهم وما ينجم عن ذلك من احساس بالأمان والاطمئنان. وعلى ذلك فإن أعضاء الزمر البشرية المتميزة الذين يعيشون فى داخل الأحياء الخاصة، كأحياء اليهود ومدن الصينيين ومصغرات ايطاليا (أو مستعمرات المهاجرين التى تشبه كل منها ايطاليا مصغرة) وما اليها لا يشعرون بالهزة الثقافية المنيفة التى تمر بالأجنبى الذى يجد نفسه منعزلا فى أرض جديدة. وبهذه الطريقة تساعد المستعمرة كمجتمع شبه مستقل فى تسهيل انسجام المهاجر مع ظروفه الجديدة. ويقابل هذا من جهة أخرى أن التمثل نفسه يتأخر بلا شك بسبب قيام هذه « الجزر الثقافية ». وفى داخلها يشعر الوافدون، وعلى الأخص اذا كانوا من الجيل الأول، بالاحساس بالأمانعلىالتحقيق، الا أنهم فى أعينالأغلبية، وهى التى تتألف من المواطنين الأمريكيين، يقيمون الدليل بهذه العزلة على أنهم غرباء خارجون على النظام المألوف للحياة، وبعيدون عن أن يكونوا موضع الحب.

٣ ـ **التمثل والأجيال المتعاقبة :** لوحظ فيما يتعلق بالمهاجرين الى الولايات المتحدة الأمريكية أنه الى حد ما لا يزال اليونانى فى أول الأمر يتردد على مقهاه، والألمانى على حانة بيرته، كما أن الايطالى الذى من جنوب ايطاليا يظل محتفظا بسلطته الأبوية فى نظامه المنزلى، والأوكرانى والبولندى يمارسان رقص بلديهما الأصليين، وأما الايرلندى فيحتفل بتحمس شديد بالعيد الدينى الخاص بيوم سانت باتريك. ولكن بمرور الزمن يطغى تأثير البيئة الجديدة وينتصر على المقاومة المستمرة من البيئة القديمة، الا فى حالة المهاجرين أمثال المكسيكيين والشرقيين الذين تضرب الظروف الجديدة بينهم وبين مواليد أمريكا حاجزا طائفيا يحول دون التمثل الصحيح: ويبدو طغيان تأثير البيئة فى الحالات التى أشرنا اليها فيما يطرأ من تغير على « مواقف » أبناء المهاجرين وأحفادهم وما يتبعون

من سلوك : ومن الأدلة الملموسة على ذلك الزيادة المستمرة فى تبادل الزواج [1] ، وتناقص (وليس اطلاقا زوال) الصحف اليومية المحررة بلغات أجنبية ، ولم يعد المهاجرون يقبلون على لغة بلادهم الأصلية أو تراكيبها ، ولا على عاداتهم وتقاليدهم القديمة أو الاجتماعات والحفلات التى تستهدف احياءها .

وفى أغلب الأحيان يدخل المهاجرون فى فترة انتقال ؛ فالجيل الذى يتكون من الصغار يرى أن مظاهر سلوك آبائه محتقرة فى نظر الجماعة المحلية الكبيرة التى تؤهل هذا الجيل من طريق التعليم والعمل واللعب للحياة فيها ، فيؤثر الصغار فى هذه الحالة الثورة على التقاليد العائلية ويرفضون سيطرة آبائهم عليهم . وهذا بالذات ما هو حادث بالفعل بين بعض الزمر البشرية فى المدن الكبيرة ، مثل الايطاليين وأهل بورتوريكو (وليس الصينيين) ، وكذلك بين بعض الجماعات الريفية المهاجرة ، مثل البولنديين فى كونيكتيكت فالى . ومما يرمز الى هذا التفكك فى النظام الاجتماعى بين المهاجرين ازدياد حالات التشرد وانتقال السيطرة على الجيل الناشىء من الأسرة الى عصبة السوء ، وكان ذلك واضحا بصفة

---

(١) تشمل الدراسات السابقة عن تبادل الزواج :

J.H. Drachsler, *Intermarriage in New York City* (New York, 1921); Brunner, op. cit.; N. Carpenter, *Immigrants and Their Children*, Census Monograph (Washington, D.C., 1927).

ومن أجل الاكتشاف الأحدث فى الموضوع ، أنظر مثلا :

I.L. Child, *Italian or American?* (New York, 1943); R.J.R. Kenedy, "Single or Triple Melting-Pot? Intermarriage Trends in New Haven, 1870-1940.', *American Journal of Sociology*, XLIX (1934), 331-339; L. Nelson, "Intermarriage among Nationality Groups in a Rural Area of Minnesota, ibid., XLVIII (1943), 585-592; J.S. Slotkin, "Jewish-Gentile Intermarriage in Chicago", *American Sociological* Review, VII (1942), 34-39; M.L. Barron, "The Incidence of Jewish Intermarriage in Europe and America", ibid., XI (1946), 6-13.

خاصة فى بعض زمر الجيل الثانى [1] . ومما لا شك فيه أن أبناء المهاجرين يجدون من الصعب عليهم جدا أن ينسجموا مع بيئة شاملة تنتظمها آداب عامة منوعة ، وفى بعض الأحيان متعارضة ، تسير على نهجها الأسرة والجماعة . فيضطرون الى أن يبنوا لأنفسهم نمطا جديدا للحياة .

« يأتى المهاجر الى أمريكا حاملا عاداته القديمة . وهى من القدم بحيث لا يمكن مناقشتها وبالنسبة للجيل الأول تلعب هذه العادات دور المذاهب الجالبة للسعادة وتؤدى وظيفة المرشد الى الحياة السليمة . وبعد ذلك يتساءل أبناء الجيل الأول عما اذا كان من الممكن التخلى عن هذه العادات والمستويات الخلقية القديمة . وعندما يختل نظام الجيل الثانى يبدأ الآباء ينظرون الى الثقافة الأمريكية على اعتبار أنها شىء ضار ، كما يرى الأمريكيون أنفسهم فى هذا الاختلال دليلا على أنه ليس من الحكمة فتح أبواب الهجرة الى بلادهم أى ان كلا من الفريقين لا يخطر بباله أن المسألة لا تعدو أن تكون صراعا بين ثقافتين ينتهى بالضرورة الى هذا التفكك أو الاختلال [2] .

الانسجام شرح لقاعدة وتمييز بين شيئين : كتب كثيرون فى موضوع الطريقة والدرجة التى تنسجم بها الأفراد والزمر مع الظروف الاجتماعية فى البيئة الجديدة . وكذلك عن المشاكل ومظاهر المقاومة التى تعترض عملية الانسجام أثناء اطرادها . ويمكن أن نضيف الى المثال الذى قدمناه عن المهاجرين فى الولايات المتحدة تلك القصة الأليمة ، قصة الآلاف العديدة من الآدميين فى أوربا ، الذين واجهوا عملية انسجام من نوع خاص حينما أرغموا على الحياة فى معسكرات الاعتقال قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية ، أو ما واجه الأمريكيين فى اليابان من مشاكل

---

(١) أنظر مثلا :

F.M. Thrasher, *The Gang* (Chicago, 1927) and W.F. Whyte, *Street Corner Society* (Chicago, 1943).

(٢) L.G. Brown, *Immigration* (New York, 1933), p. 254.

انسجام حينما احتلوا القسم الخاص بهم فى معسكرات الاعتقال . وكلتا الواقعتين من الأمثلة الممتازة عن مرونة الرجل الحديث واستعداده للتشكل حسب الظروف [1] . وهناك مثال آخر لأسلوب الحياة الجديدة المفروض بالقوة شوهد فى الأنظمة الاجتماعية وأنماط بعض الزمر ، مما أعده فريق من نزلاء السجون والاصلاحيات وغيرها من الجماعات المكانية الشبيهة بالمستقلة [2] . وربما كانت هذه الجهات حالات متطرفة وغير ممثلة للحالات التى نحن بصددها ، ولكنها على أية حال تشير الى الطرق التى يسلكها الانسان سواء بوعى أو بغير وعى منه لخلق أسلوب جديد لحياته عندما يواجه ظروفا مقلوبة . وفى الحق أن ظروف الانسجام معقدة أشد التعقيد ومنوعة أشد التنوع بحيث اننا لا نستطيع أن نلخصها هنا . وكل ما نستطيعه أن نقنع بأن نشير الى مبدأ عام أو قاعدة عامة ، يكشفه عنها هذا التقابل بين مجتمع أكثر بدائية وآخر أكثر تطورا وأن نؤكد تمييزا معينا سنشرحه بعد قليل ، يعتبر أساسيا فى دراسة الحقيقة الاجتماعية الواقعة :

١ ـ **الانسجام أقل صرامة فى الحضارة الراقية** : ان المجتمع الأكثر تطورا وتعقيدا لا يمكنه أن يتمثل الوافد عليه تمثلا تاما ، بسبب ما يعمه من تباين ، يجعل من الصعب على الغريب أن يذوب كلية فى أنماط هذا المجتمع . وهذا يرجع الى أن الفروق القائمة فى المجتمع الحديث فيما بين آداب اللياقة ومقاييس السلوك والعادات الجمعية والمعتقدات تجعل

---

(١) For the readjustments made in concentration camps see D. Rousset, *The Other Kingdom* (New York, 1947); A. Koestler, *Scum of the Earth* (New York, 1941); and the novel, A. Maltz, *The Cross and the Arrow* (Boston, 1944), Two excellent studies of the "relocation projects" for American Japanese are: A.H. Leighton, *The Governing of Men* (Princeton, 1945) and D.S. Thomas and R.S. Nishimoto, The Spoilage (Berkeley, Cal., 1946).

(٢) See for example, A.K. Weinberg, "Aspects of the Prison's Social Structure", *American Journal of Sociology*, XLVII (1942), 717-726.

مطالب المجتمع من الأفراد بالضرورة أقل تدقيقا وغير شاملة . ويترتب على ذلك أن الشخص الغريب فى مثل هـذا المجتمع يجد أمامه فرصة سانحة لاختيار علاقاته الاجتماعية وتعيين مكانه فى البيئة الجديدة ، وكذلك للتعبير عن فرديته تحت الظروف الجديدة . وفى المجتمع المتقدم فى الحضارة تتاح لكل من المهاجر والمواطن الأمريكى فرص الحياة . وكما سنرى فى فصل لاحق لا سبيل الى توضيح هذه الفكرة بدقة خير من اجراء مقابلة بين البيئة المعقدة والآلية نسبيا نشاهدها فى المدينة الكبيرة ، وبين العالم الصغير القائم على علاقات المواجهة الشخصية والتمثل فى الجماعة المحلية الريفية . ولهذه القاعدة العامة بالطبع حالات شذوذ . وذلك لأن ما عند الوافد من استعداد للانسجام مع المجتمع الجديد ، فيما عدا قدرته الخاصة على التكيف ، لا يتوقف كلية على درجة نمو هـذا المجتمع . وهناك أسباب عديدة تجعل بعض المجتمعات أكثر تسامحا مع الأفراد الأجانب عنها وأشد ترحيبا بهم ، وأقل ميلا لفرض السلطة أو التعصب للدين السائد أو الآراء السياسية ؛ خذ مثلا الصينيين فى بلادهم فهم برغم ثقافاتهم العالية المتقدمة تحلوا دائما عبر تاريخهم بكل هـذه الصفات . ويؤيد ذلك أن الصينيين اليهود ، مع تمسكهم بدينهم ، أصبحوا مندمجين تماما فى الحياة الاجتماعية الصينية ومتكاملين معها [1] .

٢ ـ الانسجام الاجتماعى منذ التكيف الفيزيقى أو الجثمانى :

والآن نختتم الفصل الحالى بالتحدث عن هذا التمييز الذى وعدنا به منذ قليل وسيرى القارىء أننا سنضطر للعودة اليه بعد ذلك فى كتابنا هذا . وأول ما ينبغى أن نشير اليه أنه لا ينبغى لنا أن نخلط بين الطريقة التى تتكيف بها الزمر مع بيئتها الفيزيقية الجديدة (أى مع السكان أنفسهم) وبين العملية الاطرادية التى تمارسها هذه الزمر للانسجام مع وسط اجتماعى موجود من قبل . ويتضح من هـذا أن العملية الأولى عملية

(١) Cf. M. Fishberg, *The Jews* (New York, 1911), pp. 134-136.

بيولوجية والثانية اجتماعية . فاذا استطالت قامة أبناء المهاجرين الأوربيين مثلا بحيث تزيد فى الارتفاع عن قامة آبائهم ، أو اذا تغيرت أشكال رؤوس الأبناء ، فانهم فى هذه الحالة يكونون متكيفين بيولوجيا مع ظروف جديدة (ومعنى هذا أن الظروف فيزيقية ، أو جثمانية ، واجتماعية) . ولكن عندما تكون لهؤلاء الأبناء مواقف عدائية أو يشتركون فى عصابات الأحداث المنحرفين فى الأحياء القذرة بالمدن ، فانهم يبينون عن عملية انسجام اجتماعى مطردة .

ومما يشوش هذا التمييز الذى قدمناه استخدام الاصطلاح « ايكولوجيا » فى كل من العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع بالمعنى الذى يعطى له فى هذه العلوم . ففى علم النبات أو علم الحيوان يطبق الاصطلاح « ايكولوجيا » على حياة النبات أو الحيوان المختلفة باختلاف البيئة الطبيعية التى من شأنها أن تؤثر فى توزيع الأنواع التى يعيش فيها ، وفى خصائصها . أما أشكال الحياة الاجتماعية التى تنشأ عن الزمر الاجتماعية أو فى داخلها ، فلا تعتبر « ايكولوجية » بهذا المعنى . وذلك لأن البيئة الشاملة للانسان لا يمكن أن تكون اطلاقا مجرد بيئة طبيعية . اننا قد نأخذ منطقة جغرافية محلية كأساس لتحقيق اجتماعى ، ولكن لا ينبغى أن نزعم قط ان الظروف التى نكتشفها تفسر بالمظاهر الخارجية (الجغرافية) لهذه المنطقة [1] . وقد وجد الايكولوجيون الاجتماعيون مثلا أن نسبة

---

(١) من رأينا أن المجتمع اذا كان ستاتيكيا أى ليس عرضة لمؤثرات خارجية تغير وجه الحياة فيه ، أمكننا أن نفسر ظواهره الاجتماعية تفسيرا ايكولوجيا — ولقد فعل ذلك بنجاح بروفسور ايفانز — بريتشارد فى دراسته لمجتمع النوير وافرد فى كتابه عنه فصلا خاصا عن الأيكولوجيا — وان من يقرأ هذا البحث ليعجب للمهارة التى فسر بها المؤلف النظم الاجتماعية للنوير وتحركاتهم خلال السنة تبعا لفيضانات النيل والأمطار وامكان زراعة الذرة وصيد السمك لتكميل غذائهم الشحيح من ألبان الابقار وهو لم يغفل التحركات بسبب الحشرات الضارة بالماشية . وقد بين ايفانز — برتشارد ببراعة توقف الزواج على الثروة الحيوانية كما وجد فى حاجة =

الجانحين فى المدن الكبيرة تبلغ أقصاها فى الأحياء التالية مباشرة لمراكز العمل والتجارة ، وتتضاءل بوضوح كلما ابتعدنا عن هذه المراكز . الا أن هذا لا يسوغ زعمنا بأن الدائرة المكانية ، من حيث هى كذلك ، مسئولة فى هذه الحالة ، ان ازدياد جنوح الأفراد يمثل عملية اطراد الانسجام مع العوامل الطبيعية الظاهرة فى المنطقة [1] . ان التوزيع الجغرافى فى بيئة اجتماعية لا يعنى البتة الجبرية الجغرافية [2] . ان كل ظاهرة اجتماعية نتيجة لموقف شامل . فاذا اقتصرنا فى تفسيرها على البيئة الطبيعية وجب أن نصحح أنفسنا بأن نجعل هذا أول اجراء نقوم به فى البحث عن

= الأبقار والثيران الى المرعى سببا للغارات والحروب المستمرة بين النوير والدنكا . أنظر :

E.E. Evans-Pritchard, *The Nuer, A. Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People* (Oxford, 1940).

وربما نجح التفسير الايكلوجى للحيــاة الاجتماعية فى حالة البيئة القاسية وظروف المعيشة الصعبة حيث يتكالب النـاس على موارد الرزق المحدودة ، أنظر :

James A. Quinn, "Ecological Versius Social Interaction", *Sociology and social Research*, XVIII (July-August, 1934), 565-70.

— المترجم

(١) ومن الأبحاث المتصلة بهذا الموضوع :

C.R. Shaw, *Delinquency Areas* (Chicago, 1927); National Commission on Law Enforcement, *Report on the Causes of Crime*, II (1931), 140-188; C.F. Schmid, *Social Saga of Two Cities* (Minneapolis, 1937), pp. 334-345.

(٢) وهذا حق ، ولكن لا ينبغى أن نغفل وجــود جبرية جغرافية غير مباشرة فى كل المجتمعات تقريبــا . مثال ذلك أن عــدم توافر الطعام فى بريطانيا يفسر الكثير من مظاهر سياستها الخارجية ومحالفاتها وحروبها وليس المهم أن نتحدى المظاهر الطبيعية للبيئة من حيث امكان تاثيرها فى حيــاة الناس ، بل ننظر اليها أيضا على اعتبار أنها امكانيات يتصرف فيها العقل البشرى وينفعل معها دائما ، وبذا يحدث التأثير غير المباشر للجغرافيا .

— المترجم

العلل [1] ، وزيادة على ذلك فان البيئة الاجتماعية معقدة جدا كما رأينا . وهناك وسائل ودرجات لا حصر لها للانسجام مع جوانبها المتعددة ، كما يتبين من أساليب المعيشة التى تتبعهـا كل زمرة على حـدة . وفيما يلى وصف للحياة فى احدى المدن الصغيرة فى ولاية انديانا (كتب منذ عشرين سنة تقريبا) وهو يوضح وجهة نظرنا بكيفية تستحق الاعجاب :

« تنهج المعيشة فى مدينة مدلتاون ... عدة سبل ، تذهل المتأمل لكثرة عددها . وقد لوحظ وجود فروق بين درجة انسجام جيل كبار السن وجيل الصغار ، وكذلك بين الجيران ، كما أن الاناث أظهرن أنهن أكثر محافظة من الذكور الذين يبدون مفتقرين الى ما لدى الاناث من مطابقة فى مظاهر انسجامهم أو الى نمط واضح لهـذا الانسجام ، وأنهم أكثر للتكيف فى مسائل أخرى . وفى كثير من مظاهر النشاط ، لوحظ كما أشرنا باستمرار أن للطبقة العاملة اليوم عادات طبقة رجال الأعمال التى كانت لهم منـذ جيل مضى على وجه التقريب . ولو كان من المستطاع أن نفرق بوضوح بين تدرج تأثير كل من هاتين الزمرتين الكبيرتين فى الأخرى ، فلربما ظهر لنا أن تغييرات كثيرة تتسرب ببطء من خلال زمر أخرى متوسطة ، وان كانت هناك فى بعض الأحيان انتقالات واسعة فى المكانة الاجتماعيـة تشيع فى الاتجاه العكسى ، مثل الانتقال من الطبقة العاملة ، بلا تدرج ، الى طبقة رجال الأعمال ، كما لوحظ مثلا فى صناعة الخبز المعد بالطرق التجارية وصناعة الأغذية المحفوظة بالعلب .

هذه الأوضاع المتغيرة التى ثبت فى حالات كثيرة أنها كافية للتأثير

---

(١) يؤيد ذلك أن الأبحـاث الاجتماعية التى أجريت على المجتمعات المتكاملة فى النصف الأول من القرن العشرين جميعها تفسر أولا بالايكولوجيا ثم بتفسيرات أخرى بعد ذلك . انظر :

Aly A. Issa, *The Methods of Social Anthropology: An Examination of Current Ideas and Practice* (Oxford D. Phil. thesis, typescript).

— المترجم

بوضوح فى قدرة الفرد على معالجة شئونه الدنيوية ، لا تبدو فقط فيما بين الأفراد ، وفى الأعمار المختلفة ، ونوع الشخص ، والزمر الموجودة فى مدلتاون والمشتركة فى نفس هذا النشاط الحيوى ، وانما تظهر أيضا فى المدينة ككل ، وفى الزمر التى تتكون منها خلال حياة المدينة نفسها وتاريخها الذى يتكون من عدة عصور ، كل منها يقتضى حياة ذات نشاط مختلف .
ومن الواضح أن مدلتاون ما تزال تسلك فى بعض تقاليدها نفس الطرق التى سبق أن سلكتها بنفس الدقة تقريبا منــذ جيل مضى ، على حين أن البعض الآخر من هذه التقاليد لا يمت الا بصــلة ضعيفة الى الأزمنــة الماضية . ومن الواضح فى مجموعات النشاط الست الرئيسية بالمدينة أن من الممكن ترتيبها حسب درجة ما طرأ عليها من تغير . فالعمل أول نشاط طرأ عليه تغير شامل فى نواحيه الآلية والميكانيكية ، ووقت الفراغ أصبح يستغل بشكل واضح بالاعتماد على التقدم المادى ، ومن مظاهره السيارة والسينما ، ومن كثرة دور السينما أصبحت تسلية شبه متنقلة . أما أنواع النشاط التى تأتى فى المحل الثالث والرابع والخامس وفقا للخصائص التى أمكن تحريها فهى التعلم بالمدارس ، ومظاهر نشــاط الجماعة المحلية ، وتكوين بيت ، بينما يأتى فى المحل الأخير نشاط لم يطرأ عليــه الا أقل تغيير وهو النشاط الدينى الرسمى » [1]

ومثل هذا التنوع قد يبــدو أنه يشير الى أن محــاولة استكشاف علاقات العلية بين مظاهر التقدم الاجتماعى والعوامل الخارجية للبيئة أمر مضلل ولا جدوى منه . ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نأمل أن نتوصل الى عامل ما من عوامل البيئة ونعتبره العلة الوحيدة لاحــدى الظواهر الاجتماعية : ولا يمكن أن يقبل مثل هذا الفرض الا أولئك الذين ما زالوا

---

(١) From *Middletown* by Robert S. and Helen Merrell Lynd, copyright, 1929, by Harcourt, Brace and Company, Inc.

ينظرون الى طبيعة العلية تلك النظرة القديمة الخاطئة [1] . ان المشكلة التى نحن بصددها تتلخص فى أن الأفراد تصدر عنهم مظاهر مختلفة من السلوك تتفق مع كل نوع من أنواع البيئة الشاملة التى يعيشون فيها . اما الى أى حد يمكن ارجاع هذه المظاهر الى جوانب معينة من هذه البيئة فهذا كما رأينا سؤال يصعب جدا الجواب عليه . ان البيئة الشاملة فى مظهريها الفيزيقى والاجتماعى ، تؤثر دائما فى كل من يعيش فيها . والآن تحملنا متابعة هذا الموضوع وبحث هذه العلاقة ، بعد هذه الاعتبارات التمهيدية التى تناولناهـا فى الكتاب الأول ، الى معالجة أكثر توسعا للتركيب الاجتماعى والتغير الاجتماعى فى الكتابين الثانى والثالث .

(١) قليلون هم علماء الاجتماع الأمريكيون الذين حاولوا القيام بتحليل مستفيض لمشكلة العلية الاجتماعية . واذا رغب القارىء فى الاطلاع على احدى هذه المحاولات فلينظر :

R.M. MacIver, *Social Causation* (Boston, 1942); and for a critique of this volume by F.H. Knight and a rejoinder by the author, see *American Journal of Sociology*, XLIX (1943-1944), 46-58.

الكتاب الثانى

التركيب الاجتماعى

الباب الأول :

القوى المؤيدة لقواعد السلوك والعادات الجمعية

كلمة استهلالية

اذا كنا فى طائرة وألقينا منها نظرة على احدى المدن أو القرى أو أية منطقة أخرى تجرى منها حياة اجتماعية ، فاننا نشاهد فيها أبنية وطرقا وقناطر وغير هذه الأشياء التى تدل على أعمال الانسان . وربما استطعنا أن نميز الناس أنفسهم ونحن نتطلع الى الأرض من عل . ولكنا لا نرى التركيب الاجتماعى ، ولا يمكننا أن نراه اذا حاولنا ، فنحن لا نرى المجتمع وانما نشاهد مظاهره الخارجية ليس غير ؛ وذلك لأن المجتمع عبارة عن نظام يتكون من العلاقات الانسانية أقامه أفراد من النـاس وعملوا على دعمه ثم تغييره باستمرار مع بقائه نظاما . وسنعالج فى الكتاب الثانى من هذا المجلد خصائص التركيب الاجتماعى ، وعلى الأخص كما نما تحت الظروف السائدة فى الحضارة الغربية الحديثة .

وسنواجه فى الباب الأول مهمة أولية الا أنها جوهرية ، وذلك لأنه بينما يبدو التركيب الاجتماعى نفسه غير مستقر ، وخاضع للتغير ، فان له طابعا محددا فى كل مرحلة من مراحله . وكثير من عناصره الرئيسية ، احتفظت بمثالها خلال ما طرأ عليه من تغير ، فكيف اذن يتسنى لهـذا النسيج من النظم والروابط — كالأسرةوالدولة والكنيسة مثلا —أن يبقى الأخص كما نما تحت الظروف السائدة فى الحضارة الغربية الحديثة : وأن يستمر تنظيمه ؟ كيف يواصل أداء وظيفته كنسق متوافق ؟ وما هذه القوى التى تعمـل على ربط التركيب الاجتماعى وتماسـك أجزائه ؟ وسندرس فى مرحلة تالية القوى التى تؤدى الى عدم الاستقرار والتغير ، أما هنا فسنهتم بالقوى المحافظة التى من شـأنها أن تعمل على التطـابق والاسـتقرار .

وفى هذا الجزء من البحث نتوغل مرة أخرى فى منطقة يلتقى فيها علماء الاجتماع والنفس ، وذلك لأن هذه القوى ، أو المبادىء التنظيمية ذات طابع انسانى عام ، بمعنى أنها تعتبر من لواحق كل من عملية الانسان (أو الفرد) والمجتمع الانسانى حيثما وجد . وعلى ذلك فسنبحث فى الدور الذى تلعبه الآداب العامة وقواعد السلوك فى اقامة دعائم الحياة الاجتماعية ، وذلك فى الفصلين السابع والثامن . على أننا ينبغى أن نذكر فى نفس الوقت أن هذه الآداب العامة وقواعد السلوك وما اليها من وسائل الضبط الاجتماعى ، التى ستكون موضع اهتمامنا ، لا تعبر تماما ولا هى تنظم دائما آراء الأفراد أو خططهم العملية ، ومن أجل هذا سنواجه — على الأخص فى الفصل التاسع — مسألة تحوير هذه المبادىء بحيث تلائم مختلف الحالات الفردية الجزئية التى لا تعتبر هذه المبادىء سببا كليا لها — وهذا البحث فى قواعد السلوك والعادات الجمعية من حيث كونها نظاما — للعلاقات الاجتماعية يدعم الحياة فى المجتمع وان كان هذا النظام نفسه متغيرا باستمرار ، سيمهد لدراسة الأشكال لتركيب المجتمع فى الباب الثانى .

الفصل السابع

الآداب العامة والضبط الاجتماعى

قواعد السلوك والجزاءات فى الحياة الاجتماعية

الضبط الاجتماعى والتركيب الاجتماعى : يحظى موضوع الضبط الاجتماعى بعناية عدد كبير جدا من مراجع علم الاجتماع وغيرها من مراجع الدراسات الأخرى . والمقصود بالضبط الاجتماعى الطريقة التى يتطابق بها النظام الاجتماعى كله ويحفظ هيكله — ثم كيفية وقوعه بصفة عامة كعامل للموازنة فى حالات التغير . وان مفهوم الضبط الاجتماعى ليضعنا ، اذ نحاول أن نفسره ، فى بؤرة علم الاجتماع أوفى صميم مشكلته الأولى الدائمة ، وهى العلاقة بين النظام الاجتماعى والفرد ، أو العلاقة بين الوحدة والمجموع . ولدراسة الضبط الاجتماعى يتحتم أن نتقصى الوسائل التى يشكل بها المجتمع سلوك الفرد وينظمه . وفى نفس الوقت نتعرف الطرق التى يتبعها هذا السلوك المعين والعام بالنسبة للأفراد جميعا ، للمحافظة بدوره على حفظ النظام الاجتماعى . وهذه المهمة الكبرى ستقتضينا الاهتمام بها خلال الكتاب الثانى ، الذى سنبحث فيه مختلف النظام المعقد للعلاقات الانسانية الذى نسميه التركيب الاجتماعى [1] .

---

(١) من الكتب التى تعالج مباشرة مفهوم الضبط الاجتماعى ، من بين الكتابات الضخمة فى هذا الموضوع ، نذكر :

E.A. Ross, *Social Control* (New York, 1901).

وهو أقدم بحث أمريكى فى هذا الميدان ورغم قدمه لا يزال يستأهل =

وقبل أن نطرق المناقشة حـول الجماعة المحلية والطبقة الاجتماعية والأسرة والمظاهر الأخرى للحياة الاجتماعية المتعلقة بالتركيب الاجتماعي (وهي موضوعات الباب الثاني من الكتاب الثاني) ينبغي أن نستعرض القوى المؤيدة لقواعد السلوك والعادات الجمعية المعبر عنهـا في مظاهر السلوك العام والآداب العامة المتبعة في المجتمع . وقد سبق أن ناقشـنا بايجاز في الفصل الأول طبيعة الآداب العامة وأشرنا الى أنها قائمة في كل مجتمع كوسائل لتنظيم السلوك ، واذن فهي أدوات للضبط الاجتماعي . والآن يتحتم أن نعالج بتفصيل أوفى هذا الدور الهـام وأن نختبر هذه المبادىء أو القواعد التي تسـير بمقتضاها الآداب العامة ، بقصـد دعم التركيب الاجتماعي .

طبيعة القانون الاجتماعي : نحن لا نعرف نظاما من أي نوع ، مهما كان عرضة للتغير ، يمكن أن يقوم الا اذا كان بصورة ما تعبيرا لقانون . ان كل شيء في الوجود يخضع للقانون الذي يوائم تكوينه الخاص . ان الغرض من البحث والاستطلاع العلمي ، في أي ميدان من ميادين العلوم ، هو تقصي المبادىء أو القوانين التي تحكم الأشياء في نطاق معين . فعالم الطبيعة يهتم بقوانين الجاذبية ، أو الغازات ، أو العـلاقة بين الحرارة ، والأعمـال الميكانيكية . وليس المتخصص في العـلوم الاجتماعية بأقل

= اهتمام الطالب به ، وكذلك : F.E. Lumley, *The Means of Social Control* (New York, 1925). P.H. Landis, *Social Control* (Philadelphia, 1939); L.L. Bernard, *Social Control in Its Sociological Aspects* (New York, 1939); J.S. Roucek, et al., *Social Control* (New York, 1947).

— المؤلفان

ويصح أن يضاف الى هذه المجموعة مقال هام في الموضوع ، وهو وان لم يكن كتابا نسوقه في معرض هذه الكتب ، الا أنه فيما نعتقد قد ضمن وغيره من المقالات لنفس المؤلف كتابا صغيرا — وعنوان هذا المقال :

"Sanction, Social", *Encyclopaedia of the Social Sciences*, Vol. 13, pp. 531-34, by A.R. Radcliffe-Brown.

— المترجم

اهتماما فيما يتعلق بالقوانين المتصلة بالظواهر الاجتماعية وكيفيات وقوعها الا أن هناك بعض فروق ذات بال بين هذين الباحثين نخرج بها من هذه المقــارنة .

١ ـ **التنظيمات الاجتماعية ذات صــفة معيارية :** يتميز المجتمع عن الحقيقة الطبيعية الواقعة من حيث القوانين التى تعمل على دعم المجتمع ، وعلى الأقــل بعضها ، آمرة أو معيارية [١] . وبعكس قوانين العــالم الطبيعى ، يمكن الخروج عليها كما يمكن تغييرها . وهى تفتقر الى صفة الصلابة التى تختص بها القوانين الطبيعية . وصحيح أن جذورها موجودة فى الطبيعة الانسانية وفى التكوين العضوى للانسان كما فى حاجاته وشعوره الدائم بوطأة المجتمع ، وفى مشابهته ومطابقته للمثال العام للانسان وبالتالى فى سلوكه ، الا أن القواعد نفسها عرضة للتغير ، من حيث ان حاجات الناس ورغباتهم ليست ثابتة أو دائمة ، وانما هى تسعى دائما للبحث عن طرق جديدة للتعبير .

وهذه القواعد التنظيمية للمجتمع اذ هى الا مستويات قررتها زمرة من الناس لضبط ســلوك أعضائها ، من حيث علاقاتهم بعضهم ببعض وعلاقاتهــم بالزمرة ككل . وليس معنى ذلك أن هذه القواعد مفروضــة عليهم فحسب ، اما بوساطة حكامهم واما بانحدارها من ماضيهم . وهى تختلف عن القــوانين التى يفرضها سيد على عبده ، أو التى تسنها امبراطورية لتحكم بها أحد الشعوب الخاضعــة لها . وانها فى الأغلب الوسائل التى تدل على أن المجتمع عامة يقبل هذا الميراث ويستمسك به . وهى تتغير فى الحاضر كلما نما وعى المجتمع وأدرك حاجته الى التغيير .

٢ ـ **التنظيمات الاجتماعيــة نسبية وتختص بفريق من الأفراد دون غيرهم :** تختلف قواعد السلوك عن القوانين الطبيعية من ناحية ، ومن

---

(١) يلاحظ أن هذه القوانين آمرة وهناك فرق بين الآمرة والحتمية . وهى كذلك معيارية أى تقوم على معيار عام أو مستوى عام لا يمنع قيــام مظاهر تشذ عنه . — المترجم

ناحية أخرى أنها تحمل فى طياتها معنى الالزام ، وتخاطب عواطف من تحكمهم من الناس وعقولهم . وهى تجرى دائما ضد ميول أفـراد عديدين . ان مظاهر السلوك العام والآداب العامة تكشف عن تماسك المجتمع الا أنه تماسك ليس كاملا دائما ؛ وذلك لأن المصلحة الشخصية للأفراد أو ما يشبهها تجرى دائما ضـد المصلحة العـامة أو المشتركة للمجموع ، ولأن مصلحة الزمرة الصغيرة ، كالأسرة أو النادى ، تسير فى أكثر الأحيان ضد مقتضيات الزمرة الكبرى كالجماعة المحلية أو الطبقة الاجتماعية . أن معايير السلوك الاجتماعية كثيرا ماتقيد المسعى نحو المصالح الذاتية . ومن جهة أخرى كثير من التنظيمات تصاغ لتحقيق مصلحة الزمر أو الطبقات التى لها الغلبة والمكانة المرموقة ، وتلقى مقاومة من الزمر الأخرى ، ويمكن القول بايجاز ان أوامر قواعد السـلوك الاجتماعية لاتقبل ولا تطاع بنفس الكيفية .

قواعد السـلوك والجزاءات : ان مظاهر السـلوك العـام والآداب الزمرة انما تمـدنا بالكيفيات الأكثر عموميـة والأقوى قبـولا التى تتبعها للقيام بهذا العمل أو ذاك . وهى كذلك ، كما رأينا ، لها صفة التنظيم وتمارس الضغط على كل من الفرد والزمرة ليعملا وفقا للمعايير السائدة . وفى كل من هذين الدورين تتحول التنظيمات الاجتماعية الى نسق معينة أو قواعد للسلوك ، وفى المجتمع الحديث نشعر أكثر ما نشعر بقواعد السلوك القانونية . ولكن هذه تقوم ، والى حد كبير ترتكز ، على قواعد سلوكية من نوع آخر ، مثل القواعد التى تفرضها العادات الجمعية والديانات .

١ ـ العلاقة بين قواعد السـلوك والجزاءات : تتشابه مختلف قواعد السلوك الاجتماعية فيما بينها فى ناحية واحدة هامة . ذلك أن أوامرها جميعا من الممكن الخروج عليها . ولا بد اذن من اجراءات خاصـة لحمايتها تتلخص فى أنواع من الجزاءات ، الغرض منها مقاومة الميل الى عصيان هذه القواعد . وهذا الكلام ليس أقل انطباقا على الشعوب

البدائية المحكومة بالعادات الجمعية فحسب منه على الشعوب المتحضرة [1] .

ليس هناك وضع من أوضاع السلوك ينطوى على طاعة أوتوماتيكية لا انحراف فيها عن القواعد المقررة . والمجتمع فى كل حالة من هذه الحالات يسند هذه القواعد بممارسة درجة ما من الضغط على الشخص الذى يحيد عنها .

ان الاصطلاح « جزاء » يمكن تطبيقه فى حالة العمل المتمشى مع قواعد السلوك ويعتبر هنا جزاء حسنا . وكلنا نعرف طريقة المدح والتقريظ كأداة للضبط الاجتماعى ، ولا يقل تطبيقها فى عالم البالغين عنه فى تعليم الصغار كوسيلة للتشجيع على السلوك المتفق والمعايير الاجتماعية . غير أن « الجزاء » يشير بوجه عام وبصفة أدق الى العقوبة الخاصة التى يفرضها المجتمع على كل من يخالف قواعده . وفى بعض الأحيان يأخذ الجزاء معنى حرمان المخطىء مما قد يكون مستمتعا به من امتيازات ، أو الغاء بعض أو كل حقوقه ، وفى أحيان أخرى يكون عبارة عن غرامة توقع عليه أو فى حالة القوانين التشريعية فقدان الحرية (بالسجن) أو فقدان الحياة (بالاعدام) . ولكل نوع من القواعد جزاءاته الخاصة . والقواعد الرئيسية للسلوك الاجتماعى تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا من حيث نوع أوامرها ، كما سنرى بافاضة فى الفصل التالى .

٢ ـ **الجزاءات الاجتماعية والبواعث الفردية :** على طلاب الاجتماع والباحثين فيه أن يميزوا بعناية بين جزاءات قواعد السلوك وبين الأسباب التى تدعو الى طاعتها . لأن الجزاء الاجتماعى أحد أسباب الطاعة التى يحس الفرد ضغطها ، ولكنه واحد من أسباب عدة . وفى أغلب الأحيان

---

(١) B. Malinowski, *Crime and Custom in Society* (New York, 1926), Part I.

لا يكون السبب الأهم . ان أعضاء احدى الجمعيات الطبية أو القانونية لا يحترمون قواعد السلوك الخاصة بجمعياتهم لمجرد أن مخالفة هـذه القواعد تفقدهم حق ممارسة المهنة . ولا يطيع أعضاء أحد الأندية قواعد ناديهم لمجرد الخوف من فقدان عضويته . والناس بوجه عام لا يطيعون القانون لأنهم فقط يخشون رقابة الشرطي . انهم جميعا الى جانب هـذه الأسباب المذكورة يحترمون قواعد السلوك الاجتماعية لأنهم يرون أنه من الصواب أن يحترموها ، أو لأنهم تعودوا احترامها حتى أصبح هذا الاحترام أقرب التصرفات لمقاومتها ، أو لأنهم يرغبون فى تحسين علاقاتهم بأقرانهم ، أو لأن هذه القواعد تخدم مصالحهم ، أو لأسباب أخرى . ان بواعث الفرد متشعبة ومختلط بعضها ببعض ومن الصعب تبينها واحدا واحدا ، كما تشير بذلك المشاكل المعقدة التى تصادف اخصائى العلاج النفسى . وتتنوع هذه البواعث تنوعا لا حد له من شخص لآخر ، ومن ظرف الى غيره . أما الجزاءات ، فبالعكس من ذلك ، محددة ، وهى بسيطة نسبيا . والبواعث فردية الصفة دائما ، أما الجزاءات فطبيعتها اجتماعية . واذا كان النـاس ، بوجه عام فى مجتمعنـا مضطرون للخضوع للزواج المونوجامى ، أو زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة ، فان فى وسعنا أن ننسب هذا التقليد الى قواعد سلوكية وجزاءات مقررة ، تعتبر جزءا من تراثنا الاجتماعى . الا أن الأسـباب التى يتذرع بها كل منا لتسويغ زواجه المونوجامى تكمن وراء الباعث الفردى .

هذا التمييز يجب أن يستقر فى أذهاننا عند كل مناقشة للقواعد التنظيمية للمجتمع وسنقسم هذه القواعد من ناحية جزاءاتها الاجتماعية . ولكن ينبغى أن نذكر دائما ونحن فى معرض هذه البواعث المعقدة التى تكمن وراء السلوك الانسانى ، أن الجزاء ليس وسيلة لتفسير السلوك بقدر ما هو أداة لتقوية الأثارة نحو توحيد السلوك ، بدونها تتمزق وحدة المجتمع تحت ضغط الميول المتعارضة التى تواجـه نفس الظرف الفردى الواحد .

٣ ــ **انواع قواعد السلوك والجزاءات :** لكل جمـاعة محلية ، كما لكل نوع من الزمر أو الروابط المنظمة ، قـواعدها التى تفرضها على أعضائها . وفى الجماعة الحديثة المعقدة تأخذ هذه القواعد عدة أشكال ، وتكون لها جزاءات متباينة فيما بينها أشد التباين .

أولا ــ قواعد السلوك فى الجمعيات والهيئات : يعاقب من يخـالف قواعد أى نادى بفقدان عضويته أو بعض مزايا هذه العضوية ، أو بفرض غرامة كشرط لاستمرار الاحتفاظ بالعضوية أو بفقدان الاعتبار أو المكانة فى داخل النادى . هذه فى الواقع هى الجزاءات العامة المعروفة فى جميع المنظمات « الاختيارية » وان كنا نرى فى بعض الأحيان قواعد تنظيمية لبعض الهيئات تؤيدها جزاءات نهائية . فالعامل فى بعض المصانع اذا خالف تعليمات الادارة أو اتحاد العمال فى داخل المصنع ربما فقد عمله والى جانبه رزقه . والمسيحى الذى يخطىء فى حق كنيسته قد يعانى مرارة الحرمان الكنسى مع ما يتضمنه هذا الحرمان من فقدان العزاء الروحى والشعور بغضب الله . والطبيب أو المحامى الذى يخل بواجبات مهنته قد يفقد حق مزاولتها ، وان كان فى مثل هذه الحالات يتعرض أيضا للجزاء القانونى ، كجزاء اضافى ضرورى .

ثانيا ــ قواعد السلوك الخاصـة بالجماعة المحليـة : فى كل جماعة محلية قواعد لتنظيم السلوك لا علاقة لها بالزمر ذات المصالح الخاصة ، وهى قواعد معينة بوضوح كغيرها من القواعد ولكن تساندها جزاءات لاتقل أهمية عن غيرها . فالخروج على حكم العادة الجمعية يجازى بنوع من الامتعاض الاجتماعى أو نبذ الشخص المخطىء . ومع ذلك فان هذا النوع من العقاب يعتبر فى حالاته الشديدة واحدا من أقسى الجزاءات المعروفة . أما العادة المستحدثة فيساندها نوع أخف من هذه الجزاءات ، وهو الشعور بعلو المركز الاجتماعى أو بالاحتقار نحو من لايأخذ بهذه العادة . ومن الأساليب ذات النتيجة المؤكدة فى حماية العادة المستحدثة وبوجه عام ما اصطلح عليه الناس من تصرف أن يتعرض الشخص المخالف

للسخرية ، من طريق الاستهزاء هذا ما عبر عنه مونيه بالجزاء [1]. ويرجع السبب فى قوة هذا الجزاء خوفنا من أن يقحم الغير منـا ، وهو ظاهرة مغروسة فى كل أعمالنا . وتحظى كذلك قواعد السلوك الجماعية بتأييد شديد كما نعرف ، من ناحية أحاديث الناس ولغوهم ، وهذه تعمل ، بوجه عام ، على أن نخفى انحرافاتنا عما اصطلح عليه الناس ، أو نقلل منها .

ثالثا ــ القواعد الخلقيـة : لهذه القواعد موقف غامض فيما يتعلق بالجزاء . ولا تفسير لذلك الا أن الاصطلاح « مقاييس السلوك » أو « القوانين الأخلاقية » يستخدم بطريقة مشوشة ليؤدى معنيين مختلفين . فأحيانا يعنى قواعد السلوك التى اصطلحت الزمرة أو الجماعة المحلية على أنها التصرفات الصحيحة والصائبة ، والتى تفرض على الأفراد المخالفين بدرجــات متفاوتة من نفس الجزاءات ، التى هى الحــارس الأمين على العادات الجمعية بوجه عام . ويفهم من هذا أن مقاييس السلوك ما هى الا العادات الجمعية التى اذا خولفت اعتبرت الجماعة مخالفتها خطأ بينا ــ وبايجاز هى الآداب العامة . ولكن قواعد السلوك بمعنى أدق هى مجموعة الأوامر والنواهى التى يتمسك بها « الضمير » الفردى على أنها السلوك المتميز بالصواب والخير . وهنــا يبرز جــزاء باطنى وشخصى يتمثل فى الشعور بالاثم نتيجة لخرق قواعد السلوك . وهذا الجزاء يتوافق أحيانا ويتعارض فى أحيان أخرى مع الجزاء الاجتماعى . فالطبيب الذى يتعمد اعدام طفل حديث الولادة لأنه مشوه الخلقة مثلا ، قد يكون بهذا العمل قد خرق قواعد السلوك الخلقية للجماعة ، وربما يكون أيضا قد خالف القانون ، ولكنه بينه وبين نفسه يعتبر نفسه على حق وأن تصرفه سليم من الناحيــة الخلقية كما يتصورها هو . وهناك أمثلة لا حصر لهــا عن التعارض بين قواعد السلوك الخلقية الخاصة بالجماعة وتلك الخاصة بالفرد .

---

(١) R. Maunier, *Introduction à la Sociologie*, Chap. II. For another discussion of ridicule as a social control device see P. Walters, Jr., "Non-violent Means of Social Control", in Roucek's *Social Control*, pp. 320 ff.

ومع ذلك فمن الصحيح — كما يتبين أكثر مظاهر حياتنا اليومية — أن الآداب العامة ومقاييس السلوك شيء واحد تقريبا . واذا لم يكن هـذا صحيحا فان مفهوم الآداب العامة للزمرة ربما تعذر أن يكون له أي تطبيق . ان ما نفعله متفقا مع العرف — أو ما يأمر به العرف حتى اذا خالفناه — نشعر أنه الشيء الصحيح والصواب الذي يجب عمـله . واذا عشنا في زمرة قواعد الحياة فيها أن يستيقظ المرء مبكرا ، أو أن يتزوج الرجل من امرأة واحدة ، فان الاستيقاظ مبكرا أو الزواج من المرأة الواحدة يعتبر لهذا السبب فضيلة . ولكن الحالات المشكلة هي تلك التي يحس فيهـا الفرد ، كما يحس الطبيب الذي أشرنا اليه ، بالزام خلقي مضاد للقواعد الخلقية الخاصة بالمجموع . واذن فينبغي أن نميز بين قواعد السلوك الخلقية بمعناها الدقيق وبين قواعد السلوك الاجتماعية التي نحن بصددها . ان قواعد السلوك الخلقية تختلف من شخص لآخر ، ولكن الآداب العامة خاصة بالزمرة أو الجماعة المحلية .

رابعا — القواعد او التشريعات القانونيـــة : وأخيرا هناك قوانين ، وهي في البلاد المتحضرة قوانين موحدة ، الجزاء الأخير فيها هو الالزام أو بالقوة ، بدفع غرامة أو بالسجن أو بالاعـدام ، دون قيد أو شرط . وهذه هي قوانين الدولة . وبمعنى محدود تستمسك الأسرة بقواعدهـا فيما يتعلق بالمخطئين من صغارها ، وذلك بممارسة القوة ، ويشبه هذه القواعد تلك التي تشعها زمرة أخرى مثل المدرسة ، وعصبة الأحـداث المنحرفين وأخوة الكلية . وفي بعض البلاد توجد كذلك آثار لحق الكنيسة في سن قوانينها والنص على تنفيذها بوساطة محاكمها الخاصة . ولكن في الدول الحديثة نشاهد أن امتياز ممارسة هذه الحقوق ، اذا وجد ، فانه يقوم بتسامح الدولة واذنها ، ولكن في نطـاق الشروط التي تستلزمهـا الدولة . ان الجزاء المتوقف على استخدام القوة هو في آخر الأمر حق الدولة ، كما سنرى في الفصل الثامن عشر عندما نعالج موضوع طبيعة الهيئات السياسية .

٤ — التمييز بين قواعـــد الســـلوك وبين الجزاءات في المجتمـــع الحديث : كنا قد فصلنا بين أنواع قواعد السلوك الاجتماعية من جهة وبين

القواعد والجزاءات من جهة أخرى فى المجتمع البدائى ، ولكنا لم تتناول هذا الموضوع بالتفصيل . وفى مثل هذا المجتمع لا توجد قواعد قانونية أو دينية أو اقتصادية منفصل بعضهـا عن بعض ، أو لكل منها نظمهـا وجزاءاتها المستقلة ، تحميها هيئات منفصلة ومتميزة بوجه عام عن معايير زمرة القرابة وعاداتها الجمعية . كذلك نحن لم نتكلم بما فيه الكفاية فى موضوع تمييزاتنا بين هذه القـواعد ، كالتفريق بين القـانون المدنى والقانون الجنائى [1] .

وهذا العدد الوفير من قواعد السلوك الاجتماعية وأنواعهـا يتفق بوجه عام مع درجة تعقد المجتمع . وفى الحضـارة الحديثة تسـتهدف تشريعات الدولة المحافظة على الهيكل العام للنظام الاجتماعى ، وهذه التشريعات ملحق بها لوائح ونظم أخرى كثيرة تتميز بطبيعتها اللينة أو المرنة ؛ فمثلا هناك أنواع متعددة من اللوائح الاقتصادية ، ابتـداء من التعليمات المحكمة التى يضعها المصنع أو اتحاد العمـال ، الى القواعد الأقل وضوحا الخاصة بأخلاقيات العمل والتجارة . وهناك قواعد سلوكية خاصة بآداب اللياقة المهنية وشرف المهنة ، وقواعد تتعلق بالحياة العائلية ، وأخرى بشرذمة الأصدقاء الخلصاء الذين يجتمعون فى المناسبات ، وغيرها

---

(١) هـذا الرأى الذى سقناه يؤيدنا فيه الباحثون فى المجتمعات البدائية . غير أن مالينوسكى عارضه جزئيا فى كتابه *Crime and Custom in Savage Society* حيث أوضح لنا أن أهالى جزر تروبرياند يميزون بين قواعد السلوك الأساسية المتصلة بالحياة والملكية ونظام القرابة من جهـة وبين قواعد السلوك المتعلقة بالدين والحفلات الشعائرية ــ وآداب اللياقة من جهة أخرى . ولكنا من وجهة نظرنا الخاصة لا نلاحظ بين التروبرياندين ولا أى مجتمع بدائى آخر شـيئا قريبا من التمييز بين القواعد والجزاءات على نحو ما نرى فى المجتمعات المتحضرة . ولتقييم مكتشفات مالينوسـكى بهذا الخصوص ، أنظر : R.M. MacIver, Society: *A Textbook of Sociology* (New York, 1937), pp. 332-333; and K.N. Llewellyn and E.A. Hoevbel, *The Cheyenne Way* (Norman, Okla., 1941), pp. 60, 229, 339.

خاصة باخوان اللعب . وأكثر من هــذا توجد قواعد سلوكية خاصــة بالخارجين على كل هذه القواعد أو بعضها ، كما نرى فى نظم عصابات المجرمين والأشرار ، والقواعد التى يتواضع عليها نزلاء السجون ، أو المستويات السلوكية التى وضعتها لنفســها المستعمرات « البوهيمية » الأخلاق (أو التى لا تهمها آداب المجتمع) المعروفة باسم الضفة اليسرى ، أو قرية جرينتش . ولكل هذه القواعد جزاءاتها الخاصة .

وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون تقسيمات قواعد السلوك والجزاءات التى تضمنها البيان التوضيحى ، وافية بأى حال . الا أن هذا البيــان لا يوحى فقط تنوع قواعد السلوك فى المجتمع ، ولكن يشير أيضا الى هذه العلاقات المتبادلة والمعقدة بين القاعدة التنظيمية والجزاء من جهة ، وبين هذه والعمليات الاطرادية الخاصة بالضبط الاجتماعى والتى تعمل فى حياتنا اليومية . والآن فلنتناول هذه العمليات والوسائل المختلفة :

العمليات المطردة والوسائل المؤدية إلى استمرار الآداب العامة

احترام قواعد الســـلوك : دور عملية غرس الفضائل المتفق عليهـــا وتعودها : لا يستطيع أى نظام اجتماعى أن يستمر قائما اذا اعتمد كل الاعتماد على جزاءات القواعد السلوكية . واذا لم تكن هذه القواعــد مغروسة فى أعماق النفس عند أفراد المجتمع المفروض أنهم خاضعون لها ، فانها سرعان ما يتبين أنها غير مجدية . وسنتحقق من ذلك تماما عنــدما نتناول ، فى القسم التالى ، مسألة القهر والنظام الاجتماعى ، فمن وراء الجزاءات والاعتبارات السطحية التى قد تدعو الناس الى ضرورة التطابق فى سلوكهم يوجد احترام قواعد السلوك والاقتناع بأهمية الدور الذى تلعبه فى حياة الجماعة. وبينما نرى هذا الاحترام وهذا الاقتناع لا يعدوان أن يكونا فى حقيقة الأمر بعض مظاهر اجتماعية الأفراد حيثما وجد مجتمع انسانى ، فانهما يبدوان فى أشكال جد منوعة تختلف من زمرة لأخرى أو من طرف لآخر : ان احترام كل فرد : وولاءه لهذه القواعد ليس شيئا فطريا وانما هو نتيجة تكييف اجتماعى . انه بعيد عن أن يكون كالخضوع الغريزى الذى يبدو من النحل أو النمل ، فيما يتعلق بأسلوب العمل فى ممالكها الخاصة .

البيان التوضيحى رقم ٤

قواعد السلوك والجزاءات

الأساس الاجتماعى	قواعد السلوك	الجزاءات الخاصة
١ـ كما يبدو فى الجمعيات والهيئات الكبيرة		
الدولة	(ا) القانون الجنائى (ب) القانون المدنى	التنفيذ بالقوة من طريق : (ا) الغرامة أو السجن أو الإعدام (ب) التعويض عن الأضرار ، أو رد الحقوق المغتصبة
الكنيسة	المراسيم الكنسية	الحرمان الكنسى والكفارة وفقدان الامتيازات والخوف من غضب الله
الجمعيات المهنية	لوائح العمل	فقدان العضوية والحرمان من ممارسة المهنة مع مساعدة التشريعات القانونية
٢ ـ الزمر الأولية أو الروابط التى يواجه فيها الأعضاء بعضهم بعضا		
الأسرة	تقاليد الأسرة	العقاب الأبوى والحرمان من الميراث وفقدان الامتيازات
النادى	اللوائح والنظم	فقدان العضوية وفقدان الامتيازات
عصبة السوء	التعليمات السرية	الإعدام ومظاهر العنف الأخرى
٣ ـ الجماعة المحلية	العادة الجمعية والعادة المستحدثة والتصرف المتفق	النبذ من المجتمع وفقدان المكانة والسخرية
٤ ـ العلاقات الاجتماعية	القواعد الخلقية (التى يضعها الفرد نفسه)	الشعور بالإثم وإذلال النفس

وليس هناك دليل أكثر اقناعا بهذه الواقعة من التنوع الملحوظ للقواعد التي وضعها المجتمع لتنظيم العلاقات الجنسية . فالباعث القوى على الاتصال الجنسي ، الذى نعتقد تماما أنه واحد فى حقيقة أمره من حيث مظاهره الجثمانية بالنسبة للمجتمعات الانسانية المختلفة ، هو مع ذلك خاضع لقواعد سلوكية أشد تنوعا وأكثر تناقضا من أية قواعد أخرى. والأغرب من ذلك أن كل قاعدة من هذه القواعد المنوعة تبدو « طبيعية » فى نظر الزمر الأخرى بشعة . وكما رأينا فيما تقدم هناك تنوع واسع المدى من زمرة لأخرى فى الآداب العامة التى تنظم الزواج والخطوبة ، أو فى طريقة تشييع المتوفين الى مثواهم الأخير والتصرف بجثثهم ، أو التدابير المتعلقة بالملكية ، أو تعليم الأطفال ، والعديد من مظاهر النظم السائدة للحياة الاجتماعية . وانا لنعجب اذ نرى حالة ومؤرخا يونانيا قديما يلخص هذه المسألة بقوله : « ان للعادة الجمعية صلة بالناس تشبه صلة الملك بالمحكومين » [1] .

والذى يهمنا هنا هو أن نفسر السبب الذى من أجله يوجد مثل هذا التنوع فى مظاهر السلوك والاقتناع بأهميتها ، وبالتالى فى قواعد السلوك المتعلقة بالشعوب المختلفة . ونحن نتناول بصفة خاصة الآن الطريقة التى تتأيد بها الآداب العامة ، وتبعا لذلك التركيب الاجتماعى ، رغم تنوع أشكالها من عصر لعصر ومن بلد الى آخر . هناك قوى فى كل مجتمع تعمل على تشكيل هذه القواعد ، ولنبحث الآن عمليتين اطراديتين كبيرتين هما عملية غرس الفضائل المتفق عليها وتعودها .

١ ــ **غرس الأفكار والمعتقدات :** والمقصود به تكرار ذكر أساليب التفكير وأنماط المعتقدات ، والاشارة اليها من وقت لآخر . وتعتبر هذه

---

(١) Herodotus, *Histories*, III, Chap. 38 وقد ذكر هيرودوت فيما ذكر أنه لو طلب من كل شعوب العالم أن تختار العادات التى تبدو أكثر ملاءمة لها ، لاختار كل منها ، بعد البحث والتدقيق ، عاداته هو .

العملية فى جميع الظروف والأحوال أخطر عملية لنقل التأثيرات التنظيمية ويجدر بنا أن نتأمل بصفة خاصة اشارة الوالدين المستمرة لابنهما الى الصواب والخطأ من الأفعال منذ ولادته . ثم يشاركهما فى هـذه المهمة ، بعد أن يكبر الابن قليلا ، المعلمون والرفاق . وفى هذه المرحلة التكوينية تتوحد بمنتهى الدقة والتماسك كل من الجوانب الفسيولوجية والعقلية للعادات أو طرق التصرف وطرق التفكير . وقد يقاوم الطفل تعاليم الكبار الذين يحيطون به ، ولكنه يعجز عن مقاومة النظام الذى تنبعث منه هذه التعاليم . فهو لا يعرف نظاما آخر يقارنه به . ان نظامـه يملأ كل أفق تفكيره ، وهو ينتقل اليه من طريق اللغة التى يتعلمها ويسـمعها ، ومن طريق تراكيب هذه اللغة واستعمالاتها وتعبيراتها المليئة بالعواطف . واذن فهو لا يستطيع أن يتكلم أو يفكر الا فى حدود ما يقبله مجتمعه أو يرفضه .

وفى مناقشتنا لموضوع « الثقـافة والشخصية » فى الفصل الثـالث أشرنا الى الكيفية التى تتسرب بها الآداب العـامة الى تركيب شخصية الفرد بحيث ينجم عن ذلك خلق ميول مزاجية وأخلاق مشتركة ، وكذلك معتقدات وقيم مشتركة عند أفراد المجتمع كلهم والى حد كبير يعتبر غرس الأفكار عند الطفل ، سواء فى المجتمع البدائى أو المجتمع المتحضر من عمل أهم زمرة أولية بالنسبة للانسان وهى الأسرة . واذن فاذا قيل ان من وظائف الأسرة مساندة التركيب الاجتماعى كله وتأييده ، فمن الصعب أن يظن أن فى هذا القول مبالغة .

ومع ذلك فان احترام نظم الزمرة الكبيرة يلقن كذلك بوسائل أكثر تنظيما من وسائل الأسرة - فالكنيسة أدركت منذ زمن قديم الفـائدة الكبيرة من تلقين الصغار تعاليمها ومعتقداتها . وقد ظلت لمدة بضعة قرون أهم وسيلة للتعليم الرسمى المقرر لهم . وتولت الدولة بالتدريج أداء هذه الوظيفة فى العصور الحديثة ، ولكن لا يزال هناك صراع فى كل مكان

(حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية) [1] بين الكنيسة والدولة حول أى منهما يكون له المكان الأول فى تعليم الشباب . وذلك لأن التعليم — وعلى الأخص فى أولى مراحله — يقوم الى حد كبير على غرس الفضائل .

وتتضح هذه الحقيقة تمام الاتضاح كلما يصل الى مراكز السلطان فى أى بلد المطالبون بنظام اجتماعى جديد ومختلف عن الأنظمة التى ستعقبه . فهم يدركون بسرعة أن النظام الذى يقيمون دعائمه لا يمكن أن يستقر أو أن يستمر الا بتشكيل عقول الناس حتى ينطبع فيها احترام النظام الجديد والاقتناع به ، وذلك من طريق التعليم المتصل والدعاية . ونراهم فى الغالب يسعون لاخماد جميع الآراء والأفكار المعاكسة لهم ، حتى تصبح جميع العقول ، كعقول صغار الأطفال ، غير مستعدة لتقبل التأثيرات المضادة . ويهتم الحكام بصفة خاصة فى هذه الحالة بأن يضمنوا غرس الفضائل الجديدة غرسا تاما فى نفوس الأطفال ، وطبع كتب جديدة للمدارس وتعديل مناهج الدراسة بها ثم اختيار مدرسين جدد لتحقيق الغايات الجديدة . وقد أنشئت فى الشعوب الاشتراكية منظمات خاصة خارج المدرسة لاستثارة الخيال وغرس الأفكار الجديدة فى الشبان مثل « الشباب الشيوعى » فى روسيا و « شباب هتلر » فى أواخر عهد ألمانيا النازية وال « باليلا » و « افانجارديستى » فى أوائل عهد ايطاليا الفاشية [2] : وقد ذهبت هذه « التشكيلات الجديدة » فى كل من ايطاليا وألمانيا مع الريح ، بعد هزيمتهما العسكرية على التحقيق ، ولكن الرقابة

---

(١) كما يشاهد فى النزاع القائم حاليا بشأن حق المدارس الدينية المذهبية فى مشاركة المدارس العامة الخدمات الحكومية المحلية مثل نقل التلاميذ مجانا من والى مدارسهم .

(٢) من بين الكتب الكثيرة التى وصفت عمليات غرس المبادىء فى الدول الدكتاتورية : H.R. Marraro, *The New Education in Italy* (New York, 1936); F. Brennecke, *The Nazi Primer* (New York, 1938); C.F. Kneller, *The Educational Philosophy of National Socialism* (New Haven, 1941); G.A. Ziemer, *Education for Death* (New York), 1941).

التربوية المحكمة فى الماضى القريب أدت الى النتائج التى كانت مرغوبا فيها بدليل ما يلاحظ اليوم من التشبث بالقيم الفاشية بين الشباب الذين نشئوا فى ظل هذه النظم . وكذلك غرست روسيا فى شبابها لمدة ثلاثين عاما تقريبا مبادىء الحزب الاشتراكى هناك ، حتى انتهى الأمر بأن تحظى جميع القيم الحكومية بالقبول العام وأن تنعم البلاد باستقرار نسبى فى تركيبها الاجتماعى بأسره .

ولا تنحصر بالطبع محاولة السيطرة على التعليم الرسمى ووسائل تلقين المبـادىء الاجتماعية على البـلاد ذات النظم الدكتاتورية ، ففى مجتمعنا الأمريكى هيئات مثل الجمعيات الكبرى للعمل والتجارة وغرف التجارة المحلية وجمعيات المحاربين القدماء والجمعيات الوطنية ، حاولت السعى من وقت لآخر للتأثير فى اختيار المراجع الجامعة الأساسية أو أعضاء هيئات التدريس أو نفس المواد التى تدرس فى المعاهد المختلفة [١] .
وبالرغم من أن هـذه الاجراءات قد تبدو غير سـليمة الا أنها توضح ما يضفى بوجه عام من دلالة قوية على التعليم وما يمكن أن يصنعه من تغيير فيما يقتنع الناس به من آراء ، ومن توجيه ولائهم وتعـديل قيمهم الأساسـية .

٢ ـ **التعـود** : وترتبط عملية التعود ارتباطا وثيقـا بعملية غرس الأفكار . بل انها فوق ذلك تؤيدها ؛ فبينما نرى أن العملية الثانية تفرض الآراء والمعتقدات بطريقة الاتصال المباشر والتعليم ، نجد أن التعود عملية اطرادية يكيف الناس بها بطريقة لا شعورية أساليب تفكيرهم بحيث تلائم الأحوال الاجتماعية التى يعيشون فى جوها . ان الناس يلبسون لبوس بيئتهم دون أن يفطنوا لما يفعلون . فالى جانب الاعتقاد الذى وجهوا اليه من طريق التعليم ، نلاحظ أنهم يكونون أفكارا عن الصواب والخطأ تتفق

---

(١) نوقشت التقارير المطولة المكتوبة عن هذا النشاط فى كثير من فصول الكتاب الآتى :

Twentieth Century American Education .(P. F. Valentine, ed., New York, 1946).

مع حاجاتهم فى الحيــاة اليومية الى مقاييس خلقية كما تتفق أيضــا مع حاجتهم الى لغة تعبر عن هذه المقاييس ، فالشىء المألوف غالبا ما يبدو لازما وحقا . وأما ما هو غير مألوف فانه يبدو فى أكثر الأحيان غريبــا وباطلا . وان الدوافع التى صاحبت الانسان منذ مولده لتلتئم فى خطوط سير تحدد اتجاهاتها أسلوب العمل اليومى . ومتى تكونت العادات عملت بدورها اما على النمو والتكاثر واما على تأكيد الأفكار المقابلة لها : وعلى ذلك فرجل الأعمال الذى تعود أسلوب العمــل فى السوق قد ينتهى به الأمر الى أن يعتقد أن المنافسة الاقتصادية جزء من الطبيعة الانسانيــة العــامة ، كما أن المجرم المحترف الذى يعيش فى عالم الريبــة والغش والاحتيال قد يرى هذه الصفات ذات أهمية كبيرة كبواعث على العمل الانسانى . والطفل اذا كان مبالغا فى رعايته ويعيش فى أسرة ذات موارد كافية فهو معذور اذا ظن الناس جميعا ذوى أخلاق حميدة ويقاسمون وسطه مظاهر العرف الشائعة فيه . وأهم سمات التعود أنه ظاهرة دائبة العمل ، وهى تعمل بطريقة رفيقة من الصعب توضيحها ، وتستمر كذلك حتى ينطبع المعتقد أو الرأى فى التركيب العقلى أو العاطفى للانسان .

وبهذه الكيفية تعين عملية التعود عملية غرس الأفكار والمعتقدات ، ويتكون عند الناس نتيجة لغرس الأفكار والتعود احســاس بالتضامن وشعور بالارتباط بنظام اجتماعى معين وقواعد السلوك المنظمة له . وفى الحق ما لم تمد هاتان العمليتان الاطراديتان الناس بما يتصفون به من اخلاص وولاء ومعرفة يظنونها موثوقا بها ، لما أمكن أن تقوم على وجه الأرض تلك التجمعات الانسانية الكبرى فى صورة جماعات محلية أو طبقات اجتماعية ، أو حتى تلك الزمرة الأصغر وان لم تكن الأقل أهمية ، وهى الأسرة . ويتقوى الارتبــاط بهذه الزمر بعوامل خاصة متعــددة ومتصلة بالعمليات الاطرادية المتشابكة لغرس الأفكار والتعود . واذا كان هناك تركيب اجتماعى متقدم لا يمكن تصوره بدون ما يسنده من عمليات غرس الأفكار والتعود ، فان هاتين العمليتين الاطراديتين لا تســتطيعان

يدورهما أداء وظيفتهما الا اذا ارتبطنا بنوع من السلطة أو الزعامة : وهنا يجدر بنا أن نفحص هاتين الظاهرتين من حيث صلتهما المباشرة بموضوعنا الرئيسى ، وهو الآداب العامة والضبط الاجتماعى ·

الأساليب الشخصية للسلطة والزعامة : نحن نميز هنا بين السلطة والزعامة الشخصية · ونقصد بالسلطة فى هذا المقام حق الحكومة المقرر فى ممارسة الضبط ، وما تنطوى عليه هـذه العملية من مظاهر الاحترام والخضوع أو التوقير الموجه نحو أولئك الذين يمثلون الحكومة أو من انتقلت اليهم حقوقها . وسوف لا نتناول هنا سلطة زمرة من الزمر ، أو سلطة مبدأ أو مثل أعلى غير شخصى أو قواعد قانونيـة · وانما الذى يعنينا السلطة كما تضفى على شخص أو تلقى عنده ، بما له من صفـة رسمية ، أو لأنه فى حدود ميدانه العلمى أو مجال تخصصه [1] · ونقصد بالزعامة القدرة على استمالة الغير وتوجيههم ، تلك القدرة التى منشؤها الصفات الشخصية التىلا علاقة لها بالحكم· وكثيرا ما يتحد هذانالنوعان من الضبط بدرجات متفاوتة · ان السلطة من الطبيعى وجودها عند أولئك الذين يمثلون القوانين أو يحملونهـا ، مثل القسيس المحلى أو سكرتير المجلس البلدى فى المجتمع القروى ، أو قد توجد عند أصحاب الرتب أو المكانة الاجتماعية أو عند كل ذى حيثية مرجعها الوظيفة أو الثروة · وهذه السلطة تزداد قيمتها اذا سارت صفات الزعامة جنبا الى جنب مع امتيازات الوظيفة أو الحكم · وليس من الأمور النادرة أن يعمل زعيم ذو شخصية قوية على تعزيز نفوذه من طريق الحصول على وظيفة رسـمية ، الا أن مصدرى النفوذ هما فى حقيقتهما متميز أحدهما عن الآخر ؛ فالشرطى يمثل

---

(١) وضـع زيمل تصنيفا لأنواع السلطة الشخصية وسلطة الزمرة أو السلطة غير الشخصية ، انظر :

N.J. Spykman, *Social Theory of Georg Simmel* (Chicago, 1925), pp. 97-108.

وهناك كتاب آخرون يقابلون بين سلطة الحاكم الشخصى والقانون غير الشخصى ونحن هنا نتناول أنواع السلطة الشخصية ·

السلطة ، لا الزعامة ، وهكذا يفعل القاضى أو الملك ما دام نفوذه يتوقف على توقير وحيثية مبعثهما المركز الذى يشغله كل منهما . أما الزعيم ، من جهة أخرى ، فقد يكون ثائرا فى وجه النظام القائم .

١ ــ ما وراء السلطة المنبعثة من الحكم : للسلطة أشكال متعددة وهى جزء لا يتجزأ من أى نظام اجتماعى . وهى من أبسط جوانبها وأقلها اجتماعية تبدو فى صورة مجرد قوة تفرض نفسها فرضا ، كسلطة السيد على العبد ، وسلطة الحاكم المستبد على رعيته ، أو سلطة قاضى الشرطة على المجرم . فهنا قد تتوقف السلطة على الجزاء الذى تتحكم فيه فحسب ولكن بالاضافة الى ذلك فان من لواحق السلطة أن الشخص المحكوم يتخذ دائما موقف المتهيىء لتلقى الأوامر ووضع الخاضع الذى يقبل أن يكون تابعا لصاحب السلطة . وهذه الأحوال تساعد جميعها فى خلق السلطة نفسها وتعمل على تسويغ قيامها .

وتتعدد أسباب هذه التبعية الاختيارية ، فان قبول السلطة قد يكون التقدمة التى تصدر عن الشخص احتراما للسن أو الثروة : فالسلطة اذن وبالتأكيد عنوان الاحترام للنظام أو الوظيفة أو الطبقة الاجتماعية ، محمولا الى أصحابها أو ممثليها . وقد تبدو السلطة كمحتويات مجردة أو غير شخصية لمركز الحاكم . وذلك بنفس الكيفية التى تشخص بها الجلالة فى أحد الملوك بالنسبة لنظام الملكية ، مع ما قد يكون لهذا الملك من صفات أخرى خاصة به . وقد تحيط التقاليد والديانات الشخص القائم على حفظها بهالة . وفى الحق ان كل نسق من نسق السلطة سواء أكان متعلقا برب العائلة أم بكهانة دينية أم بنظام سياسى ، فانه لابد أن تمتد جذوره الى خرافة السلطة نفسها ، وهى جزء من التراث الاجتماعى عند جميع الشعوب [١] : ومما يعزز السلطة كذلك تلك البواعث المتعلقة بالمصالح الشخصية ، فالخضوع ظاهرة تدعو اليها فى أكثر الأحيان مصلحة

(١) On "the myth of authority" see R.M. MacIver, *The Web of Government* (New York, 1947), Chap. III.

شخصية تستبق الحوادث فى تخيل الفوائد المرتقبة من الخضوع . أنظر مثلا الزعيم السياسى القابض على الحكم ، أو الشخص القائم برياسة حزبه السياسى ، فان فى وسع كل منهما أن يجزل المنح لأصدقائه وأتباعه .

والى حد كبير يقوم تقبل السلطة فى المجتمع الحديث على الاعتراف بأنها ضرورية اذا ما أريد لشئون الحياة اليومية أن تؤدى على وجه مرض . ويتألف عالمنا المعقد الذى نعيش فيه اليوم من تركيب ضخم يدير نواحى الاقتصاد والسياسة والخدمة الاجتماعية والتعليم ، ويستهدف أداء مهام مختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا ، كما تتفاوت فيه مراكزه الادارية ومسئولياته . وفى هذا العام يؤدى كل من يتولى عملا رسميا وظيفة ما ، وفى الغالب تكون هذه الوظيفة جوهرية بالنسبة لمسائل الحياة اليومية : وكل هذه المراكز وما يصاحبها من وظائف وامتيازات تزيد فى تعقيد التركيبات البيروقراطية التى تتميز بها الهيئات الاقتصادية والسياسية والعسكرية الكبيرة فى العصر الحديث . وكل « ادارى » — سواء أكان مديرا عاما لمصلحة حكومية أم موظفا صغيرا ، أم مديرا لمصنع كبير أم رئيسا لأحد أقسامه ، أو كان قائدا بالجيش أم « جاويشا » فيه — كل واحد من هؤلاء له مجموعة من الأفراد عليه أن يؤدى خدمات معينة لهم. ومن أجلهم وأجل خيرهم أضيفت عليه هذه السلطة التى تبدو جوهرية فى دولاب العمل اليومى . ومن أهم العلامات المميزة لزماننا ، الدقة فى توزيع السلطة بعناية وبخطة مرسومة ، على الأنظمة الاجتماعية ذات القواعد المقررة . وهذا من شأنه أن يكون ذا قوة فعالة فى صيانة السلطة ذاتها ، وفى نفس الوقت يؤيد تأييدا قويا الآداب العامة التى تساند مجموع النظم السائدة [1] .

---

(١) سنناقش بالتفصيل الجوانب الأخرى للبيروقراطية فى الفصل العاشر من هذا الكتاب . ويعد ما ساهم به ماكس فيبر فى دراسة هذا الموضوع جوهريا فى الكتابات السوسيولوجية . أنظر :

From Max Weber: Essays in Sociology (H.H. Gerth and C. Wright Mills, tr. and =

٢ ـ الزعامة الشخصية : تختلف الزعامة الشخصية عن سلطة الوظيفة من حيث انها تتوقف على الشجاعة والسمعة والمهارة والقدرة على الخطابة وغيرها من الصفات الأخرى للزعيم . وقد يكون هذا مؤازرا للسلطة القائمة أو خصما لها ، عاملا على خلق نوع جديد من السلطة . كما أنه قد يكون مناصرا لسياسة محددة المعالم أو معضدا لمجموعة من المبادىء ، أو قد يكون انتهازيا مثل بعض رؤساء الأحزاب أو المطبلين لزعيم الأغلبية فى بعض بلاد العالم حيث تسمى الأحزاب السياسية بأسماء الزعماء الذين تتبعهم ، دون أن ترمز أسماؤها الى المبادىء التى تسعى الى تحقيقها : وقد يكون الزعيم متبوعا تبعية عمياء ، أو قد يعتمد على سطوته لجمع شمل الأفراد تحت لواء قضية معينة . وربما كان شيئا أكثر قليلا من مندوب لفريق من بعض أصحاب المصالح أو من متحدث باسمهم وان كانت زعامته فى هذه الحالة خليقة بأن تذروها الرياح .

وعندما يعمل الزعيم فى نطاق النظام القائم فانه يضيف الى السلطة قوة جديدة ، انه بذلك يشرحها من جديد ويمدها بحيوية جديدة — مذكرا ايانا باندفاع « الدم الجديد » فى الوظائف الحكومية والحماسة الرائعة التى انتابت الموظفين فى أوائل أيام تطبيق سياسة مستر روزفلت . وأما اذا أصاب الانهيار نظاما قائما فان تحلله ينسب دائما نسبة مباشرة الى زعيم استطاع أن ينظم قوى السخط وأن يعمل على توحيدها وتوجيهها الوجهة الخاصة الجديدة : ولا يسعنا والأمر كذلك أن ندهش كثيرا لما

---

ed., New York, 1946), Chap. VIII. See also R.K. Merton, "Bureaucratic Structure and Personality.", *Social Forces*, XVIII (1940), 561-568; C.H. Page, "Bureaucracy's Other Face", ibid., XXV (1946), 88-94; P.P. Selznick," An Approach to a Theory of Bureaucracy", *American Sociological Review*, VIII (1943), 47-54.

ذهب اليه عالم الاجتماع الألماني زيمل من اعتبار العلاقة بين الزعماء وأتباعهم أهم العلاقات الاجتماعية قاطبة (١) :

وان الزعامة لتظهر بدرجة ما وفى صورة ما حيثما يتجمع عدد كبير من الناس . وكثير من رجال الحكم كما رأيناهم زعماء أو قادة فى نفس الوقت ، وبذلك تنمو قوتهم وتضمحل قوة غيرهم ممن ليسوا فى الحكم . ولكن « القادة الطبيعيين » — وهذا اصطلاح شائع لهم — موجودون فى كل الزمر سواء منها المنظمة وغير المنظمة . فلكل عصبة من الأشرار مثلا قائد أو أكثر ، كما أن لكل زمرة لعب أو شرذمة من الأصدقاء أو مجموعة من الجيران قائدها أو زعيمها كذلك . وكل مشرف يقظ على مدرسة أو سجن أو مصنع أو كتيبة عسكرية يعرف جيدا ، وهذا ما يحاول بعض السوسيولوجيين اثباته جاهدين ، أنه فى كل مكان من هذه الهيئات تظهر « تركيبات تلقائية غير منظمة » لعلاقات اجتماعية تدفع الى الأمام أولئك القادة الطبيعيين مهما كانت مكانتهم الرسمية ، وترد الى الوراء « العناصر المتخلفة عن التفوق » كما يتبين من سلوك أقرانهم ومواقفهم نحوهم . وفى أكثر الأحيان نجد هذه الاتجاهات غير المدبرة تؤدى وظيفة هامة هى خدمة الحاجات الحقيقية لهذه الهيئات . وبهذه الطريقة تجعلها أكثر مرونة وأكثر قابلية للتغيير ، وربما ساعدت على أن يكون لها دوام لم تكن لتحصل عليه بغير هذه الكيفية . وعندما تكمل لدينا الأبحاث المتصلة بسوسيولوجية الزعامة فان دور الزعيم الطبيعى فى الزمرة غير المنتظمة ستزداد أهميته بالنسبة لها (٢) .

---

(١) Spykman, op. cit. On this subject see also F. Znaniecki, *Social Actions* (New York, 1936), pp. 182 ff.

وفيما يتعلق بتحليل قيم لدور الزعيم فى التغير الاجتماعى ، وهو موضوع سنتناوله فى الكتاب الثالث : أنظر : F. Hook, *The Hero in History* (Nev York, 1941).

(٢) يعتبر دور التركيب التلقائى غير المنظم فى الهيئات الصناعية من أحب موضوعات البحث عند الكتاب من أمثال :

C.I. Barnard, Elton Mays, F.J. Roethlisberger, and A.N. Whitehead. =

٣ – كلمة بشأن الزعامة الموهوبة : نحن مدينون للسوسيولوجى الألمانى ماكس فيبر بما قدمه من تحليل دقيق لأحد أمثلة الزعامة الطبيعية فى أعنف صورها وأهمها . وقد استخدم فيبر الكلمة اليونانية «كاريسما» ومعناها القوة الخاصة التى منحتها الطبيعة للعلة المختارة ، للدلالة على أولئك الزعماء الذين يقوم نفوذهم على اعتقاد عام عند الناس بأن روحهم من روح الله ، وبأن ما يؤدونه من خدمات عامة انما يتم بوحى من مدبر الكون جل شأنه [1] : وقد ميز بين قوة صاحب الحكم والسلطة الحكومية الكبرى التى لها ما يبررها والمتغلغلة فى دواوين الحكومة على نطاق واسع فى العصر الحديث . ثم الزعامة الكاريسمية التى تلعب دورا أهم فى الشئون الانسانية كلما تعقبناها فى التاريخ . ان القادة الطبيعيين — فى أوقات المحن النفسية أو ثورات الطبيعة أو الأزمات الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو السياسية — لم يكونوا رجال حكم ولا أصحاب مهن بالمعنى الحديث ، أى متخصصين يعملون لقاء أجر [2] ، بل كانوا فى واقع الأمر ككثيرين من كبار الزعماء الدينيين ومثل يوليوس قيصر وكرومويل ونابليون ، رجالا قيضهم القدر لمجتمعاتهم ، مؤمنين بحقهم فى القيادة وقدرتهم عليها ، ومشاركين فى هذا الاعتقاد أتباعهم المخلصين ، و « المنقذين » و « الكشفيين » المتصلين بالله ، وبوجه عام أولئك الذين يعتبرون دعاة بمعنى الكلمة لعواطف الجماهير ، هذه العواطف التى

= وسنفحص أبحاثهم فى الفصل العاشر . أنظر مثلا :

C.I. Barnard, *The Functions of the Executive* (Cambrige Mass., 1939); F.J. Roethlisberger, *Management and Morale* (Cambridge, Mass., 1941).

واذا أراد القارىء الاطلاع على مناقشة موضوع الزعامة غير المنظمة أو التلقائية فى أحد أحياء الطبقة العاملة بالمدن فلينظر :

W.F. Whyte, *Street Corner Society* (Chicago, 1943)

وقد درست نفس الظاهرة فى هيئة عسكرية ، فى : Page, op. cit.

(١) See From Max Weber: *Essays in Sociology* Chap. IX.

(٢) Ibid., o. 243.

يساعد ما بينها من تشابه على التكتيل الاجتماعى الذى هو غاية ما يسمى اليــه الزعيم .

وفى أيامنا هذه يدل وصول أمثال موسيلينى وهتلر الى مراكز الحكم على أن الأزمات والفرص التاريخية ما تزال تمهد الى أن يحتل مكان الصدارة فى المجتمعات زعماء من النوع الكاريسمى . وربما كانت هذه الصفات الكاريسمية أقل وضوحا فى حالة ستالين الذى يرمز شخصه الى المذاهب الرسمية للشيوعية السوفييتية أكثر مما يدل على صفاته الخاصــة : وفى بلادنا (الولايات المتحدة الأمريكية) أمثلة للقادة الكاريسميين — أنظر مثلا الى الوظيفة العامة التى كان يقوم بها طيب الذكر هيوى لونج [١] ، أو التى كانت تؤديها العلاقة بين فاذر ديفاين و « ملائكته » [٢] : وتوحى هذه الأمثلة بأن الزعيم « الطبيعى » (سواء وصفناه أم لم نصفه بجريان الكاريسما فى عروقه) يقوم بعمل مزدوج فيما يختص بالآداب العــامة السارية فى مجتمعه . فقد يتولى الزعامة باسم حماية العــادات والقيم التقليدية ويعمل بذلك على المحافظة على بعض نواحى التراث الاجتماعى

---

(١) هيوى لونج كان حاكما عاما وعضو مجلس شيوخ فى ولاية لويزيانا — والمعروف عنه أنه عمــل على تماسك الولاية وجعل سكانها متحدين لا سبيل الى الفرقة بينهم . — المترجم

(٢) For a discussion of "Recent Types of Charismatic Leadership", see E. Manheim in Roucek's *Social Control*, Chap. XXXIX.

— المؤلفان

وأما « فاذر ديفاين » فهو رمز لشخصية أنشأت فى الولايات المتحدة مذهبا دينيا خلاصته وجود اله مجسم فى صورة زنجى امريكى معاصر . ولا يقتصر اعتناق هذا المذهب على الزنوج . ويظن أن الاسم الحقيقى لصاحب هذه الشخصية هو جورج بيكر . انظر :

D.W.Brogan, U.S.A., *An Outline of the Country, Its People and Institutions*, London, O.U.P., second edition, 1947, p. 62; and *Hutchinson's Twentieth Century Ency.*, p. 421.

وتقويتها . وهو من جهة أخرى كما هى الحال فيما يتعلق بلينين وهتلر ، قد يستخدم سلطات زعامته اما ليدمر الآداب العامة أو التركيب الخاص بالنظم السائدة فى عصره أو ليحدث بها تغييرات على نطاق واسع .

تماسك المجتمعات بأساليب لا تعتمد على شــخصية زعيم او قائد بل بالشعائر والحفلات العامة : تتناول بعد ذلك التأثيرات الأساسـية غير الشخصية التى تربط الناس بالآداب العامة فنقول ان كل نظام اجتماعى مقرر وكل جماعة متفرعة من هــذا النظام تدخل فى عوامل تماســكها الشــعائر والحفلات العامة :

١ ـ **الشعائر :** نحن نقصد بالشعائر تصرفات أو اجراءات تنظمها قواعد مقررة ، القصد منها ضبط تتابع بعض الأفعال أو الحركات الموجهة لتحقيق غاية معينــة والتى ينبغى أن تتكرر كما هى وبلا أدنى تغيير فى شكلها كلما حلت المناسبة لاجرائها (١) .

وتتميز الشعائر عن مجرد العادات الفردية أو الروتينية من حيث انها مصحوبة دائما بحس خاص بالخيرية واللزوم . والذى يحيد عنها على أية صورة ، يؤخذ فى جميع الظروف على أنه ارتكب خطأ أو قام بعمل غير مرغوب فيه ، لا على أساس نفعى ، وانما لأن خروجه على المألوف قد عطل نظاما جاريا ، وضايق الاستجابة العاطفية للغــير أو تلك العــلاقة الغامضة التى لا يمكن التقليل من أهميتها ، بين الشخص والمناسبة التى تقتضى اقامة الشعائر .

---

(١) تمتاز الشعائر بمظهرها السلوكى . فهى تقوم على حركات جثمانية وكلامية مقصود بها تحقيق نتائج معينة أو التعبير عن مواقف اجتماعية خاصة . وبذا يدخل السلوك الدينى والســلوك السحرى فى الشعائر . وهناك الشعائر السلبية أو negative ritual وتقوم على الامتناع عن اتيان اعمــال معينــة او التفوه بكلام معين ، مثل المحرمات taboos ونحن نختلف مع المؤلفين من حيث أن الشعائر ذات صفة جماعية دائما ولا يمكن أن تكون جماعية احيانا وفردية أحيانا أخرى كما ذهبا مما سيتضح بعد قليــل . ـ المترجم.

وقد تكون الشعائر شخصية خالصة ، أى فردية أو ذات صفة جماعية ؛ فهى مثلا قد تتصل بعملية ارتداء الملابس كل صباح أو ببعض مظاهر الروتين اليومى . ومع ذلك فان هذه المظاهر الروتينية الفردية تصبح عادة قوية قوة الشعائر وذلك عندما تكون العملية المشار اليها ذات صفة عاطفية أو جبرية — مثل قولنا : « يجب أن أتناول القهوة عقب استيقاظى مباشرة » أو : « ان حشائش الحديقة يجب أن تشذب كل يوم جمعة » . ونحن نؤدى شعائر اجتماعية فى مناسبات يشترك المجموع فى معظمها — مثل الصلاة التى يشترك فيها الجمهور فى مناسبة دينية واصرار الجمع من الرفاق على أن يلعبوا لعبة معينة عندما يلتئم شملهم فى مناسبة خاصة . والاجراءات الطقسية الخاصة بالتأهيل الرسمى لجمعيات الأخوة فى الكليات الجامعية بالولايات المتحدة الأمريكية ، والذى يسبقه فى العادة احتفال غير رسمى يسمونه التهريج والمرح ، مثل ترديد النشيد القومى غناء فى مناسبات عامة مختلفة ، وما شابه ذلك . ويكون للشعائر تأثير قوى اذا كانت سلامة اجراءاتها مرعية بالآداب العامة للجماعة . وتقرن أغلب المجتمعات الأحداث المنتظمة الوقوع فى حياة الفرد ، كالميلاد والزواج والموت ، بشعائر منتظمة الوقوع كذلك . وبنفس الطريقة ابتدعت الشعوب البدائية والقديمة الشعائر لتحتفل خلال السنة بمناسبات هامة ذات دلالة اقتصادية كزرع المحصولات والحصاد والصيد الناجح[1] . ويأخذ أداء هذه المناسبات فى العادة مظهرا دينيا ، كما نلاحظ فيما يماثلها فى العصر الحديث مثل مناسبتى عيد ميلاد المسيح وعيد الفصح . وكل منا اذ يذكر ما كان يفعله فى صباه عندما كان يجد فى البحث عن جوربيه صباح يوم عيد الميلاد يعرف جيدا أن المعنى الشعائرى الخاص لا يزال قائما فى حياتنا الشخصية . وتضفى طقوس الشعائر على المناسبات أهمية

(١) لدراسة الطقوس والشعائر المتصلة بالزراعة عند سكان جزر تروبرياند فى ميلانيزيا ، انظر :

B. Malinowski, *Coral Gardens and Their Magic* (2 vols., New York, 1935).

ونوعا من المظهر الرسمى وبذلك تخليها من أن تصبح بسبب تكرارها عادية وثقيلة على النفس : وهذا ما يجعل لها مكانا خاصا فى التقاليد الدينية أو فى الحفلات العامة والخاصة التى يتطلب الاشتراك فيها مراعاة الاحترام والوقار .

وتتمثل الشعائر فى أفضل صورها فى حفلات التعبد داخل الكنيسة ، وفى الاجراءات القضائية وأعمال المحاكم . ومن أجل هذه الوظيفة الهامة التى تؤديها الشعائر تستخدم الأخيرة للمحافظة على مستوى الوقار فى داخل المنازل التى يشغلها سكان عديدون وفى جمعيات الأخوة بالكليات وفى الأندية حيثما ينتج عن عدم استخدامها أن تذهب الألفة العادية بين الأعضاء بالأهمية الخاصة التى يعلقونها على مناسبات معينة [1] . وان انتظام حدوث الشعائر انتظاما لا يعوقه عائق يخلق نوعا من الاستجابات العاطفية عند الأفراد . ولما كان كل عمل أو حركة من الحركات التى تتألف منها الشعائر محددة ومعروفة قبل وقوعها فان كلا منها يذكر بالموقف العاطفى تجاه جملة الاجراءات المتعلقة بنوع معين من الشعائر . ويشعر الغريب عن الزمرة أو المجتمع الذى يؤدى شعائر معينة أنه لا يشارك أفرادها اهتمامهم بها أو معتقداتهم حولها . ومن أجل ذلك تبدو فى نظره مدعاة للسخرية ، على الأخص لأنه لا يجد من وجهة نظره الخاصة مسوغا لما تتطلبها من مظهر رسمى أو انفعال نفسى .

٢ ــ **الاحتفال العام :** ان الشعائر كما نفهم أهم ما يميز الاحتفال الرسمى العام الذى يحضره جماعة من الناس . وكثيرا ما تعتبر الشعائر والاحتفال المصاحب لها شيئا واحدا . ومع ذلك فالاحتفال شىء أعم وأشمل تندرج تحته الشعائر . وهو عبارة عن اجراءات مقررة ذات طبيعة

---

(١) من خير مايوضح وظيفة الشعائر ما ورد من امثلة فى :

N.P. Gist, *Secret Societies: A Cultural Study of Fraternalism in the United States* (Columbia, Mo., 1940), Chap. VII.

تتصف بالرسمية والوقار ، الغرض منها تعيين أهمية الحادث أو المناسبة . والاحتفال لا يتضمن بالضرورة الدقة فى انتظام وقوعه أو التكرار الثابت الذى نراه فى الشعائر ، وان كانت هذه أهم عناصر الاحتفالات العـامة . فنحن قد نحتفل مرة واحدة لا تتكرر ببطل استطاع أن يعبر بحر المانش أو أن يطير عبر المحيط . ولكن الاحتفال نفسه قد يشتمل على اجراءات ذات صفة شعائرية مثل تحيته بالقـاء الورق عليه من نوافذ البيوت فى مانهاتان [1] مثلا . وينظر الى الاحتفال العام منذ القدم على اعتبار كونه وسيلة فعالة لتأييد النظام الاجتماعى . ان الاحتفال هو « الرابطة التى تجمع شتات الجماهير ، واذا انحلت هذه الرابطة تفرقت الجماهير وصارت أمورها مضطربة » [2] ، وهو رمز لارتقاء النظام الاجتماعى وثباته ، ومن طريقه تنشأ المسافات الاجتماعية بين الأفراد وتتحدد مراتبهم حتى لا تسبب الألفة التطاول بينهم والتقصير فى الاحترام ، بينما نجد الشـعائر كأحد مقومات الاحتفال تؤثر برفق وبكيفية لا تكاد أن تكون مشعورا بها فى عواطفهم بحيث تطبـع فى النفوس احترام المبـادىء التى تقـوم وراء الشـعائر .

ان الاحتفال هو اللباس الرسمى الذى تتشح به المناسبات الاجتماعية . ولهذا نلاحظ أن تأثيره على السذج والبسطاء أشد منه على المفكرين ذوى العقلية النقدية . وعلى ذلك فهو عرضة لأن يفقد سلطانه فى هذا الزمن الذى أصبح النقد فيه أمرا طبيعيا . والناقد الذى يستطيع أن يميز بين المظهر الاحتفالى والحقيقة الكامنة منه ليتفق مع كارليل فى أن « المجتمع يقوم على الملابس أو المظهر » ويؤيده اذ يقول :

---

(١) جزيرة بالقرب من نيويورك وتعتبر احد أقسام المدينة الادارية .
— المترجم

(٢) Sacred Books of the East, *Li Ki*, Book VIII, I, quoted by Ross, op. cit., Chap. XXI.

« عندما أطلع فى الأوقات التى أشعر فيها بالضيق والحزن على أنباء الاحتفالات الرسمية المتميزة بالروعة والفخامة ، مثل حفلات التتويج فى فرنكفورت ، أو حفلات الاستقبال بالقصر الملكى ، أو المقابلات الرسمية عقب الاستيقاظ [1] أو النوم : وأقرأ كيف كان الحجـاب والقواصون والتوابع واقفين للخدمة ، وكيف أن هذا الدوق كان يمثله ذاك الأرشيدوق ، أو أن الكولونيل ا كان ينوب عنه الجنرال ب ، وأن عددا لا يحصى من الأساقفة وأمراء البحر وغيرهم من أصحاب المراكز المختلفة كانوا يتقدمون بزهو نحو الحضرة المقدسة ، فى ذلك الوقت كنت أجهد نفسى وأنا فى عزلتى البعيدة عن هذه الأجواء لتكوين صورة واضحة لهذا الوقار الرسمى المصطنع — وتلك الملابس والأزياء التى ترفرف فى الردهات الفسيحة . ولم ينسنى ذلك كله أن لهؤلاء الدوقات والنبلاء والأساقفة والجنرالات بل والحضرة المقدسة نفسها ، اخوة من أمهاتهم أتخيلهم واقفين وقد أذهلهم الموقف والواحد منهم فى أشد الحاجة لقميص يستر به بدنه ، فلم أكن أدرى أأضحك لهذا أم أبكى ؟ » [2] .

وربما استطعنا اذا أنعمنا النظر أن نميز بين الاحتفال الرسمى الأجوف الذى يستهدف اخفاء الاحتيال والغش بين طياته ، وبين الاحتفال الذى يمدنا بمظهر رمزى جوهرى وبشكل خارجى معبر عن تقييماتنا الاجتماعية . ومما لا شك فيه أن جميع النظم المستقرة تحتفل رسميا بأحداثها الهامة ، سواء أكان الاحتفال للترحيب بعودة الربيع كما كانت الحال عند الشعوب القديمة التى ارتبطت بالأراضى الزراعية ، أم بالرجوع الى السلم بعد الحرب التى كانت قد نشبت بين الأمريكيين . وندخل فى هذه المناسبات

---

(١) يشير كارليل الى مقابلات ملكات فرنسا لبعض الرجال الرسميين عقب الاستيقاظ ، وكانت عادة بعد الظهر ، انظر :

Rev. E. Cobham Brewer, *Dictionary of Phrase and Fables*, new edition, London, no date, pp. 662-663.

(٢) Thomas Carlyle, *Sartor Resartus*, Chaps. VIII and IX.

أيضا مظاهر الأبهة الرائعة التى كان يحرص عليها حكام التسار فى روسيا القديمة والاستعراضات الشعائرية وما يصاحبها من احتفالات وأعياد فى ظل النظام السوفييتى الحاضر .

٣ ـ **بعض العوامل المؤيدة للشعائر والاحتفالات العامة** : من المسائل الدقيقة والعسيرة الحل فى علم النفس الاجتماعى ذلك المبحث الخاص بالدور الهام الذى تلعبه الشعائر والاحتفالات فى الشئون الانسانية . وفيما يلى بعض ما نقترحه من عوامل نراها مؤيدة لهذه الظواهر :

أولا ـ العامل غير الشخصى : ففى أول الأمر نلاحظ أن الاجراءات الشكلية تضفى على المناسبة أو الحادث وقارا معينا ومظهرا رسميا غير شخصى لا يضيعه أو يطغى عليه تدخل فردية المشتركين فى اقامة الشعائر أو الاحتفال . وهذه المقابلة بين الجانب الشعائرى والجانب الفردى تشاهد فى أغلب الأحيان فى الاحتفالات الدينية عندما تتوقف الشعائر غير الشخصية ويبدأ صوت الواعظ فى الانطلاق ، ويتعلم المجندون فى الجيش والبحرية أن يحيوا الزى والرتبة ، لا الشخص . وهذا مثال واضح نرى فيه الشعائر وقد تحولت الى شىء غير شخصى بقدر الامكان . ولما كانت الشعائر والاحتفالات متغلغلة فى النظام الاجتماعى كله ، فان حيادها بالنسبة لأشخاص الأفراد يخلق منها قوة فعالة لكل من اجراءاتها والنظام الاجتماعى على السواء .

ثانيا ـ اعتماد الانسان على الأساطير واعتبار ذلك عاملا : ان كل نظام اجتماعى يتماسك بنسق معين من الأساطير . وهذا اصطلاح نستخدمه للدلالة على معتقدات الانسان ومعارفه الخاصة التى لها عنده قيم معينة والتى رتب حياته على أن يعيش بها أو من أجلها [1] . ولا

---

(١) MacIver, *The Web of Government*, p. 4. وانظر الفصل الأول من هذا المجلد حيث ناقشنا موضوع الأساطير .

يستطيع مجتمع ما أن يحتفظ بدرجة من الاستقرار الا اذا كانت الأساطير التى يرتكز عليها — مثل أساطير القانون والقوة والحرية وما شابهها — باقية كقيم أساسية بالنسبة لكل عضو فى هذا المجتمع . وهنا تلعب الشعائر دورا هاما . وذلك لأن الشعائر المتكررة بصفة مستمرة أو تداعى الخواطر الذى يتم بلا مجهود ، من شأنه أن يوجد حسا بأن ما يتكرر حق ولازم . وهذا الحس يجعلنا نزداد ايمانا بالأساطير وضرورتها . وان انتظام العمليات التى تقوم عليها الشعائر توحى الى الفرد بأن يتلاءم عاطفيا مع الأفكار المقابلة لها . كما أن الشعائر والاحتفالات المخصصة لها تؤثر فى الأفراد بدون تفسير ومن غير أن يتدخل العقل فى الأمر . ووظيفتها أن تنقل أحاسيس تتصل بحقائق كبيرة واقعة ، وبالعقائد ، وبوحدة الزمرة أو المجتمع ، وبالمقررات الاجتماعية وبالأساطير ، وبعبارة موجزة بكل ما يستحيل على الأفراد أن يدركوه من حيث هم أفراد . وما الكنيسة ، والدولة ، والقانون ، والله ، الا مجردات بعيدة عن الفرد . أما الطقوس الكنسية ، وتتويج الملك ، والاحتفال برئيس الدولة ، ولوائح المحاكم ، والجنازات ، ومواكب الزفاف ، فيبدو أنها تقرب من الناس تلك المجردات الخفية ان لم تزد على ذلك تضمنها لجوهرها .

ثالثا — عامل المنفعة : نحن نرى الى جانب النواحى العاطفية والجبرية التى تتميز بها الشعائر والاحتفالات ، انها تقدم حلولا لكثير من مشاكل الانسان اليومية ، وذلك من طريق قواعدها الشكلية المقررة . أنظر مثلا المشكلة التى تعترض والدا اذا تزوجت ابنته ؛ ما هى الواجبات التى عليه أن يؤديها بهذه المناسبة ؟ أو كيف تتصرف حيال مواطن أدى لبلاده أعمالا ممتازة ؟ أو كيف يكون مسلكنا فى جنازة (مهما كان شعورنا الداخلى نحو المتوفى أو نحو الجنازات بالذات) ؟ الواقع أن الاحتفالات والشعائر كفيلة بأن تقدم لنا الجواب على هذه الأسئلة وعلى غيرها مما لا يحصى ولا يعد من المناسبات والأحداث . وفى الحق أننا مهما أغضينا عن هذه العمليات الاطرادية التى تعمل على استمرار الآداب العامة ، أو مهما

نقدناها أو أظهرنا التعنت نحوها ، فاننا لا نستطيع أن نستغنى عنهـا . وذلك لأن انتظامها الملح لا يقوم على المنفعة فحسب وانما على طبيعـة الحياة الاجتماعية نفسها .

الرموز والوحدة الاجتماعية : اذا لم يكن عند الكائن الاجتماعى — ونقصد الانسان — المقدرة على خلق الرموز واستخدامها فان عملية غرس الأفكار والمعتقـدات وعملية التعود يتعـذر حدوثهما ، كما أن الزعامة والسلطة يصيبهما الارتباك ، وينتهى الأمر بالشعائر والاحتفالات الى أن تفقد معناها . والرموز تمثيل لمعنى من المعـانى أو قيمة من القيم ، وهو علامة خارجية أو ايماءة تنقل بالتداعى فكرة أو تستثير شـعورا . وأى اتصال يحـدث بين أشخاص ، سواء أكان من طريق اللغة أم غيرهـا ، يستخدم الرموز ، ومن النـادر أن يستطيع المجتمع أن يعيش بدونهـا . ويمكننا فى هذا المقام أن نتعرض بايجاز لبعض جوانب العلاقة بين الرموز والمجتمع ، وان كانت هذه المشكلة متضمنة فى كل مناقشة تدور حـول الحقيقة الاجتماعية الواقعة [1] .

ويتعين على وحدة الزمرة أو المجتمع ، ككل قيمها الثقافية ، أن تجد تعبيرا رمزيا تشير به الى حقيقتها . وفى كثير من المجتمعات البدائية يعتبر الرمز وما يرمز اليه شيئا واحدا (وهذا نقص ظاهر فى التسمية نرافق كل المجتمعات الانسانية) وهما يتحدان فى الأغلب اتحادا يبلغ درجة من الشدة تجعل الرمز يصبح طوطما وينظر اليه على اعتبار أنه تجسيم موضوعى له.

---

(١) لقد كتب كثيرون حول الرموز وعلم المعانى والمجتمع . والطالب المهتم بهذه الموضوعات يمكنه ان يرجع الى قائمة الكتب المذكورة فى :
Roucek's *Social Control*, Chap. XIV. وهذا الفصل وعنوانه « اللغة وعلم المعانى » بقلم أ . ت . آرنسون يشير الى المعنى السوسيولوجى للرموز . واذا أراد القارىء مناقشة مختصرة للموضوع فليطلع على :

E. Sapir, "Symbolism" in *the Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York 1935), XIV, 492-495.

قيمة فى ذاته لا مجرد تمثيل لروح الجماعة أو تماسكها . والطوطم — سواء أكان نسرا أم ثورا أم أفعى — فان معناه الزمرة ، وهو على هذا النحو يبين بطريقة محسوسة حقيقته غير المنظورة . ان الرمز ملتقى للاهتمام الخاص من جانب أفراد عديدين ، ووسيلة للاتصال ، وأساس مشترك للتفاهم . فالعلم رمز الأمة أجمعين . وان له لمدلولا يختلف عند المتعلم عنه عند الجاهل ، وعند المحب للسلام عنه عند المحب للحرب ، وعند المحافظ عنه عند الراديكالى . ولكنه على أية حال عامل مشترك لجميع الصفوف عند كل من يتقبلونه كرمز . وهذه احدى خواص الرمز الثقافى، فهو فى الوقت الذى يتقبل فيه عدة تفسيرات مختلفة يحظى بالولاء من الكثيرين .

وهذه الواقعة تساعد فى تفسير الدور الذى تلعبه الرمزية فى الديانات الأكثر غموضا . فان شعائر الديانات المختلفة مشبعة بالرمزية ، ولما كانت معانى الرموز تتحدد بالخواطر المتجددة التى تتداعى حولها فقد ترتب على ذلك أن الرموز أصبحت تفسر بتوسع وبحرية لكى تلائم مطالب العصر المتغيرة . وربما كان هذا أحد الأسباب التى من أجلها لم يصب المذهب الكاثوليكى بالانقسام الى فرق دينية ، كما حدث بالنسبة للعقائد البروتستنتية ، وقد ساعد الكاثوليكية فى ذلك ما تتميز به من مظاهر شعائرية قوية . ولعلنا نجد بنفس الكيفية تفسيرا لموقف المؤمن الكاثوليكى من مسائل العلم الحديث ، فهو بدلا من أن يعلن « عدم ايمانه ازاء هذه المسائل ، نراه يصير مجددا » [1] . وفى الواقع يعتبر تاريخ الكنيسة الكاثوليكية من الأمثلة الممتازة على مدى ما تستطيع أن تبلغه عقيدة غنية بالشعائر والرموز ، فى سبيل المحافظة على وحدتها ، اذ تواجه أحوالا اجتماعية آخذة فى التغير تغيرا كليا . ومن الملاحظ أن الرموز والشعائر

---

(١) Cf. L.S. Cressman, "Ritual the Conserver", *American Journal of Sociology*, XXXV (1930), 564-572.

الموضوعية للكاثوليكية هى هى فى المناطق الريفية والحضرية فى كل من أوربا وأمريكا اللاتينية والفلبين . بيد أن تفسير هذه الشعائر والرموز والطريقة التى تؤدى بها خدماتها للتقاليد والقيم المحلية تختلف من بلد لآخر اختلافا كبيرا (١) .

ومن المسلم به أن الشعائر والرموز معا تمد قواعد السلوك المقررة بعناصر القوة . وكثير من الرموز فى الحقيقة « رموز لتقوية الروح المعنوية توحى الى الأفراد وتنقل اليهم الحس بوحدة الزمرة أو روح الغيرة على المجموع (٢) . وهذه هى الوظيفة الرئيسية للرموز كما تستخدم فى طقوس حفلات التأهيل (٣) ، وفى قواعد السلوك داخل المساكن المشتركة ، وفى جمعيات الأخوة فى الكليات وفى اتحادات العمال . وما الشارات التى تعلق بالملابس وما يتحلى به الشخص من علامات كالدبابيس أو المفاتيح أو تذكارات المودة أو أعلام المراكب الصغيرة ، كذلك ما الايماءات

---

(١) See, for example, the discussion of tCatholicism in Mexico in F.S.C. Northrop, *The Meeting of East and West* (New York, 1946), Chap. II, and his more general discussion in Chap. VII.

(٢) هذه النقطة موضحة توضيحا كافيا فى : Grace Coyle, *The Social Process in Organized Groups* (New York, 1930), Chap. VII.

(٣) ربما كان هذا أنسب مكان لتوضيح المقصود بحفلات التأهيل بشىء من الايجاز . كلنا نعرف اختبارات أو امتحانات التأهيل لوظائف أو مهن معينة فى المجتمعات المتحضرة . هذا التأهيل فى المجتمعات البدائية أكثر اتصالا بالصلاحية للرجولة وما تتطلبه من شجاعة فى الحرب والنضال ومن كياسة واستعداد فى شئون البيت والزواج . ولا يكفى عند أكثر البدائيين أن ينمو الشاب بيولوجيا لكى يصبح رجلا بل لابد له من اجتياز امتحان عسير فى حفلة تأهيل للرجولة بعده يصبح رجلا معترفا به كرجل له أن يمارس حقوق الرجال ووظائفهم واذا لم يجتز هذا الامتحان بنجاح تخلف عنهم ، أنظر : A.M. Hocart, "Initiation and Manhood", in *Man.*, Vol. XXXV, February, 1935, pp. 20-21.

— المترجم

والعبارات الاصطلاحية وغيرها من العلامات الا وسائل تنقل الى الاخوان أو « الرفاق » الحس بأنهم أعضاء فى هيئة أو رابطة تستمد قوتهـا من كونها غامضـة [1] . ومن أوجب واجبات الزعيم أو القـائد أن يحسن استخدام هذه الرموز لكى تؤدى غرضها ، وأن يفسرها ثم يعيد تفسيرها وبذلك يجمع شمل الأفراد فى ترابط وولاء قويين لخدمة الأغراض الكبرى للجماعة . وأية جماعة منظمة ، سواء أكانت عصبة أحداث أم حزبا سياسيا أم ناديا ، أم اتحادا ، أم جمعية لخريجى احدى المدارس أو الكليات ، أم حلقة لمتآمرين ثوريين ، لا يمكن أن تصيب حظا من النجاح أو أن تحتفظ بوحدتها وقوتها الا اذا كان لها بطريقـة منظمة أو غير منظمة رموزهـا وشعائرها الخاصة ، ثم تعمل على أن تغرس فى عقول أعضائها معانى هذه الرموز وما تنطوى عليه من قوة . هذا وتلعب الرموز دورا حيويا على نطاق أوسع خلال التركيب الاجتماعى الأعم لصيانة الآداب العامة للمجتمع وحفظ التركيب الاجتماعى نفسه ، على أن هذا الدور كثيرا ما يغفل أمره بغير حق [2] .

القهر والنظام الاجتماعى

معنى القهر واشكاله : تناولنا فى القسم السابق بعض الظروف التى تؤيد النظام الاجتماعى وتقويه وتعمل فى نفس الوقت على جعـل أفراد المجتمع متجاوبين معه ومخلصين له . وقد لوحظ أن هذه الظروف هى أقوى العوامل الباعثة على الاخلاص للنظام الاجتماعى والثقة فى حقيقة أهدافه ، وبدونها لا تحتمل قواعد السلوك البقاء مهما كان نوع الجزاءات

---

(١) See Gist, op. Cit., Chap. VII for excellent illustrations in secret societies.

(٢) نوقش دور الرموز فى الضبط الاجتماعى من بعض جوانبه فى كتابات H.D. Lasswell and Thurman Arnold انظر مثلا :

Lasswell's *Politics: Who Gets What, When, How* (New York, 1936, especially Chap. II; and Arnold's The Symbols of Government (New Haven, 1935) and *The Folklore of Capitalism* (New Haven, 1937).

التى تساندها . وقد يصح أن نتساءل الآن : ما الدور الذى تقــوم به الجزاءات مساهمة منها فى الضبط الاجتماعى ؟

١ ـ **تعريف القهـر** : الى جانب الاخلاص للنظام الاجتماعى والثقة فى حقيقة أهدافه وهى عوامل نفسية تحفظ هذا النظام ، توجد الجزاءات للخارجين عليه . فالمجرم العائد لا يرى الا قوة مستخدمة ضده مباشرة . وتوجد فى كل المجتمعات درجات وأشكال كثيرة للقهر . ويشعر الفرد بالقهر اما بطريق مباشر كأن يواجه القوة الكامنة وراء قوانين بلاده . واما بطريق غير مباشر كأن يذكر بعض الذكرى عقابا بالضرب تلقاه من والده فى صباه ، وأن يفطن الى أنه من الممكن أن يوقع عليه مثل هذا العقاب اذا اقتضى الأمر ذلك . والناس يوصفون بأنهم خاضعون للقهر [1] حينمـــا يعملون أو يمتنعون عن العمل بخلاف الطريقة التى اختاروها لأنفسهم أو التى يصح أن يختاروها فى ظرف معين ، لا لشىء الا لمجرد أن غيرهم قد تعمد أن يحد من مجال اختيارهم ، اما بطريقـــة مباشرة ، بغرض الضغط على هذا الاختيار ، واما بطريقة غير مباشرة ، بالتخويف من سوء العاقبة .

٢ ـ **أشـكال القهر** : يدل تعريفنا الذى قدمناه توا على أن هناك أشكالا كثيرة لكل من القهر والاقتدار . ان كل من يضع شروطا من أى نوع ، ثم يوقع جزاء على من لا يعمل وفقها ، يكون ممارسا للقهر . وهذه حال صاحب العمل الذى من سلطته توقيع الفصل من العمل ، أو مجموعة العمال الذين يملكون القيام بالاضراب ، أو الكنيسة التى تستطيع أن توقع عقوبة الحرمان الكنسى ، أو النـــادى الذى يمـــارس حق حرمان أعضائه من امتيازاتهم ، أو أحد طرفى الزوجية (الرجل أو المرأة) الذى يمكنه أن يحيل البيت فى وجه الطرف الآخر الى قطعة من الجحيم . وقد أدى كون المجتمع لا يمكن تصوره دون ممارسة أشـــكال مختلفة من

(١) See, for example, H.M. Kallen, "*Coercion*", *Encyclopaedia of the Social Sciences*, III, 617-619.

القهر ، الى أن يتأثر بهــذه الفكرة بعض الكتاب لدرجــة أنهم فهمــوا « الاقتــدار » باعتبــار أنه المفتــاح الرئيسى فى جميــع التحليــلات السوسيولوجية [1] . على أننا سنوضح فى المناقشة التالية صعوبة الأخذ بهــذا الرأى .

ان أقصى ما يبلغه القهر هو استخدام القوة البدنية لضبط أداء عمل من الأعمال أو منع حدوثه . وهــذا هو الارغام فى أدق أشــكاله ، أو ما يسمى غالبا « الاقتدار السافر » ويؤخذ فى المجتمعات الحديثة كحق للدولة لا ينازعها فيه منازع . حتى ولو اغتصب هذا الحق من وقت لآخر . وسنفحص هنا هذا النوع من القهر محــاولين أن نظهر طبيعــة تأثيره الاجتماعى ومدى هذا التأثير ووظيفته . وستصدق هذه المناقشة أيضــا بالنسبة لأشكال القهر الأخرى ودرجة الحدة التى تؤثر بها هذه الأشكال فى ارادة من يخضعون لها وسلوكهم ، مهما حاول الاقتدار الســافر أن يخفى نفســه .

وظيفة القــوة المستخدمة لأغراض اجتماعية وقصورها : هناك مظاهر منوعة يبلغ تنوعها حد الغرابة لاستخدام القوة فى النظــام الاجتماعى . وهذه القوة ظاهرة بوضوح فى بعض المجتمعات البدائية . وفى الأغلب لا وجود لها فى البعض الآخر . ويبدو أنها تزداد نموا فى المجتمعات كلما ارتقت هذه فى سلم الحضارة وبلغت المجتمعات المنظمة درجة عاليــة من التنظيم ، اذا كان لنا أن نحكم على هذه القوة من وجود مراتب أو طوائف

---

(١) من بين أولئك الذين اهتموا باثبات دور الاقتدار بهذه الطريقة يمكننا ان نذكر توماس هوبز ، الذى نظر الى اقتدار الحاكم السياسى كشىء أساسى بالنسبة للنظام الاجتماعى ، وكذلك ل . جامبلوفيتز وج . راتزنهوفر اللذين ينتسبان الى « مدرسة الصراع » فى علم الاجتماع وترايتشكى الذى كتب حسب التقاليد الوطنية الألمانية وبرتراند راسل الذى يأسف على دور الاقتدار فى كتابه .Bertrand Russell, *Power* (New York, 1938) ولمناقشة الاقتدار الاجتماعى ، أنظر : Maclver, *The Web of Government*, Chap. V.

اجتماعية [1] . ومع ذلك فسنتعرض للخطأ اذا استخلصنا أن الدور الذي تقوم به القـوة ينمو بالضرورة مـع نمو النظـام الاجتمـاعى . وان الديموقراطيات الواسعة المتقدمة التى عرفتها العصور الحديثة قد تعرضت للضبط بالقوة أقل مما تعرضت دويلات العصور الوسطى ذات الاقتصاديات المتأخرة التى نشأت عنها ، كما ازداد نمو روسيا السوفييتية نموا معقدا يفوق ما كانت عليه فى عهد القياصرة . أما مسألة كون استخدام القـوة هناك قد نقص أو زاد فمسألة تحتاج الى نظر . ومن الواضح أن التجاء الحكومة الى القوة أكثر ما يكون وضوحا فى أوقات الأزمات الاجتماعية أو الأحوال المؤدية لها ، كما يعرف ذلك كل من عاصر منا احدى الحربين العالميتين الأخيرتين أو كلتيهما . وفى بعض الأحيان يحتفظ هذا النوع من القوة بمظهر تعسفى كذيل لمثل هذه الأزمات . ومن الواضح كذلك أن القوة وسيلة أكثر تأثيرا للضبط الاجتماعى بين الشعوب غير المتعلمة أو المسيرة بتنظيمات الدولة ، منها بين تلك التى نشـأت فى رحاب الحرية ومارست حق توجيه النقد . واذا تأملنا كل هذه المفارقات فماذا عسى أن نكتب فى الوظيفة الاجتماعية للقوة ؟

١ ــ **لماذا تعتبر القـوة جوهرية للضبط الاجتماعى :** ان اسـتخدام القوة المادية ضد الأفراد لا يمكن محوه محوا تاما من النظام الاجتماعى فيما يذهب الفوضويون . وذلك لأن من الضرورى أن يوجد دائما نوع من القوة الداعية لمصلحة المجتمع لكبح جماح مظاهر القوة الضارة به سواء أكان مصدرها أفرادا أم جماعات منظمة . تلك القوة ضرورية للحد من مظاهر حب المصلحة الخاصة والجشع وتحدى القانون وعدم التسامح الذى لا يفتر ازاء الغير . انها ضرورية لصيانة أى نظـام مقرر للحقوق والواجبات فى المجتمعات المعقدة أو الحديثة . ولا أمل فى أن تحترم قاعدة

---

(١) Cf. L.T. Hobhouse, G.C. Wheeler, and M. Ginsberg, *The Material Culture and Social Institutions of the Simpler Peoples*, Chap. IV, Section 2.

اذا كان من السهل أن يخرقها ، وهو آمن ، شخص مستهتر لا ضمير له ، أو معارض للنظام . انها ضرورية لفض المنازعات التى تنشأ أبدا بين الناس . ولو لم يكن من الميسور الالتجاء الى سلطة تساندها القوة لساد العنف بين الأفراد ، أو بين الجماعات . وهذه القوة ضرورية كذلك لمنع اعتداءات المنظمات القوية على الضعيفة ، أو اعتداء المنظمات الاقتصادية مثلا على أولئك الذين لو تركوا تحت رحمتها لأذلتهم بما لها من جبروت . فهناك مظاهر أساسية للنظام والأمن تتعذر المحافظة عليها الا من طريق واحد دون سواه ، وهو طريق القوانين التى يتعين على الكل طاعتها . ان الخدمة الحقيقية للقوة تنحصر فى كونها أمينة على النظام [1] .

ولا تستطيع القوة وحدها أن تحمى النظام الاجتماعى ، ولا يمكن لهذا النظام أن يستمر اذا لم تتحالف القوة مع عوامل أخرى ، وبدون القوة يتعرض القانون للخطر وينزل من عليائه . هذا مع ملاحظة أن القوة وحدها تعجز تماما عن ضمان بقاء القانون محتفظا بسلطانه . وهذه الحقيقة المعروفة منذ زمن بعيد من حيث تطبيقها على قوانين أية دولة ليست أقل انطباقا على هيئة الأمم المتحدة أو على أية منظمة دولية أخرى يحاول الانسان اقامتها . واذا قدر لهيئة دولية أن تكون حكومة تتألف من أفراد وشعوب فلابد أن ترتكز هذه الحكومة على قواعد بشأن السلامة الدولية يقبلها الجميع على التحقيق . غير أنه لمساندة هذه القواعد يلزم أن يتوافر لدى الدولة جزاء استخدام القوة آخر الأمر . ومهما تكن

---

(١) يتردد أحيانا على لسان أولئك الذين يروعهم ما يقع من مخالفات متكررة للقانون ، ويؤيد رأيهم استخدامنا للقوة فى الحياة الاجتماعية ، انه لو تعلم كل فرد طرق التحايل على القانون فان مخالفته تقف عند حد . فمثلا المحتال الذى يطلب الجزية فى مقابل امتناعه عن افشاء أسرار تشوه السمعة لا يستطيع أن يواصل احتياله اذا عرف كل الناس فنه . واذا رغب الطالب فى التوسع فى الاجابة على هذا الاقتراح الذى يبدو منطقيا (وان كان غير عملى) فستتاح له الفرص لاختبار بصيرته السوسيولوجية أو مدى معرفته بنظريات علم الاجتماع .

أهمية الخدمات التى تؤديها القوة الداعية لتماسك الجماعة ، فان لها مع ذلك حدودا لا تتجاوزها .

٢ ـ الأسباب التى من أجلها تعتبر القـوة وسـيلة محدودة الفائدة فى الضبط الاجتماعى : ان طبيعة قصور هذه القوة تبدو عندما نفحص ماهية استخدام القوة . وهنا نلاحظ أمرين كبيرى الدلالة مرتبط بعضهما ببعــض :

الأول ـ انكار المظهر الاجتماعى : فنرى أولا أن التدخل بالقوة يعتبر عرضا آليا للعلاقة الاجتماعية . ففيما يتعلق بالقوة المستخدمة تعتبر هذه انكارا لأمكان التعاون . وهى تعامل الانسان كما لو كان مجرد شىء مادى . والقوة فى ذاتها لا تنطوى على أى تعبير عن دوافع انسانية ، وذلك من وجهة نظر أولئك الذين تستخدم ضدهم هذه القــوة — والمفهوم أنه لا توجــد علاقة أخذ وعطاء بين أى انســان وبين حبل جــلاده الذى يعد له المشــنقة ، أو بينه وبين سور ســجنه ، أو نبوت الجــلد ، أو « الكرباج » الذى يحمله الشرطى . ان القوة هى نهاية العلاقات المتبادلة وبالتالى تضيق الى أدنى درجة الافصاح عن طبيعة مستخدميها . فلا تكون هنالك الا لغة واحدة هى لغة الضرب والعنف ، وفى هذا تحديد لوسائل الضبط الاجتماعى . وهذا التحديد مشعور به كذلك بدرجات مختلفة من قبل جميع السلطات التى تفرض بالقوة قواعد ونظما جديدة ، مثل أى جيش احتلال فى بلد أجنبى ، ومثل مأمور السجن ومعاونيــه ، وحكام الشعوب المغلوبة فى المستعمرات ، وحتى الوالد الذى يعتمد على العقاب البدنى للسيطرة على أبنــائه أو لتربيتهم . (ان عمال الجستابو أنفسهم كانوا يضيقون بذلك العالم الضيق الذى تردوا فيه بسبب الواجب الذى كان ملقى على عاتقهم) . والحق أن الضبط الاجتماعى الذى يؤتى ثماره يتطلب توافر عنصر التعاون فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم كما ستبين أمثلتنا فيما بعد . وعلى ذلك فلا بد أن يتوقع أن يكون التعاون عنصرا

لا وجود له فى جميع المواقف التى تكون فيها « القوة السافرة » هى كل شىء .

الثاني : عدم كفاية القوة : ونرى ثانيا أن ممارسة القوة تعتبر جهدا مبعثرا وعملية لا لزوم لها طالما كان هناك بديل يمكن أن يسد مكانها ، وذلك لأن القوة من شأنها أن توقف كل نشاط حيوى وتقضى على علاقات الأخذ والعطاء اللازمة للحياة المشتركة . وكلما استخدمت القوة أدت الى خلق المقاومة ومعنى هذا ازدياد الحاجة الى القوة — وهذه حقيقة يغلق عقله دون ادراكها كل من يحبذ اجراءات القهر والاخضاع ضد العناصر « المحرضة على الشغب » . واذن فأى نظام اجتماعى يعتمد اعتمادا كليا على القوة ، سواء أكان « دولة بوليسية » يحكمها دكتاتور أم أسرة ذات رئيس مستبد ، أم جماعة يتزعمها محتال ذو بأس ، فلابد لرأس هذا النظام من أن يتهدده القلق ، اذ أنه عرضة أثناء اطراد عمليات التغير الاجتماعى لأن تتحين الفرص هذه المقاومة التى تزداد شيئا فشيئا حتى تطيح به .

مدى فاعلية القوة المنظمة : بعض الأمثلة : للكشف عن مدى فاعلية القوة يجدر بنا أن نتناول كيفية أدائها لوظيفتها فى الميادين التى يحتاج الأمر فيها الى الضبط الاجتماعى وحيثما كان الاعتماد عليها بوجه عام كبيرا .

١ ــ حالة الاستعداد العسكرى : « اذا أردت السلم فاستعد للحرب » . هذا قول قديم مأثور عملت وما زالت تعمل به الدول بالرغم من الأدلة التاريخية التى لا حصر لها ، على أنه فى العلاقات الدولية طالما أدى الاستعداد للحرب الى وقوعها فعلا . وفى ضوء هذه التجربة يبدو من الأنسب أن نصرف النظر عما فى هذه الحكمة من تناقض وأن نتقبل بديلا عنها أكثر منطقية منها . هذا البديل هو قولنا « اذا أردت السلم فاستعد للسلم » . وهناك فارق جوهرى بين الطريقتين يتلخص فى أن

« الاســتعداد » للحرب يقوم على أســاس قومى ووطنى على حين أن الاستعداد للسلم يحتاج الى تنظيم دولى .

ويرجع سبب اخفاق الطريقة الأولى القديمة ، فيما يختص بموضوعها وهو السلام والأمن ، الى خاصة أخرى من الخصائص الغريبة للقوة . ذلك أن القوة تكون مجدية ما دامت الطريق أمامها خالية ولا توجد قوة ثانية تواجهها . وبعبارة أخرى القوة مجدية اذا كانت مركزة ومحتكرة فى مكان واحد . فاذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية مثلا تتــكون من ثمان وأربعين ولاية مستقلة فمن الممكن أن تكون مظاهر القوة أشــد وضوحا فى المنطقة مما هى عليه اليوم ، ومن الممكن كذلك أن تدل مظاهر القوة على نقص فاعليتها . وذلك لأن القوة كلما كانت أقل اندفاعا وأقل وضوحا ، كانت أكثر نجاحا فى تحقيق غاياتها — كما يعرف ذلك جيدا كل من الآباء العقلاء والحكام السياسيون الكيسون . ومما لا شك فيه أن هناك قوة وراء رجال الشرطة الذين ينظمون حركة المرور ولكنهم قلما شعروا بالحاجة الى استخدامها . ولو كان من الضرورى أن يزود رجال المرور بمدافع المتراليوز عند تقاطع الشوارع لأصاب الهرج حركة المرور . وهكذا كلما حصل التمادى فى اظهار القوة زادت مظاهر عدم الاستقرار . وما دامت الأمم تستنفد للسلام بالاعلان عن قوتها الذرية وغيرها فسيبقى السلام العالمى مهددا بالخطر [1] .

٢ ــ حالة قوانين الدولة : هنا تتجه نحو ميدان آخر حيث أظهرت التجربة أن الاعتماد على القوة لا يوجد ما يسوغه . فمما يستقر فى الأذهان

---

(١) الواقع انه لم يحدث اى تغيير فى الفقرتين السابقتين وهما هنا واردتان كما كتبهما بروفسور ماكيفر منذ عدة سنوات . ولم يجد المؤلفان مايدعو الى تغييرهما اليوم . ولزيادة التفصيل فى هذه المشكلة أنظر :

Q. Wright, *A Study of War* (2 vols., New York, 1942); R.M. MacIver, *Towards an Abiding Peace* (New York, 1943); L.L. Bernard, *War and Its Causes* (New York, 1944).

عند الناس جميعا أن قوانين الدولة مطاعة على الأخص بسبب القوة التى تساندها . وهذا الرأى صحيح فقط اذا سلمنا بأن هناك أسبابا أخرى لاحترام القانون أعم من الاستسلام للقوة أو الخوف من العقاب . فاذا افترضنا أن الطاعة قد زالت من الناس جميعا فلا اجبار بالقوة يمكن أن يسود ، كما ظهر لنا فى حالات ثورات عديدة . وما زالت معالجة الأمور بالقوة وبتشديد الجزاءات كطريقة للضبط الاجتماعى لم تثبت صلاحيتها بعد ، كما يكشف لنا تاريخ القانون الجنائى . وهناك أدلة كثيرة على أنه ليس من الممكن أن يفرض أحد القوانين بالقوة اذا دأبت أقلية كبيرة نسبيا على معارضته باستمرار وبصرامة ، كما رأينا فى حالة السخرية الصريحة من القوانين الفدرالية الأمريكية التى حرمت الاتجار فى المشروبات الروحية فى السنوات العشرينية ، والتى ألغيت فيما بعد ، وما نرى اليوم من مخالفات ترتكب على نطاق واسع ضد القوانين التى تحرم بيع أدوات وأجهزة معينة لمنع الحمل فى بعض الولايات الأمريكية مثل كنيكتيكت وماساسوستس . ومما يهمنا من الأمثلة على قصور استخدام القوة فى الأعمال الادارية والتنظيمات السياسية ما يتبين لنا من النجاح الذى صادفته المقاومة الهندية غير العنيفة بزعامة غاندى ، تلك المقاومة التى وجهت نشاطها ضد قوانين الهند التى صنعها الحكام البريطانيون السابقون . وتحتم وسائل ساتيجراها وهو الاسم الذى أطلق على هذا النوع من السلوك السلمى ، الخضوع للنظام العام ، وهى ذاتها مجبرة بالقسر ، وتمثل مرة أخرى كلا من قصور « الارهاب بالقانون » واستعداد القوة السافرة الى أن تؤدى الى خلق قوة مماثلة لمقاومتها [١] .

٣ ــ **حالة الجريمة والعقاب** : وهنا نتناول دور القوة ، لا من حيث كونها وسيلة من وسائل منع الناس من مخالفة القانون ، وانما من حيث

(١) See K. Shridharani, *War without Violence, A Study of Ghandi's Method and Its Accomplishments* (New York, 1939).

كونها عقابا للخارجين على القانون . واذا كان الخوف من العقاب كما يتفق علماء الاجرام فيما بينهم ، مانعا غير كاف لوقوع الجريمة ، فما الرأى فى العقاب كوسيلة لعلاج المجرم ؟ وحتى عهد قريب جدا كان من الأمور المسلم بها بوجه عام أن التأديب بالالتجاء الى استخدام أقصى قوة ، والذى يأخذ شكل المعاملة الفظة أو القاسية ، كان يكفى لتحقيق الأغراض المطلوبة . وكان مبدأ العقاب مشوبا بالآراء المتعلقة بالثأر والانتقام والتكفير ، على حين نجد أن معظمنا اليوم قد يوافق على أن خير تسويغ لما تفرضه الدولة من عقاب انما هو ما تبتغيه للمجتمع من سعادة . وذلك لأن المجتمع يتأثر بالطريقة التى يعامل بها المجرم وهو نفسه كما نعرف عضو بالمجتمع . ولما كان هذا المبدأ قد ازداد قبوله عن ذى قبل ، فان الاعتماد على القوة وحدها آخذ الآن فى أن يكون موضع الشك .

ومن حيث ان كون هذه القوة مجردة من أى شىء آخر ، هى العلاج الآلى للانسان كما رأينا ، فهى بهذه المثابة يساء استغلالها كوسيلة للاصلاح ، وعلى ذلك فهى تصبح آخر الأمر وسيلة لمنع الجريمة . وفى الحق أن ما يحدث فى الغالب هو عكس ذلك بفضل شرائع العقاب عندنا كما تشهد بذلك أدلة كثيرة جدا على أن السجون ما هى فى حقيقة أمرها الا أوكار لبعث الاجرام . وزيادة على ذلك ، فان القوة وحدها طريقة للعلاج تتسم بكونها ذات صلابة خاصة . والمعتاد أن محاكم الجنايات اذ تنظر فى قضايا مختلفة فيما بينها اختلافا كبيرا ، ليس أمامها الا أن تحكم بأحد أحكام ثلاثة : الغرامة أو السجن أو الموت . وسواء أكان المجرم حدثا أم بالغا ، أم رجلا ، أم امرأة ، ضعيف العقل أم ذكيا ، ذا عاطفة جياشة أم ذا عقل مدبر ، حساسا أم متبلدا ، وسواء أكان الجرم قد دعا اليه يأس أم كبت أم فقر أم جشع أم سوء نية فى أبشع صورها — ومهما كانت ملابسات الجريمة أو بيئة المجرم ، فان المحكمة لا تملك الا أن تطبق بعض أحكام قانون صلب لا ينثنى . وان الحركة المتسع نطاقها للمطالبة بتطبيق الاتجاهات العلمية فى الأحكام القضائية وبزيادة فهم كيفية معاملة أنواع

المجرمين المختلفة — ومنها انشاء الاصلاحيات والمؤسسات للمجرمين فى أول عهدهم بالاجــرام ، واخصائى الأمراض العقلية للعمل بالمحــاكم والمستشفيات للمرضى السيكوباتيين والمدارس الصناعية والمهاجر الزراعية ونظم منح الثقة بالسجين اذا أعطى كلمــة شرف بألا يهرب ، ومحــاكم الأحداث — هذه الحركة ما هى الا أول الغيث وهى دليل على تحطيم أحد المعاقل التقليدية للايمان بفائدة اســتخدام القوة والعنف لأغراض الضبط الاجتماعى .

بعض الاستنتاجات الخاصة بالفردية والمجتمع : لقد سعينا الى أن نظهر أن القوة ضرورية لضمان القانون السياسى، وانه حتى عند وضوح هذه الضرورة ، فان الخدمة التى تؤديها القوة تكون أفضل ما تكون حينما يستلزم الحال استخدامها فى أبسط صورها . ولقد رأينا أن العلاقة التى تحددها القوة انما هى ضد للعلاقة الاجتماعية ، وانه تبعــا لذلك فان وظيفة القوة لا تستطيع أن تذهب الى أبعد من المحافظة على العلاقات الاجتماعية من خطر الميول غير الاجتماعية . وحينما يبدو من الضرورى فرض قاعدة مشتركة لحماية الصالح العــام فان بعض الاجبار يجب أن يدخل فى تقديرنا . غير أن لهــذا الاجبار ثمنا ينبغى أن يحسب حسابه عندما نقرر ما اذا كانت القاعدة المشتركة ضرورية أو مفيدة .

١ ـ حــول مبدأ عام لتحديد مدى القــوة : ان المجتمع لا يحتــاج لقواعد مشتركة لكل شىء . ومن حسن ؟ نجد أن القواعد المشتركة ، فيما يتعلق بجوانب السلوك الشخصية والشديدة الخصوصية، نادرا ما نحتاج اليها . فالناس لا يستطيعون أن يديروا المصانع أو البنوك كما يشاءون وعلى طريقتهم الخاصة ، لأنهم لو فعلوا هذا لجعلوا أناسا آخرين تحت رحمتهم . ولكنهم يستطيعون أن يعتنقوا ما يشاءون من الديانات المختلفة وأن تكون لهم آراء متباينة أو يتحيزوا لأذواق مختلفة دون أن يحولوا بين الآخرين وبين أن تكون لهم نفس الحقوق . وبالرجوع بذاكرتنا الى

المناقشـة التى أوردناها فى الفصـل الثالث حول التفـاعل بين الفردية والمجتمع ، يمكننا الآن أن نضيف أن الاجبار خطر وفى العادة يكون ضارا اذا طبق على المسائل التى يتابع فيها كل فرد طريقته الخاصة فى الحيـاة بحيث لا يتدخل فى فرص الآخرين المتكافئة لكى يتابعوا هم كذلك طرقهم الخاصة فى حياتهم . ولا تحل هذه النتيجة العريضة كثيرا من المشـاكل العملية فيما يختص بتدخل المجتمع ، ولكنها مفيدة كمبدأ تحديدى . وهى تقدم لنا تسويغا للحريات الأكثر أساسية وفى مقدمتها حرية الفكر وحرية التعبير . وهذه حرية يمكن أن تكون لكل الناس فى نطاق نظام اجتماعى معين .والاستثناء الوحيد المعقول هو حينما نستخدم هذه الحرية ،كما هو الوضع فى حالة جمعية كوكلوكس كلان السرية وما شابهها ، للمنـاداة بالغاء الحرية المماثلة بالنسبة للآخرين . ولمـا كانت حرية الفكر وحرية التعبير أكثر أهمية بكثير لتعزيز الفردية من تلك الحقوق التى لا يستطيع البعض استخدامها الا على حساب الآخرين ، فاننا نرى هنا مرة ثانيـة التوافق الأساسى للفردية والمجتمع .

٢ ــ **نتائج الانحـراف عن المبدأ :** نلاحظ أنه عندما تتجه القوة الى عدم الاستقرار فى نطاق المبدأ الذى حددناه ، كما هو الحادث خلال معظم التاريخ الانسانى ، فانها فى هذه الحالة تؤذى الروابط الاجتماعيـة فى الصميم . وذلك لأنها تسعى حينئذ للتفريق بين الأفراد وتحويل التعاون الى نوع من الرق ، كما تجعل من أشق الأمور على الجماعة أن تشعر بأى ولاء مشترك . وحينما وقعت الحكومات تحت تأثير الديانة العقائدية وهى أحد عوامل التفريق فى الحضارة الأوربية الحديثة ، فجردت « الهراطقة » من حقوقهم الاجتماعية والسياسية ، فانها لم تعالج « الهرطقة » بهـذا الاجراء ، وانما نشرت الفرقة فى المجتمع ومزقت أوصاله . وفى الأوقات التى انصرفت فيها عن الاهتمام بالفروق الدينية نراها بذلك قد جعلت من الممكن قيام التضامن بين الناس بشكل لم يكن مألوفا من قبل . ويحدثنا علم من أنصار هذه الفكرة قائلا : « ان تجربة القرن التاسع عشر التاريخية

ترينا أن للحرية قوة الرباط الذى يقرب بين الناس ويدعو الى تماسكهم فى جماعات يطول بقاؤها وتزداد خصوبتها كلما كانت تلقائية فى نشأتها ومستقلة فى تحديد أهدافها (١) .

وأخيرا فان اخماد الحريات الأساسية بطريق العنف يؤثر فى كل العمليات الاطرادية التىمن شأنها أن تهب الحيوية والتجديد الى المجتمع . وان لنماذج الشخصية المختلفة طرقا مختلفة لمقاومة الضغط الاجتماعى وأى سعى لجعل أحوال الناس متطابقة . ومثل هذا الضغط الاجتماعى مشعور به بوضوح ويقاوم بسرعة كبيرة على يد المبدعين من أفراد المجتمع ، وأولئك هم الفنانون والأنبياء وطبقة المثقفين . هذه النفوس المبدعة كثيرا ما تكون ناقدة للأحوال الراهنة وعرضة للتحول بطريقة ما عن الآداب العامة السائدة بين أهل زمانهم (٢) . وهناك أدلة تاريخية كثيرة ترينا منذ أيام سقراط أو المسيح حتى يومنا هذا ، أن التعذيب لم يكن يحيق الا بالمبدعين والمجددين حينما كانت الكلمة العليا للقوة . ولسوء الحظ من الصعب بالنسبة للرجل العادى ، كما أنه من المستحيل بالنسبة للحاكم المستبد أن يميز بين الفرد المبدع وبين المجرم . ولا يستطيع الموهوبون أن يبدعوا ويخدموا الحريات الأساسية الا فى جو الحرية وحيثما يقتصر استخدام القوة على خدمة هذه الحريات فحسب . وانه لفى هذه الظروف وحدها يمكن أن يتحقق التوافق الكامن بين الفردية والمجتمع .

---

(١) G. De Ruggiero, History of European Liberalism (Eng. tr., London, 1927), p. 353.

(٢) ان بحث Arthur Koestler فى "The Intelligentsia" ينفعنا فى موضوعنا هذا .

See his *The Yogi and the Commissar* (New York, 1945), pp. 61-76. See also such sociological works as K. Mannheim, *Ideology and Utopia* (L. Wirth and E. Shils, tr., New York, 1936); and F. Znaniecki, *The Social Role of the Man of Knowledge* (New York, 1940).

الضبط الاجتماعى فى الجماعات المحلية الفاضلة (أوتوبيا)

الجماعات المحليـة الفاضلة كتجارب فى الضبط الاجتماعى : وصفنا فى الأقسام السابقة القوى المحافظة التى تعمل على حفظ التركيب الاجتماعى وصيانته . وفى هــذا القسم الختامى سنتناول مثالا يبين هذه القوى فى أوج عملها . وذلك لأننا هنا مهتمون بتلك الجماعات المحلية التى تنهج نهجا خاصا متميزا فى حياتها بدرجة تفصلها فصلا تاما عن الجماعات المحلية الكبرى المحيطة بها . سنتحدث عن هذه الزمر التجريبية الصغيرة التى تقوم على مستعمرات منفصلة تعمل على تحقيق مثلها العليا ، مطلقين عليها اسم الجماعات المحلية الفاضلة (أوتوبيا) [1] . وهذه الجماعات تعمل على الدفاع عن آدابها العامة ضد العدوى بآداب العالم الخارجى . ومن أجل المحافظة على انفصالها عن غيرها من المجتمعات وتضامنها داخليا فى نفس الوقت يتعين عليها أن تقــاوم بأعنف ما تكون المقاومة جميع قوى التغير سواء منها ما انبثق من داخلها أو ما هاجمهــا من الخــارج . ومثل هذه الجماعات تستعين بالضرورة بنظام فى الضبط الاجتماعى يبلغ غاية التقدم وهذا الوضع ممثل فى الجماعات الفاضلة القائمــة أو المستمر قيامها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، على أسس أغلب ما تكون متعلقة بعقيدة أو فكرة دينية ما ، وفى العــادة تجرى الحياة فى داخلهــا على المبادىء الاشتراكية . ومن بين هذه الجماعات الفاضلة مجتمع « افراطا » وهى مستعمرة اشتراكية قديمة أسست فى القرن الثــامن عشر ، وهارمونى الأصلية فى بنسلفانيا ، ومستعمرات الجماعات المعروفة باســم شيكرز وهوتيرايتس ودوكوبورز وأمانيتس وما شابهها من الجماعات الدينية . والجماعة التعاونية المشهورة المعروفة باسم « بروك فارم » المرتبط باسمى

---

(١) أراد سير توماس مور بمدينته الفاضلة (١٥١٦) أن يقترح وجود جماعة محلية فاضلة كما فعل صموئيل بتلر فى كتابه Erewhon (أو « لا فى مكان ») (١٨٧٢) ، ولكنا نستخدم الاصطلاح هنا لنشير الى جماعات حقيقــة .

امرسون وهوثورن ، وجماعة « البرفكشنستس » فى أونيدا بنيويورك ، التى جمعت بطريقة فريدة بين الاشتراكية الاقتصادية والجنسية . وهناك دراسات تاريخية واجتماعية كثيرة وكذلك تراجم حياة لبعض الأشخاص ، تساعدنا فى مقارنة المبادىء التى تقوم عليها مجموعة منوعة من هـذه الجماعات « الفاضلة » وفى الوصول الى نتائج معينـة تتصل بالشروط اللازم توافرها لحدوث تضامن شامل كامل فيما اذا استهدفت الجماعة لصعوبات غير عادية [1] .

وكل من هذه الجماعات تمسك بمجموعة من الآداب العـامة تتجه اتجاها مختلفا عن اتجاهات الآداب الأخرى للثقافات المحيطـة . وجميع هذه المجتمعات « الفاضلة » حاولت بطريقة أو بأخرى أن تكبح وجوه النشاط المختلفة التى حظيت بمزيد من الحرية فى المجتمع المجاور . ونجم عن ذلك أن كلا منها أدخل نظاما خاصا لطرق الضبط الاجتماعى وضع تصميمه بحيث يغرس فى الجيل الناشىء من عادات حب العمـل والفكر والحياة ما كان متوافقا مع النظام الاجتماعى العام . وهـذه الجماعات المحلية الصغيرة كانت فى وضع يختلف كل الاختلاف عن وضع النظـام الاشتراكى العريض الذى تتميز به روسيا السوفييتية . ولكن يلاحظ أن بعض مبادىء هذه الجماعات يوجد مثيله فى الاتحاد السوفييتى .

---

(١) من أسبق الدراسات فى هذا الشأن :

C. Nordhoff, *Communistic Societies in the United States* (New York, 1875).

ومن بين الدراسات العديدة الحديثة :

R.S. Wooster, *Communities of the Present and Past* (Newllano, La., 1924); W.A. Hinds, *American Communities and Cooperative Societies* (Chicago, 1908); and V.F. Calverton, *Where Angels Dared to Tread* (Indianapolis, 1941).

ويتضمن ما دونه بعض الأشخاص بأنفسهم من تاريخ حياتهم :

P. Noyes, *My Father's House, An Oneida Boyhood* (New York, 1937); and J.S. Duss, *The Harmonists* (Harrisburg, Pa., 1943). See also the discussion in H.F. Infield, *Cooperative Communities at Work* (New York, 1945), Chaps. I-IV.

الصفات المميزة للجماعات الفاضلة : يتضح من دراسة هذه الجماعات أنها بينما اختلفت فيما بينها فى عدة أمور فاننا نراها استخدمت أساليب اجتماعية متشابهة لحفظ التضامن فى داخلها . ومن بين هذه الأساليب أربعة جديرة بالذكر :

١ ـ **العزلة والاكتفاء الذاتى** : فقد سعت هذه الجماعات لضمان وحدتها الثقافية بالعزلة الجغرافية . فقد كانت فى الأغلب جماعات زراعية وعلى الأخص فى أيامها الأولى ، ومكتفية بذاتها كصفة جوهرية . ولذا استطاعت أن تعزل نفسها بعض العزل عن بقية العالم . وكلما هددت أمنها محاولات التوسع من جانب جيرانها كانت تفضل أن تنتقل الى مكان آخر بعيد . وان مجرد الاسم الذى تحمله احداها وهو « سيباراتستس » أو « الانفصاليون » يوضح لنا اتجاها مشتركا عندها جميعا . وكانت هناك استثناءات جزئية لهذا المبدأ . مثل جماعة « البرفكشنستس » أو « الكماليين » الميالة للصناعة والتى لم تستطع أن تقطع اتصالها كلية بغيرها كما فعلت معظم الجماعات الأخرى . وكل الجماعات الفاضلة التى لا تزال قائمة حتى اليوم مثل الهوتيرايتس فى جنوب داكوتا ، فقد تأثرت على نحو ما من طريق غزوات التكنولوجيا الحديثة [١] . ومن المهم أن نلاحظ أنه بالرغم من أن هذه الجماعات عملت على أن تعيش معتمدة على نفسها بعيدة عن أية اتصالات ، فانها لم تكن أبدا بعيدة جدا لدرجة أن الساخطين على الحياة فيها لم يكن فى مقدورهم تركها الى الحياة فى العالم الموجود خارجها . وبهذه الكيفية كان يخرج من زمرة السكان فيها من يعتبرون مصدرا لعدم الرضا .

٢ ـ **غرس خاص للأفكار والمعتقدات** : وقد اتخذت كل جماعة من هذه الجماعات اجراءات خاصة لكى تغرس فى أفرادها ، وعلى الأخص

---

(١) See, for Example, L.E. Deets, *The Hutterites;: A Study in Social Cohesion* (Gettysburg, Pa., 1939), Chap. VII.

الجيل الجديد ، المبـادىء التى تعلقت بهـا الجماعة [1] . وكان التنظيم الاجتماعى تاما ومحكما . كما كان الشباب خاضعين لقيادة جادة مركزة فى يد فرد أو فى يد أقلية قوية من كبار السن ، سواء أكان تركيز هـذه القيادة قد جاء بطريقة رسمية أم غير رسمية ، كذلك كانت ترى كل جماعة فاضلة فى نفسها أن أسلوب حياتها هو الأفضل ، أو أنها تضم أناسا غير عاديين ، منفصلين بمعنى من المعانى عن عالمنا هـذا ، وكان الامايتتس الذين هاجروا أصلا من ألمانيا الى ايوا يسمون أنفسهم « مجمع الالهام الحق » . والبعض كانوا يظنون فى أنفسهم أنهم « شعب الله المختار » ، وآخرون أنهم أصحاب الحقيقة .وقد أدت هذه الظنون المختلفة الى ضغط اجتماعى قوى نحو ايجاد مطابقة فى المعتقدات والسلوك وآداب اللياقة وأساليب المعيشة بوجه عام . وشملت هذه المطابقة فيما شملت المظـاهر الخارجية كاللباس والمسكن . ومما عمل على تقوية المطابقة تعود القيام بأعمال كثيرة بالاشـتراك معا ، والالتقاء معـا لمجرد التعبد والأغراض الروحية عامة ، ولكن كذلك لتناول الطعام وغير ذلك من المناسـبات اليومية ولما كانت هذه الجماعات صغيرة الحجم ، فقد أدى ذلك الى أن يكون كل فرد فيها تحت رقابة جيرانه وأن يبرز بوضوح أى انحراف عن الاتجاهات العامة ، وكانت تعمل الجماعة على عدم تشجيعه . وقد ابتدع البرفكشنستس ، وهم جماعة فريدة من عدة وجوه ، نظامـا « للنقد » للعناية بمسألة الانحراف ففى كل يوم أحد كانوا يعقدون جلسات لنقد اخوانهم ، حيث كانت عيوبهم الخلقية والسلوكية تعالج بكل أمانة وفى العلانية [2] . وقد رأى قادة هذه الجماعة أن هذه الطريقة أفضل الوسائل لغرس المعتقدات والأفكار المناسـبة لأفرادها ولتقوية التماسـك بينهم

---

(١) نوقشت بعض جوانب طرق التربية وأهداف الجماعات « الفاضلة » سواء منها الخيالية أو الحقيقية فى :

G. Masso, *Education in Utopis* (New York, 1927).

(٢) Nodhoff, op. cit., pp. 289-293; see also Calverton, op. cit., pp. 262-266.

كأعضاء مجتمع واحد — والى حد كبير كما تفعل اليوم الجماعات المماثلة ذات النشاط الدينى مثل جماعتى الحركة الأكسفوردية وكنيسة العلم المسيحى .

٣ ـ **الجـزاءات الدينيـة** : وكان الشعور بالمثالية التى لا تضارع فى النظم الاجتماعية مؤيدا فى معظم الجماعات الفاضلة بجزاءات دينية شديدة . كما كانت الرابطة الدينية بوجه عام هى الغالبة على ما عداها من الروابط — وتتلخص فى عقيدة مشتركة بين أفراد الجماعة ، لا يقاسمهم أحد من خارجها فيها . وكانت هذه العقيدة فى بعض الأحيان تقوى بسبب ما يحيط بها من ذكريات الاضطهاد . وفوق ذلك فان هذه العقيدة اقتضت تدينا قويا ، كما هو الحال اليوم عند الهواتيرايتس أو الشيكرز أو المينونيتز . ومن المشكوك فيه كثيرا أن هذه الطاعة العمياء التى تطلبتها هذه الجماعات من أعضائها كان يمكن أن تستمر اذا لم يكن الجزاء الدينى الجامد وراءها . وأكثر من هذا فان قواعد السلوك الدينى الشاملة التى يساندها جزاء قوى من عالم ما فوق الطبيعة [1] ، كانت بمثابة مركز يلتقى عنده التوافق الاجتماعى لشخصيات الجماعة [2] . وبعض الجماعات مثل الايكاريين الذين هاجروا من فرنسا الى الينوى [3]

(١) اى جزاء روحى الهى أو سحرى . — المترجم

(٢) Deets, op. cit., p. 21

(٣) يحتمل وجود خطأ مطبعى هنا فى الطبعة الأمريكية لأن الايكاريين ليسوا فرنسيين بل يونانيين ينسبون الى جزيرة ايكاريا فى الجنوب الغربى لساموس بحر ايجة . انظر :

Ch. Dezobry et Th. Bachelet, "*Dictionnaire Général de Biographie et d'Histoire, de Mythologie, de Géographie Ancienne et Moderne Comparée* » Paris, Librairie Ch, Deleagrave, septième édition revue, 1876, première partie, p. 1368.

وربما كان خطأ المطبعة ناشئا عن التقارب فى الشكل وعدد الحروف بين كلمتى Greece, France الا اذا كان الايكاريون قد هاجروا أولا الى فرنسا ومنها الى الولايات المتحدة ويبدو أن هذا مستبعد ، أو على الأقل ليس لدى ما يثبته . — المترجم

وغيرها من الولايات كانوا ، على التحقيق ، بغير ديانة يعتنقونها . ولكن الزمن القصير نسبيا الذى قضوه فى أمريكا ربما كان سببه أنه لم تكن لهم عقيدة مقدسة يلتفون حولها . وقد لوحظ أن الشيوعية ذاتها كانت « أشبه بالدين » لهؤلاء الناس ، غير أنه اتضح أن المذهب الاقتصادى الذى اتبعوه غير كاف لافتقارهم الى قيادة حازمة . ومهما يكن من أمر فقد كتب البقاء لواحد فقط من كل ٣٣ نظاما اجتماعيا لا دينيا ، وذلك لمدة لم تطل عن ٢٥ عاما ، بينما ظل باقيا واحد من اثنين من المجتمعات المستندة الى نظم دينية لمدة ٢٥ عاما أو أكثر [١] .

وبهذا الخصوص تشير الى بروك فارم الأكثر تميزا من بين التجارب الحقلية على الجماعات الأمريكية ، تحتل مكانا فريدا . وذلك لأن دياناتها كانت امتدادا لمذهب التوحيد ولفلسفة امرسون المتحررة بشأن استحالة ادراكنا للأشياء بمجرد تجربتنا ، كما كانت اقتصادياتها على نسق تعاونى هادىء ولكنه ليس شيوعيا بأى حال من الأحوال . وكان من بين أعضاء هذه الجماعة العاملين على شد أزرها كثيرون من قادة الفكر ممن عاشوا فى منتصف القرن التاسع عشر . والآداب العامة التى سادت فيها ، بما فى ذلك مستويات الآداب المتعلقة بالسلوك الجنسى ، هى بعينهـا تلك المستويات الفاضلة السائدة فى اقليم نيوانجلاند . أما ما انتهت اليه بروك فارم من اخفاق مفجع لزعيمها الكبير جورج ريبلى، فمن الصعب أن يكون مرده الى ثقافتها الفريدة والمنعزلة عن غيرها من الثقافات [٢] .

٤ ــ **ضبط العلاقات الجنسية** : فيما عدا ما منيت به جماعة بروك فارم من مصـير محزن ، ارتأت كل هذه الجماعات أن تحتـاط أشـد الاحتياط لضبط العلاقات الجنسية ، اذ فى هذه العلاقات تكمن أشـد المهالك التى يصح أن تهدد نظمها الشيوعية . وقد كان من الممكن اذا لم

(١) Ibid. pp. 23 ff.

(٢) See, for example, Calverton, op. cit., Chap. XIII.

تكن العلاقات الجنسية قد خضعت للسيطرة الكاملة فى هذه الجماعات ، أن تتسرب اليها روح الفردية نتيجة لمظاهر الغيرة والمصالح المتعارضة التى تسببها المسألة الجنسية .وفوق ذلك فان الأسرة كانت خطرا على التضامن الشيوعى بسبب ممتلكاتها الخاصة . ولا تزال الأسرة حتى اليـــوم فى جماعات فاصلة مثل الهواتيراتيس المنفــذ الذى منــه يمــكن أن تغزو الرأسمالية الشـيوعية [1] . وان ما يبدو من مقــــاومة لمظاهر سيطرة الجماعة ، دفاعا عن حياة أعضائها الخاصة ، ليتولد فى أول الأمر فى داخل الأسرة ، وكثيرا ما تبعث عليه مجرد علاقة المرأة بالرجل .

ويترتب على ذلك أننا نجد أحيانا احتياطات منوعة وفى بعض الأحيان عجيبة قد اتخذت فى هذه الجماعة . فقد كان هنالك بصفة عامة نهى تام عن كل عادة مستحدثة . وكانت ملابس الناس فى داخل الجماعة بسيطة ، وفى أغلب الأحيان لم تكن لتتجاوز شكلا واحدا كاللباس الرسمى . ويبدو أن الاتجاه فى امانا وكذلك بين الشيكرز كان نحو زى موحد للنساء يخفى معالم جمالهن ويجعلهن أقل جاذبيـــة لعين الرجال .. وفى أونيــدا تبدو بالتأكيد فى غاية القبح ما يرتدين من ملابس قصيرة وبنطلونات ومظهر شعرهن المقصوص وان كان هــذا كله مناسبا من الناحية العملية [2] . وبعض المجتمعات مثل الرابستس والشـيكرز كانت ضد الزواج بمعنى أن العزوبة كانت تسودها . وكان أفراد المجتمع الثانى منهما يعيشون معا فى جماعات متحابة بدلا من الأسر مع الفصل بين الجنسين فى تناول الطعام وعدم الاذن لهما بالالتقاء الا تحت رقابة شديدة وبشروط قاسية . وأما عن جماعة الأمانيتس فرغم كونها أباحت الزواج نجدهـــا اهتمت اهتماما كبيرا بأن تجعل الجنسين دائما فى حالة انفصـــال تام . ففى أيام الأحد بعد الظهر كان الأولاد يسمح لهم بالمشى فى الحقول وكذلك البنات

(١) Deets, op. cit., Chap. VII.

(٢) Nordhoff, op. cit., p. 398.

الا أنهن لم يكن يؤذن لهن الا بالسير فى اتجاه مضاد لاتجاه الأولاد . واذا أدت هذه النظم المشددة رغم ذلك الى وقوع زواج فان حفلته تعالج بدرجة من الشعائر الوقورة تحولها الى يوم من أيام الرعب بدلا من أن تجعل منها مناسبة للفرح الشامل [1] .

وحتى الجماعة التى بدت كأنما كانت تناقض هذا المبدأ الدقيق الخاص بضبط المسألة الجنسية ، وهى جماعة البرفكشنتس فى أونيدا ، فانها كانت فى واقع الأمر تسعى الى مسلك مضاد لتوقى الخطر الذى تحدد به الجنسيات التضامن الشيوعى . فان هذا المجتمع غير العادى ، مع ما كان يسوده من اباحية واقعية أو « شيوعية جنسية » ، كان يسعى الى أن يخمد بكل وسيلة ممكنة أية علاقة خاصة أو أى ولع مفرط بين رجل وامرأة . لقد كان البرفكشنستس ينظرون الى مثل هذه العلاقة نظرتهم الى « حب النفس » ، لأنها كانت ملتقى مصالح تتعارض مع فكرة محو الملكية الخاصة التى على أساسها أقيمت دعائم هذا المجتمع . وزيادة على ذلك فان الآداب الخاصة بالمسائل الجنسية كانت تساندها المذاهب الدينية التى صاغها جون هـ . نويز زعيم هذه الجماعة [2] .

الجماعات الفاضلة والفردية ـ بعض النتائج : ربما خطر للقارىء أن يتساءل عن الباعث الذى جعلنا نقوم بهذه الجولة فى هذه التجارب المتعلقة بالجماعات الصغيرة ، وهى كما رأينا تجارب لا تمثل بأى حال النظام الاجتماعى الأكبر حجما ؟ ويتلخص بالطبع أحد الأجوبة على هذا التساؤل بأن هذه المجتمعات الصغيرة تكشف لنا بطريقة نيرة كل ما يتصل بالضبط الاجتماعى من قواعد وجزاءات ووسائل . ويمكن أن نجيب كذلك بأن هذه الجماعات تؤكد حقيقة الصعوبات التى تنشأ عن اخضاع كل أو معظم

---

(١) Ibid., p. 56. See also Hindus, op. cit., pp. 59-60.

(٢) See, for example, Calverton, op. cit., pp. 267-280; and Noyes, op. cit., pp. 8-11, 129-131.

النشاط الاجتماعى للتنظيم المبالغ فيه ولهـذه النقطة آثار هامة بالنسبة للمجتمع الكبير .

هذه الجماعات كلها (ربما فيما عدا بورك فارم غير العادية) كانت تنظر الى توكيد الفردية باعتبار أنه سعى « لتوكيد النفس » أو « حب النفس » ويتميز الرباط الاجتماعى عندها بسلطة لا مرونة فيها . وكل نوع من الانحراف ذو تأثير خطر على وحدتها . أما الشروط التى ساعدت بوجه عام على تثبيت هـذه الوحدة فيمكن تلخيصها فى التحمس الدينى والقيادة الحازمة وبساطة الحياة والفقر النسبى الذى أدى الى أن يكون الكفاح أو العمل الشاق هو القاعدة . غير أنه لوحظ أنه فى حالة زوال واحد أو أكثر من هذه الشروط ، كانت قوى التفكك تبدأ فى العمـل بشكل ملموس ، فتنمو الخلافات والانشقاقات وتبدو فى الأفق علامات تدل على قرب النهاية . ان النسبة العالية للجماعات الفاضلة التى تمنى بالانهيار وعجز معظمها عن أن توائم بينها وبين الأحوال المتغيرة يظهران أنها لا تدعو أن تكون نظما ذات جانب واحد . فقد توصلت الى التنشئة الاجتماعية على حساب التنشئة الفردية أو الشخصية — وحققت جماعة انسانية على حساب كل فرد من أفراد الانسانية . وكما رأينا (فى الفصل الثالث) ، يعتبر بعض التوافق بين المجتمع وبين الفردية شرطا أوليا لكل نظام اجتماعى يرجى له البقاء ، وهدفا لا سـبيل الى تخلى الأفراد عن السعى اليه .

الفصل الثامن

قواعد السلوك الكبرى

مقدمة : فى قواعد السلوك الاجتماعى ودراستها

تنوع قواعد السلوك والحكم على ثقافات غيرنا بمقاييس ثقافتنا :

كان ولا يزال التنوع الكبير للمعايير الثقافية بين الشعوب المختلفة والزمر المتباينة فى داخل المجتمع الواحد موضع الاهتمام الشديد عند طلاب الحياة الانسانية من الأزمنة القديمة حتى الوقت الحاضر . ولقد نقل الينا الاثنوغرافيون خلال سنوات عديدة أساليب حياة مختلف الشعوب البدائية حتى اننا قد أصبحت لدينا اليوم كتابات مستفيضة تكشف لنا عن مجموعة ضخمة من قواعد السلوك الاجتماعى عرفناها من طريق مظاهر تصرف الأفراد فى المجتمع . وقد قارن الدارسون للحياة المعاصرة بنفس الطريقة قواعد السلوك فى داخل الطبقات الاجتماعية المختلفة وبين الجماعات البشرية والزمر المهنية وما على شاكلتها وكذلك قواعد سلوك المجتمعات المختلفة . وان تنوع مظاهر السلوك العام والآداب العامة وما يساندها من جزاءات ، كبير جدا لدرجة أن مجرد تصنيف هذه المظاهر على أى أساس من أسس التصنيف يعتبر عملا عسيرا . واذا نحن تأملنا طرق علم الاقتصاد ، واجراءات العدالة والعلاقات الجنسية ونظم الأسرة والعناية بالبدن والاعتقاد والتعبد ، وأساليب الحكم ، وكيفية اعداد الطعام واستهلاكه ، والتربية واستخدام

الآلات بكل أنواعها ، ألفينــا كل أولئــك لا يزيد عن كونه بعض كيفيات سلوك الانسان التي حددتها قواعد عامة لا يستأثر بها فريق دون فريق وانما هي موجودة عند معظم شعوب العالم ، ووجدنا بينها تنوعا كثيرا في هذه الأمور يجعلنا على استعداد لأن تتعقل ما يبـــدى الباحث الاثنوغرافي من اهتمام نحو وصفها ومقارنتها[1] . وقابلية الثقافة للتنوع كما تبدو آثارها في تباين مظاهر السلوك العام وقواعد السلوك الاجتماعي تعلمنا درسا هاما ، كما رأينا في فصل متقدم في هذا الكتاب . ففي أحد المجتمعات تحدد قواعد السلوك شكل الزواج بأن يكون مونوجاميـــا (زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة) وفي مجتمع آخر تجعله أيضا بوليجاميا (الزواج المتعدد في أحد طرفيه أي المتعدد الأزواج أو الزوجات). وفي أحد المجتمعات يعطى الناس روحا لكل شيء حتى الجماد وهذا هو المذهب الحيوى ، وفي مجتمع آخر لا يعرف أعضاؤه عن عالم ما فوق الطبيعة الا شيئا يسيرا جدا . وكذلك في أحد المجتمعات يعتبر التقتير فضيلة وفي مجتمع آخر رذيلة . وكون الأنثى خلقت أنثى يجعلها في مجتمع ما ذات مكانة وفي مجتمع آخر تابعة للرجل وهكذا . هذه الفروق جميعا لا تؤكد

---

(١) من بين الدراسات العديدة التي اجريت على شعوب بدائية معينة وآدابها العامة نورد ما يأتي :

Crow Indians by R.H. Lowise, the Eskima by K. Rasmussen and V. Stefansson, the Melanesians and Polynesians by B. Malinowski and M. Mead, the Australian Natives by W.L. Warner, the Andaman Islanders by A.R. Radcliffe-Brown, the Alorese by Cora Du Bois, the Tanala of Madagascar by R. Linton, and the California Indians by A.L. Kroeber.

وتوجد مادة متوافرة في هذه الموضوعات في دراسات عامة ، مثل :

W.I. Thomas, *Primitive Behavior* (New York, 1937); A.A. Goldenweiser, *Anthropology, An Introduction to Primitive Culture* (New York, 1937); and G.P. Murdock, *Our Primitive Contemporaries* (New York, 1926).

فقط الحاجة الى النظر الى الظواهر الاجتماعية من حيث صلتها بمحيطها الثقافى ، وانما هى تحذرنا كذلك من محاولتنا تقييم أساليب حياة غيرنا من الناس بالقيم التى حددتها قواعدنا الاجتماعية . وهذا النوع من التقييم الذى يجعلنا نفترض أن مجتمعنا أو أساليبنا أو معتقداتنا أعلى شأنا مما عداها يسمى فى الاصطلاح العلمى اثنوسنترزم ، وهو يميز الى حد ما مواقف الشعوب المختلفة ازاء الغرباء أو غير المواطنين . ومطلوب دائما ممن يرغب فى التخصص فى دراسة الحياة الاجتماعية أن يتيقظ باستمرار حتى لا ينحرف بهذه الاثنوسنترزم عند تحليله أساليب الحياة فى المجتمعات المختلفة وعليه أن يراعى الى هذا الحد مبدأ نسبية الثقافة فى تحقيقاته السوسيولوجية . وكما سنرى الآن فان هذا العمل شاق بصفة خاصة على من يبحث فى قواعد السلوك الاجتماعى .

اختلاف السلوك وأنواعه فى المجتمعات المتقدمة : على عكس ما نرى فى المجتمع المتحضر نجد أن بعض الشعوب مثل الكواكيوتل والالوريز وسكان جزيرة دوبو أو تلك الجماعات الريفية شبه المنعزلة القائمة فى داخل الصين أو كويبك الكندية لديها قواعد سلوك بسيطة تنظم الحياة الجمعية . ويحترمها كل أفراد الجماعة كما ينظرون اليها باعتبارها ملزمة وسليمة ، مهما انحرف عنها بعض الأفراد . وبينما يمكن التمييز بين الجوانب المختلفة لهذه القواعد ، مثل قواعد مقاسمة الأشياء وقواعد الاشتراك فى تناول الطعام أو آداب السلوك الجنسى أو العبادة ، وبينما تختلف الجزاءات الملزمة حسب نوع السلوك فلا شىء من القواعد فى هذه المجتمعات يرقى لدرجة التعقيد الذى يميز قواعد المجتمع الحديث . والرجل الحديث كما رأينا يميز بين أنواع من أنماط قواعد السلوك وأنماط الجزاءات . ويحب بعضها ولكنه لا يميل الى بعضها الآخر ، ثم يعمل عامدا على تغيير ما لا يحب منها ، مختارا من بينها ما يراه أنفع

له خلال قيامه بدوره كعضو فى المجتمع . وبخلاف مهمـة الاثنوغرافى الوصفية والمقارنة تقوم هنا بدور تحليلى تهدف من طريقـه الى تمييز القواعد الكبرى العريضة لأنماط قواعد السلوك الاجتماعى ، وتوضيح وظائفها (أو علاقاتها العلـّية بوجه عام فى المجتمع المتقدم المعقد [1]) .

ان فى المجتمع الحديث قواعد سلوكية لكل تنظيم اجتماعى ابتداء من الدولة بقوانينها الجبرية ونظامها الملزم حتى أصغر الأندية المحلية وشرذمة الأصدقاء أو جماعة اللعب . وهناك قواعـد سلوكية أخـرى مؤيدة لا بالهيئات أو الجمعيات وانما بالمجتمع من حيث هو كذلك . وأخـيرا هناك مجموعة قواعد مرتبطة بمقاييس السلوك ، وهى وان كانت أكثر ما تكون ناتجة عما أقر المجتمع من آداب عامة ، الا أنها تحتاج آخـر الأمر الى أن يؤيدها الفرد بنفسه . أما كيف يواجه الفرد كعضو فى المجتمع كل هذه القواعد المتضاربة فيما بينها أحيانا فسيكون هذا موضـوع الفصل التالى . ان الفصل الحالى معنى بالبحث فى كيفية تمييز القواعد المشار اليها بعضها عن بعض .

وسنتناول خمسة نماذج لقواعد كبرى هى القواعد الدينية والخلقية والقانونيـة وقواعد العادة الجمعية والعادة المستحدثة . وبالاضافة الى هذه النماذج توجد نماذج فرعية متعددة كما سنرى . أما نماذج القواعد الكبرى فاتصالها المتبادل فيما بينها وثيق جدا اذا ما نظرنا اليها من ناحية

---

(١) نحيل القارىء الى مناقشات فى هذا الموضوع حول قصور المادة الانثروبولوجية فى حالة استخدامها لأغراض الدراسـة السوسيولوجية ، يجـدها فى :

A.S. Tomars, "Some problems in the Sociologist's Use of Anthropology," *American Sociological Review*, VIII (1943), 625-634; R. Bierstedt, "The Limitations of Anthropological Methods in Sociology," *American Journal of Sociology*, LIV (1948), 22-30.

تأثيرها على حياة الأفراد ، أو من ناحية الجزاءات التى تعمل على تقويتها ومن أجل ذلك يغفل التمييز بين هذه النماذج فى كثير من الأحيان . وسنضع للدراسة جنبا الى جنب هذه القواعد السلوكية الأكثر تعرضا للخلط فيما بينها أو الشديدة التوقف كل منها على الأخرى ، أو المتصلة فيما بينها اتصالا قويا لدرجة يصبح معها تمييز احداها عن غيرها ذا دلالة خاصة . وهذا هو السبب الذى من أجله نجمع معا الدين ومقاييس السلوك، والعادة الجمعية والقانون ، أو العادة الجمعية والعادة المستحدثة . ويمثل البيان التوضيحى رقم ٥ أنواع قواعد السلوك كما يرمز الى العلاقة الوثيقة القائمة بين كل نوعين مما جمعنا معا من قواعد السلوك ، ثم بين قواعد السلوك والجزاءات . وهذا البيان بالضرورة تبسيط زائد لجانب شديد التعقيد من جوانب الحياة الاجتماعية ، يحتاج الى المناقشة التالية فى الأقسام الباقية من هذا الفصل .

الدين ومقاييس السلوك

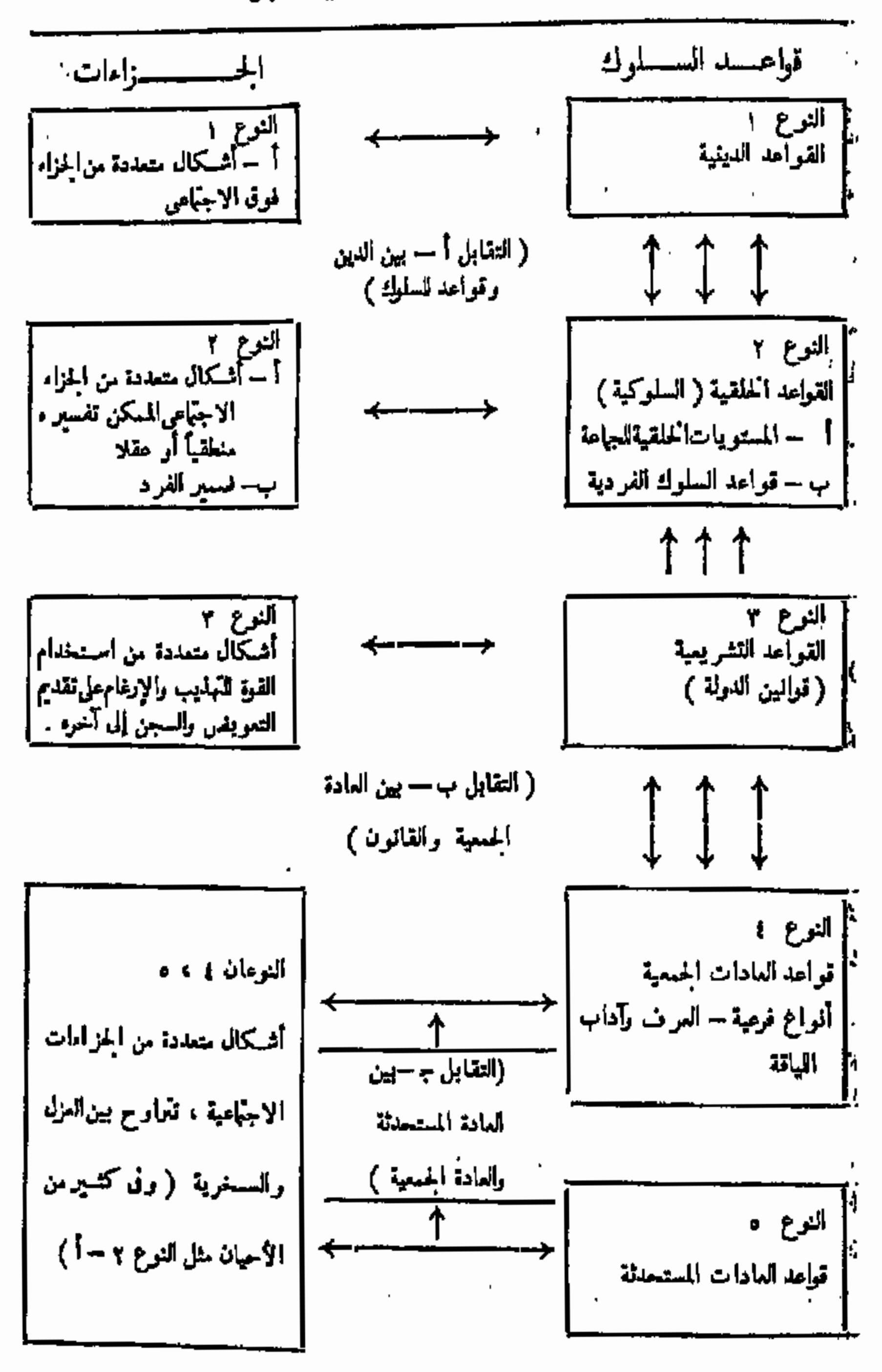
التمييز بين قواعد الدين وقواعد السلوك : لا شك أن بين الدين وقواعد السلوك اتصالا وثيقا . واذا ما رغبنا فى الفصل بينهما فلا بد أن يكون هذا الفصل من حيث السلطة والجزاء المرتبطين بمقتضيات كل منهما لا من حيث مضمون القواعد نفسها (لاحظ التقابل المرموز اليه بحرفه أ فى البيان التوضيحى رقم ٥) فالدين يفرض قواعد للسلوك وبهذه الكيفية يتجه نحو التوحيد بينها وبين قواعد الأخلاق التى لا تخرج عن كونها قواعد سلوكية كذلك . ومن جهة أخرى فان بعض العبادات الخلقية ، مثل عقيدة أوجست كولت بشأن «المذهب الوضعى» أو جمعية الثقافة الخلقية (وهى جمعية معاصرة) ، تدعى أنها دينية أيضا ، والى جانب ذلك يوجد ما يمكن أن نسميه «الديانات البديلة» حيث ترتبط الخصائص

العاطفية التى تصاحب أداء الواجبات الدينية بعناصر لا دينية بل مضادة للدين كما هى الحال فى بعض تعبيرات الشيوعية أو فى أى « دستور اجتماعى » غير ذلك . وأولئك الذين لا يعتقدون فى أى دين لديهم قواعدهم الخلقية أو السلوكية رغم افتقارهم للدين . وفى الحق أن اللاأخلاق ظاهرة نادرة الوجود . وعلى ذلك فالتمييز بين الدين وقواعد السلوك ذات الأساس الأخلاقى مسألة ضرورية .

١ - **الجزاء الدينى فوق الاجتماعى** : الدين كما نفهم هذا الاصطلاح يتضمن علاقة لا تقوم بين رجل ورجل آخر فحسب ، ولكن تقوم كذلك بين الانسان وقوة ما أعلى منه . واذن فالدين يفرض جزاء يمكن أن نصفه بأنه فوق اجتماعى ، كأن يكون خوفا من شبح أو عفريت بدائى أو من « غضب الله » كما نردد الآن أو من عقوبات نصطلى بها بعد الموت فى نار جهنم أو الاحساس بأن نكون « على غير وفاق مع الله » اذا عصينا أحكامه . وبالمثل كل أمر أو نهى يعتبر جزءا من قاعدة دينية سلوكية اذا صدر من سلطة تقوم على أسس دينية ، مثل شراح العقائد ووكلاء الله أو أوليائه . والدين يعين أيضا علاقة الانسان بالانسان ، ولكن من حيث ان جزاء هذا التعيين أو الخروج عليه لا يعدو أن يكون جزاء فوق الاجتماعى . وبعبارة أخرى ان القواعد الدينية للسلوك دينية وليست خلقية . وغرضها تحقيق ما شاء الله للانسان ، وهذا شىء يختلف عما يشاء الانسان لنفسه والدين يعتبر الكنيسة وسيلة لبلوغ هذه «الغاية الالهية».

٢ - **الجزاء الاجتماعى لقواعد السلوك والدين والعلاقات الاجتماعية** : لا يمكن أن توصف مجموعة من القواعد بأنها « سلوكية » أو خلقية الا اذا كان مفهوما أن جزاء الخروج عليها مترتب على فكرة ما سيحدث من نتائج اجتماعية سيئة ناشئة مباشرة عن السلوك الذى تمنعه هذه القواعد : وهنا نواجه تمييزا بين فكرة «الخطيئة» فى الدين وبين فكرة

البيان التوضيحى رقم ٥ — العلاقات المتبادلة الغالبة بين القواعد الاجتماعية الكبرى للسلوك وبين الجزاءات



« الخطأ » فى الأخلاق . والفكرتان متصلتان أو مرتبطة احداهما بالأخرى عند الكثيرين من الناس . غير أننا لا يمكننا أن نعرف الفرق بين الدين وبين قواعد السلوك الا اذا توصلنا الى ما يميز أحدهما عن الآخر . ومع ذلك فان أحدهما قد يلزم لتأييد الآخر ، وبعض الكتاب مثل بنيامين كد أو الفيلسوف المعاصر ك.س. ليويس يرون أن قاعدة السلوك الخلقى لا تقوى على البقاء بدون تأييد من الدين [1] . وهناك مفكرون آخرون مثل هربرت سبنسر وتوماس هكسلى وكثيرون من العلماء والمحدثين المتخصصين فى « علم الحيوان » أو « علم طبيعة الانسان » يذهبون الى أن قاعدة السلوك الخلقى لا يمكن أن تكون خالصة ومستجيبة تماما لحاجات المجتمع المتغير ما لم تنفصل عن الجزاءات الخاصة بالدين [2] .

---

(١) B. Kidd, *Social Evolution* (new ed., New York, 1920), C.S. Lewis, *The Case for Christianity* (New York, 1944).

وللدراسة الشاملة لهذه المشكلة وما يتصل بها من مشكلات انظر :

J. Wach, *Sociology of Religion* (Chicago, 1944), Chap. III.

وللتوسع فى التمييز بين الدين والمقاييس الخلقية للسلوك انظر المرجع الآتى وقد وضعه باحث ممتاز فى الدين : R. Otto, *Das Heilige* (Geotha, 1927).

ــ المؤلفان

ويمكن أن نضيف المرجع الهام الآتى فى نفس الموضوع :

H.S. Maine, *Ancient Law*, London, John Murray, new edition, with Sir Frederick Pollock's Notes, March 1930.

ــ المترجم

(٢) *Spencer, Principles of Sociology*, III, Chap. XIV, Huxley, Evolution and Ethics (New York, 1905).

ولمناقشة آراء الممثلين المختلفين المحدثين لوجهات نظر المتخصصين فى الحيوان وطبيعة الانسان انظر : E.A. Burtt, *Types of Religious Philosophy* (New York, 1930), Chaps. IX and X, and for two pertinent essays by students of naturalism, see chaps. II and XV by S.P. Lamprecht and J.H. Randall, Jr., in *Naturalism and the Human Spirit* (Y.H. Krikorian, ed., New York, 1944).

ومن المهم بهذه المناسبة أن ممثلى هاتين المدرستين قد وصفوا الجزاء الخلقى وصفا مضادا للجزاء الدينى بقولهم انه جزاء نابع من العقل .

ومهما كان مصدر اشتقاق المعايير الاجتماعية ، سواء من وحى الآلهة وهذا أكثر شيوعا ، أو حكمة الماضى الموروثة ، أو تعاليم الحاضر ، فانها تكشف عن الآراء السائدة فى المجتمع بشأن العلاقات الاجتماعية وأساليب التعايش المفضلة بين الناس . وأهم الفروق القائمة بين المعايير الدينيــة وغيرها من المعايير ومن بينها قواعد السلوك الخلقى بالمعنى الدقيق هو أن المعايير الدينية تعنى بالوضع الاجتماعى أكبر عناية بطريقة غير مباشرة ، وأن قاعدة السلوك المنبثقة من عقيدة دينية تعبر عن وجهة هذا السلوك والموقف الذى ينبغى أن يقفه الفرد ازاء أية حقيقة واقعة خارجة عن نطاق الحياة الانسانية وأغراضها . انها تسعى لاقامة علاقات اجتماعية وترتبط فيها الأغراض الانسانية بارادة مفترض وجودها لقوى فوق بشرية أو تخضع لها وينظر لهذه القوى باعتبار أنها رحيمة أو غير رحيمة أو غير مكترثة اطلاقا بالانسانية .

٣ ــ مشــــكلة التوفيق بين الحاجات الاجتماعية وقواعد الســـلوك الدينية : لما كان الانسان وعلى الأخص فى العصور والأوساط السابقة على الحركة العلمية ، قد نظر الى قوى ما فوق الطبيعة نظرة الخائف الجاهل المسيء لتفسير ظواهر الطبيعة فان بعض قواعد السلوك التى فرضها الدين عليه لم تكن أبدا انعكاسا صادقا لحاجاته الاجتماعية بل انها فى الأغلب قد انحرفت بالعلاقات الاجتماعية ورحبت أو أوحت بنوع من السلوك مقوض للمصالح الاجتماعية . والى جانب الأمثلة البدائية القديمة لهذه القواعد مثل النهى عن تناول بعض الأطعمة المفيدة ، والضحايا الآدمية ، والبغاء الدينى ، والتشويهات البدنية فى طقوس التــأهل للرجــولة ، والخرافات الداعية لوصف معتنقيها بالبلاهة ، يمكن أن نضيف النواهى

الدينية الحديثة كتلك التى تحرم تنظيم النسل بالنسبة للمتزوجين أو تحول دون الالتجاء الى العناية الطبية السليمة فى حالات المرض والاصابة[1].
وغالبا ما تبرز قواعد السلوك الدينى كوسائل فعالة للضبط الاجتماعى للمحافظة على المصالح المتعلقة بالنظام العام مما قد يصيبه من عمليات التغير المطرد ، مثلما حدث عندما صارت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية حصنا يحتمى به استبداد القياصرة الروس[2] . ومع ذلك فان الذى يحدث عند تفسير قواعد السلوك الدينى والتبشير بها أن تجد المثل العليا الاجتماعية بالضرورة منفذا فى هذه العملية . ولا بد أن يجرى تعديل جزئى فى القواعد لخدمة الحاجات الاجتماعية بالرغم من أن تحيز الشراح أو المطببين [3] ، أو رجال الدين قد يعطل نمو انتشار هـذه القواعد : وعلى أية حال لايمكن أن تكون المصالحة بين قواعد السلوك الدينى والحاجات الاجتماعية كاملة ما دامت هذه القواعد ترتكز فى صميم اعتقاد أصحابها على مفهومات باطلة لقوانين الطبيعة والمجتمع .

والأوامر المتضمنة فى قواعد دينية مثل الوصايا العشر يصح أن تكون مستوحاة من اعتبارات اجتماعية أكثر مما يكون مبعثها دينيا ، اذ أنه فى المرحلة التكوينية للدين يكون من السهل جعل «كلمة الله» تعبيرا للشعور بحاجة اجتماعية . ولكن يبقى واضحا على الدوام الفارق بين هـذين

---

(١) يشير المؤلفان هنا الى الحركة المسيحية المعروفة بالعلم المسيحى وترمى الى مقاومة الأمراض دون الاستعانة بالطبيب وذلك بالتأثير العقلى الذى يحدثه فى نفس المريض ايمانه الحق بالمسيحية . — **المترجم**

(٢) أنظر أمثلة أخرى عديدة Wach, op. cit., Chap. VI . وسنعالج هذه المشاكل بتوسع فى الفصل العشرين فيما بعد .

(٣) المطببون هم المشتغلون بعلاج المرض فى المجتمعات البدائية بالسحر والشعوذة ويرمز اليهم فى المراجع الانجليزية بـ Medicine men وأما الأطباء أو مساعدوهم من المؤهلين علميا لهذا العمل فهم الأطباء medical men .
— **المترجم**

النوعين من الأوامر . فالقواعد تكون دينية — بصرف النظر عما اذا كانت الأوامر التى تتضمنها تتعلق بصلة الفرد بالله ، كما هى الحال فى الوصايا الأربع الأولى ، أو بصلة الفرد بالفرد كما نرى فى الوصايا الست الأخيرة — وعندما يتمثل مصدر القواعد فى صورة سلطة الهية ويكون جزاؤها فوق الطبيعة ، أو عندما توقع باسم الدين العقوبة الناجمة عن مخالفتها. والقواعد تكون خلقية عندما تشيع مستويات للسلوك يقوم تعليلها الكافى مباشرة على التفسير الانسانى للخير والشر .

٤ ـ **مسألة الاولوية :** ناقش كتاب كثيرون موضوع أى القواعد كان أسبق فى الوجود وأيها كان مستمدا من غيره : وقد رأى البعض مثل أوجست كونت ، فى بيانه عن تطور البشرية من الحالة الدينية الى الحالة الخلقية أو « الوضعية » أن الدين كان منبت مقاييس السلوك ، ورأى آخرون مثل فرديناند تونيس واميل دوركايم أن الدين نشأ كانطلاق أو تقديس للأفكار الاجتماعية والخلقية وكان من مذهب تونيس أن الآداب العامة فى مجتمع ما أخذ تأثيرها يقوى تدريجيا بالجزاء الدينى ، ويكسب من طريق التقاليد المرعية وسلطة الكبار صفة التوقير والاحترام المشوب بالرهبة ، مما أدى من جهة الى عبادة الأسلاف ، ومن جهة أخرى الى الجزاء فوق الاجتماعى لأساليب الحياة المقررة . وقد اعتبر دوركايم الأفكار الدينية ناشئة عن أوضاع اجتماعية ، كما اعتبر الحياة الدينية « التعبير المركز للحياة الجمعية بكل مظاهرها » [1] .

ان التميز بين الدين ومقاييس السلوك نشأ فى خلال التطور الاجتماعى. وكما سنرى فيما بعد لا يمكننا القول بأن أيا من القواعد الدينية أو القواعد الخلقية قد سبق الآخر فى فرض سلطانه . ويضم الدين عناصر

(١) See Tonnies, Die Sitte, and Durkheim, *Elementary Forms of the Religious Life* (J.W. Swaine, tr., New York, 1916).

مشتقة من التفكير الاجتماعى والخلقى . والأخير بدوره قد تأثر تأثرا واضحا بالمفهومات الدينية . وقد خفى على البدائيين الى حد كبير أن يميزوا بين هذه العناصر فى نظرتهم للحياة كما قد خفى ذلك جزئيا على من لم يحظوا الا بقسط قليل من التعلم فى المجتمع المتحضر . والمعروف أن هربرت سبنسر ظن أن الأشكال الأولية للدين لم تكن تشتمل على العنصر الخلقى ، بل انه أشار الى أن هذه الأشكال قصدت مصالحة الأرواح الشريرة لا الخيرة ، وأنها كانت تتصف بما كانت تفرضه من واجبات قاسية وفظيعة [1] . الا أننا نرى أن هذه الحالة (التى لا تؤيدها دائما الشواهد فى الشعوب البدائية) لا تثبت هذه النقطة اذ أن القواعد الخلقية نفسها قد تنحرف أيضا وتفرض علينا من المطالب ما يبدو فظيعا كذلك . ولا تزيد مقاييس السلوك فى القبيلة البدائية عن مقاييس السلوك عند سبنسر الا بقدر ما تزيد دياناتها على مفهوم الدين عند هذا الفيلسوف . وقد يكون من الأصح أن نقول ان الديانات البدائية قد احتوت — كحل لهذه المشكلة التى نحن بصددها — على عناصر دينية وخلقية وغير هذه من العناصر [2] .

مظاهر التنازع بين الدين ومقاييس السلوك : منذ أن فرق الانسان بين قواعد السلوك الدينية والخلقية نجد أن هذه القواعد تؤثر بعضها فى بعض تأثيرا كبيرا . فان مقاييس السلوك ، مثل تعاليمها المتصلة بواجبات الخضوع والطاعة والتوقير لكبار السن ، مهدت الطريق لدوام بقاء

---

(١) Spencer, op. cit., III, 152

(٢) نعتقد ان هذه النقطة قد استوفيت بحثا فى :

H.S. Maine, Ancient Law (with Introduction and Notes by F. Pollock) London John Murray, new edition, March 1930).

— المترجم

المعتقدات الدينيـة . وقد قوت القواعد الدينية بجزاءاتها فوق الطبيعية مقاييس السلوك السائدة فى المجتمع . الا أن التوازن بين ما تفرض جميعا من ضبط اجتماعى مشترك تعرض لكثير من الاضطراب .

١ ـ مبدأ الجمود الدينى او المحافظة الدينية وما سجل التاريخ من مظاهر الانسجام : ان القواعد الدينية — وهى أشد هـذه القواعد ميلا الى المحافظة — أخذت تتنازع من حين لآخر مع ما فرضته الحـاجات الاجتماعية المتغيرة من توضيحات وتبريرات خلقية . ولما كانت القاعدة الخلقية محمية بجزاءات تسـتند الى « سلطة عليا » فاننا نرى أنها قد هددت القـدرة الذاتية على الحكم ، وهى الشرط الأساسى للأخلاقيـة المستنيرة عند كبار السن . يؤيد ذلك أن الديانات الأكثر ميلا للمحافظة قاومت وما تزال تقاوم كل مستحدث فى التفكير الخلقى والتطبيقـات العلمية فى ميدان الحياة الاجتماعية . فهى قد عارضت مثلا البحث فى الحقائق المتصلة بالأصول البيولوجية للانسـان والتطبيقـات الأولى لاستخدام المخدرات الطبية للمعاونة على صرف الألم والموافقـة على الطلاق حينما يكون الزواج جحيما لا يطاق بسبب اصابة أحد الطرفين بضعف عقلى أو صدور قسوة عنه نحو الطرف الآخر [١] ، ومزاولة تحديد النسل . وفى وقت من الأوقات كانت الساحرات يحرقن باسم الدين كما كانت الحملات العامة على الأمراض التناسلية فى أوقات أخرى تلقى من معارضها على نفس المبدأ — ولسنا فى حاجـة للاطالة فى شرح مظاهر الجمود الدينى وسجلها حافل ومعروف جيدا للجميع [٢] .

---

(١) الكلام هنـا منصب على المسيحية والقسـوة اذا ذكرت فى هـذه المناسبة فالمقصود بها هجران المضجع . — المترجم

(٢) See, for example, J.M. Yinger, *Religion in the Struggle for Power* (Durham, N.C. 1946). Chap. V.

ومع ذلك فان هذه القطيعة بين الدين ومقاييس السلوك قد أخفيت جزئيا وفى كثير من الأحيان عولجت جزئيا كذلك بما بدا من تحولات لاحقة للدين نفسه وظهور عقائد دينية جديدة لمواجهة المطالب الخلقية . وبعبارة أعم يمكن القول ان الدين يسعى لدعم الأخلاقيات المستقرة كما تسعى الأخلاقيات الجديدة لتعديل الدين . ولا بد فى نهاية المطاف وعلى الأخص فى المجتمعات الحديثة حيث يمنع انقسام الآراء فى الدين نفسه من أن يتحكم أحد هذه الآراء فى الآداب العامة وحيث قلت أهمية الجزاء فوق الطبيعى الذى كان فيما مضى أمرا محققا ، نقول لابد فى هذه المجتمعات الحديثة من أن يحدث التوافق النسبى بين الدين والأخلاق وبين الحاجات الاجتماعية .

ومن أهم الأمثلة الحية لتهيؤ الدين حتى يتم انسجامه مع التصورات الخلقية والدينية المتغيرة مثال نمو الديانة البروتستانتية . وهناك كاتب حاضر الذهن فى هذا الموضوع ، هوماكس فيبر دافع فى كتابه «سوسيولوجية الدين » عن نظرة سبق أن نادى بها بعض المؤرخين وكتاب القصة مؤداها أن أخلاقيات مذهب كلفن ، بعكس التعاليم الدينية فى العصر الذى سبقه ، لم تكن متمشية مع نمو الرأسمالية فحسب ، بل كانت كذلك تمهيدا هاما لها ، وذلك لأن الأخلاق البروتستانتية اهتمت أكثر الاهتمام بفضائل الحذر من كثرة الانفاق ، وكبح جماح النفس ، والمسئولية الشخصية ، وخدمة الفرد نفسه وبنفسه ، والعمل المتصل ، وكلها أمور تصادف هوى عند الروح أو النزعة الرأسمالية . وفى الوقت الذى كانت فيه نظرية فيبر عرضة لبعض التعديلات ، نجده وغيره من الكتاب يقدمون أدلة كافية على الصلة الوثيقة بين تقدم البروتستانتية

ونمو الرأسمالية وعلى توافق قواعد السلوك الدينى مع القواعد الخلقية المتغيرة [1] .

٢ ـ الاتجاه « الانسانى » اليوم : حينما تغلب على الدين النزعة العقائدية كما كانت الحال فى الزمن السابق على المسيحية البروتستانتية ، تصادفنا مشكلة هامة تتعلق بالمصالحة بين قواعد السلوك الدينى وقواعد الأخلاق الأكثر عرضة للتغير . واذا لم تكن الرفاهية الاجتماعية أمرا ثانويا فانه ينظر اليها فى ضوء مبدأ فوق اجتماعى . وان التنازع ليبدو واضحا أولا فى التمييز بين « الايمان » (أو اتباع عقيدة معينة) والأعمال (أو السلوك الاجتماعى) ، وثانيا فى النقاش البروتستانتى فيما يتعلق بأهميتها النسبية . ومما هو خليق بالذكر أن المشكلة الدينية تنحصر فى أهميتهما النسبية « عند الله » ومن الدلالات المفيدة لنا فى هذا الصدد « مبادىء التيسير والتسامح والتسهيل والتخلص من الآلام ، مما سمحت به الكنيسة الكاثوليكية مع ما تتصف به من أخلاقيات رسمية فوق طبيعية ، لخدمة جمهرة أتباعها » ، وبهذه الطريقة عملت على التوفيق بين القواعد الدينية المحكمة وروح العصر [2] .

وقد ظهر فى العالم الغربى حيث تسود ديانات كبرى اهتمام كبير فى السنوات الأخيرة « بالأعمال والمشروعات » والأخلاقيات الاجتماعية من ناحية اتجاها واضحا نحو الانحراف عن مقتضيات ما فوق الطبيعة ، أو بعبارة أدق الدين وما قد يستتبعه من تعصب ، نحو اشاعة الأخلاقيات

---

(١) See Weber, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (T. Parsons, tr., New York, 1930). For appraisale of Weber's thesis, see R.H. Tawney's Introduction, ibid., and his *Religion and the Rise of Capitalism* (New York, 1926), and Yinger, op. cit., Chap. 1IV.

(٢) Quoted from the Introduction to John Dewey's *Human Nature and Conduct* (New York, 1922).

الاجتماعية . ولهذا الاتجاه أشكال كثيرة ، فى معظمها بعض عناصر « حب الانسانية « الغالب فى العصر الحديث » . ويرى المشتغلون بالدراسات الانسانية أن الأفكار الدينية الكبرى عند الانسان تتلازم فى كل مكان مع حاجات الناس وقيمهم السائدة التى يستمسكون بها . وبصرف النظر عن أن الله هو الذى خلق الانسان ، فان الأخير يرى من مصلحته أن يكون الله موجودا وأن يتخيله قادرا على كل شىء كلما سعى للحصـول على الخيرات التى تعمل الحياة على أن تيسرها له [1] . وبهـذا المعنى ينزع « المذهب الانسانى » من حيث هو كذلك الى التخلى عن أحكام ما فوق الطبيعة المتعلقة بالخلق ، والجنة والنار ، وما تنطوى عليه النفس من خطيئة ، وما شابه ذلك ، ثم يعمل جاهدا على أن يجمع بين الناس على أساس من قواعد الأخلاق الاجتماعية لا على أساس المذهب الدينى أو الجماعة الدينية أو المعتقدات بوجه عام . وهذا المذهب الانسانى يرحب بوجه عام بالاكتشافات العلمية ، الطبيعى منها والاجتماعى .

٣ ـ الدين المحـدد بالزمرة والاخلاقيـات الاعم : من الممكن أن يحل التنازع القائم بين الدين ومقاييس السلوك اذا كان الدين مستعدا لأن ينأى عن مظاهر الأنانية الشائعة فى كل من القبيلة والأمة ، ولأن يسمح للعلم بأن ينقية من تفسيراته الجامحة للحقائق الواقعة ، وكذلك اذا كان مستعدا لأن ينمو عالميا أو كونيا . وبذا يفقد تحت هذه الظروف قوته القاهرة العنيفة التى يستعين بها على تجميع المؤمنين فى روابط اجتماعية قوية ضد الكافرين الى الحرب والفتح مؤكدا لها « باسم هذه الشارة أو العلامة سوف يكون النصر فى جانبك » . ولو أن الدين أصبح عالمية

---

(1) Burtt, op. cit., p. 376.

(فى ترجمة هذه العبارة بعض التصرف الذى اقتضاه التعبير العربى) ←
ــ المترجم

أو كونيا لصار العامل الداعي الى تماسك المجموع ، وكان له من العظمة والقوة ما يفوق تصور الانسان ، حتى لا يكاد يشعر هذا الا أنه قد اندمج فيه ، وأن حياته المحدودة المدى والغاية لا تعدو أن تكون لحظة فى وجوده الأبدى ، وفى هذه الحالة يتوقف الدين عن أن يفصل شعبا عن شعب آخر ، أو أن يقطع الأوصال فى الشعب الواحد بين الأرثوذكسيين أو شديدى التدين وبين من يعبدون آلهة غريبة . كما يتخلى عن عدم التسامح البغيض الذى تفرضه عقيدة ضيقة الأفق لا تستند الى العقل .

ومن المشاهد أن الديانات الكبرى التى انتشرت [1] فى العالم الغربى وذاعت فى الأزمنة الحديثة ، مثل اليهودية والمسيحية والاسلام [2] ، وعلى الأقل ديانة واحدة شرقية هى الديانة الشنتوية [3] ، قلما كان لها أفق عريض أو دعت الى التسامح [4] . وعلى العكس من ذلك نرى أنها متجهة فى أغلب الأحيان الى تحقيق المصالح القبلية أو الوطنية ، دون تسامح فى ما بينها وفى بعض الأحيان أدى الاختلاف بينهما الى نزاع دموى . وربما كان علينا أن نتعلم كثيرا — كما ذهب فيلسوف حديث [5] — من الفلسفات الدينية الشرقية المتميزة بأنها أكبر مرونة وشمولا مما عداها . والدين الذى يعمل على تنمية الوعى العالمى قد يتمثل فيه بحق أقرب المعانى الى أن يلتقى الناس جميعا بعضهم مع بعض بقوة مجموعة من قواعد السلوك

---

(١) فى الأصل « نشأت » . — المترجم

(٢) مرتبة حسب تاريخ ظهورها . — المترجم

(٣) ديانة يابانية قديمة تقوم على عبادة الأسلاف . — المترجم

(٤) من رأينا ان كلام المؤلفين اكثر انطباقا على أتباع هذه الديانات لا على المثل العليا التى نادت بها الديانات نفسها وعلى الأخص الاسلام والمسيحية . — المترجم

(٥) F.S.C. Northrop, *The Meeting of East and West* (New York, 1946), especially Chaps. IX and X.

الخلقية الخالصة . غير أن هذا الدين لا يكون له فى هذه الحالة أن يملى سلطات أخلاقية ، اذ أنه بعد أن تكون له هذه المنزلة السامية لا يجوز أن يحدد القواعد الخلقية للمناسبات المختلفة فى حياة الانسان . ولا ينتظر أكثر الناس كما كانت الحال فى العصور الوسطى أن تضع الكنيسة قواعد سلوكية دقيقة تمس أخلاقيات الاحتكار والربا . واذا كنا قد لاحظنا قصورا على الديانات المحافظة فى العالم الحديث فان هذا القصور أكثر انطباقا على الديانات الأكثر انفساحا . واذا كانت الاخلاق قد فقدت بذلك محلا لها مهما كان هذا المحل قد ربطها الى عجلة الماضى البعيد ، فهناك على الأقل تعويض بأن أخلاقية أكثر تحررا منبثقة عن ضمير الفرد وممارسة الخير والشر أصبحت من الممكن أن تقوم .

العادة الجمعية والقانون :

معنى القانون والعادة الجمعية : أشرنا فى فصول سابقة الى الصفة الخاصة التى يتمتع بها القانون الذى تسانده الدولة ، وهو القانون الذى تقف من ورائه وحده فى المجتمع الحديث سلطة القوة غير المشروطة . ولجميع مقاييس السلوك الاجتماعى ، على التحقيق ، بعض صفات السلطة كما يبدو فى الجزاءات التى تحميها ، ولكن جزاء القانون فى هذه الناحية فريد فى نوعه . وهذه الحقيقة تمكننا من أن نرسم حدا فاصلا بين القواعد القانونية العامة وقواعد الهيئات أو الروابط التى ينتمى اليها الفرد ، فقواعد هذه الهيئات تنفيذها مشروط بقيام العضوية فيها . والاخلال بها لا يؤدى الى أكثر من فقدان العضوية أو بعض الحقوق أو الامتيازات المتصلة بها . أما قوانين الدولة فقاهرة بأوسع المعانى . ولا يمكن تفادى جزاءاتها بمجرد التضحية بالعضوية ولا ينبغى أن نخلط بين القواعد التى ترتكز على سلطة الدولة وبين تلك

التى تفرضها الأندية والكليات العلمية والكنائس والمؤسسات الاقتصادية. والقانون أو الاصطلاح الذى سنستخدمه فى هذا القسم من الفصل، نقصد به القانون الذى تحميه الدولة وسننظر اليه بسبب امكان تطبيقه تطبيقا عاما وشاملا، باعتبار أنه حافظ للمجتمع نفسه (١).

١ – **الصفة المميزة للقانون :** القانون مجموعة القواعد التى تعترف بها محاكم الدولة وتشرحها وتطبقها على الحالات الجزئية وهو مشتق من مصادر عديدة تشمل العادات الجمعية، وقد أصبح كذلك من اللحظة التى أعدت الدولة فيها نفسها، ممثلة فى محاكمها، للدفاع عنه كأمر يلتزم الجميع طاعته، مواطنون أو مقيمون.

وكثيرا ما أدت التعاريف الناقصة للقانون الى الخلط فى هذا الموضوع. فالقانون ليس مجرد أحكام وضعها المشرع كما أنه ليس النظام الذى يبين أغراض هيئة ما ووسائلها، وليس القانون قاعدة خلقية تأمر بأداء الصواب من الأفعال وتنهى عن ارتكاب ما هو خطأ. والقانون أبعد ما يكون عن أى نوع من القواعد التى يفرض المجتمع طاعتها على الأفراد — وهذا تصور نجده أحيانا عند فقهاء القانون والأنثروبولوجيين (علماء الاجتماع المقارن) على السواء ويرى هؤلاء الكتاب أن قواعد السلوك الاجتماعية أدت فى بعض المجتمعات العمل الذى يقوم به القانون فى الوقت الحاضر، ولذلك فهم يعرفون القانون بحيث تندرج تحته جميع هذه القواعد. وقد أشار أحد المشتغلين بالقانون الى أن الاستخدام المشروع للقوة ظاهرة حديثة نسبيا « اذا ابتعدنا عن النظم المتقدمة كنظم الامبراطورية الرومانية الحديثة والحكومات الغربية الحديثة فاننا لانجد القانون وحده وانما

---

(١) See R.M. MacIver, *The Modern State* Oxford, (1926), Introduction and Chap. VIII, and the same author's The Web of Government (New York, 1947), Chap. IV.

القانون مصحوبا باجراءات رسمية ضخمة كان موجودا من قبل أن يكون للدولة الوسائل الكافية لفرض احترامه — بل وفى الحقيقة كان موجودا من قبل أن توجد عمليات منتظمة لاستخدام القوة »[1] . ومعنى هذا أن القانون تحت تلك الظروف لم يكن مميزا تماما عن القواعد المتضمنة فى العادات الجمعية والقواعد الخلقية . ونحن لا يمكننا أن نعرف ظاهرة اجتماعية الا اذا ظهرت لنا متميزة تماما بحيث تكشف لنا عن طبيعتها الخاصة بها دون سواها . والطبيعة المميزة للقانون فى المجتمع الحديث تبدو فى صفة القهر والشمول المرتبطة به ، والتى تسندها قوة الهيئة المسماة الدولة (٢) .

٢ ـ **الصفة المميزة للعادة الجمعية :** للعادة الجمعية كذلك طبيعتها الخاصة المتميزة . وبينما نجد فى أغلب الأحوال رغبة فى أن يصنع القانون وأن يطبق بقوة الدولة فان العادة الجمعية تختلف من حيث كونها اجراء تتبعه الجماعة ويتصف بأنه ظهر بالتدريج دون رغبة صريحة فى أن يصنع ودون سلطة رسمية لاعلانه أو تطبيقه أو حمايته . ان العادة الجمعية يساندها الميل العام نحو قبولها . فليست هناك سلطة خاصة تصدر الأوامر للناس بأن يرفعوا القبعة احتراما للسيدات أو أن يدفعوا « الاكراميات » لخدم المطاعم أو لجعل مواعيد المقابلات يوم الخميس أو يوم الأحد أو الخروج الى الحدائق العامة يوم شم النسيم [3] . والعادات الجمعية هى الأكثر تلقائية من بين قواعد السلوك الاجتماعية

---

(١) F. Pollock, First Book of Jurisprudence (London, 1913), London, 1923.

(٢) For various definitions of law and somewhat different conclusions, see N. S. Timasheff, *An Introduction to the Sociology of Law* (Cambridge, Mass., 1939), Chap. XII, and G. Gurvitch, *Sociology of Law* (New York, 1942), pp. 50-60.

(٣) قدمنا هنا بعض الأمثلة المستمدة من البيئة العربية بدلا من البيئة الغربية . — **المترجم**

وفى الغالب أشدها اجبارا — الا أنها تستند الى جزاءات تختلف عن جزاءات القانون التى تتميز باستخدام القوة المنظمة . ان جزاءاتها عبارة عن مظاهر متعددة من الضغط الاجتماعى غير الرسمى (أنظر البيان التوضيحى رقم ٥) وتمتزج العادات الجمعية بنفوسنا وقلوبنا لدرجة أننا ما لم نفكر فى حقيقة أمرها جديا لا يمكن أن ندرك لأول وهلة كيفية تغلغلها فى كل مناسبة من مناسبات حياتنا ، أو الطريقة التى تنظم بها العادة الجمعية أعمالنا من طلوع النهار حتى حلول الليل ومن الشباب الى أن يتقدم بنا العمر . وتتصف هذه العادات بأنها طرق للتصرف وتأخذ فى الظهور بأساليب مختلفة ، منها الصدفة ، والمحاولة والخطأ والتجربة . وعندما يتم اصطناعها لا يبقى الا اتباعها وتقليدها وقبولها ببساطة ودون تعرض لأى قهر ضمن الآداب الاجتماعية العامة . وهى تضعف وتختفى بنفس الكيفية أيضا ، أى دون الغاء رسمى ولا يلاحظ اختفاءها الا بعض كبار السن الذين يذكرون الماضى على الدوام ذكرا حسنا .

عدم كفاية العادة الجمعية فى المجتمع الحديث : ليست الحاجة ماسة عادة الى تشريع قانونى قائم بذاته فى الأحوال الاجتماعية البدائية والبسيطة . وفى مثل هذه الظروف تتولى العادة الجمعية تنظيم السلوك فى حياة الأفراد . ان المجتمع البدائى يقوم على علاقات مباشرة بين أعضائه . وكل من هؤلاء يجاور جميع الآخرين فى المعيشة ولا يستطيع أن يفلت من دائرة أحاديث الناس أو الرأى العام للجماعة أو من خضوعه للضبط الاجتماعى الذى يمارسه مجتمعه عليه وعلى أقرانه . ومن النادر أن ينشأ فى مثل هذا المجتمع وضع جديد لاتجد له عادات الجماعة حلا . فان العادة الجمعية بما وراءها من قوة اكتسبتها بحكم التقاليد تنظم كل مناسبة فى حياة الجماعة وترسم لكل عضو من أعضائها حقوقه وواجباته ، كما تعمل على التوفيق بين مطالبه ومصالحه من جهة وبين مطالب الجماعة ومصالحها

من جهة أخرى [1] . وكلما اتجهنا من الأحوال البدائية الى المتقدمة وجدنا من مقتضيات الحياة فى المجتمع أن يضاف الى قواعد العادات الجمعيـة قواعد اجتماعية جديدة للسلوك وعلى الأخص تشريع قانونى .

١ ـ لماذا يجب أن يلحق القانون بالعادة الجمعية : هناك أسـباب متعددة تدعو الى أن يلحق القانون بالعادة الجمعية فى المجتمع الحديث المتحضر .

أولا ـ الحاجة الى وكالة خاصة : لما كانت العادة الجمعيـة تفتقر الى سلطة قانونية تنوب عنها فى حالات النزاع أو خرق النظام المتبع ، فمن الطبيعى أن تكل الى الطرف المعتدى عليه حق الدفاع عن حقوقه بنفسه ضد الطرف الآخر . ان العادة الجمعية تسمح له أن يأخذ بالثأر ، لكى ينتقم لنفسه أو يعاقب خصمه . وهذا هو السبب الذى من أجـله ترتفع نسبة الجرائم ضد الأشخاص فى المجتمعات الريفية البسيطة عنها فى المدن الكبيرة . ومما لا شك فيه أن الثأر الشخصى والمعارك التى تترتب عليه تسبب اضطرابات تضر بمصالح بقية أفراد الجماعة فى الوقت الذى نرى فيه هذه المصالح تزداد تعقدا وتوقفا بعضها على بعض فى المجتمع

---

(١) يرى مالينوسكى أن هناك « مجالا للتشريعات القانونية » فى كل المجتمعات ومن بينها المجتمعات البدائية انظر :

B. Malinowski in *Crime and Custom in Savage Society* (New York, 1926).

ومع ذلك فان الأدلة التى قدمها تنصب على مسـتويات مختلفة من ضبط العادات الجمعية وليس من التشريعات القانونية المنفصلة

Cf. Timasheff, op. cit., pp. 275-281.

ـ المؤلفان

والتوفيق بين الرايين نقرر ان مالينوسكى وغيره من الانثروبولوجيين الاجتماعيين يرون فى العادات القومية تشريعات أو قوانين غير مكتوبة وكثيرا مايتحدثون من القوانين قبل عهد انشاء المحاكم ويستدلون على ذلك بقواعد قانونية غير العادات القومية تأخذ بها الجماعات البدائية . ـ **المترجم**

المتحضر . وفى هذه الحالة يحتاج الأمر الى قانون يوكل عنه مظاهر القوة للمحافظة على هذه المصالح دون اراقة دماء [1] .

ثانيا ــ الحاجة الى التوافق السريع ازاء الاحوال المتغيرة : لا تستطيع العادة الجمعية أن توفق بينها وبين الأحوال المتغيرة وتتلاشى سلطتها فى المجتمعات المعقــدة حيث تأخذ العلاقات غير الشخصية مكان العلاقات الشخصية وحيث نجد الأفراد بعيدين عن الضغط المباشر للجماعة بوجه عام . والعادة الجمعية دليل واضح ومفيد فقط فى الأحوال التى يمكن أن تفيد فيها الأساليب القديمة للجماعة فى حل المشاكل الجديدة . وحينما تسبب الأساليب الجديدة اضطرابا فى الأساليب القديمة للحياة مثل ما حدث فى انجلترا فى القرن السادس عشر عندما طبقت اقتصاديات نقدية جديدة ، ظهرت الحاجة الى سلطة جديدة ونوع آخر من القوانين التى لا تنمو ببطء وانما تصنع بصفة خاصة لسد الحاجة الناشئة عن الأوضاع الجديدة ؛ فقد كانت قواعد « السير فى الطرق » فيما مضى خاضعة للعادة ولكن عندما اخترعت السيارات نشأت أحوال جديدة استلزمت سن قوانين جديدة للمرور . كذلك فى الأيام الأولى لانتشار الراديو كان استخدام الأثير حرا ، ولكن عندما حدث التوسع فى صناعة الراديو اقتضى الأمر تشريعات جــديدة . ولا يستطيع شىء سوى القـــانون أن يتمشى مع التغيرات الجديدة التى تجىء بها الحضارة الحديثة مع أنه كثيرا ما يحدث تباطؤ فى سن القوانين الجديدة اللازمة فى مثل هذه الحالة .

ثالثا ــ الحاجة الى وكالة شاملة : نلاحظ فى المجتمعات المعقدة وجود زمر مختلفة وطبقات اجتماعية وجماعات محلية وبشرية مختلفة لكل منها عاداتها الجمعية . وعلى ذلك فمن الضرورى فى مثل هذه الحالة اذا رئى

---

(١) See J. Dickinson, "Social Order and Political Authority", *American Political Science Review*, XXIII, (1929), 324 ff.

وضع قاعدة واحدة مرغوب فى تطبيقها على الجميع مثل ضمان حرية التعبير أو تكافؤ الفرص فى التعليم فلا بد من الالتجاء الى القانون .

رابعا ـ الحاجة الى حاكم ذى نفوذ حيثمـــا يجب الالتجـاء الى القوة المنظمة : ان العادة الجمعية تعتبر أشد تأثيرا فى الأحوال التى لا توجد فيها قوة اجتماعية منظمة يعتد بها ســواء أكانت هذه القوة عسكرية أم اقتصادية . ومثل هذه القوة تصنع قواعدها طارحة جانبا العادات الجمعية. وللعادة الجمعية وسائل دفاع ضعيفة لمواجهة القوة المنظمة والذين يأخذون بمبدأ القوة ومعهم الذين يخضعون لها يحتاجون دائما لحاكم ذى نفوذ يتمثل فى محكم أو قاض . والقاضى بالرغم من أنه يبدأ عمله فى فض أى نزاع بتفسير العادات الجمعيـــة والدفاع عنها نراه ينتهى آخر الأمر الى أن يكون صانع قانون . وهذه هى قصة واضعى القوانين المشهورين فى العالم القديم مثل موسى وحمورابى وصولون .

٢ ـ وظائف التشريع القانونى وصوره : تساعدنا نفس الأحوال التى تفسر مولد القانون فى توضيح ما يطرأ عليه من نمو كبير فى الدول الحديثة . ومجموعة القوانين تتعرض دائما للزيادة والتعديل لسد الحاجة فى المواقف الجديدة أو التطبيقات فى الحالات الخاصة . ويتم بعض هذا بوساطة التشريع المباشر والبعض الآخر بالشروح القانونيـــة . وقد أدت التطورات الصناعية الحديثة الى اضافة هائلة الى التشريعات ، كما أدت التطورات الأخيرة فى الطاقة الذرية الى سن قوانين جديدة فى بلادنا كما ستؤدى الى أكثر منها فى المستقبـــل . وهناك عامل آخر ساهم فى زيادة مجموعة القوانين وهو توكيد السلطة التى ما أن تستقر حتى تحتاج الى نفوذ يقويها والى تنظيم جديد يتلاءم مع ضغط المصـــالح المختلفة . وفى الحق أن نمو القوانين بهذه الدرجة الكبيرة قد أفزع المواطن العادى فى

المجتمع الحديث كلما ووجه بتعقيداته وبضخامته مما يضطره الى الشعور الدائم بحاجته الى الاعتماد على المحامين أو الاخصائيين فى القانون .

وقد تعلمت الدول الحديثة بالتدريج من طريق التنازع بصفة خاصة أن هناك بعض الأمور التى لا يستطيع القانون أن يضبطها . فهو لا يقدر بوجه عام على أن يقوم مقام العادة الجمعية أو الأخلاقيات السائدة فى المجتمع . فهو يعجز من غير تدمير القيم — التى يعمل على المحافظة عليها — دون خلق معتقدات دينية أو غيرها من أشكال المعتقدات وكل ما يستطيعه القانون هو أن يأمر بأداء واجبات معينة من الناحية الشكلية الخارجية، وهو على ذلك بعيد كل البعد عن قيم الأعمال فى ذاتها ، تلك الأعمال التى تعتمد اعتمادا كليا فى أدائها على الروح وهذه لا يقوى القانون على السيطرة عليها . وربمالا نجد مثالا يوضح وجهة نظرنا خيرا من ذلك المثال الذى قدمته لنا النظم السياسية التى أنكرت الروح وأهميتها ، ونقصد بذلك حكومتى ألمانيا وايطاليا اللتين استعانتا بالقانون وتأييد سلطان الدولة على المحاولة التى لم يكتب لها الا نجاح محدود والخاصة بالسيطرة على المسائل الخاصة والداخلية عند الأفراد مثل المعتقدات الدينية وممارسة العبادات . وفى روسيا السوفييتية بالرغم من سلطتها المركزية القوية نجد أن الكنيسة مثلا قد استطاعت أن تزيح عنها أكفان النسيان التى أرادت الدولة أن تدثرها بها . ان القانون أداة حكومية وطبيعة هذه الأداة تحدد قدراتها وقصورها .

ويمكن أن نلخص الوظائف الكبرى للقانون على النحو الآتى : —

١ — صيانة النظام الأساسى الذى يجد فيه الناس الأمن والأحوال الداعية الى توزيع الفرص توزيعا عادلا .

٢ — التوفيق بين المصالح المتنازع عليها بين الأفراد أو الجماعات اذا لم يمكن أن تفض بغير القانون أو التى اذا فضت ترتب على فضها

اعتداء على مصالح الآخرين . ويبقى بعد هـذه المجالات التى ذكرناها مجالات أخرى قابلة للمناقشة مثل الصراع الاقتصادى الذى لم توضع له بعد القوانين اللازمة . ولكن فى المجتمعات الحديثة يجب أن نعترف بأن الالتجاء للتشريع يجرى على نطاق واسع (١) .

مظاهر الاصطدام بين القانون والعادة الجمعية : . حينما يهاجم قانون خاص أية عادة اجتماعية شائعة فى أية جماعة محلية يضطر اضطرارا كبيرا الى أن يعتمد على الجزاء الخطر كما نعلم وهو استخدام القوة الا أن لدى العادة الجمعية موضع المهاجمة تفوقا يرجع الى أنها تطاع بطريقة أكثر تلقائية . فهى لا تبدو أنها آتية الينا من خارج نفوسنا ومطالبة ايانا بطاعتها توا . وهى لاتبدو لنا متضمنة السلطة على رغباتنا اما من أجل الآخرين أو باسم السلطة كما يفعل القانون اذا لم يستعن بتأييد العادة الجمعية ، وعلى ذلك فالقانون الذى يهاجم عادة جمعية شائعة يتعرض ، حتى لو لقى أغلبية من المؤيدين ، الى الافتقار الى مسوغ للتأييد لابد منه اذا أريد له أن يكون قانونا فعالا وهو على كل حال يخلق قوة مقاومة تعرض سلطته للخطر . واذا لم يستعن هذا القانون بالأحوال الاجتماعية الملائمة لنمو عادة جمعية تؤيده فان من المحقق أن يفشل .

١ ـ **بعض الأمثلة :** أنظر مثلا قوانين أيام الأحد (القوانين الزرقاء) التى تتميز بها كتب التشريع فى الولايات المختلفة بأمريكا وهذه القوانين لا تتفق مع العادات الجمعية القائمة فى الوقت الحاضر . وليسترجع القارىء قانون فولستيد الذى كان قد هاجم العادة الجمعية الشائعة والمستقرة منذ زمن طويل بشأن تناول المشروبات الروحية وهذه العادة مرتبطة بصفة خاصة بكثير من التقاليد فى المناسبات الاجتماعية المختلفة ، وكلنا يعرف

(١) أنظر لمناقشة وظائف القانون وقصوره بشىء من التفصيل الفصل الثامن عشر فيما بعد .

أنه فى آخر الأمر انتصرت العادة الجمعيــة القديمة على هذا القانون . وبالتأكيد لا يستطيع القانون أن ينجح بصفة دائمــة اذا قاومتــه عادات اجتماعية قوية تمتد جذورها الى الماضى البعيد . ومن الأمثلة التى تلفت النظر مسألة الغاء «التعديل الرابع عشر» فى احدى المناطق الهامة كنتيجة حتمية خضوعا للظروف القائمة التى تجعل للبيض موقفا خاصا ازاء الملونين ليس فقط فى جنوبى الولايات المتحــدة ولكن — الى حد كبير — فى جميع الولايات . وحتى عهد قريب كانت الشروح القانونية الخاصة بهذا التعديل تحليلا قصد به احترام العادات التى كان التعــديل قد أنكرها . وهناك أيضا التشريع الحديث جدا الخاص ببعض الولايات والمقصود به منع التميز فى الوظائف على أساس الجنس البشرى أو اللون أو الدين وبينما تؤدى مثل هذه القوانين الى الحد من التمييز العنصرى وغيره فانها لا تستطيع وحدها أن تسيطر سيطرة تامة على العادات الجمعية التى يأخذ بها أفراد الشعب الذين تستند مواقفهم المختلفة الى الجهل والتحيز الشائع جماعيا . هذه كلها أمثلة ذات مدلولات فى الحياة المعاصرة وهى لا توضح الصراع بين القانون والعادة الجمعية وقصور القانون فحسب ، وانما تبين كذلك مسألة هامة مؤداها أن القــانون الفعال يحتاج فى ذاته الى تأييد اجتماعى من خلف شكلياته .

٢ ـ الحاجة الى كلا النــوعين من القــواعد فى الحياة الاجتماعية :

كثيرا ما ننسى أن العادة الجمعية تعمل على خلق نظام اجتماعى خاص بها وذلك كلما ناقش الصراع بين العادة الجمعية والقانون . ومن المناسبات التى يؤسف لها وجود تعارض بين القانون والعادة الجمعية ، وذلك لأن الناس يفضلون دائما أن يسلكوا طريق العادة مفضلــين اياها على طاعة القانون وليس معنى ذلك صراحة أنهم بهــذا العمل يختارون بين احترام القانون والفوضى . ومما يتضح لنا بشكل ملموس فى الحيـــاة داخل

المجتمعات الواقعــة على الحدود بين الولايات المختلفة التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ بلادنا . ان الناس هناك كثيرا ما يضطرون الى المفاضلة بين قوانين وقواعد هذه الولاية أو تلك ، كعادة تعــذيب الزنوج بالرجم أو غيره أو قانون المحاكمة . ونحن كمواطنــين ملزمون باحترام القوانين والعادات معا . وبالرغم من أن للقانون المكان الأول فان القوانين والعادات معا ضرورية لصيانة الحياة فى المجتمــع وأما المشكلة التى تواجــه الفرد الذى يضطر الى المفاضلة بين العــادات والقــوانين فسنواجهها فى الفصل التالى :

توقف كل من القــانون والعادة الجمعية على الآخر : رأينا فيما سبق أن كلا من القانون والعادة الجمعية نشأ ونما منفصلا عن الآخر . ولكنهما ما زالا من عـــدة نواح متوقف بعضها على بعض . وينبغى أن نذكر أن العادات الجمعية تنمو تلقائيا وتظهر بالتدريج بينما القوانين تخلق وتظهر عند وضع التشريع أو الاعتراف بها . وهنا تحوط العادات القانون ذاته . والقوانين التى تعتمد بوجه عام تبعث فى الناس مواقف وتدعوهم للقيام بتصرفات معينة تنشأ عنها بالضرورة عادات جديدة وهذه بدورها تساند القوانين . وفى الحقيقــة اذا لم تكن العادات موجودة أو تنشأ لتقوية القوانين تعرضت الأخيرة الى الزعزعة وعدم القدرة على ضبط الجماعة .

١ ــ العــادات الجمعية كمكملة للقوانين : لا تصبح العادة الجمعية مساندة للقانون فى الظروف والأحوال العادية فحسب ولكنها كذلك تكمل القانون وتمهد الطريق لتطوره . فمثلا العادات المتعلقة بالأعمال التجارية والملتفة حول القانون تصبح فى أحوال كثيرة جزءا منه ، مثل مهلة الثلاثة الأيام لسداد الحساب المطلوب [1] ، أو بوجه عام ادخال عمليات التسعيرة

---

(١) J.C. Gray, *Nature and Sources of the Law* (New York, 1927), p. 282.

فى القوانين . ومن جهة أخرى يضع القانون شروطا تخلق عادات جمعية جديدة . وعلى ذلك فالتشريع الصناعى ، مثل القوانين التى تنظم ساعات العمل أو تفرض استكمال الشروط الصحية أو تبين خطوات المساومة الجماعية ، تعمل على تقويض العادات القديمة وتمهد الطريق لعادات جديدة. والقوانين التى تنظم التدريب العسكرى تجلب لنا عادات جديدة مرتبطة بالحياة والنظم العسكرية — كما لاحظنا فى هذه البلاد (الولايات المتحدة الأمريكية) فى السنوات الأخيرة — فى حين عملت القوانين التى أوقفت هذا التدريب على ازالة الأحوال التى ترتكز عليها هذه العادات الجمعية [1] . واذا عدنا الى مثال ذكرناه منذ لحظة بشأن تشريع عدم التمييز فى الوظائف بين المتقدمين اليها أمكننا أن نخمن أن اعتماد مثل هذه القوانين والعمل على تقويتها باستمرار ربما أثر فى العادات الجمعية المتعلقة بالتمييز العنصرى وغيره . ومع ذلك فالقانون يكون شديد التأثير فى تعديل العادة الجمعية بكيفية غير مباشرة من طريق خلق نظام جديد لا تلائمه هذه العادة ، وليس بمهاجمتها بطريق مباشر .

٢ — **القانون الدستورى والعادة الجمعية** : يتصل القانون الدستورى أو القانون الأساسى أكثر مما عداه من القانون الذى ناقشناه حتى الآن ، بالعادات الجمعية . ومع أن القانون الدستورى قد صيغ جزئيا فى وثائق خاصة ، فانه يعيش بالعرف وتنمو حوله مجموعة من مقتضيات العرف تعمل على تقويته أو تعديله أو حتى الغاء أجزاء من صيغته المكتوبة ، فالعادة التى تدعو بألا يتقدم رئيس الجمهورية لترشيح نفسه للرياسة مرة ثالثة أيدت الدستور الأمريكى — وهذه سابقة لم يعرقل أحكامها

---

(١) Morroe Berger, "Law and Custom in the Army" *Social Forces*, XXV. (1946,) 82-87, and "Cultural Enforcement in the American Army", *Journal of Legal and Political Sociology*, IV. (1946), 96-103.

الا انتخاب فرانكلين د . روزفلت مرتين أخيرا ، مما أدى الى ظهور محاولة لاصدار تشريع يمنح العادة القديمة صفة القانون ، تلك العادة التى تجعل من حق هيئة انتخاب الرئيس أن تعدل الدستور على أسس حزبية . وكذلك نجد أن العادة الجمعية فى بعض الولايات ، والتى تنحو نحو التفريق بين الحقوق السياسيـــة لكل من البيض والسود قد ألغت فى الواقع بعض أحكام الدستور . ولقد أصبحت دراسة الحكومة الأمريكية فى الحقيقة والى حد كبير دراسة لدور الاجراءات التقليـــدية التى تكمل القانون الأساسى للبلاد .

ومما هو أكثر وضوحا الدور الذى تلعبه العــادة الجمعيــة باسم «دستور غير مكتوب» مثل الدستور الانجليزى حيث نجد أشكاله القديمة عرضة فى كل موضع لنمو السلوك التقليـــدى ، فمن الناحية الشكلية يستطيع الملك أن يرفض اعطاء موافقتـــه على مشروع قانون وافق عليه مجلسا البرلمان ، ويمكن لمجلس الوزراء أن يبقى فى الحكم بعد أن فقد الثقة به فى مجلس العموم وهكذا . ولفظ «يستطيع» أو «يمكن» الشكلى يصبح بحكم العادة الجمعية « لا يستطيع » أو «لا يمكن» ومن الفروق بين القانون الدستورى والقانون العادى أو « تشريعات » البلدية أن فى الحالة الأولى لا تعتبر العادة الجمعيـــة فقط مجرد مصدر وتأييد للقانون بل جزءا لا يتجزء من النظام [1] . وهذا القول ينطبق كذلك على مجموع القواعد النامية التى نسميها القانون الدولى حيث نجد الاجراءات المألوفة فى العلاقات الدوليـــة والقواعد القانونيـــة متوقفا بعضـــها على بعض توقفا شديدا .

---

(١) لمعرفة الفارق بين القانون الدستورى وقانون البلديات انظر :
MacIver, *The Modern State*, Chap. VIII, sec I.

كيف تختلف العادة المستحدثة عن العادة الجمعية : كثيرون من علماء الاجتماع جعلوا من العادة المستحـــدثة ضدا للعادة الجمعية . وقد اعتبر هربرت سبنسر العادة المستحدثة أداة للمحافظة على مستوى العادة الجمعية وبصفة خاصة التمييزات المتواضع عليها بين الطبقات الاجتماعية[1]. وكان من رأيه أن العادة المستحدثة تثبت حينما تضعف العادة الجمعية، وقد ربط كلا الاتجاهين بنمو التصنيع : وعرف جبرييل تارد العادة المستحدثة بأنها «تقليد المعاصرين» وأقامها كضد للعادة الجمعية التي وصفها بأنها« تقليد الأسلاف أو الموتى » [2] . ولكن لا أحد من هذه الآراء مرض ارضاء تاما من ناحية كشفه عن العلاقة بين العادة الجمعية والعادة المستحدثة ، وهي علاقة ذات أهمية في دراسة التركيب الاجتماعي والتغير الاجتماعي .

١ ـ **معنى العادة المستحدثة** : نحن نقصد بالعادة المستحدثة ما يقره المجتمع من تغير متتابع يتصل بأحد موضوعات العادات الجمعية . وتحدث تغيرات العادة المستحدثة في صورة تتابع منتظم في الغالب ـ أو «دورة العادة المستحدثة » كما تسمى أحيانا ـ ويقع تأثير العادة المستحدثة في جوانب العامل الثقافي التي يعتبرها المجتمع غير ذات أهمية نسبية فيما يتعلق بالقيم الرئيسية . وتتصل العادة المستحدثة بأمور مثل الآراء والمعتقدات والتسلية واللباس والزينة بجميع أنواعها وزخرفة المنزل والأثاث وطريقة التحدث والموسيقى الشعبية والأدب والفن . وفي جميع هـــذه المجالات لا تحل العادة المستحدثة محل العادة الجمعية كلية ولكنها بالأحرى تكملها ، واذن ففي كل مرحلة زمنية نمط تقليدي للملابس مثل « بنطلونات » الرجال

---

(١) Spencer, op. cit., II, 205 ff.

(٢) Laws of Limitation (E.C. Parsons, tr. New York, 1903), Chap. VII.

أو للتأليف الخيالي مثل القصة ، أو لكتابة الأغاني مثل الشعر القصصي ، ويصيبها التغيير من وقت لآخر بحكم العادات المستحدثة . وربما أثرت العادة المستحدثة بالطبع من طريق هذا التغيير المتصل في تقاليد المجتمع ومهدت الطريق لغيرها . وزيادة على ذلك يميل موقف الأفراد المرتبط بالعادة المستحدثة كما سنرى الآن الى اضعاف تعلقهم بالعادات الجمعية .

٢ ــ العادة الجمعية التقليدية والعادة المستحدثة المتغيرة : تختلف العادة الجمعية عن القانون من الناحية التلقائية في الظهور والسرعة في تطبيق الجزاء عند مخالفة أحكامها . وتختلف العادة الجمعية عن العادة المستحدثة من حيث قدرة الأولى على البقاء زمنا طويلا وصلاتها القوية بحياة الجماعة الداخلية ومزاجها وصفتها التقليدية . وأما العادة المستحدثة فهي بالتأكيد غير تقليدية وضد البقاء . وهي تضبط نواحي السلوك المختلفة ومظاهره وبوجه عام النواحي الأكثر سطحية التي يسهل انفلاتها من سيطرة العادة الجمعية . ويتمثل أقوى مظاهر التغير في العادة المستحدثة ، في التحمس الأهوج وحالات الهوس التي تدعو الى تفضيل مهرج أو مطرب معين حركة خاصة في لعبة رياضية أو طريقة خاصة لتحية الأصدقاء ، وتنسى هذه الأمور جميعا بأسرع وقت [١] .

ويوجد في مجال اللباس نماذج عامة من الملابس حددت العادة الجمعية ارتداءها في مناسبات خاصة ، مثل حفلات الزفاف والجنازات والرياضة ، أو في فصول معينة من السنة أو أوقات خاصة من النهار ، بينما تظل هذه النماذج عرضة للتغيير والتنظيم بوساطة العادات المستحدثة . وفيما يتعلق بالتسلية نجد أن بعض اللعبات مثل كرة القدم وكرة السلة والتنس

---

(١) انظر العلاقة بين العادة الجمعية والعادة المستحدثة والتحمس الأهوج في المقال الآتي الممتاز : E. Sapir, "Fashion," *Encyclopaedia of the Social Sciences* (New York, 1935), VI, 139-144.

والبيزبول والبردج أصبحت فى بلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية جزءاً من عادات السكان الجمعية المتعلقة بالتسلية . غير أنه من خلال هذه اللعبات ومن حين الى حين ومن مكان لمكان تتغير العادات المستحدثة كما هو معلوم للملمين بتاريخ الألعاب الرياضية [1] . وبنفس الكيفية تحدد العادة المستحدثة فى مجالات السلوك الاجتماعى الأخرى ما لم يعد متبعاً من المظاهر العامة للعادات الجمعية .

ومع ذلك ففى بعض الأحيان تصر العادة المستحدثة على المضى باستمرار فى نفس الاتجاه . وفى هذه الحالة تتكشف بعض العوامل الخفية المفسرة لهذا الأمر . ويترتب على ذلك أن تدمر العادة المستحدثة فى النهاية العادة الجمعية التى لم تكن فى البداية الا مجرد مستقبلة لمظهر جديد أو لثوب جديد . فمثلا قد أدى تعود المرأة أن ترتدى ملابس بأزياء معينة وقتاً طويلا الى أن تختفى ملابس أخرى كن يلبسنها بحكم العادة الجمعية فى الماضى وأن تصبح قديمة مخالفة لاتجاه الذوق العام والى أن يحصل تفكير فى تغيرات كبرى فى مركز المرأة ومقاييس السلوك الجنسى وغير هذا من العوامل الثقافية فى المجتمع . وكذلك عملت نفس المؤثرات فى تحديد اتجاه العادات المستحدثة فى ملابس اللعب للرياضيين من ناحية تعليلها بوجه عام باستمرار ، مما ساعد على الانتقال من الاستحمام الى رياضة السباحة ومن «تنس الحديقة» الى اللعبة الحديثة العنيفة . وبنفس الطريقة قد تؤدى العادة المستحدثة الى اختفاء بعض الاتجاهات التقليدية فى الفن والأدب والموسيقى ، ثم تخلق بدلا منها اتجاهات جديدة وعادات جمعية جديدة .

---

(1) هنا تصرف فى الترجمة اقتضى حذف بعض اللعبات الأمريكية غير المعروفة للقارىء العربى . — المترجم

العادة المستحدثة والمصطلح الأخلاقى وآداب اللياقة : لقد أدى كون العادة المستحدثة قد اتخذت موضوعا لها المظاهر المتغيرة للعادات الجمعية التقليدية يساعدنا فى أن نميز العادة المستحدثة عن الظواهر الاجتماعية الأخرى التى كثيرا ما يحدث الخلط بينها جميعا ، أن العادة المستحدثة فيما نرى عرضة لأن تختلط بصفة خاصة مع أشكال العادة الجمعية التى نسميها المصطلح الأخلاقى وآداب اللياقة (أنظر البيان التوضيحى رقم ٥) .

المصطلح الأخلاقى وآداب اللياقة كجوانب من العادات الجمعية :

يحدد المصطلح الأخلاقى مظاهر العرف الواجبة التى تقوم على أساس من الاتفاق الاجتماعى الخالص وليس من مغزى العلاقة بين العرف والمعنى المرتبط به . وللمصطلح الأخلاقى أشكال متعددة ، مثل الاتفاق الحدسى على تجاهل أحد المواقف الذى قد يؤدى عدم تجاهله ثم التعليق عليه علنا الى خلق صعوبات ، ومثل الميل لحفظ العلاقات مع الآخرين فى مستوى سطحى أو بشىء من التصنع وكذلك مثل قبولنا الافتراض أن شخصا يعمل بوحى من بواعث مثالية حينما نعتقد أنه قد استنفد كل ما لديه من أنانية ولم يعد عنده منها مزيد أو أن تصرفه يمكن أن ينطوى على مظاهر نبل أقل مما صدر عنه . وعندما يتأدب أستاذ أثناء حفلة فى الجامعة مع زميل له وهو لايحبه ، أو عندما يجلس الطالب هادئا بينما يقرعه أستاذه أو ينقد ذكاءه ويتحدى صبره فان كلا منهما فى هذه الحالة يكون عاملا بمقتضيات المصطلح الخلقى . وهذا النوع من القواعد السلوكية من شأنه أن يحفظ نوعا من التضامن نرى أنه وان كان سطحيا الا انه لايخلو من فائدة .

وأما آداب اللياقة فتمدنا بتفاصيل ما ينبغى أن يصدر عنا من أقوال أو أفعال فى مناسبات الحفلات . وبينما يقوم المصطلح الأخلاقى بتغطية موقف اجتماعى منحرف نجد فى آداب اللياقة مجموعة من القواعد

محددة تحديدا دقيقا بشأن طرق التصرف المباشر ازاء الأفراد الآخرين. وهى الطرق التى تميز سطحيا الطبقات الاجتماعية والجماعات المهنية وغير المهنية وكثيرا ما تتخذ كعلامة أو دليل على مؤهلات الشخص وعمله. وفى الواقع أن كل جماعة ذات تقاليد قديمة مهما كان قدمها لابد أن يكون عندها بروتوكول لتنظيم آدابها ، ووضع معايير السلوك الواجب الاتباع فى الأحداث والمناسبات المعينة . ونستطيع اذن أن نلاحظ عمليات التنظيم التى تقوم بها آداب اللياقة فى مدينة « يانكى سيتى » حيث نجدها على غرار ماتفعل فى مختلف المجتمعات البدائية من فصل زمر المحاربين ومجموعات الأعمار، قد فصلت هنا الطبقة العليا التى تقطن « هل ستريت » أو مجموعة أعضاء النادى الريفى فى كثير من الجماعات الأمريكية أو اذا أردنا أن نذكر حالة واضحة تمام الوضوح ضباط الجيش والبحرية الأمريكية وزوجاتهم الذين أصبحوا مجموعة متجانسة بسبب الأفكار التى غرست بعناية فى عقولهم . ولا تخدم آداب اللياقة الأغراض العملية فحسب بوضع مقتضيات السلوك فى ظروف معينة ولكنها الى جانب ذلك تضفى من الرموز على الفروق الاجتماعية ما يحرص بعض أعضاء المجتمع لأسباب أساسية عندهم على أن يستبقوها .

٢ ـ المصطلح الأخلاقى وآداب اللياقة ومدى تفشى العادة المستحدثة : يتجه كل من المصطلح الأخلاقى وآداب اللياقة الى استخدام احدى الوسائل المتكافئة فى الامكانية لتمثيل الموقف الاجتماعى أو الرمز له وهما يستبعدان الوسائل الأخرى بطريقة تبدو تعسفية . ومن أمثلة ذلك تفضيل التحية بتقابل اليدين والتقبيل ، مادامت هناك وسائل أخرى للتحية واظهار الود مثل حك الأنفين الذى يمكن أن يؤدى نفس الأغراض تماما فى بعض الثقافات . وأى شكل جديد لممارسة التحية المألوفة مثل هز اليدين بكيفية خاصة يمكن أن يسمى عادة مستحدثة

ولكن التغيير من هز اليدين الى التحية من بعيد أو الانتقال من التقبيل الى حك الأنفين يصح أن يسمى تغييرا فى المصطلح الأخلاقى التقليدى . وهذا الفاصل بين الطريقتين غالبا مايكون من الصعب تحديده بالطبع ، غير أننا نستطيع أن نتبين طبيعة العادة المستحدثة اذا نظرنا اليها باعتبار أنها تهتم بالأساليب المؤقتة فىحدود العادة الجمعية أو المصطلح الأخلاقى أو شكل من أشكال الثقافة . وحينما لايسمح بأى تغيير أو تعديل فى النموذج كما هىالحال فىالملابس العسكرية ، و«البنطلون»و«البلومرز» النسائى المخصص للألعاب الرياضية فى عهد سابق ، فلا يكون فى هذه الحالة مكان للتحدث عن العادات المستحدثة .

ويمكننا هذا التمييز كذلك من أن نفهم معنى العادة المستحدثة كما تطبق على التغيرات الفنية والثقافية . وذلك لأن كل فنان حق يرى أن أسلوبه ملك له . ولكن عندما يأخذ به الناس على نطاق عام فان عنصر العادة المستحدثة يدخل فيه . ومن أمثلة ذلك فى بعض المجالات الثقافية نذكر مضيف « ليتل هيمنجويز » ، وفى موسيقى الجاز مقلدى لويس ارمسترونج ، وفى فن السينما الأخذ بطرق هتشكوك وفى نظر المقلدين أو منتهجى العادة المستحدثة يعتبر الأسلوب مسألة غير هامة من الناحية الثقافية . وبايجاز لايعدو مدى تفشى العادة المستحدثة الحدود التى يسمح فيها بالتغير نتيجة لعدم الاكتراث الخلقى . وينبغى أن نذكر أن العادة المستحدثة ليست التيار الثقافى فى مرحلة زمنية — انها ليست الاتجاهات المتعمقة الجذور فى أى عصر — وانما هى المظاهر والاصطناعات الأكثر استعداد للانفصال عن الأشكال الثقافية الأخرى ، والتى يسهل تقليدها وبالتالى انتشارها . والعادة المستحدثة لاتفسر بالمحاكاة ، لأسباب ستظهر فيما يلى ، الا أن جزءا من طبيعة العادة المستحدثة ماهو الا شكل خارجى يترسمه الناس ويمكن تقليده بسهولة .

الدور الاجتماعي للعادة المستحدثة : بالرغم من أن العادة المستحدثة تظهر من لحظة لأخرى على السطح الخارجي للحياة الاجتماعية فان فيما وراء تغيراتها التي تبدو متقطعة توجد في أغلب الأحيان قوى خفية تعمل باستمرار وتتصل العادة المستحدثة بما هو ليس من صميم الحياة الاجتماعية أو بعبارة أدق بما هو على حافتها أو بما هو زائد عليها أو غير ضروري لها مما يمكن أن يطرأ عليه التغير دون أن يؤثر في التصرفات والقيم العزيزة علينا . ان العادة المستحدثة لا ترمي لسد حاجة نفعية . ولا تؤثر في عقولنا أي تأثير مباشر . ومع كل ذلك فهي تستبد بنا استبدادا شديدا . فما عسى أن يكون سبب هذا ؟

١ - الحاجة للتطابق والى الجديد من الأشياء : تنظم العادة المستحدثة تلكم الجوانب من حياتنا ، التي نقف ازاءها موقفا فرديا متصنعا بعدم الاكتراث وعلى ذلك فالاحساس بها لابد أن يكون مرجعه جماعيا — وفي هذا المجال تعمل على التوفيق بين ارضاء مطلبين قويين للانسان الاجتماعي كثيرا مايقوم التنازع بينهما في المجالات الأخرى . وهذان المطلبان هما الحاجة الى الجديد من الأشياء والتطابق أو التمشي مع المجموع عندما يكون بوجه عام متمسكا بالقديم . ومن الوجهة السيكلوجية تتمشى هاتان الحاجتان المتعارضتان منطقيا جنبا الى جنب وتسدهما معا العادة المستحدثة [١]. وذلك لأن العادة المستحدثة تحول الرغبة في الجديد من الأشياء الى فعل اجتماعي أنها تجعل هذا الفعل الأمر الصائب والسديد بالنسبة للمجموع . « ان التغيرات البسيطة التي يدخلها الفرد على ملابسه المألوفة أو على أية أشكال أخرى من أشكال السلوك تبدو مؤقتا كما لو كانت انتصارا له . بينما تمده ثورة أقرانه

---

(١) See R.S. Lynd, *Knowledge for What* (Princeton, 1938), pp. 195-197, for a discussion of the needs for conformity and for novelty.

عليه بسبب هـــذا التجديد بشيء من الشعور بأنه أقدم على مخاطرة مع اطمئنانه لعدم استفحال الأمر » [١] .

وقد تحدد العادة المستحدثة من مدى التجديد وقتا ما ولكنها تعوض ذلك بزيادتها من سرعة التجديد في المجتمع[٢] . ويرتبط بالرغبة في التجديد الرغبة في التميز كما تنجح العادة المستحدثة كذلك في التوفيق بين هذه الرغبـــة وبين قاعدة التطابق أو التمشي مع المجموع . وفوق ذلك فالعادة المستحدثة تطرح على الناس نموذجا أو أسلوبا لا زيا موحـــدا [٣] . وفي نطاق الأسلوب أو النموذج يوجد متسع لتغييرات هامة صغيرة يقصد بها التميز الفردي والناس يستطيعون أن يتمشوا مع العـــادة المستحـــدثة « مع الفارق » [٤] .

٢ ـ العادة المستحدثة والطبقة الاجتماعية : تنبثق العادة المستحدثة بوجه عام ، وليس دائما ، من الطبقة الراقية أو زمر ذوي الحيثية وتميل بصفة خاصة الطبقة المترفة ، غير العاملة لما لديها من فراغ ووسائل الى أن تفرض الأسلوب الجديد في اللباس ودقائق آداب اللياقة والأساليب الراقية في مجال الرياضة والتسلية بوجه عام ، وما شابه ذلك . وحتى عنـــدما

---

(١) Sapir, loc. cit.

(٢) وذلك اذا تعود المجتمع التجديد من طريق العادات المستحدثة . ـ **المترجم**

(٣) وهناك فارق بين الاثنين فالأسلوب أو النموذج تغلب عليه الغرابة والتجديد أو الرغبة في الخروج من دائرة التقاليد في أمر لا يسبب ضررا أما الزي الموحد فيبدو أن الذي يغلب عليه هو الرغبة في المساواة في الزي أو الأغراض العملية كرخص ثمن الزي أو الدلالة على صناعة معينة . ـ **المترجم**

(٤) For the social psychology of fashion, see K. Young, *Social Psychology* (New York, 1944), Chap. XVII, T.R. LaPierre, *Collective Behaviour* (New York, 1938), Chap. IX.

تظهر عادة مستحدثة معينة فى زمر أخرى كما هى الحال فى موسيقى الجاز الحديثة التى ظهرت أول الأمر بين زنوج نيو أورليانز ، أو نموذج « قميص العمل » الذى أصبح من ملابس الرياضيين وكان أصلا لباسا للعامل اليدوى ، فانه يؤخذ بواسطة الطبقة العالية ويدخل حياتها كعادة مستحدثة قبل أن ينتشر بهذه الصفة بين سائر السكان . وفى المجتمع الحديث تنتشر العادة المستحدثة من طبقة الى طبقة حتى أن « الفستان » المصمم فى باريس مثلا يصبح فى الحال النموذج الذى يحتل اسمه ورسمه معظم مذكرات الجيب ، ويختلف ثمنه تبعا لمستوى حياكته والمادة التى يصنع منها . وقد ذهب فبلن فى تحليله التهكمى للطبقة المترفة [١] ، عندما تناول وظيفة هذه الزمرة فى تقديم نماذج العادة المستحدثة ، لكى تقلد تقليدا عاما ، الى أن للعادة المستحدثة خاصتين : هما ارتفاع الثمن الذى يدفع فى سبيل الأخذ بها ، وما تنطوى عليه من غباء أو قبح . وقد كان فبلن مهتما بأن يبرز الاتفاق الذى يدعو اليه الفراغ « والأشياء الثمينة » التى يتحلى بها أفراد الطبقة الراقية ومن يقلدونهم فى المجتمعات البدائية مثل الكواكيوتل [٢] وفى مجتمعنا المتحضر على السواء ، بقصد صيانة مركزهم الاجتماعى . وسنفحص آراء فبلن فى الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب بمزيد من العناية ، كما سنبحث مسألة العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والعادة المستحدثة .

ونظرا لأن العادة المستحدثة تميل الى أن تؤثر فى جميع الزمر الداخلية فى نطاق الجماعة المحلية فهى تدخل دائما كبند من بنود نفقات المعيشة .

---

(1) *The Theory of the Leisure Class* (New York, 1922), Chap. I. For Veblen's comments on fashion, see also Chaps. III, IV and VII of this Volume.

(٢) جماعات بدائية فى شمال غربى أمريكا الشمالية درسها الانثروبولوجيون الامريكيون دراسة وافية . — المترجم

وبعض أشكال العادة المستحدثة مثل لعب البولو أو التردد على الأندية الليلية أو زيارة مواطن عرض المستحدثات والأماكن التى انبثقت منها ، لا يقدر على السير فى مضمارها الا الأغنياء وفى الواقع قليلون ممن عداهم يستطيعون أن يحذوا حذوهم [1] وان كان هناك كثـيرون يتورطون فى الانفاق بسبب محاولة التقليـــد بما لا تتحمله ميزانيـــاتهم . والذين لا يستطيعون أن يجاروهم لا يسعهم الا أن يستمتعوا بتجربة لطيفة هدفها النقد والاصلاح وقوامها القراءة والتحدث عن نشاط الطبقة الراقية التى يفيض منها الرقى الى سائر الطبقات . وهـــذه الحالة تميز بصفـــة خاصة المجتمعات الديموقراطية الكبيرة الحجم التى تشيع فيها أساليب العادات المستحدثة والتى تحدث فيها فروق فى نماذج العادات المستحدثة تعبر عن مستويات الدخل والذوق . ومن جهة أخرى تميل المجتمعات العريقة فى الأرستقراطية الى خلق نماذج أو أساليب مميزة لعاداتها المستحدثة تناسب طبقاتها الاجتماعية المختلفة .

انتشار العادة المستحدثة فى العصور الحديثة : ان المدى الذى يصل اليه حكم العادة المستحدثة والسرعة التى تضع بها قوانينها أو تنسخها قد زادا فى ثنـــايا حضارتنا الحـــديثة . ولنبحث بأيجاز أحوال زماننا التى ساعدت العادة المستحدثة على أن تتغلغل فى حياتنا أكثر مما كانت تفعل فى حياة أجدادنا .

١ — **العـوامل الاقتصـــادية والطبقيـة :** من أهم ما يستحق الاعتبار فى هذا الصدد التغير الذى طرأ على البنيان الطبقى . ان ازدياد امكانيـــة تحرك الأفراد من طبقـــة الى أخرى ، الذى صاحب — كما سنرى فيما بعد — نمو الرأسمالية قد حطم أحد الحواجز الاجتماعية الهامة التى

---

(١) هنا تصرف بسيط فى الترجمة . — **المترجم**

تعترض طريق العادة المستحدثة . وربما كان سبنسر على حق عندما ربط نمو العادة المستحدثة بالانتقال من المجتمع العسكرى الى المجتمع الصناعى[1] ، فالأول يقوم على توكيد الرتبة والمراسم والمكانة الاجتماعية مع نظام لا يلين يوضح حدود الرئيس والمرؤوس من شأنه أن يصد تيار العادة المستحدثة التى تسعى الى الوصول الى جميع الطبقات . ومن العوامل التى أفسحت مدى انتشار العادة المستحدثة ازدياد الرخاء والفراغ ولا يرجع هذا فقط الى أن عددا كبيرا من الناس يستطيع أن يحاكى أسلوب الارستوقراطيين فى المعيشة ، وانما لأن العادة المستحدثة ، كما أوضحنا ، تهتم أولا وقبل كل شىء بتوافه الحيــاة ، أو بالتحسينات الثانوية فى ضرورياتها . ونحن لا نفكر فى اجراء استحداث فى الأوفرول (اللباس الفوقى) حتى نأخذ به أولا « كبدلة » للعب أو نقره كلباس وجيه . ان هناك استحداثا فى الشكل الخارجى للسيارة أكثر مما فى عددها وأجهزتها الداخلية . ان ما يحدث من وقت لآخر فى الآلات البخارية وغيرها هو تغييرات لا تأخذ بأية حال مظهر العادات المستحدثة . وليس لهذه الآلات من وظيفة الا مجرد أنها آلات . وكلما ارتفع مستوى المعيشة وكثر تبعا لذلك ارتداء ملابس اللعب واستخدام السيارات وغيرها اتسع المجال للعادة المستحدثة لكى تظهر وتنتشر .

٢ ــ **عوامل المواصلات والاختراع** : ان انتشار العادة المستحدثة فى العصر الحديث يرجع جزئيا الى النمو المطرد فى وسائل المواصلات التى قربت المسافة والزمن وما يتصل بذلك من سرعة فى الاختراع . ولقد تضاءلت المساحات التى تسود فيها العادات الجمعية ، أى فى مواطن الاحتكاك الشديد المتعددة المظاهر، التى أوجدتها حضارتنا ، وعلى الأخص

(١) Spencer, op. cit. II, 213-214.

فى الجهات المعروفة بكثافة السكان . وذلك لأن العادة الجمعية لا تقوى وتكون شديدة التأثير فى حياة الناس الا فى المناطق النائيـة البعيدة عن المواصلات . ومن شأن الاحتكاك والاتصال أن يقربا بين العادات الجمعية المتباعد بعضها عن بعض وأن يحطم قدسـية الـكثير من مناهج الحياة المقررة . وبالاضافة الى ذلك فان الاختراعات المتتالية التى يتميز بها العصر الصناعى الحديث والتى تتناول أساليب العمل والحياة ، وانما هى عامل مقاومة شديد الأثر فى وجه العادات الجمعية القديمة ، من طبيعته أن يؤدى الى عمليات تغير اجتماعى مطرد يحد بالتالى من تكوين عادات جمعيـة جديدة . وعلى ذلك فهناك زيادة كبيرة فى المساحة التى يسود فيها عـدم التقيد بالعادات الجمعية نتيجة لسيطرة العادات المستحدثة . ومعنى هذا أنه حيثما تفقـد العادة الجمعية سلطانها تكسب العادة المستحدثة أرضا جديدة . وهـذه الزيادة فى ثبات مركزها اليوم ، والتى يرى بعض نقاد عصرنا أنها نذير بالانحلال الاجتماعى يمكن ارجاعها ، اذن ، الى التقدم الحضارى الذى زاد من اتصال الناس بعضهم ببعض .

٣ ـ **العـادة المستحدثة فى المجتمع المتباين** : من الممكن أن ينظر الى العادة المستحدثة فى المجتمع المعقد من ناحيتين متقابلتين . فمن جهة يمكن أن تصبح العادة المستحدثة المرشد الأول للحياة سواء فى مجتمعات الحمقى أو العقلاء . ويجوز أن تغتصب مكان مقاييس السـلوك فى الحضارات المنحلة وهكذا نجد تاسيتوس الكاتب الرومانى ، اذ يأسف على انحلال المستويات الأخلاقية فى روما فى أيامه ، صرح بالعبارة الآتية : « ان العادة المستحدثة اليوم هى أن تشيع الفساد أو تدع غيرك يفسدك » (١) . وفى كثير من العصور التالية، بما فى ذلك حضارتنا ، كان الاخلاص لنزوات

---

(١) Tacitus, *Germania*, p. 19.

العادات المستحدثة وعـدم المبالاة بالجوانب الأساسية للحياة سواء من جهة الأرستقراطية الايطالية، فى أواخر عصر النهضة أو فى السنوات الأخيرة من جهة لابسى بعض الأزياء المستحدثة الآخذين فى الاختفاء ، فقـد نظر الى هـذه الأمور نظرة ترحيب كأدلة يقينية على الانحلال الاجتماعى . ويصح أن نسجل أن كثيرا من مظاهر التقدم الانتقالية والسطحية ليست بأى حال «أدلة» ذات مغزى . أما المهم حقا فهو أن الفرد أو الجماعة حينما يقتصر اهتمامها على مقتضيات العـادات المستحدثة ، مهما كان هـذا الاقتصار مؤقتا فانه فى هـذه الحالة يـكون الفرد أو الجماعة فى مرحلة انحـلال .

ومن جهة أخرى فان العادة المستحدثة تؤدى فى داخل اطارها وظيفة اجتماعية مفيدة ، فهى تدخل نمطا عاما مشتركا من خلال ما تفرضه من احساس بعـدم الاكتراث ، وفى ذلك مظهر أو احساس بالتشابه يدعو الناس من مختلف المصالح والمشارب للالتقاء معا ، ويجعل من السهل عليهم أن يحتفظوا بالصفات الفردية والجماعية وأن يعملوا على التوفيق بينها . ويكون للعادة المستحدثة لهذا السبب دلالة خاصة فى المدى العريض الذى يميز الحضارة الديموقراطية المتباينـة العناصر . ولـكن حينما يتجاوز سلطانها الأمور السطحية فى الحياة حتى يصبح « المستحدثات الشائعة » أن يغير الرجال زوجاتهم من وقت لآخر أو أحزابهم السياسية أو أصدقائهم فانها تكون فى هـذه الحالة بديلا هزيلا للجزاءات الأكثر استقرارا التى يمـكن أن تعـالج بها أمور الزوجات والأوضاع السياسـية ومشاكل الأصدقاء . ان حكم العادة المستحدثة لا يتصف بالعمق ولا بالمنطق ، اذ أنه مجرد نزوة لا تستند الى مقدمات وهو يهتم بالمظهر الخارجى للحياة لا بجوهرها ، كما أنه أبعد ما يكون عن الاقناع أو الاستقرار .

تخطيط العادة المستحدثة : لقد اقترحنا عدة أسباب لتحكم العادة المستحدثة وتأثيرها فى تميل عقول الناس. وربما كان الشيء الأقل وضوحا هو المكان الذى تهب منه ريحها أول ما تهب أو تنبثق منه تعاليمها أول ما تنبثق . وبعبارة أخرى من هم القادة الذين يتولون عمليات التخطيط الأولى ؟ ومن أين جاءتهم هذه السلطة التحكمية التى تجعلهم يفرضون العادة المستحدثة على الناس ؟ ونحن لا يكفينا هذا التفسير القائل : بأن العادة المستحدثة ما هى الا « محاكاة المعاصرين » . وذلك لأنها يتحتم أن توجد أولا وأن تحصل على الاعتراف بها قبل أن يقلدها الناس . انها تتبع لأنها عادة مستحدثة . ولها قادة كما أن لها معجبين — والقادة كما رأينا هم أصحاب الحيثية أو الراغبون فى الاحتفاظ بالهيبة من أفراد الطبقات العليا . ولا بد أن تكون لديهم القدرة على استجلاء الاتجاه العام أو المزاج الذى يميز زمانهم سواء أكان ذلك فى أمور الملبس أم الفنون أم مسائل اللغة أم الفكر . وهذه القدرة ليست سهلة فان أشهر القادة قد يعجزهم أحيانا أن يتنبأوا بهذا الاتجاه العام فيفقدون الهيبة بعض الوقت . كما حدث للاخصائيين الباريسيين فى شئون العادة المستحدثة (الموضة) أكثر من مرة . كذلك لا يمكن أن تفسر العادة المستحدثة ببساطة بالمصالح الاقتصادية . انها قادرة على أن تبطش بأية مصالح اقتصادية معينة لا تخدم أغراضها ، كما حدث لبعض صناعات الصوف والنسيج مما كبدها خسائر كبيرة . نعم ان هناك وكالات اقتصادية هامة تعمل على اثارة نمو العادات المستحدثة وفوق كل ذلك تعجل من ادخال التغييرات عليها . والمشاهد أن البدعة « الموضة » الجديدة بمجرد أن يستشعرها الناس تأخذ هذه الوكالات فى الدعاية لها لاقناع الجماعة المحلية بأن بدعة « موضة » جديدة قد وصلت ، وتستحث الأفراد على الاقبال عليها . وان الزعم بأن كتابا ما سريع النفاد من السوق أو أن أغنية ما موضع هوس الناس ، أو أن تمثيلية جديدة هى قنبلة الموسم ، أو أن لونا ما لبعض الأقمشة هو المفضل عند « أرقى البيئات »

يمكن أن يكون ذا معنى حقيقى اذا استند الى شىء من الحقيقة . أما المصالح الاقتصادية فلا تخلق الرغبة فى اتباع « الموضة » وانما تقويها فقط .

ومع ذلك « فالموضة » ليست مجرد ظاهرة متحركة ومستمدة للسير فى الطريق الذى يرسمه لها مبتدعوها . انها يمكن أن ينتهى بها الأمر الى أن ترتبط بالأشكال العميقة للضبط الاجتماعى . وأن تعمل على التوفيق بين أحكامها وظاهر التغير فى ميادين الأخلاق والدين والاقتصاد . بينما تتحرك الى الأمام والى الوراء من موسم لآخر فانها بوجه عام تشق طريقها فى اتجاهات واضحة [1] . وهذه الاتجاهات تدل أحيانا على تغيرات أكثر أهمية فى داخل الجماعة المحلية وليس من قبيل المصادفة — كما رأينا — أن يلازم التغيير الاقتصادى والاجتماعى لمركز المرأة بعض التعديلات الدائمة بطريقة تدريجية فى شكل ملابسها . (وفى الحقيقة أن « الفساتين » الطويلة التى نادى بها البعض فى أمريكا سنة ١٩٤٧ أدت الى مظاهرات احتجاج فى جهات مثل دالاس وتكساس على أساس « تحرر » المرأة الحديثة) . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تقترب ملابس السيدات فى زمن الحرب وبعده من ملابس الرجال ، من حيث الشكل .

واذ تطفو العادة المستحدثة على سطح الحياة الاجتماعية ، مستجيبة لنزوات الساعة فانها تكتشف عند الأفراد رغبة فى البحث عما يعوضهم عن الارهاق الذى يتحملونه من جراء خضوعهم زمنا طويلا للعادات الجمعية والفردية وأسلوب الحياة اليومية الرتيب وهى تساعد من طريق محاولة الأخذ بها وانتشار التطابق العام الذى تدعو اليه فى تخطى مراحل الانتقال التى تفرضها عملية التغير الاجتماعى. وغالبا ما تخلق سلسلة من الخطوات

---

(١) See A.L. Kroeber, "On the Principle of Order in Civilization as Exemplified by Changes of Fashion", *American Anthropologist*, N.S. XXI. No. 3 (1919), 235-263.

التى قد تبدو غير متتابعة منطقيا ممهدة لعادات اجتماعية الواحـدة تلو الأخرى . وبهذا تؤدى دورا معينا فى صيانة التركيب الاجتماعى وتغير شـكله .

قدمنا فى هذا الفصل صورة للأنواع الرئيسية لقواعد السـلوك الاجتماعى ، اذ عقدنا تقابلا فيما بين الدين ومقاييس السلوك وفيما بين العادة الجمعية والقانون وفيما بين العادة الجمعية والعادة المستحدثة . وناقشنا كلا من هذه الظواهر مع الاشارة بصفة خاصة الى وظائفهـا ومدلولاتها وما يبدو عليها من قصور عن ادراك غاياتها فى المجتمع الحديث المعقد . وفى خلال الجزء الثانى من الكتاب الثانى [1] ، وأثناء معالجتنا أنواع الزمر المختلفة فى التركيب الاجتماعى ، وأيضا خلال الكتاب الثالث فى تحليلنا للتغير الاجتماعى سوف نعرض من حين لآخر لمناقشتنا الحالية لقواعد السلوك . ومع ذلك يبقى أمامنا عمل أخير هام ، وهو أن ننظر فى قواعد السلوك من حيث صلتها بحياة الفرد الخاصة .

هذا ما سنواجهه فى الفصل التالى .

---

(١) انظر تقسيمات الكتاب كما وصفها المؤلفان فى الصفحات الاولى .
— المترجم

الفصل التاسع

قواعد السلوك والحياة الفردية

العادة الجمعية والعادة الفردية :

المشكلة التى تواجهنا : مرة ثانية تدعونا دراستنا لقواعد السلوك للرجوع الى مسألة أساسية سبق أن ناقشناها فى الفصلين الثانى والسادس وفقرات أخرى هنا وهناك . وسنناقش الموضوع فى هذا الفصل من وجهة نظر الفرد ومن ناحية مواجهته لقواعد السلوك المنوعة والمتضاربة فيما بينها أحيانا ، وما تنطوى عليه من مطالب وجزاءات . وستظهر طبيعة هذه المشكلة بكيفية أكثر وضوحا اذا بحثنا أولا كيف يمكن وصل المبدأ الاجتماعى الخاص بالعادة الجمعية بالمبدأ الفردى الخاص بالعادة الفردية .

العادة الجمعية وطبيعة العادة الفردية : قليل من التمييزات تلقى ضوءا قويا على صفة المجتمع فيما عدا التمييز بين العادة الجمعية والعادة الفردية ، هذا التمييز الذى كثيرا ما تحوطه مظاهر الغموض . وفى الحق أن العادة الجمعية ظاهرة اجتماعية وأن العادة الفردية ظاهرة فردية ، ولكن هذا التمييز يحتاج الى تفسير . ولا يكفى أن ننظر الى العادات الجمعية باعتبارها عادات الزمرة أو « تطابق عام للعادة الفردية » [1] . وبالطبع

---

(١) هكذا عرفها جون ديوى فى كتابه :

John Dewey in Human Nature and Conduct (New York, 1922), Chap. IV.

ونحن نختلف مع جون ديوى فى هذه النقطة بشأن العادة الجمعية والعادة الفردية كما وردت فى بيانه الذى قدمه فى الفصل الرابع من الكتاب المذكور بالرغم من أن هذا البيان يقوم على تحليل عميق وايحاء بأفكار جديرة بالنظر .

أن أية عادة فردية معينـــة نشأت عن ظروف مشتركة بين أفراد كثـــيرين، ويؤديها كثيرون من أعضاء الجماعة ، من الممكن أن تصبح عادة جمعية . وفى هذه الحالة تتكون العادة الجمعية على أساس من العـــادة الفردية وتكسب من الجزاءات والتأثير والمعنى الاجتماعى ما يقربها من العـــادة الجمعية ، وحيثما وجدت عادة فردية منتشرة فمن المحتمـــل أن تقابلهـــا عادة جمعية فى نفس الوقت . واذن فالعادات الفردية تخلق عادات جمعية والعكس صحيح . ولكن العادتين ، بالرغم من هذه العلاقة الدقيقة بينهما متميزة احداهما عن الأخرى . ولا تستطيع العادات الجمعية أن تعيش الا اذا غرست العادات الفردية المقابلة لها فى نفوس الأجيال الناشئة ولكن العادات الفردية يمكنها أن تنشأ دون تأييد من العادات الجمعية ويتحتم على الأشخاص الذين أجريت عليهم تجارب العزل الاجتماعى القاسية مثل كاسبار هاوزر أو « الأطفال الذئاب » أن يعيشوا بلا عادات جمعيـــة ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون عادات فردية .

العادات الفردية أساليب للسلوك اكتسبت بالتكرار صفة الثبات : ان ميل الانسان للاستجابة بنفس الطريقة الى نفس الظروف يتأيد ويتحدد — بالمسلك الثابت الذى لا يحيد عنه — فى شكل تصرفات فيزيقية (جثمانية) ونفسية . فمثلا يجعل اكتساب العادة الفردية القيام بعمل معين مثل تنظيف الأسنان أو اطعام الطفل الرضيع أو الذهاب الى الكنيســة أمرا ســهلا وعاديا يتصف بخلوه النسبى من أى مجهود وبملاءمته لمن يقوم به . ان العادة الفردية معناها احساس سهولة مكتسبة للتصرف بطريقة معينة دون الالتجاء الى مداولات فى الأمر أو التفكير فيه قبل الاقدام على تنفيذه .

ونحن عنـــدما نكوّن عادة فردية نجتهـــد أن نسهل على أنفسنا من الناحيتين النفسية والجثمانية طريقة أدائها بكيفية معينة ، وأكثر أو أصعب من ذلك تؤديها بكيفيات أخرى جديدة اذا لزم الأمر ومخالفـــة للكيفية التى اعتدناها . وبهذا المعنى تعتبر العادة الفردية « طبيعة ثانيـــة » أو

بعبارة أدق طبيعتنا الواقعية وأسلوبنا للاستجابة الثابتة والعميقة الجذور، التى غالبا ما تبدو كالمتأصلة فى أعماق نفوسنا . انها تحل محل استعداداتنا الوراثية أو القوى الكامنة فى تكويننا الوراثى . ولما كانت الطبيعة الانسانية قابلة تمام القابلية للتكيف ، وغنية كل الغنى بقواها الكامنة ، وعلى أتم استعداد لاحداث أى تغيير يتفق ومصلحتنا ، كذلك لما كان من الممكن أن تدرب الشخص وهو فى سن مبكرة على ما نختار له من أساليب الحياة الكثيرة والمنوعة ، وأن نغرس فى نفسه حب أية صناعة أو قدرة من القدرات ، فان تكوين العادة الفردية يصبح ذا أهمية قصوى فى عملية التربية التى تتميز بأنها عملية اطرادية . وذلك لأن العادة واقعة فانها تسد الطريق على الوسائل الأخرى لاشباع نفس رغباتنا . وباغلاقها عدداً لا يحصى من مسالك الحياة تيسر لنا أن نشق طريقنا فى العدد القليل من المسالك التى اختارتها لنا . ونحن لا نستطيع أن ننتج أى شىء الا من طريق العادات الفردية . والنقطة الهامة التى تواجهنا هنا هى أى هذه العادات يلائمنا وكيف تتكون .

العادات الفردية الأوتوماتيكية والمحكومة : ان الطريقة التى تكون بها عادتنا الفردية تحدد ما اذا كانت هذه العادة ستستبد بنا ، أو ستكون أداة مفيدة نستعين بها على الحياة . ومما لا شك فيه أن قصور الوراثة والحدود التى تقف عندها تلعب دورا فى هذا التحديد . ولا ينبغى أن نغفل الأهمية الخاصة التى نعلقها على تربيتنا فى هذا الشأن .

١ - التعلم والعادة الفردية الأوتوماتيكية : الى حد ما تنطوى عملية التعلم — ونقصد أى تعلم مهما كانت طبيعة الشىء الذى نتعلمه — على اكتساب عادات فردية . ونحن قد نتعلم أن نؤدى أعمالا بحكم ما يفرض الروتين علينا من ضغط . وفى هذه الحالة لا يكون لعملية التعلم أى معنى مباشر وتتضاءل حتى تؤدى الى نتائج ميكانيكية . وتميز طريقة التعلم المشار اليها كثيرا من مظاهر الروتين التى تنفذ الى صغار السن فى

جميع المجتمعات والتى نراها ممثلة فى النشاط الأساسى المتصل بالرضاعة والفطام وابعاد الطفل عن حجر أمه والنوم والمشى . والمعلوم أن التنوع الثقافى فى هذه الأمور كبير جدا . وفى كل مجتمع تلعب أساليب التربية الخاصة المؤدية الى عادات فردية أوتوماتيكية دورا واضحا فى تحديد النماذج العامة للشخصية — وهذه حالة يعنى بتقصيها الأنثروبولوجيون (علماء الاجتماع المقارن) وعلماء النفس ، كما أشرنا قبلا فى الفصل الثالث .

هذا النوع من تكوين العادات الفردية مقتصر على تعليم الصغار . ويحضرنا مثال آخر عن تكوين العادة الفردية الأوتوماتيكية وأبعد ما تصل اليه ، هو طريقة «صول» التدريب فى الجيش أو طريقة السلاح البحرى فى تدريب المجندين [1] ، وهى مبنية على نظرية تربوية قابلة للمناقشة ، مؤداها أن غرس الطاعة الأوتوماتيكية فى نوع من النشاط ينتقل بالضرورة الى أنواع أخرى . ومما يؤسف له أن طريقة عدم مناقشة المعلم تجد من وقت لآخر منفذا الى الفصول الدراسية بالمدارس وذلك عندما يتحول التعليم الى املاء ، وينتهى الأمر بالمعرفة الى عملية حفظه عن ظهر قلب ، بدلا من أن تهتم بارتياد المجهول فى عالم ملىء بما يستحق النظر والتأمل .

وهناك نوع آخر من العادة الفردية الأوتوماتيكية تفرضه التكنولوجيا (الآلات والأدوات) وعملية التحضر فى المجتمع الحديث . فمثلا الآلة التى تدور عدة دورات لا حصر لعددها على وتيرة واحدة ، تدعو الى تعرض الشخص الذى يتعهدها أو يقوم بتسييرها الى روتين مشابه — وهذا الموضوع محبب الى رسامى الصور الكاريكاتورية ، وقد صوره ببراعة شارلى شابلن فى فيلمه المشهور العصر الحديث ، الا أن هذا النوع من الروتين محدود جدا ومقصور على ناحية التخصص

---

(١) هنا تصرف بسيط فى الترجمة . — المترجم

والعمل ، وهو ، ما لم تصحبه ظروف أخرى تنتزع من الحياة طرافتهـا وكرامتها ، لا ينشب أظفاره فى نفسـية الفرد مثلما تستعبده العـادات الفردية وتفرض سيطرتها عليه باسم السلطة . وكذلك لا وجـود لعنصر السلطة هذا فى العادات الفردية الأوتوماتيكية التى يدفعنا نحوها الزحام الشديد ووسائل تنظيم الحركة وتسهيلها فى الحيـاة داخل المدن ، مثل عادة دفع الغير لافساح الطريق فى باب النفق الأرضى فى المدن الكبيرة ، والتزام السير على الجانب الأيمن من الطريق ، والاعتماد على نفس محل المأكولات المتنوعة الواقع فى ركن معين من الشارع ، وهكذا . هذه جميعا هى العادات الفردية الضرورية التى تخلق على التحقيق كثيرا من سلوكنا الروتينى ، ولكنها جوهرية اذا كان لابد لنا أن نوفق بين أنفسنا وبين ظروف الحياة الحديثة .

٢ ـ **الوظيفـة الايجابية للعـادة الفـردية المحكومة** :من خصائص العادة الفردية أنها تدعو الى أن يقتصد الفرد فى استخدام طاقته وتقلل مما قد يكون فى العمل من كآبة وتوفر ما يمكن أن نستغنى عنه من اطالة التفكير .وكلما كانت هناك أعمال متكررة نقوم بأدائها مثل حلاقة الذقن فى الصباح ، أو التوجه الى العمل سيرا على القدمين أو كتابة رسائل على الآلة الكاتبة ، أو عمل ثقوب فى الصلب كجزء من عملنا اليومى فى أحد المصانع فمن الكسب لنا أن نعهد بهذه العملية الاطرادية الى اجراءات العادة الفردية التى لا يلازمنا أثناءها كل شعورنا . اننا لا نستطيع اطلاقا أن نتعلم عمل أشياء بسهولة وبطريقة حسنة اذا كان علينا أن نفكر من جديد فى كل مرحلة من مراحل العملية الاطرادية . وهذا لا ينطبق على الأعمال الميكانيكية فحسب ، بل وعلى أدق الأعمال الفنية وأكثرها اتجاها نحو الخلق والابداع ، ففى الأعمـال الميكانيكية ينبغى الحيلولة دون تفكير العامل فى أية مسألة لا تمت بصلة الى السيطرة الواعية على العملية التى بين يديه ، حيث لا يوجد مجال للتفكير الحر فى هذه المناسبة . وفى الفنون الابتكارية يسعى الفنان الى التعبير عن شىء فى نفسـه بتطبيق

أسلوب يتحكم فيه بعادة فردية ويجعل هذا الأسلوب تابعا للشيء الذي يسعى الى التعبير عنه ،وبذلك يمنعه من التحول الىمجرد حالة ميكانيكية ان رضاه واتتاجه لا يتمتعان بانتهائه من عملية الخلق وانما هما يبدوان فى الخطوات التى يخطوها نحو الغاية . وعندما يجد الموسيقى نفسه مثلا قادرا على أن يحول الى حكم العادة الفردية المنهج الذى يمكن وراء فنه فانه يكون فى هذه الحالة حرا فى أن يتفرغ الى تفسير موسيقاه ، وبهذه الكيفية يستطيع أن يستمتع بها هو نفسه وأن ينقل الى الآخرين فى نفس الوقت معنى هذه الموسيقى عنده .

هذا المثال من الفنون يسمح لنا أن نستعرض جانبا آخر من الجوانب الهامة للعادة الفردية اذا كانهناك عمل يؤدىلمجرد الوصولالىالغاية منه، ولم يكن فى أدائه مصلحة للقائم بالعمل أثناء قيامه به ، فان العادة الفردية تصبح ميكانيكية وأقربالىالعمل الكئيب الذىلا يهدف الا الىأن يستبد بصاحبه . والعادة الميكانيكية فىأغلب الأحوالنتيجة لضرورة اقتصادية ، وكانت تميز عصر ما قبل الصناعة كما تميز نظام العمل فى المجتمع الحديث. ويسعى الأفراد ليرفهوا عن أنفسهم من عبء العادة الميكانيكية بالرياضة أو المرح أو الهوايات أو استخدام وقت الفراغ استخداما حسنا أو ربما بالمشروبات الكحولية والمخدرات أو بمجرد الاسترسال فىأحلام اليقظة . وعلى كل حال لا ينبغى لهذا السبب أن ننظر الى العادات الفردية الجانحة باعتبار أنها ظواهر تؤدى بطبعها وظيفة جوهرية قوامها انقاذ طاقة الأفراد وتحريرها من استعباد الآلة .

العادة الفردية كأحد عوامل المحافظةفىالحياة الاجتماعية : كثيرا ما يحلو لمعظمنا أنينتقد عادات الآخرين الفردية أو ينقدوا عاداتهم هم بحجة أنهذه العادات قد حالت بينهم وبين انتهاج أساليب جديدة فى الحياة . وبعبارة أخرى لقد شكونا وما زلنا نشكو من دور العادة الفردية فى ابقاء الأحوال الراهنة لبعض أوضاع حياتنا على ما هى عليه ، أو من العادة الفردية كأحد

عوامل المحافظة فى الحياة الاجتماعية . ولهذه الوظيفة التى لنسبها للعادة جوانب متعـــددة .

١ ـ « سلطان » العادة ومظاهر قصورها : تجرى على ألسنتنا كثيرا عبارة « سلطان » العادة . وفيما يلى وصف بليغ للمقصود بذلك ، يقدمه لنا وليم جيمس :

«العادة الفردية هي عجلة المجتمع الكبرى التى تحفظ نظام سرعته [1] ، وأهم من ينوب عنه لتأمين سلامة أوضاعه المحافظة ، وهى وحدهـــا التى تطوقنا جميعا داخل حدود النظام وتجنب أبناء السعداء المحظوظين ثورات الحقد من جانب الفقراء . انها دون سواها هى التى تمنع الناس من أن يهجروا الصناعات والحرف الدنيا التى نشأوا فى أحضانهـــا . وهى التى تطلب من الصياد والعامل على ظهر السفينة أن يستمرا فى ممارسة عملهما فى البحر أثناء فصل الشتاء . وهى وراء العامل فى المنجم تحضه على البقاء فى الظلام حيث يعمل فى أعماق الأرض . ووراء القروى تسمره فى كشكه الخشبى ومزرعته المنعزلة خلال جميع شهور الجليد . وهى التى تحمينا من غزوات بدو الصحارى وسكان المنطقة المتجمدة . انها تقضى علينا بما توجهنا اليه من كفاح فى الحياة مستوحين تربيتنا الأولى واختيارنا المبكر . وقد يترتب على ذلك أن نمضى فى سبيل لا تلائمنا تماما ، لأنها علمتنا أننا لا نصلح لشىء الا ما آلفنا فى الصغر ، وهى تذكرنا دائما أنه قد فات أوان البدء من جديد . وهى التى تحول دون تداخل الطبقات الاجتماعية بعضها فى بعض . تأمل هـــذا الشاب البالغ من العمر خمسا وعشرين ســنة وما يبدو عليه من علامات صناعية رغم أنه لم يتقدم فى السن نتيجة أسفاره كمشتغل بالتجارة المتنقلة ، أو العلامات المماثلة التى تميز الطبيب الناشىء

---

(١) يتحدث وليم جيمس هنا عن عجلة المجتمع الكبرى على غرار العجلة الكبيرة الثقيلة المركبة على الآلات الضخمة فى المصانع لحفظ نظام سرعتها .
ـ المترجم

أو القسيس الشاب ، أو المحامي الصغير . وانك لتجد فى الناس جميعا دلائل على ما نقول ، مثل تجاعيد الوجه ، والمكر والدهاء ، ومظاهر التحيز ، وأسلوب التجارة . وبايجاز لا يستطيع أن يفلت الفرد من هذه العلامات المميزة فاذا حاول ذلك تعثر فى مشاكل عديدة . وبوجه عام من الأفضل له ألا يفلت . ومن مصلحة الانسانية أن تتحدد فى سن الثلاثين الأخلاق والصفات فى أكثر الناس وأن تتجبس تماما بحيث لا تلين بعد ذلك البتة [1] » .

ونحن لا نعرف اذا كان جمود الأخلاق وصلابتها على هذا النحو الجبرى مفيدا للانسانية أم غير مفيد . ان المسألة على كل حال قابلة للمناقشة . والعادة الفردية فى الأمثلة التى قدمناها هنا ينبغى أن ينظر اليها من حيث كونها أداة تجعل نشاط الناس المتواصل سهلا ومقبولا ، لا كسلطة مستبدة . وهى تجعل الضرورة محتملة ولكنها لا تتسبب فى خلق الضرورة ومن طبعها أنها تجعلنا نألفها لدرجة أنها لا تبدو لنا أنها ضرورة ملحة . وعلى ذلك فبمجرد أن تكون عادة فردية لنا نجدها قد تنزع من خيالنا أية تجارب أو أهداف كانت تبدو وقتا ما أكثر جاذبية .

ان الصفة المحافظة التى تتميز بها وظيفة العادة من ناحية تيسيرها سبل الحياة تتضح أشد الاتضاح فى أولئك الناس الذين فكروا عدة سنوات فى تغيير مسكنهم والجيرة التى يعيشون فيها واتهاج أسلوب جديد لحياتهم وحتى اذا ما استقر بهم المقام فى المسكن الجديد أو مارسوا فعلا الأسلوب الذى كانوا يحلمون به هزهم الشوق الى القديم من المسكن والجيرة وطريقة العيش . وهذه حالة كثيرا ما نقرأ عنها فى القصص أو نراها فى الأفلام السينمائية . والأغرب من ذلك أن حياة الفقر والهوان تصبح بحكم العادة الفردية ذات قيمة ذاتية تجعل الناس يتمسكون بها ، اذا أتيحت

---

(١) William James, *Principles of Psychology* (New York, 1890), I, 121. Reprinted by permission of the publishers, Henry Holt and Company.

الفرصة لهم للتمتع بمزايا التغيير ، وحتى السجين قد يحب سلاسله بمضى الزمن لنفس السبب . ولكن هناك جانبا آخر لهذه الصورة . فان الطاقات التى ادخرتها العادة الفردية اذا لم تجد مخرجا تتجاوز به حدود نشاطها فان القوى الكامنة التى لم تستخدمها العادة أو تفسح لها الطريق ، قد تحطم سدود العادة ومسالكها للحصول على ما حرمت منـه من رضا . وهذه هى الظاهرة التى تسمى فى بعض أشكالها الدينية التحول من دين الى دين . ونرى نوعا آخر منها فى التغلب على الشهوات الملازمة مثـل الشهوة التى يخلقها تعاطى المخدرات ، اذ ينظر لهذا التغلب باعتبار أنه تحول تام عن العادات « السيئة » ولكنه فى بعض الأحوال يحدث نتيجة لنبذ مفاجىء « لعادات حسنة » فرضتها سلطة معينة فى الماضى أو أدى اليها ضغط اجتماعى يقوم على توهم لزومها للحياة فى المجتمع . مثل هذه الثورات على العادات المتواضع عليها تحظى من وقت لآخر بالتصوير الكاريكاتورى كما يتناولها مؤلفو القصص فى قصصهم . والأمثلة على ذلك عديدة . وهذا التغير المفاجىء المتحدى للعادات الخاصة المقصود به نقل الحياة الشخصية الى مستوى مضاد يشبه ظاهرة الثورة الاجتماعية ، التى تقوم على رفض العادات الجمعية والنظم السائدة الداعية بما لا يحتمل الى التأخر والجمود ، وان كنا نرى أن هذه الموازنة ليست كاملة ، بما أن العادة الجمعية التى نثور ضدها نشعر أنها خارجة عنا وغريبة علينا بينما العادة الفردية الخاصة أصبحت مندمجة فى شخصياتنا وجزءا من كياننا .

واذن فنحن عندما نتحدث عن سلطان العادة الفردية أو استعبادهـا للأفراد ينبغى أن نذكر أنها ليست حاكما ذا سلطة مطلقة علينا يعمل ضد ارادتنا . ولهذا التصور ، على التحقيق ، تطبيق محـدود على مجموعة الأفراد الشواذ الذين وقعوا فريسة لعادة تعاطى المخدرات ولهم نفسية خاصة . وان كان لابد لنا هنا أن نشير الى أن الواحد من هؤلاء يطلب شيئين : المخدر ، والتخلص منه . ولكن بوجه عام ما العـادة الفردية الا

الوسيلة التى يستعين بها الانسان على تنظيم حياته الخاصة فى الظروف التى يتعين عليه أن يقبلها وأن يعيش فيها . وهو بحكم تكوينه الطبيعى يستطيع أن يعيش فى البلاد المغطاة بالجليد وفى المناطق الاستوائية الحارة وفى المدينة أو الريف ، وبايجاز فى جميع البيئات الاجتماعية والطبيعية . ويمكنه أن يختار صناعة من ألف صناعة يصلح لها . كما أن هناك مصالح وأنواعا من التسلية يمكن أن تتزاحم عليه فى أوقات فراغه . ومنها يتحتم عليه أن يختار . وهذا الاختيار يحـدث تحت تأثيرات من أقرب البيئات اليه ، ومن تعليمه وخبرته . ومن مزاجه واستعداده والفرص الاقتصادية المتاحة له . وبمجرد أن تتكون العادة الفردية تقر الاختيار أو تعالج مضاره ومضايقاته لمنع أى اختيار آخر . وفى المراحـل الأولى للتكوين تكون العادات الفردية أكثر عرضة للمراجعة واعادة التكيف . ولكنها عنـدما تستقر نهائيا ، وعلى الأخص أثناء مصاحبتها لنا فى نمونا ، تنسج نفسها فى شخصياتنا فتتصل العادة بعادة أخرى ويتألف من هـذا النسيج نمط حياتنا . ولا يصبح الا للتأثيرات العنيفة كالانتقال من الحياة المدنية الى الحياة العسكرية أو من المعيشـة فى مجتمع حر الى حيـاة السجن أو معسكرات الاعتقال ، أن تقدر على مقاومة العادة الفردية [1] .

٢ ـ حالة العـادات الفردية المتاصلة فى العواطف : يمكننا أن نرى بوضوح وظيفة العادة الفردية ومزاياها والتضحيات التى يقوم بها الفرد فى سبيلها فى حالة العادات التى تختلف عن تلك المتصلة بالقدرات الفنية ، ونعنى العادات القريبة المرتبطة بعواطفنا ارتباطا وثيقا . وأهم الأمثلة على ذلك عاداتنا الفردية الخلقية والدينية التى تشـمل كذلك طرق تفكيرنا وتصرفاتنا فى المسائل السياسة والاقتصادية التى تؤثر فى مصالحنا أبلغ

---

(١) انظر على سبيل المثال شرحا لهذه النقطة فى بحث ممتاز قام به اثنان من الاخصائيين فى فن العلاج النفسى بالجيش الأمريكى ، وفيما يلى عنوان البحث : R.R. Grinker and J.F. Spiegel, *Men under Stress* (Philadelphia, 1945), especially Chap. XIX and XX.

الاتجاهات ، بدليل وجود الانحرافات الجنسية المتعددة عن المعايير القائمة فى كل المجتمعات الانسانية على وجه التقريب [1] .

وهناك اعتبارات مشابهة يمكن تطبيقها على العادات الفردية الأخرى الخاصة بالعمل والصناعة فى مجتمعنا الحديث ، أصبحت مرتبطة بالقيم الدينية والخلقية ، وبالعادات الفردية المتعلقة بالسلوك السياسى مما دخل جميعا فى تقاليد الأسر وغيرهـا من الزمر . وكذلك بالعـادات الفردية الخاصة بالمصطلحات الأخلاقية اللازمة للحياة اليومية . ويسبب الانفلات منها أحيانا اضطراب شخصى وعام فى المجتمع . وفيما يتعلق بها جميعـا يكمن الخطر فى أن الضرورة التى فرضتها تهدف نحو حزمها فى لفافة من العاطفة العمياء وبذا تمهد لامكان نموها والى جعلها مرنة ، ثم الى التحكم فى اعادة توجيهها توجيها ذكيا . وفى هذا المجال كما هى الحال فى غيره من المجالات وربما هنا أكثر من أى مكان آخر نجد أن التأمين ضد الفائدة المحدودة وضد الركود أو ضد الثورة العمياء أيضا يقوم على وبط العادة الفردية بالتفكير . وعندما تنمو العادة الفردية أو العادة الجمعية فى جو من التوقير والقداسة وخارج حدود الاختبـار والتفكير النقـدى تتعرض سعادة الفرد ورفاهية الجماعة للخطر .

النظام الاجتماعى وعلاقته بالعادات الجمعية والفردية : يمكننـا الآن أن نستخلص بعض النتائج المتعلقة بالتمييز بين العادة الفردية والعـادة الجمعية كما اقترحنا فى أول هذه المناقشة . واذا طاب لنا أن نعتبر العادات

---

(١) للأدلة الأنثروبولوجية فى هذه الناحية انظر :

B. Malinowski, *Sex and Repression in Savage Society* (New York, 1927); M. Mead, *Sex and Temperament in Three Primitive Societies* (New York, 1935); and for the United States, A.C. Kinsey, W.B. Pomeroy, and C.E. Martin, *Sexual Behaviour in the Human Male* (Philadelphia, 1948).

نشك فى ان الأدلة الأنثروبولوجية (مالينوسكى ومارجريت ميد) التى ساقها المؤلفان تؤيد وجهة نظرهما تمام التأييد . — **المترجم**

الجمعية و « العادات الفردية للجماعة » شيئا واحدا كما درج الكثيرون على ذلك ، فسيترتب على ذلك اما أن نستغنى عن التمييز بين المفهومين كلية ، واما أن نميز بينهما تمييزا عدديا . وفى هذه الحالة لا يختلف اهتمام اخصائى فن العلاج النفسى بعادات الفرد الخاصة عن اهتمام السوسيولوجى بعادات الجماعة وأساليبها . وبالضرورة يتصل عمل كل منهما اذن بعمل الآخر ، بل ويتوقف عليه كما سنرى . ولكن ما يقومان به ليس شيئا واحدا على كل حال .

١ ــ **الصفة الاجتماعية للعادة الجمعية :** تتجاهل التسوية بين العادة الجمعية والعادة الفردية الصفة والجزاء الاجتماعيين للأولى ، وهذه من الخصائص التى لا تعتبر بأى معنى من المعانى جزءا من معنى العادة الفردية . ان العادات الفردية التى تتكون فى حالات العزلة مثل عادات الناسك فى صومعته والعادات الغريبة ان هى الا عادات فردية كغيرها من التى تتكون تحت تأثير المجتمع متمشية مع قواعد سلوكه سواء بسواء وبالعكس من ذلك لا تقوم العادة الجمعية الا كعلاقة اجتماعية ، فاذا كنت أذهب الى الكنيسة لأن هذا واجب ، ولأن الجماعة التى أنتسب اليها تفعل ذلك ، وأننى اذا تخلفت عن أداء هذا الواجب تعرضت الى عدم ترحيبها بذلك ، أو اذا كان ذهابى الى الكنيسة يمهد لى السبيل لانجاز بعض الأعمال النافعة أو يمكننى من بعض اتصالات اجتماعية ، ففى جميع هذه الحالات يكون سلوكى مطابقا لعادة جمعية . واذا كنت بعيدا عن مجتمعى أو عن زمرة أنتسب اليها وأحسست برغبة فى عدم الذهاب الى الكنيسة فيكون سلوكى السابق من المؤكد منبثقا من عادة جمعية حتى ولو أديته مقتنعا بأنه عادة فردية .

وللعادة الجمعية بالنسبة للفرد جزاء خارجى . انها أسلوب من سلوك الجماعة نفسها من حيث كونها جماعة . وكل عادة من هذا النوع تعمل بالتالى على الانسجام مع مثيلاتها مما يرعى المجتمع تنفيذه . انها جزء من

مركب يتألف من علاقات محددة تؤيدها الجماعة وتحميهـا . وكل فرد يساندها وان استخدم فى ذلك السبيل عادته الفردية لاحساسه بعضويته فى المجتمع . ونحن لا نستحسن اعطاء اسم العادة الجمعية للعادات الفردية المتصلة بالقدرة التكنولوجية التى نكتسبها أثناء تعلمنا صناعة أو مهنة . نعم اننا مدينون بمثل هذه القدرات كذلك الى تراثنا الاجتماعى ، ولكنها لا تحتاج الى جزاء اجتماعى ازاء مخالفتها لأنها وسائل موضوعية مباشرة للغايات التى نستهدفها . وعلى ذلك فمهـارة الجراح المهنية عادة فردية لا اجتماعية ، ولكن آداب اللياقة التى يتبعها فى مهنته عادة اجتماعية وان كان يحدث أحيانا أن تكون فردية كذلك .

وتتكشف لنا الصفة الخاصة للعادة الجمعية من طريق دراسة مجموعة كبيرة من العادات الجمعية التى لا يمكن أداؤها الا بطريقة جماعية . وعلى وجه التقريب جميع الاحتفالات والشعائر والحفلات العامة من أى نوع تدخل فى هذه المجموعة . وهى تستمد مدلولاتها من أن الناس يلتقون معا وباشتراكهم فى مناسبة تهم الجميع يستحث كل منهم الوعى الاجتماعى للآخر . وهنالك انفعالات كثيرة لابد لا رضائها من اجتماع عام واشتراك الآخرين ، ويسد هذه الحاجة مقدار كبير من العادات الجمعية مثل شعائر الدين والرقص والتقاء البعيدين والألعاب الاجتماعية ، الى آخره . ومثل هذه العادات الجمعية ليست بأى حال من الأحوال عادات فردية متشابهة وكثير منها فى الواقع يشتمل على وظائف متباينة للقائمين بها .

٢ ـ العلاقة العلية بين العادة الفـردية والعـادة الجمعية : اذا كانت العادتان الجمعية والفردية متميزة احداهما عن الأخرى فهما فى نفس الوقت مرتبطتان عليا فى الحياة الاجتماعية . واذ تنقش الجماعة عاداتها فى طبائع الصغار القابلة للتشكل ، تعمل على أن تكسبها الشكل الذى تريده وتوجه قواهم الكامنة كما تحد منها كيفما تشاء . وتظل القوة الكامنة التى لم يصل اليها التوجيه مبعثرة تحتـاج الى عون . وخوفا من أن تتقاذف

ان العملية الاطرادية التى وصفناها آنفا — أى دور العادات الجمعية فى تحديد الاتجاه العام للعادات الفردية ودور هذه فى تأييد الأولى وتعديلها أحيانا — هى جانب هام فى كل نظام اجتماعى . وعندما تتوغل فى الفصول القادمة من هذا الكتاب لاستكشاف خصائص التركيب الاجتماعى ينبغى ألا ننسى أن فهم العادتين الفردية والجمعية وما بينهما من علاقة متبادلة ، يعلمنا أن جميع الظواهر الاجتماعية تدلنا آخر الأمر على أن موضوعها فى وقت واحد هو آمال الأفراد واستعداداتهم ومواقفهم والعادات الجمعية والنظم السائدة وغير ذلك من أساليب حياة المجتمعات الانسانية .

الفرد فى مواجهة الآداب العامة

الجوانب المتعارضة للآداب العامة والفرد : للآداب العامة من وجهة نظر الفرد جانبان : أولا ، كما رأينا فى عملية غرس الأفكار والآراء وعملية التعود ، تعتبر الآداب العامة جزءا من طبيعته . وثانيا ، أنها تواجهه كمطالب ذات جزاءات اجتماعية ، ضاغطة عليه لتوجيه الميول التى ولد بها والتدخل فى رغباته الشخصية وتقديراته الخاصة . واذن فمن طبيعتها أن تبعث المقاومة وأن تخلق التنازع بينه وبين نفسه .

١ — **حدة المشكلة فى المجتمع الحديث :** يتضح التنازع بين رغبات الفرد وبين الآداب العامة أشد اتضاح فى المجتمعات المعقدة أكثر مما يبدو فى المجتمعات البسيطة وفى جميع المجتمعات يميل الطفل أثناء عملية غرس الأفكار فى رأسه خلال نموه ، بناء على حث المجتمع اياه ، الى أن يحاول الوصول الى تعليل عقلى للأفكار التى يتقبلها بلا تفكير ، وتظهر له قواعد الآداب العامة كما لو كانت أبدية ومقدسة ، لأنها جاءته ممن يكبرونه أو من الله . ولكن حينما يتصل الطفل أو اليافع بجماعات جديدة ويمر بظروف غير تلك التى نشأ فيها ، أو يدخل عالما لا تسرى فيه سلطة أسرته أو نظام مدرسته أو تقاليد جماعته المحلية فان مسألة ما سبق أن تقبله من

تعاليم تتعرض للتحقيق . ان وجود آداب عامة جديدة يثير مسائل تتعلق بالأساس الذى تقبل بناء عليه آدابه العامة القديمة . وقد يؤدى التنازع بين الآداب العامة القديمة والقواعد الجديدة الى زعزعة شعوره بخيرية آدابه القديمة ، كما أنه قد يحـدث اضطرابا فى الأمن النفسى للعـالم الاجتماعى الضيق الذى يعيش فيه الطفل [1] .

هذا التحدى وذلك النوع من الاضطراب أكثر حدوثا وأشد خطورة فى المجتمع الحديث المعقد . أما فى المجتمع البدائى فالمراهقة معناها بوجه عام التأهيل للأخذ بالأساليب القديمة للقبيلة . ان معناه فى المجتمع عكس ذلك ، ان معناه فى الغالب التأهيل للأخذ بالأساليب الجديدة ، التى كثيرا ما تكون غير مفهومة لدى الكبار ، والى حد ما تنطوى على تحرر ممـا غرس فى الأفكار منذ الصغر . وان ما يتبع ذلك من شكوك عامة وتنازع يمثل ظاهرة تختص بها الحياة الحديثة ويوجد بصورة مخففة كثيرا فى الحياة البدائية . وهذه الحالة تزداد حدة بما فى النظام الاجتماعى الحديث من تعقيد وما يغمره من قواعد سلوكية أكثر ما تكون تضاربا .

٢ ـ مشكلة الفرد بشأن اختيار قواعـد السلوك : يصطدم الفرد فى المجتمع الحديث بعدد منوع من قواعد السلوك تعرضه لضغط اجتماعى شديد كثيرا ما يكون مرهقا له . وهذه القواعد متضاربة فى الوقت الذى تسعى فيه لتحقيق التطابق فى المجتمع . والمشكلة التى يواجهها الفرد هى كيف يشق طريقه فى الحياة ، وهو مقيد بمقتضيات تقاليد أسرته ونظم العمل المختلفة والواجبات السياسـية والمستويات الجنسية والتعـاليم الدينية والاعتبارات الانسانية مثلا ، ثم أخيرا بضميره هو . وهذه الحالة التى فرضتها تعقيدات الحياة المعاصرة ومظاهر التضارب فيها ، قد شغلت

---

(١) لقد كشف بياجيه عن هذه العملية بطريقة تستحق الاعجاب فى :
J. Piaget, *The Moral Judgment of the Child* (New York, 1927). See also the analysis of G.H. Mead, *Mind, Self and Society* (Chicago, 1934), Part III.

انتباه المتخصصين فى فن العلاج النفسى والمحللين النفسيين فى السنوات الأخـيرة . وذلك لأن كثيرا من مشـاكل توافق الشخصية والأمراض العصبية وبعض الأمراض العقلية وأمراض جثمانية كثيرة كذلك ، كمـا يدلنا علم الطب النفسى أو بعبارة أدق طب الأمراض الجثمانية الراجعة لأسباب عاطفية ، لا يمكن فهمها دون اعتبار الخاصة الاجتماعية المميزة للعصر الذى نعيش فيه [1] . وهذه مشكلة سنعود اليها مرة أخرى .

ومع ذلك فان غالبيـة الأفراد فى المجتمع يتصرفون وفق القـواعد السلوكية . وبالرغم من أن كل فرد يشعر أحيانا بمقاومته فى داخل نفسه لبعض أحكام هذه القواعد الا أن معظمنـا يقبل جميع القـواعد معظم الوقت ، ويرى أن الآخرين يتمشون معها تماما فى جميع الأوقات . وحينما يواجه الفرد بضرورة اختيار قاعدة السلوك من بين عـدة قواعد ، فانه يختار قاعدة بمحض ارادته ، تتألف من عدة عناصر مختارة فى حـدود القانون والعادات الجمعية ، ومستجيبة فى نفس الوقت للمؤثرات التربوية وللبيئة الاجتماعية ولكنها مع كل ذلك معبرة عن مجموع شخصيته الخاصة .

وهناك أمور هامة تتدخل فى اختيار الفرد قواعد سلوكه ، فمن جهة تعتبر حرية الاختيار ، أو احساس الشخص البالغ بنفسه ، علامة جوهرية تميز ثقافتنا الحديثة . ان هذه العملية المتعددة المراحل تقتضى بالضرورة التهوين من شـأن الجزاءات الخارجية القاسـية كجزاءات دين يوحى الخشية والرهبة ، كما كان ينظر اليها فى مرحلة مبكرة فى المجتمع الغربى .

---

(١) See, for example, T. Burrow, *The Social Basis of Consciousness* (New York, 1927); K. Horney, *The Neurotic Personality of Our Time* (New York, 1937), especially Chap. XV, and *New Ways in Psychoanalysis* (New York, 1939), especially Chap. X; A. Kardiner, *The Psychological Frontiers of Society* (New York, 1945), Chap. XIV; and the articles by F. Alexander, T. Burrow, E. Mayo, P. Schilder, H.S. Sullivan, and E. Sapir in *The American Journal of Sociology* Vol XLII, No. 6 (1937). The problem is well stated by K. Mannheim in *Diagnosis of Our Time* (London, 1943), Chap. II and V.

ولا يمكن تطبيق هـذه العملية فى بيئات الأمم الاشتراكية حيث نجـد السلطة الحاكمة تسد جميع مسالك الاختيار الا طريقا واحدة . ومن جهة أخرى ان حرية الفرد فى أن يختار قواعد سلوكه الخاص يصح أن تمارس فى ظروف اجتماعية لا تيسر ضمان حصول الفرد على حاجاته المـادية ، ولا تهيىء له الا عددا قليلا ، أو لا شىء على الاطلاق من القيم الاجتماعية القوية اللازمة لتحقيق أمنـه النفسى . وهذا الوضـع ، كما يرى بعض الكتاب ، يطابق الى حد كبير الأوضاع التى قامت فى المجتمع الغربى أثناء المرحلة السابقة على الديكتاتوريات الأوربية الحديثة ، تلك الديكتاتوريات التى كان قيامها ينسب جزئيا الى شوق الفرد فى العصر الحديث ، وان كان هذا الشوق لا شعوريا ، الى « الهرب من الحرية » [1] . وعلى كل حال اذا كان للفرد أن يحتفظ بهذه العلامة الجليلة للنمو الثقافى ، وهى القدرة على اختيار قواعد سلوكه والرغبة فى تحقيق ذلك الهدف ، فان عليه فى نفس الوقت أن يعمل على أن يخلق وأن يصون النظام الاجتماعى الذى يحمى حرية الاختيار ويضمنها .

٣ ـ التقابل بين القواعد الاجتماعيـة والفـردية للسـلوك : تمثل **القواعـد الاجتماعية** مستويات معينة ، ولكنها ليست مثلا عليا للسلوك بمعنى الكلمة . وهى فى حقيقتها قواعد للحياة اليومية العاملة ، مستمدة جزئيا من التقاليد وجزئيا من ضرورات الحياة فى المجتمع . وكما سنرى فى فصل لا حق ، تكشف كذلك القواعد الاجتماعية للسلوك عن المصالح السائدة لأصحاب النفوذ فى جميع المجتمعات . وهذه القواعد ترجمة مجملة الى صيغ وتعابير للتجربة المحدودة وتفكير متوسط العقلية العامة للمجتمع .

ويقابل ذلك أن تعبر قواعد السـلوك الاختيـارية للفرد ، تعبـيرا يتناسب مع قوة خلقه ووضوح ذهنه ، عن مجموع تقييماته الخاصة بما يبدو عليها من صراحة وتميز . وهذه القواعد الفردية لا يمكن أن تضمن

(١) انظر : E. Fromm, *Escape from Freedom* (New York, 1941).

بقاءها بلا تأييد من القواعد الاجتماعية ، ولكنها تفوق هذه فى المـــادة والحيوية والتفاصيل . والواقع أن الينبوع الرئيسى لحيـــاة الفرد هو مجموعة التقييمات التى ينزلها من نفسه منزلة الاعزاز . ويحدث كثيرا فى داخل هذه التقييمات تنازع وتناقض يسببان فى الأحوال العادية توافقا مؤلما نوعا ما مع ما يعرض للفرد من تجارب جـــديدة . أما فى الأحـــوال العسيرة فقد يسببان تفككا فى الشخصية . وفى نفس الوقت يوجد أيضا بعض التنازع بين القواعد الفردية وبعض القواعد الاجتماعية الســـائدة للسلوك ، كثيرا ما يظهر أثره فى السلوك الجنسى أو الاقتصادى ، وفى كثير من المجتمعات يتصل بالسلوك الدينى للجماعة التى ينتسب اليهـــا الفـــرد .

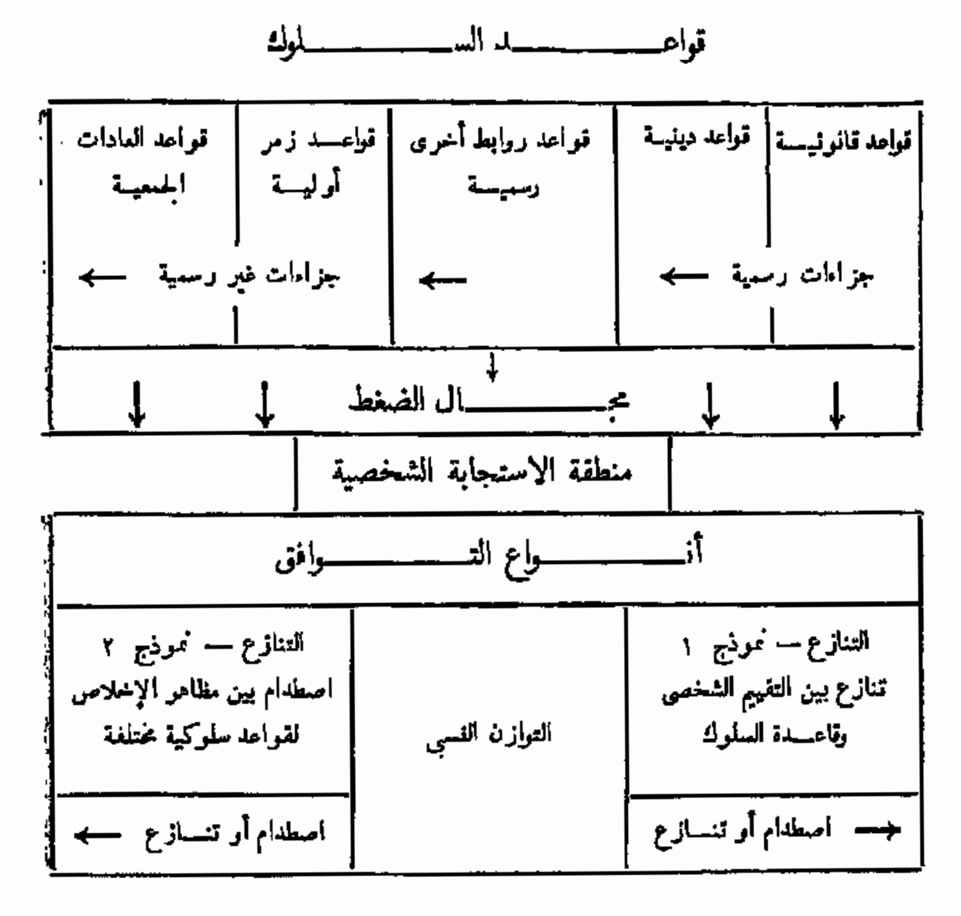
نوعان عامان من التنازع بين الفرد وقواعد السلوك : عرفنا الآن أن هناك نوعين من التنازع : (١) ذلك الذى تكون فيه المصلحة الشخصية والتقييم الشخصى متعارضان مع قواعد سلوكية سائدة . (٢) ذلك الذى يكون فيه الفرد مشـــدودا من جهتين متعارضتين وفقا لأحـــكام قواعد مختلفة ، أى عندما يمكن تطبيق قاعدتين أو أكثر فى موقف واحد . ويوجد النوعان معا أحيانا فى حياة الفرد . ومن الأمثلة المليئة بالمعانى عن النوع الأول ذلك المثال الذى ينكر فيه الضمير الفردى صواب القاعدة السلوكية أو صحتها كموقف المواطن الذى يستفظع الحرب من أمر استدعائه من قبل الدولة للتدريب العسكرى أو القتال [١] . ويتصل بهذا النوع من التنازع اتصالا وثيقا الحالة الآتية ، وهى مثال من النوع الثـــانى كانت حوادثه كثيرة الوقوع فى الماضى ولا يمكن القول بأنها لا تقـــع الآن .

---

(١) On the general subject, see R.M. MacIver, *Community* (New York, 1920), Book III, Chap. V. For various aspects of the problem, see K. Young, *Social Psychology* (New York, 1944), Chap. XV.

وذلك عندما تأمر تعاليم الدين الفرد بأن يسلك مسلكا يتعارض مع أحكام الدولة .

١ - **أمثلة من الدراما** : نظرا لأهمية هذين النوعين من التنازع فى ذاتهما ، ولما يترتب عليهما من آثار ، نجد أنهما أصبحا المادة الأولى للكتابة فى الموضوعات الأدبيــة ، وعلى الأخص فى القصص والتمثيليات . ومن أشهر التمثيليات التى تصور الاصطدام بين قاعدتين من قواعد السلوك الاجتماعى رواية **انتيجـون** لسوفوكليس حيث نجد البطلة مضطرة الى أن تختار بين تعاليم الدين فيما يتعلق بواجبها المقدس نحو أخيها المتوفى، وبين تنفيذ أوامر الملك . والدراما ، كالحياة نفسها ، كثيرا ما تجمع بين هذين النوعين من التنازع كما فى رواية **هملت** . ونلاحظ أن فى جمــلة انتاج الدراما منذ تمثيليات أورست الثلاث الى روايات المحــدثين مثل ابسن ، شو ، جالسوورثى ، أونيل ، أندرسون واودتس ، يدور الموضوع الرئيسى حول المأزق الحرج الذى يقع فيه « البطل » وهو مضطر للأخذ بقاعدة ســلوكية اجتماعيــة أو شخصية ، فى الوقت الذى تحوطه فيــه جزاءات من قاعــدة أخرى متعارضــة . وممــا يعتبر ذا قيمة عمليــة (سوسيولوجية) أنه عندما تنتصر الجزاءات الاجتماعية على « البطل » كما فى تمثيليات **اغا ممنون ، ماكبث ، هملت ، والامبراطـور جونز** تتحول الرواية الى تراجيديا . وفى الغالب ، كما هى الحال فى تمثيليات شكسبير عن فولستاف وبيرجنت وغيرها من التمثيليات التى تختتم فصولها بنهاية سعيدة نجد « البطــل » يتخلص ببراعة وينتصر على قواعد الســلوك الاجتماعية أو يصل الى حل وسط ، وتنتهى الرواية من الناحية الفنية الى أن تكون كوميديا . ويستهدف المؤلف الروائى الحصيف أن يقدر وأن يفيد الى أبعد حد من هذه القيمة الجليلة التى نعطيها بوجه عام الى ما يختار الفرد من قواعد سلوكية .



٢ – التنازع في الحياة المعــاصرة : أنظر الآن الى المشــاكل التى تواجهنا فى حياتنا اليومية . هل أمنح صوتى للمرشح الذى يبـــدو أكثر كفاية من غيره للتربع على كرسى النيابة ، أو أتبع حزب أسرتى أو حزبه صاحب العمل الذى أعمل عنده ، أو حزب أقرب أصدقائى ؟ هل أسعى لوظيفة فى محل تجارى أو مؤسسة من نوع المحال أو المؤســـسات التى يعمل فيها أهلى بطريقة تقليدية ، أو أبحث عن عمل يناسب طبيعتى ؟ هل أخضع للقواعـــد القانونية وأستخدم عمــالا على أســاس مؤهلاتهم واستعدادهم لأداء العمل ، أو هل أتمشى مع عادات الجماعة مفضلا توظيف البيض على الزنوج أو غير اليهود على اليهود ؟ وهل أتزوج الشخص الذى

أحبه وقد يكون يهوديا أو كاثوليكيا أو من أتباع أية ملة أخرى ، أو أتزوج الفتاة « اللطيفة » التى تتناسب مكانتها الاجتماعية مع ما تقره الجماعة التى أنتسب اليها ؟ (كذلك تتساءل الفتاة عن الرجل الذى يتقدم لطلب يدها) . هل أظل وفية لزوجى ، أو وفيا لزوجتى ، جنسيا ، أو هل أبحث عن علاقة أخرى لأشبع رغباتى الخاصة الحبيسة فى أعماق نفسى ؟ وهكذا .

هذه ضروب من التساؤل تواجه كلا منا عندما نفاضل فيما بين القواعد الاجتماعية للسلوك أو بين هذه القواعد وبين قواعدنا الفردية . ويبدو فى البيان التوضيحى ٦ مدى الضغط الذى يتعرض له الفرد ومدى توافقه مع جهات الضغط . ويمكن أن تأخذ مظاهر التوافق أشكالا كثيرة كما رأينا ، منها ما نشاهده فى الأفراد الذين تصفهم ثقافتنا بأنهم «عصبيون» أو « غير متوافقين » ، وهؤلاء بعض مظاهر محاولات التوافق الشخصى . ولو كان من الممكن أن نبين فى أسفل البيان التوضيحى المذكور جميع أنواع التوافق مع القواعد السلوكية لأظهرنا أقساما فرعية من الكثرة بحيث تتفق وعدد الشخصيات الفردية نفسها .

أشكال أخرى للتنازع بين الفرد والمجتمع : ليس من السهل دائما أن نفرق بين تنازع الفرد مع القواعد السلوكية وبين صراعه مع الظروف التى تعارض نشاطه أو تحد منه ثم تمنحه ما تسمح به ، اذ هو قد يعتبر هذه الظروف كما لو كانت مفروضة عليه من النظام الاجتماعى . ويصدق هذا بصفة خاصة على الصراع الاقتصادى من حيث ان ما يحاربه الفرد من حرمان وقيود فى هذا الميدان يتوقف الى حد ما على القوانين المنظمة للملكية والميراث وجمع الثروة وتوزيعها . ان الظروف السائدة فى المجتمع شديدة الارتباط بقواعدها السلوكية لدرجة أن هذه القواعد تتنازع فى عدة مناسبات مع رغبات الفرد وحوافزه ، وعلى الأخص مع أقوى الحوافز ، ونعنى بذلك ما يتصل منها بالملكية وبالغريزة الجنسية .

بطريقة واحدة ويسلكون سلوكا واحـــدا يقتضى أن تعطل فيهم ملـــكة التفكير . والتاريخ ملىء بحوادث كتب العقول صاحبة الاصالة والأقل انصياعا لتفكير الجماعة لتفوقهم عليها .

٢ ـ متى يكون التنـازع حتميا : فيما عدا الصعوبات التى ذكرناها توجد صعوبة أخرى تكمن فى طبيعة المجتمع بالذات . ففى كل موقف أو بيئة اجتماعية بما فى ذلك الدائرة الضيقة جدا المتعلقة بحياة الفرد الخاصة لا يحيا الانسان وحده ، بل مع الآخرين ، وكل من يوجد فى موقف معين عليه ألا يتوافق مع الآخرين فحسب ، بل أيضا مع هذا الموقف المشترك . واذن فبعض المطابقات فى السلوك مطلوبة منه كذلك . فاذا عرفنا أن هناك موقفا مشتركا وشخصا آخر أو أشخاصا آخرين ، وموقفا يقتضى قواعد سلوك متطابقة ، وفردا يحاول أن يهتدى الى نفسه — أدركنا أنه لابد أن تنشأ عن كل هذه الأمور مظاهر تنازع لا حصر لها .

وأعنف صور هذا التنازع هى ، من جهة ، ما تلجأ اليه السلطة من أساليب لا تشفق ولا ترحم للعصف بالفردية باسم السلامة الاجتماعية ، ومن جهة أخرى ، الخوف والتلهى والثورة وانعدام الاستقرار النفسى ، وهى ظواهر تعتبر فى نظر القانون صادرة عن أشخاص « شواذ » ، وهم فى أعين السلطة « ضد الحياة فى المجتمع » . وهذا الصراع بين التطابق مع المجموع وبين الفردية قد تستبين بوضوح تام فيما يبدو من احتجاج وتقد ذكى من « رجال الفكر » أو من أفراد « الطبقة المستنيرة » الذين يصفهم البعض بسبب تقدهم المتواصل بأنهم « غريبو الطبع » أو « مرضى بأعصابهم » [1] . والسلطة سواء انبثقت عن حزب سياسى دكتاتورى ، أو عن جمعية من الجمعيات صاحبة النفوذ ، فهى عندما ترغم الفنان مثلا على الخضوع لقواعد سلوكية معينة ، يفقد الأخير ، على التحقيق ، حالة

---

(١) Cf. A. Koestler. "The Intelligentsia", *The Yogi and the Commissar* (New York, 1945), pp. 61-76.

الغرض [1] . وقليل من الأفراد يخلقون مدنا فاضلة فى صياغة أدبية ، ولكن « العقلية الأوتوبية » القادرة على تخيل نظام اجتماعى آخر أفضل من النظم المعروفة ظاهرة شائعة . وأولئك الذين يملكون هـذه العقلية يسمون فى أغلب الأحيـان « الحالمون » ، ويطلق عليهم هذه التسـمية المدافعون عن الأوضاع الراهنة . على أن هؤلاء يحلمون أيضا اذا فاتهم أن يلاحظوا أن أحلام المدن الفاضلة وما يقدسون هم من قواعد سلوكية وسلطات انما تكون معـا جزءا هاما من الحقيقة الاجتماعية الواقعـة والدائمة التغير [2] .

وأفضل القواعد الاجتماعية للسـلوك ما تضمنت المسـتويات التى تتقبلها الجماعة بوجه عام . وهذه القواعد لا يمكن أن تسد مطالب كل موقف على حدة ، ولا أن تنظم تنظيما تاما موقف الفرد وسـلوكه ازاء مجتمعه . وهذه النقطة تنتهى بنا الى المسألة الأخيرة فى هذا المبحث ، وهى المصالحة بين شيئين كل منهما ضرورى للحياة ، الأول مجموعة القواعد الاجتماعية للسلوك والثانى رأى الفرد أو حكمه .

قواعد السلوك والحكم الفردى — مشكلة الحرية الخلقية :

القواعد الاجتماعية للسلوك والموقف (الظرف) الخاص : بقى أن تتساءل فى هذا القسم الأخـير من الفصل عن موضوع سـبق أن حير الفلاسفة وغيرهم عدة قرون . وهو موضوع الحرية الخلقية بالنسبة للفرد الذى هو عضو فى المجتمع . انها مسألة « فلسفية »، على التحقيق ، ولكن الاجابة عنها ، كما سنرى ، ترتكز على فهم سوسيولوجى كاف .

---

(١) L. Mjmford, *The Story of Utopias* (New York, 1922), Chap. I. In addition to this excellent analysis, see also J.O. Hertzler, *The History of Utopian Thought* (New York, 1926), especially Part Two.

(٢) For an analysis of the utopian mentality, various in its forms, and its social functions, see K. Mannheim, *Ideology and Utopia* (New York, 1936), Part IV.

١ - **حدود القواعد السلوكية** : تحـدث واحـد من أهل العـلم القدماء ذات مرة عن القانون والعدالة كشيئين متضادين ووصف الأول بأنه يشبه قضيبا صلبـا لا يستطيع أن يقيس الا السطوح المسـتوية ، ووصف الثانية بأنها مسـطرة مرنة يمكن أن تلتـوى لتقيس الأركان والكرانيش فى المبانى القائمة فعـلا [1] . ويمكن أن نحتذى مثل هـذا التمييز بين المعايير الاجتماعية والعوامل الموجهة لسـلوك الفرد فى كل موقف أو ظرف واقعى . ان المعايير الاجتماعية لا تستطيع أن تلم فى كل موقف بجميع ملابساته الموجهة للسلوك . انها لا تنزل من عليائها وتتجاوز الكليات لتعطينا تفصيلا عن خط السـير الملائم لكل ظرف خاص . وفى هذا النسيج الذى يتألف من أحداث الحياة ويتنوع الى غير حد لا نجد مناسبتين متشابهتين من كل وجه . ان هذه المعايير الاجتماعية مبـادىء لتحديد السلوك تعمـل فى داخل منطقته الواسعة . ولا يسـتطيع أرق الأفراد وأكثرهم وداعة أن ينظم حياته بهذه المعايير وحدها . فهى ليست كمعلمى المدارس الذين يخصصون لكل وقت عمله . وهى من النادر أن تقول مثلا : أفعل هذا ، هنا ، والآن — وحتى اذا ذهبت الى هذا الحد كما يفعل القانون السياسى الى درجة ما ، فان المقصود فى هذه الحالة ألا يتجاوز الأمر المظهر الخارجى للسلوك .

ولنتأمل عددا من المواقف المختلفة . ان قواعدنا الخلقية تأمرنا بصدق القـول ، ولكن من الحماقة أن نفهم من هذا أنه بمقتضى هـذه القواعد ينبغى أن تقول كل الحق فى كل شىء لكل انسان فى كل مناسبة . فهل يجب مثلا أن أقول الحق لرجل مجنون يسألنى عن صديق لى لكى يقتله ؟ وهل يجب على الطبيب أن يقول الحق لأحد مرضى الأعصاب وبذلك يجعل حالته تزداد سوءا ؟ وتقول القواعد الخلقية أيضا بوجوب أن يكون المرء عادلا فى معاملاته مع الغير ، ولكن من من الناس من غير المتعاملين معا

(١) Aristotle, Ethics, 1137c.

يمكنه أن يقرر حقيقة العدل أو معناه ساعة التعامل ؟ ومن يستطيع أن يقرر أى قواعد السلوك المختلفــة وأى أوامرها المتعددة أكثرها ملاءمة لموقف معين ؟ ويتحتم فى التحليل الأخير أن يتخذ القرار الفرد الموجود داخــل الموقف ، وهو الذى عليه أن يفسر بطريقــة ما الموقف والقواعد السلوكية معا .

٢ ـ كيف تطبق القواعد السلوكية على الموقف او الظرف الخاص :
هناك طريقتان مرتبطة احداهما بالأخرى كل الارتباط تؤثر بهما القواعد الاجتماعية على الســلوك الانسانى ، وبالتــالى على الموقف أو الظرف الخاص نفسه . وكلتا الطريقتين ذات أهمية كبيرة فى الحياة الاجتماعية ، غير أنه لا تسعفنا أى منهما بتفسير العلاقة بين قواعد السلوك وبين العمل أو السلوك نفســه .

أولا ـ غرس الأفكار والمعتقدات : تكون قواعــد السلوك أســاس العادات الفردية وذلك من طريق غرس الأفكار والمعتقدات . وفى أثنــاء عمليات التربية تترجم قواعد السلوك للصغار دائما فى صورة أوامر . فينشأ هؤلاء بالتدريج ناظرين الى أى موقف أو ظرف خاص يمرون به نظرة العارف لنوع السلوك ينبغى اقتفاؤه للتغلب على الموقف . فاذا تكرر الموقف وتكررت معالجته بنفس الكيفية نشأت عادة فردية توافق هذه المناسبة . والشباب الذين يمرنون على الذهاب الى الكنيسة مثلا صباح الأحد من كل أسبوع مع ما يصاحب ذلك من تغيير فى نظام البيت فى هذا اليوم ، وتوقف للعمل اليومى ، وخلع الملابس العادية وقرع الأجراس فى الكنائس الى آخره ، يتكون لديهــم من وراء ذلك كله حافز شــامل يستحثهم على الذهاب للكنيسة من طريق تكوين عادات فردية على هذا الأساس . وهكذا بتداخل المواقف بعضها فى بعض تدخل عملية غرس الأفكار ، وبهذه الطريقة تتجــه عادات الفرد نحو المطابقة مع أســاليب الجماعة .

ما يعبر عن موقف جماعى ازاء من ليسوا منها ، حينما يجرى الشعار على هذا النحو — « يقولون . ماذا يقولون ؟ دعهم يقولوا » : ولكن لا أحد فى الواقع يمكن أن يظل غير مكترث ، أو غير متأثر بآراء جيرانه ، وكما رأينـا تقوم الجزاءات الرئيسـية لقواعد العادات الجمعية والعـادات المستحدثة على ضغط الرأى العام ، بينما أن هذا الضغط نفسـه يؤلف جزاء اضافيا لقواعد أخرى مثل قواعد الدين والقانون . وان احساسنا الدائم بما عسى أن يقـول الناس فينا ، يعبر عن نفسه من جهـة برضائنا الايجابى عن مطابقـة سلوكنا لسـلوك الآخرين ؛ ومن جهـة أخرى بكراهيتنا لكل ما يترتب على عدم المطابقة سـواء بطريق مباشر أو غير مباشر . وهو يؤيد قواعد السلوك العامة ويساعد على استمرارها ضد كثير من مظاهر الاغراء بالثورة الفردية عليهـا . ومن دلائل قوة الرأى العام أننا لا نكون فى موقف سهل اذا عجزنا عن عمل ما يتوقع أقراننا أن نعمله . وهذا الحرج الذى نستشعره بسبب مخالفتنا لاتجاهات الجماعة يوعز فى الحال بدلالة أخلاقية .

٣ — الموقف أو الظرف الخاص ومسألة مقاييس السلوك : توجهنـا كل من عملية غرس الأفكار والمعتقدات واتجاه الرأى العام أن نختار فى كل موقف أو ظرف ملموس هذه النواحى المشتركة أو العامة التى تحظى بقيمة خاصة عند الجماعة ثم نسير بمقتضاها ونجعلها خطة سلوكنا . ومع ذلك فان تعقد الموقف الخاص لا يمكن أن نغفله ولا أن نجعل حل هذا الموقف مشروطا بما تتوقع أن تقدمه لنا الجماعة من قواعد عامة مشتركة لأن هذه القواعد تقرر سلوكا موحدا . وهناك فوق ذلك مواقف كثيرة الحدوث تتدخل فيها تعاليم كثيرة وقواعد سلوكية متعددة تفرض نفسها فرضا . فكيف مثلا تحل قواعد السلوك مشكلة الشاب الذى عليه أن يختار بين عدم الاخلاص فى أداء صلاة لا يؤمن بالعقيدة الدافعة لهـا ، وبين التسبب فى حزن عميق لوالده العاجز ، أو مشكلة الفتاة التى عليها أن تختار بين حبيبها ودينها ، أو الكاتب الذى عليه أن يضحى بمثله العليا

الأدبية ليضمن حياة رغدة ، أو صاحب العمل الذى يجب أن يختار أحد أمرين : اما اعلان افلاسه واما الأخذ بأساليب جديدة فى المنافسة التجارية لا يرضى بها ، أو العامل الذى طلب منه أن يشترك فى اضراب يعتقد أن هناك ما يسوغه ، لكنه قد يعرض أسرته بذلك للفاقة والعوز ؟ هذه أمثلة قليلة واضحة عن مشاكل السلوك وهى تقوم دائما فى أشكال أكثر تعقيدا مما صورنا فى الحياة اليومية .

ومن الجلى أن كلا من هذه الأمثلة يشتمل على مشكلة خلقية للفرد ، هى بالنسبة له تفوق أحكام قواعد السلوك الجمعية ذات النمط الواحد . وعلى ذلك فعندما يزعم البعض أنه « للأغراض العملية يمكن أن يقال ان مقاييس السلوك معناها العادات الجمعية » [١] ، فإن هذا يكون تبسيطا للمشكلة زائدا عن اللازم . ويمكن للأخلاقيات بالطبع أن تستمد جذورها من العلاقات الاجتماعية تاريخيا بالنسبة للجماعة ، وسيكولوجيا بالنسبة للفرد . ولكن تطور البحث فى المسائل الخلقية ، على الأخص فى المجتمع المعقد وما به من قواعد سلوكية وفيرة العـدد ومتضاربة فيما بينهـا ، يستلزم من كل فرد أن يشارك فيه بحكمه وأن يتخذ فيه قرارا . وبهـذا المعنى تقوم الحرية الخلقية للفرد كاحدى وقائع الحياة الاجتماعية [٢] .

عدم كفاية قواعد السلوك وضرورتها فى الحياة الاجتماعية : عرفنـا أن لمسألة الحرية الخلقية جوانب سوسيولوجية هامـة . وفى الواقع ان مدلولها الحقيقى لا يمكن فهمه الا اذا أدركنا أن القـواعد الاجتماعية للسلوك جوهرية جدا ، وفى نفس الوقت غير كافية لتوجيه حياة الأفراد .

---

(١) Dewey, op. cit., Part One, V. See also Part Four, IV.

(٢) For A pertinent discussion of this problem in somewhat different language but with a similar conclusion, see P.W. Bridgman, "Freedom and the Individual," in *Freedom, Its Meaning* (R. N. Anshen, ed., New York, 1940), pp. 525-537.

٢ - **ضرورة القواعد الجمعية للسلوك** : واذا كنا ننكر كفاية القواعد الجمعية للسلوك ففيم اذن اصرارنا على القول بأنها ضرورية ؟ نحن نرى أن الفرد بدونها يصبح مشتتا وبائسا . تشربها منذ الصغر خلال عملية غرس الأفكار والمعتقدات وتكون العادات الفردية ، كما أطبقت عليه من بيئته الاجتماعية ، وأصبحت بذلك قادرة على أن توجه الحكم الفردى فى نطاق الاجراءات الميسورة عمليا . وبدون هذه القواعد يكون عبء الوصول الى قرار أمرا لا يحتمل ، ويتخبط الفرد فى سلوكه ويدخل مع الضالين . ولن يكون ليله أهون من نهاره ، فستلاحقه الأحلام المزعجة فى منامه . إن القواعدالجمعية للسلوك تيسر للانسان أساسا قويا يمكنه من أن يقيم علاقات مع أخيه الانسان . انها تكشف له عن وجوه الشبه بينه وبين أقرانه ومظاهر الوحدة التى تربطه بهم وتربطهم به . وكذلك تمنحه عضوية المجتمع ، وتدعوه للمشاركة فى وصل ماضى البشرية بمستقبلها ، وأخيرا ترشده الى النصيب الذى ينبغى أن يسهم به فى حياة المجتمع الانسانى .

المشكلة الأخيرة : التوفيق أو المصالحة بين القاعدة الجمعية للسلوك والحكم الفردى : ناقشنا فى فصول سابقة بعض الأضداد المنطقية مثل الفرد ضد المجتمع ، والتنازع ضد التعاون ، والوراثة ضد البيئة ، ولاحظنا أن جميع هذه الأضداد لا تتعارض تعارضا أساسيا فى الحياة الاجتماعية نفسها . ولدينا هنا حالة مماثلة ، تتلخص فى : الى أى حد وبأية كيفية اذن يمكن التوفيق بين ضرورة القاعدة الجمعية للسلوك والضرورة المقابلة لها وهى حكم الفرد ؟

من المؤكد أن فى استطاعتنا الوصول الى مصالحة جزئية تتناسب من حيث درجة كفايتها مع شخصية الفرد وطبيعة النظام الاجتماعى . لقد رأينا فى الفصل الثالث أن الفردية لا تستطيع أن تنمو بعيدة عن المجتمع وأن المجتمع يحمد اذا أطاح بالفردية . ولنذكر أن الفرد من خلال مصالحه

المحكمة ، وربما كانت لا تدرى أنها تغرس فى نفوس أتباعها ما ستتبين آخر الأمر أنه أضعف الوفاء للجماعة لا أقواه [1] .

وفى الواقع لا يوجد انسان يمكن أن يكون حيوانا آليا ، يعكس فى سلوكه أحكام قواعد مجتمعه ولا شىء غير ذلك . وقد كان الرجل البدائى يصور هكذا فيما مضى بأقلام كتاب كثيرين حتى أثبتت الأنثروبولوجيا الاجتماعية (علم الاجتماع المقارن) بطلان « الزعم بأن فى المجتمعات البدائية ، يعيش الفرد خاضعا تماما لسيطرة الجماعة أو الزمرة ممثلة فى تجمعات متنقلة أو عشائر أو قبائل — وأنه يطيع أوامر الجماعة التى ينتسب اليها وتقاليدها ورأيها العام وأحكامها طاعة عمياء مقترنة بالاستسلام » [2] . والذى يجدر بنا أن نلاحظه أن روح الطاعة العمياء التى نجد أمثلة تقرب منها فى كل المجتمعات المتحضرة والبدائية على السواء ، وعلى الأخص فى مسائل المعتقدات هى أبسط وليست أرقى مظاهر التعبير عن العقلية الاجتماعية . فلكى يكون المرء اجتماعيا بكامل المعانى ينبغى أن يكون مسئولا اجتماعيا ، وأن ينقل الموقف الاجتماعى اذ يؤثر فيه ويتأثر به ، مركز وعيه ، وأن يتصرف على هذا الأساس .
ومع ذلك فهذا بيان عن المثل الأعلى نجده فى الواقع بدرجات مختلفة من الكمال والنقصان فى الحياة الواقعية .

بهذا الفصل ينتهى الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد أوضحنا فيه كيف تتأثر العلاقات بين الناس بالنمط الذى عليه الآداب العامة ، وبالقواعد الاجتماعية للسلوك ثم بالجزاءات . وقد ميزنا بين الأنواع الكبرى لقواعد السلوك والجزاءات ، كما ناقشنا مدلولهما الوظيفى

(١) For a scathing evaluation of the ruling regime of Soviet Russia in the form of a fable, which incorporates the point made above, see G. Orwell, *Animal Farm* (New York), 1946).

(٢) Cf. B. Malinowski, *Crime and Custom in Savage Society* (New York, 1926).

بوجه عام من حيث صلته بالحياة الاجتماعية . كذلك تناولنـــا العمليات الاطرادية المختلفة التى تستهدف جعل الفرد جزءا من تركيب يتألف من علاقات اجتماعيـــة . وفى نفس الوقت ، رأينا ، مرة ثانية ، أن الحيـــاة الاجتماعية لا يمكن أن تفهم تماما الا اذا أدخلنا فى الاعتبار دور الفرد فيها — مواقفه وأحكامه وتصميماته . ويبقى أمامنا الآن العمل الأكبر المتعلق ببحث الأشكال الرئيسية للتركيبات الاجتماعية التى ولدنا ونشأنا فى بعضها لنمارس العمل ونتعم بالمرح والأجر الحسن والمعرفة المتبادلة تارة ، وللصراع والعقاب تارة أخرى ...
